

القول المردد

أو

التذر المنظوم

من فيوضات وارث القطب المكموم

سيد أحمد التتائي

تصنيف

السيد محمد بن المختار بن عبد الرحمن أفندي

الشيخ طي التتائي

الطبعة الأولى ١٩٩٩ م

مجمع مصاحبه

الفقيه الحسن بن عبد القادر بن إدريس الجفائي

المؤيد للشيخ العباسي

الطبعة الثانية ١٩٩٩ م

مجمع مصاحبه

أحمد فريد التتائي



BOOKS - PUBLISHER

كتاب - ناشر و ناشر

الولاء والكرامات

أو

التدبر المنظوم

من فيوضات وارث القطب المكوم

سيد أحمد التجاني

تصنيف

الشيخ محمد بن المختار بن عبد الرحمن أفانج

الشيخ طي التجاني

الطبعة الأولى ١٣١٩ هـ

مجمع دولي

الشيخ الحسن بن عبد القادر بن إدريس الجفالي

الطبعة الأولى ١٣٣١ هـ

الطبعة الأولى ١٣٣١ هـ

مكتبة

أحمد فريد المزيدي



BOOKS - PUBLISHER

كتاب - ناشر

AL-SHAHID
KUN AS-SUNNA AL-SHAHID KUN SHAYKH
SHAYKH AL-SUNNA AL-SHAHID
SHAYKH AHMAD AT-TILAKI

الوارثات
أو الفن النظم من فروعها وأثره في الطب النظم
سیدی احمد النجاشی

Author : Mohammed ben Al-Mukhtar Al-Shanqiti (1170 H) المؤلف محمد بن المختار الشنقيطي النجاشي
narrated by: Alfaki al-Hasan Al-Jawdalabi برواية الفكي الحسن الجودلاني

Editor : Al-Sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi المحقق : الشيخ أحمد فرید المزیدی

Classification : Sufism التصنيف : تصوف

Year : 1434 H. - 2013 A.D. سنة الطباعة : 1434 هـ - 2013 م

Pages: 304 عدد الصفحات : 304

Size : 17 x 24 cm القياس : 17 x 24 cm

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان

Edition : First edition الطبعة : الأولى

ISBN : 978-2-7451-7704-9

All Rights Reserved



BOOKS - PUBLISHER

كتاب - ناشرین بیروت

Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Houf Street,
Katerji Building, First Floor, Beirut-Lebanon
Tel : +961 76 944 855 P.O.Box 11- 374 Riyad Al-Solah
E-mail: books.publisher@hotmail.com

Exclusive rights by © BOOKS - PUBLISHER
Beirut-Lebanon. No part of this publication may be
translated, reproduced, distributed in any form or by any
means, or stored in a data base or retrieval system, without
the prior written permission of the publisher.

Tous droits réservés réservés à © BOOKS - PUBLISHER
Beirut-Lebanon. Toute réimpression, édition, traduction ou reproduction
même partielle ou tous procédés, en tout pays, sans autorisation
préalable écrite par l'éditeur est interdite et expose le contrefacteur à
des poursuites judiciaires.

جميع الحقوق محفوظة للأدبية والفنية محفوظة لـ © ناشرين
بيروت-لبنان. ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنسيق الكتاب
كاملًا أو جزئيًا أو تعديله على أي شكل أو طريقة أو بأي وسيلة
أو بوسيلة على أي أساليب أو أساليب أو أي أساليب أو أي أساليب.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل العلم وجعله السبيل له وخص البعض بالمعرفة وسارارهم
قهم للسر محل. والحمد لله الذي أرشد من أراد به خيراً إلى سلوك سبيل الهدى،
وملأ قلبه بنور التوفيق ولم يجعله مقابلاً ولا معانداً، وهياً له أسباب الوصول إليه،
وأعظمها أن جعله معتقداً ونشر ذكره في الآفاق فأحبه كل ولي لله خفي كان أو بدا.
وصلى الله على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق
بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم. ثم
الصلوة والسلام الأتمان الأكملان على الحبيب المحبوب سيدنا وسندنا وعمدتنا في
الوصول إلى الله الذي هو الغاية والمطلوب مولانا محمد بن عبد الله ذي الفضل
الكامل والخير الموهوب ﷺ وعلى آله وأصحابه وكل من والاه ما تلا نال: ﴿ذَلِكَ
وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] أما بعد .. فيقول العبد
الضعيف الفقير الفاني غويدم أهل الله جملةً وتفصيلاً ومحبههم ومنهم سيدي أبي
العباس أحمد التجاني - تواب نعالهم أحمد بن فريد المزيدي - تولاها الله وكان له
بما كان به لأخص أوليائه، وأتحفه بما أتحف به أكابر أصفياؤه، إنه على ما يشاء
قدير وبالإجابة جدير ... آمين.

فهذا كتاب «الدر المنظوم» المعروف بـ «الواردات» وموضوعه معارف وعلوم
وأسرار وحقائق أنوار الغوث الفرد سيدي أحمد التجاني، التي قام بإيرادها السيد
الشنقيطي محمد بن السيد المختار الشريف الحسني التجاني.
ثم رواء وجمعه عنه سيدي العارف بالله الفكي الحسن بن عبد القادر بن إدريس
الجعلي الجودلاوي العباسي التجاني.
فجاء الكتاب باكورة حاوية وكوكبة نادرة كمشكاة في حلة فاخرة، لما لا يخفى
عليها أنها للعقول باهرة، وللقلوب أسرة.

ومن حيث أمر الشيخ التجاني وأنا في زيارته وحضرته بزاويته المباركة بـ«فاس» بتحقيق كتب الطريق المباركة وقد شرفني بذلك أكرم تشریف، وكان منها الخاص المختص مثل: «حلّ الأقفال لقراء جوهرة الكمال» لسيد محمد فتحا بن محمد كتون، و«نصرة الشرفا في الرد على أهل الجفا» لسيد محمد بن المشري الساتحي، و«أزهار الرياض في فبوض الشيخ التجاني ذي المدد الفياض» لسيد الحاج الحسين الإفراني. وغير ذلك من كتب الشيخ التي هي في ذاتها تربية وفتح للعارفين والمريدين.

فتمت بالتحقيق والضبط والتصحيح، والعزو والتخريج، وبعض التعليق. واعتمدت النسخة المطبوعة قديماً عن السيد القطب محمد السيد محمد الحافظ التجاني - قدس سره - ووضعت ما كان من إضافة توضيحية للنص من قبل هذه النسخة في هامش النص، تبعاً لما عليه منهجية التحقيق المتبعة حديثاً، وميزته هكذا [] .

هذا .. وقد قمت بتصويب الكثير من الألفاظ التي كانت واضحة الخطأ والاضطراب، وقد بذلت الجهد الواسع في كثير من المواضع لدى النص حتى قاربت الصواب، وهذا توفيق وعناية القانع الوهاب.

ولا يسعني إلا التقدم بالشكر الخالص للزاوية التجانية في مصر والسودان وأبناء الشيخ وجميع السادة التجانية مشايخ ومريدين.

علماً أيها الأحباب أننا نعتقد أن الكتب المصنفة في الشيخ والطريق التجاني لا يقرؤها ولا يخرجها أحد إلا بإذن من غوث الزمان - قدس سره - ويأمر بالعمل بها، وظهورها مبشرات بقرب ظهور سيدنا المهدي (عج) وسيجعلها منهاجاً في العقيدة والعبادة والتربية.

هذا وقد قصدت به نفع نفسي وإخواني في الله بإذن الكريم المنان، ليتنفع به من سبقت له سابقة الفضل من حضرة الملك الدّيان الذي كل يوم هو في شأن، فنسأل الله أن ينفعني بالامتنال والتشبه بالسادات الرجال الباذلين جهدهم في نصيح أمة سيد الإرسال (ص) عملاً بالحديث الشائع والبرهان القاطع والنور الساطع، وهو قول أفضل شافع - صلى الله عليه وآله وسلم - ما سجد لله قلب خاشع: «الدين

«النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «الله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١) يعني أن مدار الدين على النصيحة، وهي أعظم أركانه على حد قوله ﷺ: «الحج عرفة»^(٢) والنصيحة كلمة جامعة لخيري الدنيا والآخرة.

فاللهم اقبل هذا العمل منا بجاه سيد السادات - صلى الله عليه وآله وسلم - ما تلا نال: «وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» [غافر: ٤٢] ... آمين.

وكان الفراغ من تحقيقه في ليلة الاثنين من شهر محرم الموافق ٢٥ لسنة ١٤٣٤ هـ.

وما هو إلا جهد المقل، ومحاولة الاقتراب من دخول الباب، وحصول بركة الاعتاب، وطمعاً في ورثة أولي الألباب.

وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ هادي العباد، ولباب اللباب، وموصل الألباب لحضرة القدوس الوهاب.

وكتبه: أبو الحسن والحسين وحمزة/ أحمد فريد المزيري - القاهرة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه حديث رقم: ٨٥.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه حديث رقم: ١٦٦٧، والترمذي في جامعه حديث رقم: ٨١٣.

ترجمة الشيخ المصنف القطب الوارث سيدي محمد بن المختار التجاني الشنقيطي

هو سيدنا العارف بالله القطب المحدث الفقيه المؤرخ الإمام:
السيد محمد بن المختار بن عبد الرحمن أفلح الشنقيطي (و«شنقيط» بالمغرب
الأقصى - موريشيا) ولد لله في مدينة «تشت» وتربى بها وقرأ فيها.
وحفظ القرآن قبل البلوغ بكثير، ثم قرأ ما يسهه الله له من العلم وهو شريف أبا
وأما حسني النسبة ووالدته تسمى فاطمة العالية أي: الشريفة وتربى أبوه وأمه على
سيدي المختار الكنتي وكانت أمه عالمة فقهية أخذ عنها الحديث والعلم وكانا من
أولياء الله ﷻ وبشر والدته بعض الأولياء وهي حامل به إن في بطنك غلاما هو أعلى
مقاما منك، ومن والده قال ﷻ وكنت أتعجب غاية العجب حتى أخذت طريقة
الشيخ وأخذ عن نحو من أربعين شيخا ممن أخذ عن الشيخ ولكن أكثر انتمائه إلى
سيدي محمد السقاف ﷻ.

وقد انتفع ﷻ بحاله وقد تتلمذ له سيويه زمانه الشيخ سعد الدين الفلاتي
صاحب سيدي الشيخ محمد بلو مع كشفه وعلمه وولايته وكان قد عزم على السفر
من المدينة المنورة فلما رآه وشاهد أنواره أخرج مناه من المركب وصحب سيدنا
سنة كاملة، واجتمع سيدنا بصاحب منية المريد سيدي التجاني بن باب الشنقيطي
وحبيه في الله سيدي المختار بن تكرر عليهما الرضوان وأقاموا سنة بجوار رسول
الله ﷺ حتى ماتا فدفنهما وأجازهما في الطريق الشيخ صالح بن أحمد المدني بالمدينة
سنة ١٢٦٢ هـ بالإجازة الكاملة وساح كثيرا في البلاد تارة بالتجارة وتارة بغيرها
وكان يسافر بأهله وحاشيته ومعهم الخيام العظيمة الفاخرة ينزلون حيث شاء الله
فيدعو الناس إلى كرمه ويعلمهم العلم ويعطيهم الطريق وكان من براه لا يظنه إلا
ملكاً عظيماً والله ما فيه هو غير من ملك الأرض كلها وكانت له خيمة كبيرة

خاصة بكتبه ﷺ وقام بالسفارة بين سلطان دارفور وبين الباب العالي بالأستانة ولقي سعيد باشا الخديوي بمصر كما ذكر ولده القاضي سيدي السيد إبراهيم رحمه الله تعالى وأعطاه طريقة شيخنا ﷺ وكذلك عائلة خشبة المعروفة بأسويط وكثيرا من أعيان القطر المصري إذ عاينوا من كراماته ما يبههم وأباح له سعيد باشا أن يأخذ من مكتبته ما شاء من الكتب ففعل، فكان لديه مكتبة عظيمة يضرب بها المثل وجعل لها بيتا خاصا وأتقن نحوًا من ثلاثين لغة، وأما اللغات التي كان يخالط أهلها في الكلام فكثير وكانت الطيور والوحوش تألفه ولا تنفر منه كما حكى من شاهد ذلك معه في السياحة وكان كثير البكاء والتضرع والابتهال تكاد تذهب روحه من خوف الله تعالى لا يستطيع أن يملأ جوفه من طعام ولا يستطيع أن يلبث ساعة من غير ذكر وفكر وكانت تتجلى له الحكمة الإلهية في الكائنات.

وقد حكى ﷺ أنه كان إذا مرّ بشجرة يلهم منافعها بمجرد وقوع بصره عليها وكان واسع الثراء غمر الثامن برفده وأغرقهم في بحار كرمه لا يبالي بدم الناس ولا مدحهم وكان يفر من الدنيا وهي تتبعه وخرج من جميع ما يملك مرازا وتجرد منها وهي تعود إليه. مرة منها بدارفور مر على القبور فرأى حالة أهلها ورأى قومًا يعزفون ويرقصون قريبًا منهم فتولاه حال شديد ففرق ماله بأجمعه وأعتق الرقيق كله وخير نساءه ووقع على الأرض منجدًا لأسعفين صباخًا.

ومرة أخرى بدارفور أيضًا ومرة بمكة طلق الدنيا وليس جبة مرقعة وصار يسقي الماء على كتفه لا يأخذ من أحد شيئًا، ثم رحل إلى سواكن وتوطن فيها مدة وكان يغلب عليه الحال ثم سافر إلى بربر وتوطن بها مدة وظهر فضله وتوالت كراماته وكان بعكس مشايخ الزمان فإنه كان هو الذي يتولى الإهداء لتلاميذه وكان هو الذي يتولى خدمة نفسه وضيافته بنفسه وشوهدت البركة في طعامه. ومات له في حياته أكثر من ستين ما بين ذكر وأنثى وتزوج ما ينيف على الثلاثين، وأما السراري فشيء كثير وترك عشرة أولاد وأربع بنات وكان يصلي التراويح اثنتي عشرة ركعة ويستدل بحديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها وكان يكره الأجر على القربات.

وحكى ﷺ قال مدة إقامتي بمصر كان الشيخ الباجوري يحبني كثيرًا ويناديني أقرأ له في سرية الجيش، لأنه كان مشغوفًا بها حبًا وكان يقول لي مداعبًا: يا شنقوطي،

٨ مقدمة المحقق / ترجمة المصنف سيدي محمد بن المختار التجاني الشنقيطي

فسأته لأي شيء تقول لي: يا شنقوطي؟ فيقول لي: أنا أرفعك لا أخفضك.

وكان عليه السلام مثال التمسك بالكتاب والسنة ومكارم الأخلاق بلغ الذروة في الشجاعة والكرم والعفة والعدالة ولئن زهد غيره ولم يملك ما يزهد فيه فلقد زهد عليه السلام وقد ملك وتخرج على يديه من أعيان العلماء والأولياء جمع كثير.

وقد أفرد الكثير منهم بتراجم مخصوصة وقد أفردت ترجمة سيدي ابن المختار في مؤلف خاص وبه بعض كراماته العجيبة جمع الفقيه الحسن تلميذه جامع «الواردات» - رحمه الله - وكذلك ترجم له الشيخ يوسف عوض السيد التجاني إمام مسجد شندي العتيق - رحمه الله تعالى وقد عمر - رضوان الله عليه - وقد اكتفينا بشهرة كراماته عن ذكرها وليرجع من أرادها إلى كتابي تلميذه.

وقد ألف ديوان مدح عربي، وآخر بلسان أهل السودان وقد طبع، وألف مولد إنسان الكمال عليه السلام وهو مشهور وله كتاب «الواردات» وهو هذا الكتاب المبارك. وبقي من أولاده مباشرة في قيد الحياة مولانا السيد علي.

وأما أحفاده فكثيرون وله الحمد، وقد قام بالدعوة إلى الطريق مولانا السيد محمد ابن السيد محمد بن سيدي محمد المختار، وكذلك شقيقه السيد البشير - يارك الله في نسل سيدنا وذويه... آمين.

وأقام عليه السلام بجزيرته قرب القوز التابعة لشندي بالسودان وتوفي بها ظهر الأحد (١٧) شوال سنة (١٢٩٩) بعد أن أمر بالقبر أن يحفر والكفن أن يخاط وهو حي والعارفون من أصحابه يرون أن سبب موته شدة المحبة وكان لا يفتر من موالاة المديح ليلاً ونهاراً.

ودفن الشيخ - قدس سره - شرقي النيل كما أمر عليه السلام ولا يزال بيته فيه الخير والولاية إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى ونفعنا الله به... آمين.

ترجمة الشيخ الراوي جامع الواردات،

هو سيدي العلامة الفكي الحسن بن عبد القادر بن إدريس الجعلي الجودلاي العباسي.

ولد ببلدة الكمبر مركز شندي بالسودان حوالي سنة (١٢٦٦) هـ.
وحفظ القرآن عن الشيخ عبد الله الكتياي، وأخذ العلم عن الشيخ محمد الخير الغشاوي وكتب الجواهر لسيدنا السيد محمد ابن المختار.

وشهد له سيدنا السيد بأنه تجاني قبل أن يأخذ الطريق، وكان يفرح بذكرى تلك البشارة ثم أخذ الطريقة عن سيدنا السيد ورسخ قدمه فيها، وكان السيد يقدمه للصلاة، وقد اعتراه حال قدسي حتى غاب عن حسه مرة وهو في السجود فاتم السيد الصلاة، وذكر السيد أن الذي يرنه هو الذي يقرأ عند رأسه بعد وفاته صلاة له على الرسول ﷺ يقال لها معراج الحضرات، ومضى الزمن ونسى الأصحاب كلمة سيدنا السيد، ولم يفعل ذلك سوى الفكي الحسن - رحمه الله.

وسكن الرباطاب بعد وفاة شيخه وتزوج بها وأقام بزاويتها وعمرها بالذكر والعلم والقرآن وانتشرت الطريق على يده، وأخذ عنه العلم الكثيرون وله مؤلف في تاريخ حياة شيخه، وجمع دواوينه وهو الذي جمع «الواردات» جزاء الله خيراً عن الأخوة والوفاء وذاق من الأحوال السنية في المشاهدة ما اصطفى له الصالحون وظهرت له كرامات وأعظم كرامة له أخلاقه واستقامته، وعندما دنت وفاته سافر فجاءه بغير تقديم خبر إلى أبي حمد وكان بها ولد شيخه السيد إبراهيم بن سيدي محمد المختار وكان قاضي أبي حمد فسأله أو لا ترسل خيراً بقدمك حتى نقابلك؟ فقال: لا إنما جئت لأجدد العهد برؤيتك وأموت عندك، ثم توفي بعد يومين وكانت وفاته قبل شروق الشمس من غير أن يعلم أحد في البلدة، ففكر السيد إبراهيم فيمن يرسله للجيران ليخبرهم بوفاته ليشاركوا في تشييع جنازته فطرق الباب طارق فوجده السيد إبراهيم رجلاً غريباً نظيف الثياب جميل الصورة فقال: إني أحب أن أجهز معكم جنازة الفقير الذي توفي بمنزلكم، وأرسلوا إلى بعض

الأصحاب وقاموا بتجهيزه، وقال السيد إبراهيم في نفسه: إن شاء الله بعد أن تنتهي من دفنه آخذ ذلك الرجل الغريب معي إلى المنزل وأتعرّف به، فلما انتهوا من الدفن لم يجدوه ولم يجد من يعرفه، فعلم أنه من أولياء الله الصالحين.

وكانت وفاته سنة (١٣٣١) هجرية وترك أولاداً توفوا، وبقي من أولاده الآن الشيخ السيد الفكي الحسن النجاني بمحكمة الخرطوم بحري الشرعية - حفظه الله ورعاه ورحمه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد صلاة تكون لك رضا

ولحقه أداء وعلى آله وصحبه وسلم

[مقدمة الشيخ المصنف]

الحمد لله الرحمن الدائم الباقي الذي كان في الأزل، ولم يكن معه شيء، وهو الآن على ما عليه كان ولم يتحول، الظاهر بنعوت جماله للعقل الأول، الباطن بعزة جلاله، المنفرد بأوصاف الكمال، المنزه عن التشبيه والتعطيل والانصال، القريب في سموه، البعيد في دنوه، الغني الذي استغنى بذاته عن سائر الوجود، الحميد الذي حمد نفسه فصار هو الحامد المحمود، ذو الكبرياء الذي عزت ذاته أن يجوز عليها ما اتصفت به الأجسام، أو تحيط بكنه حقيقتها العقول والأفهام، تعالى في أحدية ذاته عن الكيف والكم والأين والعدد، وجل في وحدة إلهيته أن يكون له كفواً أحد، وتعين بواحدة صفاته، وظهر بنعوت أسمائه التي لا يحصرها عدد.

أحمد الله حمد من أقر بربوبيته، وشاهد أن إقراره من جملة تربيته.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أبلغ بها حقيقة حق اليقين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي فتح لأجله الإمكان والتكوين، وأظهره من نوره المبین، وأراه من آياته الكبرى، شيئاً لا يكفه العقل ولا يدرك، ودور أفلاك الوجود من وجوده المشهود، وأظهره فرداً من بني آدم، فياً عجيباً من والد ومولود، وبعثه بالدين القويم والشرع العظيم، وهدى بنوره أهل التسليم، وبوأهم بسببه النعيم العظيم، وأضل من عارضه أو عارض من نصره، ليشدد عليه العذاب الأليم - صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه - أنصار الدين وقادة المسلمين، الذين

شاهدوا نوره بالعين وبلغوا بمعرفته اليقين، وعلموا أنه سر الوجود وسيد الأولين
والآخرين، ورضي الله عن الوارثين له من أمته السابقين في بحر حقيقته وخدمة
شريعته وجميع أمته.... آمين.

ويعد... فيقول ذو العقل القاصر الفقير إليه تعالى الحسن بن الفقيه عبد القادر:
هذه الورقات جمعناها من فيوضات شيخنا التي هي كالبحور الزاخرات أو
كالسحب الهاطلات - أفاضها الله على ذي الفيض والأنوار والعلوم والحكم
والأسرار - شيخنا ووصلتنا إلى ربنا السيد محمد السيد المختار، وما جمعنا منها
إلا القليل الذي لا يذكره، وأنى للبحر المحيط أن يحصره لأن فيوضاته ﷺ كانت
على حسب الواردين والمترددين إليه، بل بحسب ما يقع نظره عليه، أو يصغى
سمعه لديه، فما من شيء إلا وله فيه فكرة، وما من فكرة إلا ويزيد فيها عبرة، وما
أعتبر إلا وقرأ من لوح قلبه علوما لا تحصرها الدفاتر، ولا يقدر من حضر مجلسه
ولو بلغ ما بلغ من الفهم أن يحصر من إلا النادر، فإنه كان ﷺ حين يأتيه الوارد
ينحدر الكلام من فيه كالبحر الطامي والغيث الهامي.

فلما لم يكن، ثم فترة على جمع كل ما قاله ﷺ شقراً أخونا الشيخ عبد الرحيم
في تقييد بعض ما يصدر منه، قائلاً بلسان حاله ما لا يوجد كله لا يترك كله، وما
كتب منها إلا من القليل أقله.

وقبله قد قيد أخونا القاضي أحمد عبد الرحمن والشيخ أبو الحسن وما وجدنا
مما قيده إلا القليل في هذا الآن، وما جمعناه نحن وهم سابقاً ضاع أكثره بتجاذب
الإخوان، والذي ضاع مني في كتبه الغزيرة لا يحصى من واردات كثيرة، ومع هذا
كله فإن أخانا الشيخ عبد الرحيم ﷺ كان كثير الغفلة والنسيان، لأن قبله مشغول بالله
ومشت فيه كثير الهمام، فتجده أصح الناس وليس بصاح، وكالسكران وليس
بسكران، فتارة تتحرك همته فيقيد واردين أو ثلاثة بحسب الوقت من فيوضات
صاحب الوراثة، وهكذا إلى أن قضى الله في أمر شيخنا ﷺ ومدده وفيوضاته لا
تقطع أمدنا الله منه، ولاشتغال بالناس في حياته بتجاذب العوارض من الأمور الدنيوية،
وكثرة الاشتغال بالإمداح في حضرته السنية والسماع بما يلقيه إلينا من وارداته
البهية، لم يتيسر تدوينها وجمعها في حياته.

ثم بعد وفاته أشار له ﷺ بعض الأحياء بجمع الواردات، وأمرني بجمع

الدواوين الاثنين، فتجاذبته ﷺ عوارض وهموم طارئة من وفاة والدته فعما قليل أخذته المنية - رحمة الله عليه - فإن شيخنا ﷺ توفي ظهر الأحد سنة ألف ومائتين وتسعة وتسعين، تسعة عشر شوال، وهو ﷺ توفي سنة ثلاثمائة وألف قبيل فجر الإثنين ليلة التاسع عشر ربيع أول.

عند ذلك حار بي الدليل وصرت أقدم رجلاً وأوخر أخرى؛ لأنني إن تركتها خفت من ضياع باقيها كما ضاع ما قبلها، وإن اشتغلت بجمعها لا قدرة لي على ذلك لقلة بضاعتي في العلم، وأرى من له باع في العلم نفسه جامحة عن تحمل هذا الأمر أكثر مني، فامتثلت أمر الشريعة من ارتكاب أخف الضررين، وما قصرت نفس عملت جهدها، «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» [البقرة: ٢٨٦] فجمعي هذا لنفسي ولصديق قاصر مثلي، فمن له مقدرة على ذلك بحالة أحسن من هذه ويعلم من نفسه أنه يؤدي مراد المنصف فليفع، وما غيرت اللفظ الذي نقله أخونا الشيخ عبد الرحيم إلا في التادر الذي لا حكم له، في مثل سبق قلم، أو كلمات قليلة فيها تأدية زيادة معنى، أو وارد ناقص أتممته والواردات الناقصة قليلة وسببته: «الدر المنظوم من فيوضات وارث القطب المكتوم».

وقد عملته جزأين؛ لأن واردات شيخنا ﷺ كلها مدار تخلصه فيها على أمرين؛ إما أن يبدأ الوارد ويتخلص فيه على سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ أو يبدأ ويشير فيه إلى وحدة الوجود، أو يجعله كله فيها.

فالجزء الأول فيما قاله: وتخلص فيه على سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ.

والثاني فيما قاله: وتخلص فيه على وحدة الوجود ولم أترك المكرر فيه؛ لأن تكراره غالباً فيه زيادة معنى، ووارداته يشرح بعضها بعضاً، فهي كما قال الشاعر:

قالوا لمسلم فـهـل قـلـت البخاري أم لا

قالوا المـكـرر فـيـه قـلـت المـكـرر أم لا

فرحم الله من لها عين القبول نظر، ويحسن ظنه لعيون من جمعها ستر، وقال كما قالت الفحول الأبطال: لا تنظر إلى من قال، وانظر إلى ما قال، فجمع مثلي لها لا ينقص قدرها «ولا تكشف المخدرة لغير الكفء سترها».

Handwritten text in Arabic script, likely a manuscript or letter. The text is written in a cursive style and covers most of the page. A vertical line is drawn across the left side of the page, possibly indicating a margin or a fold. The text is arranged in several paragraphs, with some lines being more prominent than others. The overall appearance is that of an old, handwritten document.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء الأول

ابتدأت الجزء الأول بوارد شرح فيه أورد سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ وكتبت قبله سجعاً له يدل على شدة محبته وفتائه ﷺ وكان يسميه الطريقة، ومن إنشاء شيخنا ﷺ في حضرة القطب المكنوم والبرزخ المختوم سيدي أحمد بن محمد التجاني ﷺ وأرضاه وعنا به:

بسم الله الواحد المعبود، والصلاة والسلام على سيد الوجود ينظم نظمًا حكم السجع له بنود، في سيدي أحمد التجاني قطب الكون وسر الوجود:

سيدي أحمد لا تحدد له الحدود

سيدي أحمد بدر أفلاك الوجود

سيدي أحمد قامم أهل الجنة

والنار حكم الموعود

سيدي أحمد حبه ديني وإيماني كونوا علي شهد

سيدي أحمد صاحب الوقت الموعود

سيدي أحمد حب سيد الوجود

سيدي أحمد خليفة الواحد المعبود

سيدي أحمد حب ديني وإيماني كونوا علي شهد

سيدي أحمد كف العطاء الممدود
 سيدي أحمد يرفع البصير وللأعمى يقود
 سيدي أحمد المعصية في جاهه ليس لها وجود
 سيدي أحمد حبه ديني وإيماني كونوا علي شهود
 سيدي أحمد إن ظهر في القيامة عدوه يسف الهود
 سيدي أحمد جوهر الحيوان والمعدن والعود
 وصاحب يعرض بين أهل القيامة ويهز العود
 سيدي أحمد حبه ديني وإيماني كونوا علي شهود
 سيدي أحمد لو بحث بمقام تقول تعديت الحدود
 سيدي أحمد غيب غيب الغيب وسر الوجود
 سيدي أحمد ذخري وكنزي سيدي أحمد لي ودود
 سيدي أحمد حبه ديني وإيماني كونوا علي شهود
 سيدي أحمد حبه جنة فيها نظير المعبود
 ويغطفه نار تلتظي لها وقود
 وورد أعلا عليين للوالد والمولود
 سيدي أحمد حبه ديني وإيماني كونوا علي شهود
 سيدي أحمد وجهة توجهات الذات عنه لا تحود
 سيدي أحمد سر تصرف الصفات في كل موجود
 سيدي أحمد من أكبر الآيات تمسك به تسود

سيدي أحمد حبه ديني وإيماني كونوا علي شهود
 محمد الشنقيطي نظم له فيك عقود
 حل بها جوده ورقه درج الصعود
 واسقه من حبك بحارًا وزده شهود
 سيدي أحمد حبه ديني وإيماني كونوا علي شهود
 القاضي أحمد أجلبه لا يعود
 وعبد الرحيم متعه فيك شهود
 وجميع الأحباب كن معهم في الصدور والورود
 سيدي أحمد حبه ديني وإيماني كونوا علي شهود
 وصلاة وسلام لا تحدهما الحدود
 على سر الإيجاد ووجهة الشهود
 محمد المحمود والحمد لله يعود
 هذا هو ديني وإيماني كونوا علي شهود
 وقال أيضًا: أما بعد

فهذه ورقات أذكر فيها أساس الطريقة الأحمدية المحمدية الإبراهيمية الحنفية
 السهلة السمحة البيضاء التجانية، المنسوبة إلى قطب الوجود الرباني، ومدد
 كل عارف صمداني، ختم أهل الولاية والعرفان، المخصوص بمقام القطبانية الذي
 ليس له ثاني، أستاذنا وملاذنا ومربي أرواحنا وأشياخنا سيدنا وسندنا ووسيلتنا
 إلى ربنا والواسطة العظمى بيننا وبين سيد الوجود الذي هو عين الرحمة للقاصي
 والداني، أعني: السيد الشريف الحسني سيدي أبا العباس أحمد بن محمد
 التجاني رحمه الله وأرضاه وعنا به وأمدنا من مدده الذي أمد به بجاء نبيه ومصطفاه،

وآله وحزبه ومن وآله ... آمين.

وهي: أن تبثني أولاً بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يعني: تتعوذ بذات الله لذاتك من ذات الشيطان، وبصفات الله تعالى لصفاتك من صفات الشيطان، وبأفعال الله لأفعالك من أفعال الشيطان، وتستشعر عند ذلك أنك تخلصت منه؛ لأنك استعذت بالمغيث وأقبلت على ربك، وأنه بعد هذه الاستعاذة ليس له إليك سبيل تصديقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

ثم تستحضر في ذهنك، وتتصور بإدراكك وعقلك، صورة سيد الوجود ﷺ وتستفتح باب الكرم والجود، بقولك: «بسم الله الرحمن الرحيم» وتطلب المدد والفتح من حضرة الوهاب بقراءتك لأم الكتاب، ثم تقرأ بعد ذلك صلاة الفاتحة مرة واحدة مستشعراً عندها إفاضة المدد من قلب المصطفى على قلبك بواسطة شيخك^(١).

ثم تقول: «سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [الصافات: ١٨٠-١٨٢] ناوياً بها تزيه الملك القدوس، عن كل ما يخطر في الأذهان والنفوس، ثم تستشعر قربيه وتؤثر حبه، وتقول عند ذلك: «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكْفُرُوا» [البقرة: ١٥٢] ثم تنوي الامتثال بقولك في الحال: لييك اللهم ربي وسعديك والخير كله بيدك فما أنا ذا عبدك الضعيف بك أذكرك تعظيماً وإجلالاً لك وامتثالاً لأمرك وقاصداً لوجهك الكريم بك من أجلك أقول بإمدادك وعونك وحولك وقوتك وبما وهبت لي من إنعامك ونوحيقتك، ثم تشرع في الورد أو في الوظيفة أو في الحضرة، لأن هذا الاستفتاح يقرأ قبل الجميع. وأما الورد فهو أن تقول:

استغفر الله مائة مرة، ناوياً بذلك التخلية، أي: الخلاص من جميع الذنوب، وتستشعر الإضافة من حضرة العفو الغفور الذي وعد بالمغفرة عند الاستغفار، بل جعل الاستغفار دليلاً على المغفرة، لأنه ورد في حديث معناه: أنه لا يلهم

(١) كأنه معه في حياته فتبثني به في خشوعه في ذكره لله تعالى.
(٢) بإذن الله ﷻ فهو سبحانه المدد.

الاستغفار إلا من أراد أن يغفر له، وتذكر عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ زِلْتُمْ لَذُو مَقْفِرٍ﴾ [الناس على ظنهم] [الرعد: ٦] وإن طلب الشيطان أن يصدك عن الدخول في باب رحمة الله الواسعة لا وسيلة إليه أعظم من حسن ظنك بالله وبعباد الله كما وردت بذلك الأخبار فقل له: يا ضعيف الكيد الهالك بين رتبتي الإطلاق والقيود، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، ولا يبالي وورد عن عين الرحمة وشفيع الأمة أنه قال: «لَوْ لَمْ تُذْئِبُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذْئِبُونَ وَيَغْفِرُ لَهُمْ...»^(١)

فالذنوب سبب موجب للاستغفار، والاستغفار سبب موجب للمغفرة، وأيضاً خطايا العبد عدمية، وعطايا المولى وجودية، فكيف يصير لعدم حكم مع تحلي الوجودية؟ فإذا قابلت مكره بهذه الحيثية يخنس في الحين، ويصير أحقر خلق الله أجمعين؛ لأن غاية جلله بخيله ورجله، أن يزين لك الوقوع في الذنوب والأوزار ويحببك عن تجلي سطوة العجاء، ثم إذا استشعرت عظمة الجناية الوخيم، المؤدي إلى العذاب الأليم، وعلمت أعظم وسيلة إلى التخلص من الأوزار وأسرعته إلى الله بحجب عظم الجناية بسعة الرحمة وتضعف عند تجلي المغفرة فإن ألهمك الله ما ترده به في المقامين من هذه الحجج، فاعلم أنك ممن قال الله فيهم: ﴿إِنْ عِبَادِي لَأُنْصِلَنَّكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

ثم تصلي على عين الرحمة وشفيع الأمة سيدنا محمد ﷺ مائة مرة بأي صيغة مستشعراً عند ذلك عظيم قدره عند ربه، حيث صلى بذاته المقدسة في الأزل، على ذات نبيه وصفيه الأكمل، وأخبر أن الله وملائكته يصلون عليه أجمعين، ثم أمر بذلك سائر المؤمنين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] ثم تنوي بالصلاة عليه الامتثال لهذا الأمر الذي أنت تعلم أن نفعه عائد عليك، ثم تعتقد أنه لا قدرة لك بالقيام بحق هذا الأمر العظيم، الذي قام الله به في أزله القديم.

ثم تطلبه من الله قائلاً: اللهم صلِّ وسلم بذاتك الجليلة على ذات نبيك الفضيلة وبصفاتك العظيمة على صفات نبيك الكريمة وبأفعالك العامة على أفعال نبيك

(١) أخرجه أحمد (٨٠٦٨)، ومسلم (٢٧٤٩).

الثامة، وهذه الصيغة تستحضرها عند كل صيغة صليت بها، ثم إنك ترجع إلى قلبك، ثم تنظر هل غشيت أنوار تلك الحضرة التي هي غاية مقصودة، أو هو باق على حجابهِ وصدوده؟ فإن وجدتَها قد كست قلبك، فاعلم أنك دخلت في حضرة الله الخاصة، ثم تهياً لما يفاض عليك من الأنوار وتذكر ما انطوت عليه كلمة لا إله إلا الله من الأسرار.

ثم أذكرها مائة مرة خائضاً في لجج الأسرار مستشعراً بإفاضة تلك الأنوار نافياً بقولك لا، استحقاق العبادة لغير المعبود الحق القهار، ثم سلطها على نفي تأثير أفعال المخلوق من نفع وضرر، وفقر وغنى، وإمالة وإحياء ومنع وإعطاء، وحكم وإمضاء، ولم تزل تشهد فناء أفعال المخلوق في أفعال الحق، وتثبت ما نفيت عن المخلوق للحق، فهذا سيرك في العشرة الأولى من المائة وفي الباقية سلطها على أنه لا موجود في الحقيقة بذاته إلا الله، ثم بعد الفراغ من المائة أطلب التدلي قائلاً: ﴿سُبْحَنَ رَبُّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ...﴾ [الصفات: ١٨٠].

ناوياً بذلك أن كل ما يخطر ببالك فإله بخلاف ذلك، فاعلم أيضاً أنك بهذا الشهود دخلت في حضرة الملك المعبود، ثم أدع الله بما شئت، وانصرف عن موضع الذكر إن شئت، وإن وجدت هذا الحال لم يكن قلبك؛ بل ملكته الخواطر التي هي حجاب البصائر، فاعلم أنك ما تخلصت من وساوس الشيطان، وارجع وحضر صورة المصطفى ﷺ أو صورة شيخك بين يديك، واعلم أن الشيطان لا يتمثل بالمصطفى ﷺ ولا بالكمل من أمته كما في الآية المتقدمة.

وكما في حديث عمر رضي الله عنه: فعند ذلك أنو طرده وإحراقه بأنوار هذه الكلمة، فإنك تستشعر حقارته وضعف كيدِه عند ذلك، ثم داوم على هذه الحالة حتى يفتح الله لك الباب، فيصير سيرك بقلبك وقالبك، ثم اعلم أن هذا الذي تقدم ذكره هو الورد، ووقته في الصباح والمساء، ولكل واحد مختار وضروري، فمختار ورد الصبح من طلوع الفجر إلى الضحى الأعلى، والضروري منه إلى الغروب، ومختار ورد المساء من بعد صلاة العصر إلى دخول العشاء، والضروري من دخول العشاء إلى طلوع

(١) [مقتدياً به في الخشوع في الذكر والفاعل والمعطي هو الله وحده].

الفجر، وأما الوظيفة فتلزمك في يومك وليلتك مرة واحدة وهي:

«استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم» ثلاثين مرة.

وصلاة الفاتح خمسين مرة، والكلمة المشرفة مائة مرة، وجوهرة الكمال اثنتي عشرة مرة، إن كنت على طهارة كاملة، وإلا فأجعل بدل الجوهرة عشرين من الفاتح لما أغلق.

وأما حضرة الجمعة فهي أن تذكر الكلمة بعد صلاة عصر الجمعة ساعة أو ألف مرة فصاعداً متصلة بالغروب إلا لعذر، ويشترط الاجتماع على الوظيفة والحضرة لأهل البلدة إذا لم يكن عندهم شاغل وإن كان ثم شاغل فليذكر وحده.

واعلم أن الورد والوظيفة إذا فات وقتها يقضيان إلا لمرض، فإن المريض لا يلزمه الذكر ولا القضاء ولا ينقص من أجره شيء، وأما الحضرة إذا فات وقتها لا تقضي.

وفقنا الله وإياكم هذا الفضل العظيم والثواب الجسيم وأدخلنا وإياكم في دائرة أهل هذا الورد التي هي دائرة الفضل والعناية، التي من سبق له لا تضره الجنابة.

واعلم أن صاحب هذا الورد سيدي وسندي أحمد بن محمد التجاني رحمه وأرضاه أخذه من المصطفى ﷺ بقطة لا مناماً، مشافهة من غير واسطة بعد أن أخذ طرقاً كثيرة من طرق أهل الله ﷺ كالقادرية وله فيها سند عال، وكالمخلوتية وله فيها سند متصل، وكالشاذلية وله فيها إجازات عديدة، ثم بعد ذلك اجتمع بالمصطفى ﷺ بقطة لا مناماً وقال له: دع كل شيوخك أنا شيخك، ومتولي تربيتك بذاتي فليس لشيخ بعد اليوم عليك منة، فالزم هذا الورد من غير تعب ولا مشقة ولا عناء ولا دخول خلوة ولا عزلة، حتى يفتح الله عليك فيه فتحاً لم يفتحه لولي قبلك ولا يفتحه لولي بعدك^(١).

واعلم أنك حبيبي وورائي ومحل نظري وودي، وحامل لواء حمدي ومجدي، فأنت ابني وبضعة مني من أكرمك فقد أكرمني، ومن أحبك فقد أحبني، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن جفاك فقد جفاني ثم أخبره ﷺ أن جميع من دخل في

(١) [أصحاب رسول الله ﷺ نص الشيخ على أنهم أرفع قدراً]

طريقته دخل في دائرة الفضل ودائرة الفضل لا يدخل فيها إلا من اختاره الله عن أفعاله.

وضمن له جده ﷺ لمريديه أشياء كثيرة، منها ما يحل ذكره في هذه الدار ومنها: ما لا يحل ولكن يظهر في تلك الدار، ومما يحل ذكره من معنى كلامه ﷺ أن مريدك يموت على الإيمان من غير شك، ولا يقبض ولا يسأل إلا وأنا حاضر معه. ومنها: ألا يسوء شيء ولا يؤذي من وقت النزاع إلى المستقر في عليين. ومنها: إن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ويؤدي عنه تبعاته من خزان فضله لا من حسناته.

ومنها: إن هذا الفضل يحصل بسببه لوالدي المريد وإن علوا ولأبنائه وإن سفلوا ولأزواجه.

ومنها: إنه لا يموت حتى يكسب بكسب الولاية ولو عند الغرغرة، ويبعث على حالة كاملة في الولاية.

ومنها: إنهم يقومون من قبورهم إلى قصورهم، لا يحزنهم الفزع الأكبر ولا يقفون في الموقف وموقفهم في ظل العرش تحت اللواء الأحمدى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ومنها: إن الأعمال تضاعف لهم فيحصل لهم بالعمل القليل الأجر الكثير، فإن الله يعطيهم ضعف ثواب كل من عمل لله عملاً أكثر من مائة ألف ضعف، وأنهم أعطوا صلاة الفاتح لما أغلق المرة الواحدة منها بستمائة ألف مرة من كل صلاة وتسبيح وذكر ودعاء وقع في الوجود، وأنهم أعطوا في فاتحة الكتاب أسراراً لم تعط لأحد قبلهم، وأن لهم لطفًا خاصاً بهم مع اللطف العام للأمم، وأنهم أحباب وأصحاب وتلامذة للنبي ﷺ وكفى بها مزية، قال له ﷺ: «أحبائك أحبابي وأصحابك أصحابي وتلاميذك تلاميذي» وأنه يسوء ما يسوءهم ويسره ما يسرههم، وأنهم أعطوا رتبة لو انكشفت للأقطاب لتمنوها وظنوا أنهم ما أعطوا شيئاً، وأن مقرهم في الجنة في أعلا عليين في جوار المصطفى ﷺ في دار النظر إلى وجه الله الكريم.

وهذه المنزلة غاية الغايات وهذا الذي ذكرته لك نزر مما أعد الله لهم في مادون النظر، وهذا كله حصل لهم من عناية الله بسبب محبة سيد الوجود لايته وحببه

وورائه سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ، وقد أفاض عليه جده ﷺ من سر كرامته وشفاعته شيئاً لا تسعه العقول حتى أنه قال ﷺ وأرضاه ومتعنا بمحبته ولقائه، إنه ليس لأحد من الرجال أن يدخل كافة تلاميذه أعلا عليين من غير سابقة حساب ولا عقاب ولو عملوا من الذنوب ما عملوا إلا أنا وحدي، ووراء ذلك أمور يكل القلم عن إحصائها^(١).

ثم إني أقول أيضاً لمن وقف على فضل هذا الطريق: فاعلم يا أخي وتحقق وتيقن، ثم أنصف وتفتن وشد على متن قلبك ثانياً بلسانك مصدقاً بترك، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩] وإن خدعك الشيطان وطلب أن يصدك عن طريق الرحمن فقل له: إن أحكام الحق نافذة في العبيد بإيصال الشقاوة للشقي منهم والسعادة للسعيد، واتل عليه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

وأنا أنصحك ثم أنصحك ثم أنصحك أنك لا تتعرض لوجهة توجه الحق إليها، فتكون معارضا ومعانداً أو هالكا وفاسداً، واعلم أن هذا السيد الجليل ما ذكر في ما أعطاه الله شيئاً إلا من قبيل الجائز الذي لا يحيله العقل ولا ياباه النقل، وقد أعطى كثيراً من أوليائه العظام مما لا تدركه الأفهام، وهذا الفضل العظيم تحدثوا به وغاية ما ذكره الشيخ ﷺ أن الله أعطاه ما أعطاه وزاده على ذلك، فإن كنت تنكر الكل فسد باب الرحمة على خلقه إن قدرت، وإن كنت تنكر الزيادة لضيق صدرك وعدم تسليمك بسبب حسدك، فكأنك تسأل الحق لم تزيده وتصير في زعمك الفاسد أنت السائل لا هو لأنه هو الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وها أنا أزيد نار حسدك خطباً بذكر بعض ما تفضل الله به على أوليائه مما لا يخطر على قلب بشر ولو علا إلى أعلا مقام.

من ذلك أن سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ وأرضاه قال: أعطاني الله لوخاً سعة ما بين السماوات والأرض، وكتب لي فيه أسماء جميع تلاميذي ودفعته إلى مالك خازن النار، وقلت له لا تدخل أحداً من هؤلاء النار، ومنها أن ملك

(١) لأنهم لا يمتثلون إلا على توبة صادقة فما فوقه.

الموت قبض أرواح سبعين ألف مريد له متفرقة في أقطار الأرض، وكل مريد عند رأسه عبد القادر يقول له أرفق به فإنه تلميذي، فرفع ملك الموت إلى ربه وقال له: يا رب كم لك عبد القادر؟ فقال له: لي عبد القادر واحد، فقال: رب قبضت أرواح سبعين ألف مريد متفرقة في أقطار الأرض في لحظة واحدة وكل واحد عند رأسه عبد القادر، فقال هو ذاك^(١).

وأعجب من ذلك أن شاويش الأولياء سيدي أبا يزيد البسطامي طيفور بن عيسى لا يحتاج عريض جاهه إلى تلميذه بل قال: كل من عرف اسمي واسم أبي حرم الله جسده على النار^(٢).

وأما الجنيد رحمه الله فإنه إمام الطائفة قال تعالى: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِ» [الإسراء: ٧١] قيل: تأتي الأولياء يشفعون للعصاة والجنيد يشفع للأولياء، ومن الأولياء ابن هوارى حرم الله جسده زائره على النارين، نار الدنيا ونار الآخرة وأهل بغداد قبل دثور قبره قد جربوا ذلك كانوا يدخلون اللحم في ضريحه ويلقونه في النار فلا تؤثر فيه.

وسيدي عبد الله ابن أبي جمرة قال: لا يتصافح على قبري اثنان وتأكلهم النار. واعلم أن الذي ذكرته لك من فضل الأولياء ومن عظيم جاههم، يوجد في الكون من الأولياء من هو أكبر منهم وأعظم جاقاً، ومن هو مثلهم ومن هو دونهم ولولا التطويل لأوقرت كثيراً من أسمائهم وكراماتهم^(٣).

ومن جملتهم: سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمه الله وأرضاء قيل: إن الأولياء كلهم عياله، ولو نفخ الصور لطارت أرواح الأولياء أمامه كالجراد.

ومنهم: برخ الذي ذكر في «الإحياء» في باب المحبة والأنس، قيل: إن موسى كلم الله استسقى في بني إسرائيل بسبعين ألف منهم سبع سنين فلم يسقوا، فقال له الحق تعالى: لا أسقيكم حتى يستسقى عبدي برخ، فصار موسى يطلبه فوجده فإذا هو عبد أسود قد عقد شملته على كتفه، فقال له: أمرك الله أن تستسقى لنا، فوقف

(١) [لأن الظهور في صور مثالية ممكن لروح واحدة].

(٢) [أنت مع من أحببت وأثر المحبة الصادقة الاتباع].

(٣) [وذلك جائز في الفضل الواسع].

فقال: ما الذي بدا لك أنقضت عليك عيونك؟ أم عاندت الرياح أمرك أم تتعجل العقوبة فتخاف الفوات، أم ترى أنك تمتنع أم تعلم ربا غيرك يسبقنا أم اشتد غضبك على خلقك ألست كنت غفارا قبل خلق الخاطئين، خلقت الرحمة وأمرت بالعطف، فأرحمنا واعطف علينا، فمأزلت أقدامهم حتى أمطرت السماء كأفواه القرب، وأبنت الله العشب حتى وصل إلى الركب، فتعجب موسى من مناجاة برخ وصارت عنده أعجب من مناجاته، فسجد لله وقال: يا رب ما هذا؟ قال: هذا عبيدي برخ يصحكني في اليوم ثلاث مرات^(١).

وأعجب من ذلك ما في «تفسير روح البيان» عند قوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا» [يونس: ٩٩].

حكى أن موسى عليه السلام حين قصد إلى الطور، لقي في الطريق ولينا من أولياء الله تعالى فسلم عليه فلم يرد سلامه، فلما وصل إلى محل المناجاة، قال: إلهي سلمت على عبد من عبيدك فلم يرد علي سلامي، قال الله تعالى: يا موسى إن هذا العبد لم يكلمني منذ ستة أيام، قال موسى: لم يا رب؟ قال: لأنه كان يسأل مني أن أغفر جميع المذنبين، وأعتق العصاة من عذاب جهنم أجمعين، فما أجبت لسؤاله، فما كلمني منذ ستة أيام كذا في «الواقعات المحمودية»^(٢).

وحكى أن أبا حفص كان يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقي مدهوش^(٣)، فقال له أبو حفص: ما أصابك؟ فقال: ضل حماري ولا أملك غيره، فوقف أبو حفص وقال: وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره، فقال: فظهر حماره في الوقت، ومضى أبو حفص رحمه الله تعالى.

وقد سمع من بعضهم يقول: يا رب إما أن تعطيني سؤالي وإما أن أغضب أي: على نفسي، فأعطى سؤاله، وقد دخل بعضهم البحر وقال: يا

(١) [والضحك بالنسبة للحق صفة منزعة هي لون من الرضا].

(٢) [وذلك كان ذهولا منه في الله].

(٣) الرستاقي بالهمزة: الرزداقي، فارسي معرب الخلقوه بقرطاسين، والجمع: الرستاقيين، وهو الشواذ. انظر: تاج العروس (١/٦٣٣)، ومدهوش: متحير.

رب إما أن تعطيني سؤالي وإما أن أغرق^(١).
وإن أردت الزيادة على ما ذكرته لك فطالع كتب القوم «كالطبقات» للشعراني،
و«الأنوار القدسية» و«تنبيه الأغبياء» على قطرة من علوم الأولياء ذكر فيه عشرة
آلاف علم من علوم القوم، وقال: إن علماء الظاهر لا يعلمون علماً واحداً منها،
وهي قطرة من علوم الأولياء.

قال في «تفسير روح البيان» في سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿وَيَخْتَلَى مَا لَا
تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] قال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر: سكنت النبي ﷺ عن
الاستخلاف إذ في أمته من يأخذ الأمر عن ربه^(٢) فيكون بياطنه خليفة الله، ويظاهره
خليفة رسول الله، فهو تابع ومتبوع وسامع ومسموع ومع ذلك فهو يأخذ من المعدن
الذي يأخذ منه ملك الوحي إلى الرسول، والمعدن الذي يأخذ منه الرسول، وقد بَّه
الله سبحانه على ذلك بقوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ [يوسف: ١٠٨]
يبد أن الرسول قابل للزيادة في ظاهر الأحكام والخليفة الولي ليس كذلك فهو
ناقص عن رتبة النبوة، انتهى.

فانظر إلى استعداد كاملي هذه الأمة كيف أخذوا القميص من الله^(٣) تسأل الله تعالى
أن يملأ قلوبنا بمحبتهم واعتقادهم، ويوفقنا لأعمالهم ورشادهم، ويحشرنا معهم
ويدخلنا الجنة ونحن من رفقاتهم.

وحكي أن سيدي إبراهيم الدسوقي كان يقول: عليكم بتصديق القوم في كل ما
يدعون، فقد أفلح المصدقون وخاب المستهزئون، فإن الله تعالى يقذف في سر
خواص عباده ما لا يطلع أحد عليه ما أنا قلت هذا من عندي إنما هو كلام العلم
بالله، فما للعاقل إلا التسليم، وإلا فاتوه وفاتهم وحرم فوائدهم وخسر الدارين، انتهى
من «طبقات» الشعراني في مناقب سيدي إبراهيم الدسوقي في نمرة مائتين وثلاثة
باختصار.

وانظر ما قاله الشيخ عبد الرحيم البرعي في «ديوانه» مادحاً شيخه:

(١) [وكان مهما فأعطى سؤالي].

(٢) كالمحدثين، والإلهام للأولياء غير الوحي الخاص بالأنبياء.

(٣) [بالتبعية لا بالأصالة].

فلذا وإذا خلق أرق من الصبا وألد من ماء العذيب على الظلما
 أمحمد ومحمد لله من جنلين يحمي كل من بكما إحتفى
 وإليكما جرت الإشارة ليلة الـ معراج إذ حيا الرسول وسلمنا
 كان السورى عدما وآدم لم يكن فذعا النبي بروحه ووحيكما
 فجذبنا بسلاسل الأنوار في سيق العناية فإفغلا ما شتتما
 وشربتما كأس الوصال روية في حضرة قدسية جمعتكما

أقول: انظر كلام سيدي الشيخ عبد الرحيم البرعي في هذين السيدين، وكلام
 غيره من الأولياء في شطحاتهم إذا توالى عليهم يد الأفضال، وأطربهم نور الجمال،
 وأسكروهم كأس الوصال، وخلع عليهم محبوبهم أنوار رداء العظمة والجلال،
 وأعطاهم ما يشاءون في الملك والملكوت، فإن الحال عند ذلك يزعجهم فلا
 يطيقون السكوت، ويظن كل منهم أن عطيته لم تعط لأحد غيره وسبب ذلك سعة
 الفضل ومقام الرضا؛ لأنهم ما بلغوا هذا الفضل إلا بعد الرضاء عنهم، قال تعالى:
 ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فلما بغوا مقام الرضا أعطى كل منهم حتى رضى مع أنهم متفاوتون في
 المقامات والدرجات عند الله قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ
 بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] لكن لما كان المقام مقام الرضا ستر مقام
 بعضهم عن بعض، لئلا يخرجوا عن مقام الرضا بسبب الغبطة.

أقول: أو ما ترى أن الله وعد حبيبه ﷺ أنه يعطيه من الكرامة والشفاعة حتى
 يرضى قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] ولا يرضى ﷺ وأحد
 من أمته في النار، ولا يدخل الجنة حتى يظن أنه ما بقى أحد من أمته في النار،
 ولكن سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار، وذلك أنه لما اشتد غضب الله على
 عاصي الوالدين أنساه الله نبيه حتى ينفذ فيه القضاء، ولا يخرج حبيبه عن مقام
 الرضا.

وبدل على هذا أن أكثرهم يقول أعطيتني ما لم يعط لأحد أو يفوه بكلام يدل
 على ذلك، فمن ذلك قول سيدي عبد القادر الجيلاني رحمه الله: قدمي على رقة كل ولي،

مع أن سيدي شمس الدين الحنفي قال في «الطبقات» للشعراني عند مناقبه: وجدت مقام سيدي أبي الحسن الشاذلي رحمه الله أعلا من مقام سيدي عبد القادر الجيلاني رحمه الله، ثم قال: وسبب ذلك أن سيدي عبد القادر مثل يوقا عن شيخه، فقال: أما فيما مضى فكان شيخي حماد الدباس، وأما الآن فإني أسقى من بحرين بحر النبوة وبحر الفتوة، يعني: بحر الفتوة سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام.

وأما سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمه الله فقيل له: من شيخك؟ فقال فيما مضى فكان شيخي عبد السلام بن مشيش، وأما الآن فإني أسقى من عشرة أنهر خمسة سماوية وخمسة أرضية، كما تقدم في ترجمته مع أن سيدي شمس الدين الحنفي ذكر عن نفسه وذكر عنه غيره أنه سلطان الأولياء، وأنت تعلم أن مقام السلطان فوق مقام غيره، وسيدي عمر بن الفارض قالوا فيه: إنه سلطان العاشقين.

مع أن سيدي إبراهيم المثولي في مناقبه في «طبقات» الشعراني قال: هذا ملا نواحي مصر وغيرها عياطاً ما شم من رائحة السر قدر ما يغطي شارب ناموسة، وقال: إن مقامي بعدي يقسم على سبعين رجلاً ولا يحملوه، ومن جملة السبعين سيدي علي الخواص شيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني الذي يقول فيه الشعراني: ما اجتمعت على ولي مثل سيدي علي الخواص، ولا سمعت به وأنت تعلم أن سيدي عبد الوهاب الشعراني خير بطبقات الأولياء ومناقبهم، ومؤلفاته تدل على ذلك.

وكان سيدي أحمد البدوي رحمه الله يقول لي: سواقي تدور على البحر المحيط لو نفذ ماء سواقي الدنيا وبحارها ما نفذ ماء سواقي، يعني به: أنه لو انقطع مدد الأولياء كلهم ما انقطع مدده، ولما توفي والده وأخوه خرج من مكة المشرفة متوجهاً إلى ناحية طنطا، فتلقاء سيدي عبد القادر الجيلاني، وسيدي إبراهيم الدسوقي، وقالوا له: إلى أين تريد فالأرض قد قسمناها بيننا؟ فقال سيدي عبد القادر: من هنا إلى شرقها تحت قبضتي أنا، وقال له الدسوقي: من هنا إلى مغربها تحت قبضتي أنا، فقال لهما: أنا أريد أن أقبضكما أنتما والأرض جميعاً، مع أن سيدي إبراهيم الدسوقي كان يقول: أوقفني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» [الأعراف: ١٧٢] وأراني عالم الذر الذي اجتمع فيه الخلق كلهم، وقال لي: أنت خليفتي على هؤلاء.

وأما الجنيد، فأنت تسمع أنه إمام الطائفة من القرن الثالث إلى قرننا هذا.

وهذا الذي ذكرته لك نزر مما أعرفه من كراماتهم ومناقبهم، ومعرفتنا نزر مما يعرفه العارفون منهم، والكل نزر مما يعلمه الله ورسوله من الإكرام الذي أعده الله لهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

مراتب الأولياء

واعلم أنه قيل أن الأولياء عند الله ثلاث مراتب:
ولي يعلمه الله ويعلم نفسه ويعلمه الخلق، وهو أدنى المراتب الثلاثة.
وولي يعلمه الله ويعلم نفسه ولا يعلمه الخلق، وهو أعلا من الأول.
وولي يعلمه الله فقط ولا يعلم نفسه ولا يعلمه الخلق، وهو أعلا المراتب الثلاثة.

وقد يجمع الله المقامات الثلاثة لولي واحد، وذلك بأن يعلم الله منه مقامًا ويعلمه له وللخلق، ويعلم منه مقامًا ويعلمه له فقط، ويعلم منه مقامًا ولا يعلمه له ولا للخلق كما روي: «ما عرفني غير ربي»^(١).
وهذا المقام قد ورثه قطب الوجود وعلم الشهود سيدي أبي العباس أحمد بن محمد التجاني؛ ولذا سمي القطب المكتوم.

واعلم أن الذين ذكرت لك بعض مناقبهم لعلمهم بكونون من الذين ظهروا للخلق، ويكون فوق رتبهم الرتبة المتقدم ذكرهما، فإذا علمت أن عناية الله وفضله هكذا ببعض عباده الذي يعلمه الخلق، فما بالك بفضله ورحمته في الذين اصطفاهم وغار على مقامهم أن يعلمه لغيرهم.

ومن هنا قال القطب الكامل سيدي عبد العزيز الدباج لمن أراد أن يجعل ضابطًا لمعرفة الأولياء ويزنهم بموازين عقله وعلمه: لعلك لا تجد كل الصنع التي تزن بها الرجال.

ومن هذا المقام أيضًا قد قال بعضهم: إن أهل الظاهر قالوا إن أهل الباطن أتوا بضوابط لا نعرفها فيما عندنا، وإن أهل الباطن قالوا: إن المجاذيب خربوا علينا باطنًا وهلم جرًا في طبقات الأولياء بعضهم فوق بعض، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ

(١) حديث كشي، ذكره السادة الصوفية في كتبهم.

كُلُّ أَنَاثَى مَشْرُتُهُمْ [البقرة: ٦٠] اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مَعَن شَرْبٍ مِّنْ بَحْرِ التَّسْلِيمِ، وَأَمِنْ وَصَدَقَ بَانَ «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» [يوسف: ٧٦].

التسليم للأولياء

واعلم أن رحمة الله واسعة، وأن أولى الناس بها أهل صفوته وحضرته، بل منهم تفاض على غيرهم، ومن أسباب إفاضتها القوية التسليم لهم والاعتقاد، وعدم الإنكار عليهم والانتقاد، كما قالوا: التصديق بطريقتنا هذه ولاية صغرى، وقد قالوا أيضًا: إن من عارضهم وبارزهم لا يموت إلا على سوء الخاتمة، وذلك مصداق قول الله سيأتي في الحديث القدسي: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب».

وقالوا أيضًا: من يتقلقل في علمنا هذا يخشى عليه أن يتزلزل عند الغرغرة، ومن أنكر من علومنا ومعارفنا وكراماتنا شيئًا حرم الوصول إليه إلى الممات.

أقول: يا ليت شعري هل زعم المنكر في إنكاره أن فضل الله أقل من الذي أعطوه، حتى أنكر الأكثر؟ أو أن الله أدخر الفضل لغيرهم حتى رأى أنهم لا يستحقونه، أو موجب إنكاره لفضل عند الله أهو قادر على إيصاله وعطاء لعبد من عبيد مفتقر إليه وطالب له، أم لا.

أقول فإن وقف من ابتلاه الله بالإنكار على هذا التزور من الدلائل والتفريع، وعلم أنه عرض نفسه للهلاك وارتكب خطيئة شنيعة، وعلم أن الشيطان قد غره بأنواع من الغرور وذلك ربما يقول له: أنك أحطت بعلوم الشريعة والطريقة والحقيقة، وهذا الذي أنكرته خارج عنها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، فينبغي لك أن تقوم في إنكار هذا، ويعميه عن عيوب نفسه حتى يشتغل بعيوب غيره، ويملاء غيظًا فاسدًا، ويخيل له أنه غضب في الله، وذلك ليوقعه في معارضة أولياء الله، فيسلب الإيمان الذي هو رأس ماله، فيخلد في السعير ويئس المصير.

فإن أراد أن يتخلص من هذا الخطر العظيم الذي لم يتهبأ له، فها أنا أسرد لك بعض ما ذكره أهل الإطلاع والمعرفة في شروط المنكر الذي يجوز له الإنكار متى تتوفر فيه، ومن ينكر عليه فأقول:

ذكر الشعرائي وغيره أنه لا يجوز لأحد أن يتصدر للإنكار حتى يعلم سبعين أمراً منها: معرفة الحديث ومصطلحه، والتفسير وأسباب النزول وأحكامه، والفقه وأصوله، والعربية بفروعها، والنحو وضوابطه، والمعاني والبيان وأحكامهما، والمنطق ونتائجه، وأصول علم الكلام ودلائله، ومنازع المجتهدين وما ذهب إليه كل منهم، ومعرفة من يحكم الظاهر، ومن يرى التأويل ويحكم الباطن ويدوق من فوق أهل الله ويشرب من مشاربهم ويعرف الفرق بين حضرات تجليات الأسماء والصفات والذات إلى غير ذلك.

فهذا نذر من السبعين المتقدم ذكرها، فإن توفرت فيه هذه الشروط وبقي السبعين فليُنكر، وإلا فله مندوحة عن الإنكار، وهو عند الله ناجٍ إن كان طريقه الورع الصحيح، فإنه لا يصح الإنكار على ما اختلف فيه العلماء.

وقد أورد الترمذي حديثاً لا يسمعه ورع يريد نجاة نفسه ويتعرض لأحد من السالكين بعد، وروي عنه عليه السلام: «إن شريعتي جاءت على ثلاثمائة وثلاثة عشر طريقة لا يلقى العبد بطريقة منها إلا دخل الجنة»^(١).

خاتم الأولياء

ومما سأل شيخنا عليه السلام بعض الفقهاء من أصحابه، قال عليه السلام: ثبت عن سيدنا محيي الدين بن العربي عليه السلام في كتاب «الفتوحات المكية» أنه ادعى مقام خاتم الولاية لنفسه، ثم قال عليه السلام: ولقد طال ما جلست ببصيرتي في الغيوب لأطلع عليه وعلى اسم بلده وكنيته ولقبه، فما أطلعني الله على شيء من ذلك ولا شممت له رائحة أصلاً.

وذكر عليه السلام في موضع آخر أنه اجتمع به بمدينة «فاس» وثبت عن سيدنا علي الخواص عليه السلام أنه أثبت للشيخ محيي الدين مقام الختمية مطابقاً لما ادعاه هو لنفسه، مع ما ثبت عن سيدي الشيخ أحمد التجاني عليه السلام نواتراً من ادعائه لمقام الختمية بما أعطاه كشفه وشهادة النبي عليه السلام له بذلك بقطعة لا مناماً، ومما يؤيده ما صح عن سيدي الشيخ مختار الكنتي في كتاب «الطرائف والتلائد» أن القرن الذي هو فيه يشابه قرنه عليه السلام من وجوه أحدها: إن فيه خاتم الأولياء... إلخ.

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٨١/٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣٦/١) بنحوه.

فقال شيخنا ﷺ: فكيف الجمع بين هذه الأقوال؟

فأجابوه بأنه: لا منافاة بين هذه الأقوال؛ لأن سيدي محيي الدين بن العربي بعد ادعائه مقام الختمية صرح بأنه لم يكن هو، وأنه طلب الإطلاع عليه وعلى مقامه فحجب عنه. وأما ما ذكره من إطلاعه عليه بمدينة فاس فهو صريح أو كالصريح في أنه كشف له عنه بعد حجايته عنه في القضية الأولى.

وكلام سيدي علي الخواص مبني على دعواه إياه لنفسه فينتفي بانتفائه، وحيث كان الأمر كما ذكر فلا معدل عما قاله سيدي أحمد التجاني ﷺ؛ لأنه مؤيد بشهادة النبي ﷺ، وبما حكاه سيدي الشيخ محيي الدين أنه: اجتمع به بمدينة فاس وهي بلده، وبما حكاه سيدي مختار الكنتي في قرنه أن فيه خاتم الأولياء وهو زمن شيخنا أحمد التجاني ﷺ، فقال ﷺ: عندي جواب أبلغ من ذلك وحاصله أنه قد ثبت لسيدي رسول الله ﷺ التجلي في الصور.

فمن ذلك قول سيدنا عبد الكريم الجيلبي ﷺ في كتابه «الإنسان الكامل»: شهدت سيدنا محمدًا ﷺ في صورة سيدي إسماعيل الجبرتي، وكنت لا أشك في أنه رسول الله ﷺ ولا أشك أنه سيدي إسماعيل الجبرتي.

ومن ذلك قول تلميذ الإمام الشبلي ﷺ له: أشهد أنك رسول الله ﷺ، فقال له الإمام الشبلي: أشهد أنني رسول الله، فإذا علمت هذا، فاعلم أن لسيدنا الشيخ أحمد التجاني ﷺ أيضًا التجلي في الصور بطريق الإرث النبوي، فإذا ثبت عن أحد الأولياء أنه ادعى مقام الختمية أو ادعاه لها أحد، فإنما ذلك لظهور روحانية خاتم الأولياء وهو سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ في مرآة ذاته، وعلى ذلك يتجه ما نقل من ذلك عن الأكابر كسيدي محيي الدين بن العربي، وسيدي علي الخواص، وسيدي محمد وفا، وسيدي محمد بن عثمان المبرغني ﷺ أجمعين.

ومن هذا القبيل ما روي عن بعض الأكابر أنهم ادعوا مقام المهدي الذي هو الإمام المهدي المنتظر ﷺ فمن ذلك ما صرح عن سيدي أحمد بن إدريس ﷺ أنه: كان يصرح في زمانه بأنه هو المهدي المنتظر ﷺ حتى اجتمع به الشيخ المجذوب ﷺ فقال له: يا سيدي من أين لك ذلك؟ فقال: أعطانيه كشفني. فقال له يا سيدي: حرر كشفك؛ لأن الأمر فيه بعد، فحرر كشفه فوجد الأمر على خلاف ذلك، وإنما

حصل له لظهور روحانية المهدي ﷺ في مرآة ذاته، لأن للإمام المهدي ﷺ حفظاً من الوراثة النبوية والسلام.

ومن كلامه ﷺ قال: قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فلو افترضت حكمة الله مساواة مراتب العالم، وكان للعقل في ذلك مدخل لحكم بأن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أولى بالمساواة لأنهم خيرة الله من خلقه من خلقه، ولأن الله تعالى بعثهم إلينا مشرعين ومبلغين عنه، وكان مقتضى مقام عقلنا أن يكون كل منهم على غاية الكمال الذي لا كمال فوقه، ولكن الله قد فضل بمشيئته وحكم بلطف حكمته اللتين هما من وراء طور العقل بتفاوت مراتب رسله - عليهم الصلاة والسلام - فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٣] إلخ، ومن باب أولى غيرهم، فقد قال تعالى في حق سائر عبادہ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فإذا فهمت هذا فاعلم أن رسول الله ﷺ قال: «العلماء ورثة الأنبياء»^(١) والمراد بالعلماء في هذا الحديث الأولياء رضوان الله عليهم؛ كما بينه أهل الله تعالى بقولهم: كل ولي على قدم نبي، فإذا تقرر هذا، فاعلم أن كل ولي لابد أن يكون كماله بحسب كمال موروثه النبي، فعلى هذا يكون وارثوا أولى العزم من الرسل أكمل من غيرهم، والوارث المحمدي أكمل من الكل على حسب كمال رسول الله ﷺ على غيره من الرسل، ويكفي من التبيه على كماله ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

وأكد ذلك بقوله: ﴿يَذُ اللَّهُ فَوْقَ أُنْبِيَاءِهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] ولأنه يمد الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وهم نوابه، فلا بد للوارث المحمدي أن يكون له كمال من كماله بحيث يجتمع فيه من الكمالات ما لا يجتمع في غيره من الأولياء.

ثم اعلم أن الوراثة المحمدية معلومة المنزلة عند كافة أولياء الله تعالى، وقد تصدر لها جماعة كالحاتمي وغيره على حسب ما نالوا من الكمالات الإلهية، ثم تبين لهم الأمر على خلاف ما زعموا حتى تبين مستواها، وانتهى أمرها إلى ماواها

(١) رواه أبو داود (٣١٧/٣)، والترمذي (٢٨/٥)، وابن ماجه (٨١/١).

قطبنا الأجل، وظهرت له البراهين القطبية كظهور الشمس في درجة الحمل، وهو القطب المكتوم والبرزخ المختوم سيدي أحمد بن محمد التجاني رحمه الله وأرضاه وعنا به، ووجه ظهورها له من عدة أوجه:

منها: صراحة دعواه، وتواتر الأخبار عنه رحمه الله، وشهادة النبي ﷺ له بذلك، ورؤياه حقاً إذ لم يكتف بالأخذ عن الكشوف كغيره من الأولياء الذين تبين لهم الأمر على خلاف ما ظنوا.

ومنها: استمداد سائر الأولياء منه الذي أشار إليه بقوله رحمه الله: روحه ﷺ وروحي هكذا وجمع إصبعيه السبابة والوسطى روحه ﷺ تمد الأنبياء والرسل، وروحي تمد الأقطاب والعارفين والأولياء من الأزل إلى الأبد.

ومنها: ثبوت السيادة له رحمه الله على الأولياء نظير سيادته ﷺ على الأنبياء الداخل في عموم قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» فقال رحمه الله: أنا سيد الأولياء كما كان ﷺ سيد الأنبياء.

ومنها: إن النبي ﷺ ذكر له كلاماً معناه أنه يترجم عنه رحمه الله ومنها فضل أتباعه وخصوصيتهم على سائر أتباع الأولياء، وذلك لمزية خصوا بها دون سائر أتباع الأولياء، كما خصت هذه الأمة عن سائر أتباع الرسل حتى تمنى أكابر الرسل أن يكونوا منهم نظير خصوصية أمة محمد ﷺ عن سائر أتباع الرسل - صلوات الله عليهم أجمعين - ومن هذا المعنى قال له رحمه الله: «من أحبك فقد أحبني، ومن أبغضك فقد أبغضني».

ومنها: دلالة إشارات الأولياء عليه كالحاتمي رحمه الله الذي ذكر أنه اجتمع بالوارث المحمدي، بمدينة فاس، ومعلوم أنه لم يدع أحد من أولياء فاس فيما بلغنا قديماً، ولا حديثاً الدعوى الكاملة في الوارث المحمدي، غير شيخنا رحمه الله واجتماع الشيخ

(١) بين سيدي عمر الفوني أن الصحابة لا تدخل في كلامه رحمه الله وبين الشيخ بنفسه أنضية الصحابة، قال: أعمالنا معهم كالتملة مع القطاة.

(٢) رواه ابن حبان (١٣٥/١١)، والمحاكم في المستترك (٦٦٠/٢)، والفضياء في المختارة (١٥٥/٩).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس (٣٢١/٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٣٣/٩).

الأكبر ﷺ به اجتماع برزخي بدليل أنه اجتمع بالأنبياء والأولياء المتقدمين والمتأخرين، كذلك وكالشيخ مختار الكنتي ﷺ الذي ذكر أن القرن الذي هو فيه يشاكل قرنه ﷺ لوجوه أحدها: إن فيه خاتم الأولياء كما أن قرنه ﷺ فيه خاتم الأنبياء... إلخ.

ومعلوم أن قرن الشيخ مختار ﷺ هو قرن سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ، وهو مدعي الختمية ﷺ في ذلك الزمان دون غيره من الأولياء، انتهى.

ومن كلامه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّقَاتِ يَتِمُّ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ [الطور: ٢١] أنه قد جرت سنة الله تعالى في عطاياه الدينية والدنيوية والأخروية بحصولها من ثلاث طرق لا رابع لها وهي: الاكتساب والهيئة والوراثة، ومرادنا بالهيئة في هذا الباب ما يشمل الصدقة أيضاً.

فأما الحصر في هذه الثلاثة من جهة الأمور الدنيوية فمعلوم عند عامة الخلق، وأما في الأمور الأخروية فما هو معلوم عند أهل البصائر أيضاً، وهي السعادة التي من كتب الله له نصيباً منها فاز بالنعيم الأبدي والخلود السرمدي، وطريق الوراثة فيها يكون من قبيل الأبوة الروحية والذاتية، وهو النسب الحقيقي؛ إذ النسب على ثلاثة أقسام: طيني: وهو الذي يتحد فيه المؤمن والكافر والشقي، وديني: وهو نسب الإسلام وهو الذي ألحق به سلمان الفارسي ﷺ بأهل البيت وشرفه به، وانفصل بعده أبو لهب وشقي، ولذلك قال الشاعر:

لقد رفع الإسلام سلمان فارساً وقد وضع الكفر الحبيب أبا لهب

وذاتي: هو أخص منهما، وهو الذي ألحقت به سيدتنا فاطمة برسول الله ﷺ وكذلك سيدنا علي والحسن والحسين ﷺ أجمعين؛ لأنه ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة رضي الله عنها والحسن والحسين يلعبان بين يديها وسيدنا علي ﷺ نائم فقال لها: «أنت وهذين الابنن والثائم معي في درجتي في الجنة» أو كما قال ﷺ.

وقال سيدي أحمد التجاني ﷺ: هذه الخصوصية لم تكن لغيرهم.

وأما ما ذكره بعض أهل النظر في قوله:

وللصديقة الرجحان فاسمع على الزهراء في بعض الخلال

وتعليقه بأن عائشة - رضي الله عنها - تكون مع رسول الله ﷺ في درجته في الجنة لأنها زوجته وأن فاطمة - رضي الله عنها - مع علي ﷺ في درجته في الجنة، ففضلت عليها في المتزلة؛ فذلك لقصور نظرهم عن هذا النسب الذاتي، ولما ألحقت الأشراف بهذا النسب الذاتي شرفوا بشرفه، وبلغوا المرتبة التي لا توازي، فإن قطب الأقطاب الخالي عن هذا النسب لو خير بين قطبانيته والإلحاق بهذا النسب الشريف لا اختار الإلحاق بهذا النسب الشريف، فأما النسب الطيني فهو نسب آدم ﷺ وما تناسل منه إلى يوم القيامة، فخاصيته ما ذكر الله فيه من التكريم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومن خاصيته أيضًا: التوارث بخاصيته المبسوطة في كتب الفقهاء فلا نطيل بذكرها، والنسب الروحاني فهو النسب الملحق بالروح الكلي الذي هو الأب الأول والنور الأول الذي تناسلت منه جميع العوالم، ومن الجملة أبونا آدم ﷺ فإنه آخر المراتب المتناسلة عنه ﷺ وإلى هذا المعنى أشار سيدنا عمر بن الفارض على لسان الحقيقة المحمدية بقوله:

ولائي وإن كنت ابن آدم صورة قلبي فيه معنى شاهد بأبوتي

وبيان ذلك أن أبانا آدم ﷺ متكون من التراب، وهو متكون من الماء، وهو متكون من الدرة البيضاء، التي هي مظهر النور الأول، واعلم أنه كما أن للأبوة الحسية تناسلاً فكذلك للأبوة الروحية تناسل، وهي أبوة الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأبوة المشايخ الكاملين في مرتبة الولاية التي هي إحدى المراتب الحقية، فإن المراتب الحقية ثلاثة:

أحدها: مرتبة الألوهية وتشمل مراتب الأسماء والصفات والأفعال.

والثانية: مرتبة النبوة وتشمل الرسالة؛ لأنها بمعنى واحد إذ النبوة مأخوذة من النبأ الذي هو الخبر والرسول هو المخبر للمخلق بذلك المخبر.

والمرتبة الثالثة: الولاية وأول ابن وجد من الحقيقة المحمدية في هذه المرتبة خاتم الأولياء، وهو الأب الثاني من حيثية هذه المرتبة ومنه تنسلت مرتبة القطبانية، وهي مرتبة

قطب الأقطاب الذي هو الإنسان الكامل، وهو الخليفة ثم تسلت منه مراتب الولاية على اختلافها، ويشمل ذلك مراتب المشايخ الكاملين وأهل الإرادة السالكين ومن دونهم من عموم المؤمنين، ومترلة الصحابة تفوق جميع مراتب الولاية.

وأما النسب الذاتي فقد يتألف عن هذين النسبين السابقين، الطيني والروحاني، كتب سيدتنا فاطمة وعلي والحسن والحسين ﷺ أجمعين، وقد يكون من النسب الروحاني فقط كأصحاب سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ أجمعين.

وفي هذه المراتب الثلاثة من مراتب النسب، فالأب هو الموروث والابن الوارث، ويكون كمال الوارث بحسب كمال الموروث، فإذا فهمت هذا وتحققته فينبغي لك يا أخي أن تنظر في أصل هذه المرتبة التي هي مرتبة الولاية وتعرف أول أب منها وحظ كل أحد منه، فأول أب منها كما تقدم لك هو خاتم الأولياء، وهو سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ، ومقامه مكتوم لا يطلع عليه غيره وهو وارث محمد ﷺ وراثة ذاتية.

وأما الأب الثاني فهو قطب الأقطاب، ومرتبته التي أشار إليها العارفون، بأنه الخليفة الأعظم الذي حيث ما كان الرب إلها كان هو خليفة، وبيان ذلك أنه لا تتحرك ذرة في الوجود من العالم العلوي والسفلي مما دق أو جل بشهوده لها بإذن ربه لأنه روح الوجود.

ثم يليه في هذه الكيفية من دونه من الأولياء أهل التصرف كالإمامين والأوتاد والأبدال ومن دونهم، فإذا كانت هذه مرتبة قطب الأقطاب الذي هو روح الوجود فما بالك بروح الروح الذي هو خاتم الأولياء وهو سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ فيكون نسبه إلى القطب كنسبة القطب إلى العامة، ولذلك قال ﷺ نسبة الأقطاب معي كنسبة الأقطاب مع العامة، ونسبة الأقطاب للتجاني كجهل للقطب ذي الفران، ولكن لا سبيل لدركه؛ إذ لا سبيل إلى العامة ولا الأولياء إلى الإحاطة بتصريف قطب الأقطاب، ولا شم رائحة منه، فضلا عن خاتم الأولياء.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن قطب الأقطاب إنما أدرك هذه المرتبة من قبيل النسب الروحاني، وراثة عن سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ، فيكون أصحاب النسب الذاتي أقرب منه إلى هذا الولي الخاتم، وهم أصحابه المتمسكون بطريقته، فإن

مقامهم مقام القرية، وهو الذي أشار إليه سيدي محيي الدين بن العربي عند قول الإمام الغزالي رحمه الله من تعدى مقام الصديقية وقع في رتبته رحمه الله، ومرادهم بالصديقية في هذا المحل مقام القرية، ولذلك يقول سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمه الله في هذه الطائفة المتمسكة بطريقته وأوراده لو رأت أكابر أقطاب هذه الأمة ما أعد الله لأهل هذه الطريقة لبكوا وقالوا يا ربنا ما أعطيتنا شيئاً، ولذلك أشار صاحب «منية المريد» بقوله:

ولورأت أكابر الأقطاب ما أعد خالق الورى تكريماً
لهؤلاء لبكوا عليه واستقصوا ما ركنوا إليه

ومع ما ذكر فيهم من الفضائل التي لا نهاية لها قال رحمه الله: ومما ذكر لي فيهم وضمنه رحمه الله أمر لا يحل لي ذكره ولا يرى ولا يعرف إلا في الدار الآخرة إلى غير ذلك، والسرف في ذلك كله اتصالهم بالنسب الروحاني، فإن قلت أن الأولياء والأقطاب لهم أسرار وكشوفات وكرامات، وهؤلاء لم يشاهد فيهم ذلك على العموم، فالجواب:

إن هذه الطائفة السابحة في فلك هذا الشيخ وهو دائرتهم في فضاء العناية فتلك المرتبة مدخرة لهم.

واعلم أيضاً أنهم ملتحقون بمقام الشيخ رحمه الله وهذه المرتبة التي أشرنا إليها في حق هذه الطائفة التجانية.

منهم: من تعجل له في الدنيا مع ما يدخر له في العقبى، فيظفر من الأسرار والأنوار والأحوال والمقامات بما لا يقدر قدره إلا خالق الأرض والسماوات.

ومنهم: من يفتح له عند الموت فيتحقق بالمرتبة شهوداً.

ومنهم: من تفتح له في الآخرة، وعلى كل حال فهي محققة الوقوع، فإذا فهمت هذا وعلمت أن أصحاب سيدي الشيخ أحمد رحمه الله أعلى مرتبة من أكابر الأقطاب، يظهر لك أن مرتبتهم من فوق ما يعهد، ويعرف، ويعلم بعد مرايه بضرب من المقايسة^(١).

(١) [وهم من مات على وراثة خصوصيته].

ومن كلامه ﷺ قال: قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وحقيقة الذكر هو ضد النسيان، وأطلق على كل ما يوصل إليه قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] وقال رسول الله ﷺ: «صبتك من ذلوك في إتياء أخيك ذكر»^(١) والذكر مطلوب للفكر، والفكر مطلوب لمعرفة حقائق الأشياء، ومعرفة مطلوبة لمعرفة المبدأ وهو الحق ﷻ وإذا عرف فالانقطاع للعبد عن غيره أولى؛ لأنه قد اتفق العقلاء على تقديم الأهم، إما وجوباً وإما ندباً وإما أولوية ولا أهم من جانب الحق.

قال الشيخ رسلان الدمشقي في «رسالته»: يا أسير العبادات والمكاشفات والمقامات ينبغي أن يقدم على هذه الثلاث غفلات، فهي: است فراغ القلب في ظواهر الشؤون وصور الأكوان عن المكون، وهو الحق ﷻ وهذا أعظم الحجب، قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَقَدْ يُرِيدُ إِلَّا الْخِطَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠].

وأما العبادات: فهو العمل المشروع بقصد الحق ﷻ فإن من الناس من وقف عندها، ورأى أن اشتغال البدن بها هو غاية المطلوب، فجرت منه مجرى العادة فحجب بالطلب عن المطلوب، ولذلك قيل: «الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم»^(٢).

وأما المكاشفات: فهو إدراك الأمور الغيبية الناشئة عن آثار التقوى والأمور الربانية، وهو فتنه وابتلاء عظيم للسالكين؛ لأن الوقوف عندها يورث العبد عند الله البوار.

قال العارف ابن عطاء الله ﷻ: ما أرادت همة سالك أن تغف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة الذي تطلب أمامك، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادتك حقائقها: إنما نحن فتنه فلا تكفر.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٣٧٧) والبخاري في الأدب المفرد (٨٩١)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٨١٢).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٤١٥/٢).

وأما المقامات: فإن الوقوف عندها حجاب عن الله أيضًا، لأن الوقوف مع المقامات حجاب بالأسماء والشؤون والتجليات عن وحدة الحق ﷻ، فمن وقف مع شيء من ذلك حجب بالترغفات عن المتعرف، لأن جميع هذه الأشياء لا حقائق لها من ذاتها، وإنما هي تعرفات الحق ومظاهره والاشتغال بالمظاهر عن الظاهر هو عين الحجاب، والحاصل من ذلك كله أن المطلوب من العبد أن يشهد الله في جميع المحسوسات والمعقولات، أما في حضرات أسمائه بإعطاء كل حضرة حقها، وأما إن يشهده من وراء حجاب، وعلى كل حال فليعلم أنها شؤون ذاتية وأعيان علمية ومظاهر صفاتية، ويشهد وحدة الحق في ذلك كله.

ومن كلامه ﷻ: اعلم أن السر في الخلوة وسبب إدخال المشايخ المريدين فيها، وذلك لأمر منها حبس القلب على ذكر الله حتى يصلوا، وهي من الأصول الأربعة التي بنى عليها أهل السلوك طريقهم، وهي: العزلة، والصمت، والجوع، والسهر. كما قيل:

بيت الولاية قمت أركانه ماداتنا فيه من الإبدال

ما بين جوع واعتزال دائم والصمت والسهر التزيم العالي

وليس المقصود من هذه الأصول ذواتهم بل الأمر الذي يوجد عند حصولها، وهو حضور القلب واجتماعه، وحضور القلب أيضًا مطلوب لشيء آخر وهو صفاء الفكر، وذلك مطلوب لأن ينظر الأهم فيشتغل به، فعند صفاء الفكر لا يجد أهم من الاشتغال بالله، والاشتغال بالله له بداية ونهاية.

فبدايته الطاعات التي هي من جنس الذكر، لأن الذكر جنس تحت أنواع فجميع القربات أنواع له قال ﷺ: «صبك من دلوك في إناء أخليك ذكر».

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

ومن أنواعه المهمة ذكر اللسان قال ﷺ: «أفضل الأعمال ذكر الله».

(١) لتقديم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن حبان (٨١٨) والطبراني (٩٣/٢٠)، رقم (١٨١) والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٧٢/١) بلفظ: «أني لأعجل أحب إلي الله» قال: «أن تثنو وتثنيك رطب من ذكر الله».

وقال بعض العارفين: من أعطى الذكر فقد أعطى منشور الولاية، ولأجل هذا إذا أراد المشايخ إرشاد مرید أمروه بالخلوة والزموه بالشروط المتقدمة، ثم لقنوه الذكر وليس مرادهم بذلك أن يقف مع البداية، بل مرادهم أن يترقى منها إلى النهاية، والنهاية هي الفناء في الله وغايتها البقاء بالله وإلى هذا المعنى أشاروا بقولهم: أن المرید في بدايته سائر إلى الله، وفي أثناء ذلك يظهر له أنه سائر مع الله ثم بعد أن يجد في السیر يظهر له أنه سائر بالله وبعد الفتح الكبير يظهر له أنه سائر في الله قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُتْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] فهذه طريقة إرشاد بعض المشايخ.

ومنهم: أبو حامد الغزالي، وكان يحض على ذلك أصحابه، ويقول ترك المرید لقمة من عشاءه خير له من قيام ليلة؛ لأنهم يرون أن القلب لا يجتمع مادام يدور بين أضداد هذه الأربعة. وهي مخالطة الخلق وكثرة الكلام وكثرة النوم والشبع؛ لأن المخالط يكون قلبه متعلقاً بمعاملة من خالطه فهو إذا مشغول به عن الله ودواء هذه الآفة العزلة.

والثاني الكلام: منشؤه ومحله القلب، كما قال الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فالدليل على أن القلب مشغول بغير الله كثرة الكلام في غير طاعته، ومن لم يكن في طاعة الله يخشى عليه أن يكون في غير طاعته.

قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

وقال بعض العارفين: النفس إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر، ودواء هذا الصمت.

والثالث الشبع: فإن كل الآفات تنشأ منه ومن أعظمها شهوة الفرج التي هي أصعب شهوة على الإنسان وأشغل لقلبه من كل شاغل، وقد أشار إلى ذلك ابن عباس ؓ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ عَابِقِي إِذَا وَقَبَ﴾ [العلق: ٣] وقال ؓ: «من حفظ ما بين لحيته ورجليه أضمن له الجنة»^(١) أو كما قال.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٩١٥)، وأبو يعلى (٢١٠٩)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٤٥٨)، والحاكم (٨٠٦٥)، وأحمد (٢٢٨٧٤).

وقال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء»^(١).

ويقال: إن آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرئاسة والنساء من طريق الشهوة الطبيعية، ويقال إن كل فتنة عظيمة وقعت على وجه الأرض فهي من النساء، وهذه الآفة هي السبب في حب الدنيا، فإذا تمكن حب الدنيا من قلبه دعاه ذلك إلى أنه كلما نال منها شيئاً طلب غيره، ولذا قال الشيطان: إذا فتحت على العبد حب الدنيا كفنتي مؤونته، لأن حب بعضها يدعو إلى بعض كما أن ملك بعضها يدعو إلى البعض الآخر إلى ما لا نهاية له، وقيل: إن من تتركب فيه شهوة النساء يحبها بقدر ملء بطنه وستر عورته فقط بعد تركبها بحبها لبلوغ الوطرين، لأنه لا يبلغهما بدونها. ومن محبة الدنيا يحب مخالطة الخلق، لأنها لا تنال غالباً إلا بمخالطتهم، ومن مخالطة الخلق ينشأ حب الجاه، فيسعى في التحجب إليهم ليعظموه فيملك قلوبهم، فإذا ملك قلوبهم هان عليهم بدل ما في أيديهم له.

فمن هنا يفتتح له حب الجاه، فيدعوه ذلك إلى أنه لا يظهر لهم من نفسه إلا كل خصلة محمودة ويخفي عنهم كل خصلة مذمومة محبة لزيادة جاهه عندهم، ومن هنا دخل الرياء في أعماله، والرياء هو الشرك الأصغر.

قال ﷺ: «الشرك فيكم أخفى من ديب النملة على الصفا»^(٢). أو كما قال، ويتولد له من ذلك أن كل من قام مقامه، وانصرفت القلوب إليه يرى أنه زاحمه في جاهه، وإذا نقص من جاهه شيء نقص من مقصده، فيغضه لأجل ذلك، لأنه يرى أنه أحق منه بذلك.

ويتولد له من هذه الرؤية العجب، وإذا أعجب بنفسه يرى أنه فوق من تعظم عليه ويتولد له من ذلك الكبر ومن الكبر يرى أن كل نعمة عند أحد فهو أحق بها، فيتولد له من ذلك الحسد، والحسد نار في القلب لا يطفئها إلا الرضاء بقضاء الله وقدره، ومن لم يطفئها بذلك، فإن نار الحسد تآكل حسناته كما قال ﷺ: «إن الحسد

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠٨) ومسلم (٢٧٤٠) والترمذي (٢٧٨٠) والنسائي (٩٢٧٠) وابن ماجه (٣٩٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٦٢٢) وابن أبي شيبة (٢٩٥١٧)، والطبراني في الأوسط (٣١٧٩).

يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»^(١) ويقضي به الأمر إلى أن يعارض الله في أحكامه، قال الشاعر:

ألا قل لمن بات لي حايلاً أتدري على من أنأت الأذب
أنأت على الله في حكمه إذا أنت لم ترض لي ما وقب

ومعارضة الله في أحكامه تفضي به إلى أن يرى أن الله يضع الأشياء في غير مواضعها، وحيث صار لسان حاله ينطق بأن حكمته أبلغ من حكمة أحكم الحاكمين، فللخوف من الوقوع في تسلسل هذه الآفات التي إذا وقع الإنسان في واحدة منها جرته إلى الأخرى حتى ينتهي إلى ما ذكر أمروه بالجوع؛ لأن من رضي بالجوع استكفى بقليل من الدنيا، فإذا استكفى منها بالقليل يخف عليه مؤنة التصنع إلى الناس الذي بسببه ينجر إلى هذه الآفات، ويقصر به عن التعلق في كثير من الدنيا، وقيل: عليكم بالسكوت وملازمة البيوت والرضا بقليل من القوت.

والآفة الرابعة: النوم؛ لأن النائم كالحجر الملقى لا يصلح للدين ولا للدنيا، وروي إن الله يكره أن يرى عبده سهلاً، والإنسان يتطور في أطوار الموجودات كلها، ففي حالة الذكر يتصف بالصفة الملكية، وفي حال شهوته بالبهيمة، وفي حال غضبه بالسبعية، وفي حال أذيته يكون عقرباً، وفي حال نومه كأنه حجر ملقى إلى غير ذلك، وبزوال هذه الآفات مع الخصال المتقدمة يتصف بأحسن الأوصاف.

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٠٣) وعبد بن حميد (١٤٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٦٠٨).

فصل

ومن هذه الطائفة سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمه الله فإنه كان يقول لتلاميذه: كلوا من أطيب الطعام، واشربوا من ألد الشراب، والبوا من أحسن اللباس، وناموا على أوطأ الفرش، فإذا حمدتم الله وشكرتموه وافقكم على ذلك كل عضو منكم، بخلاف ما إذا أكلتم خشن الطعام، ونمت على خشن الحصير، فإنكم إذا شكرتم الله لم يوافقكم إلا ألتكم، وبعضهم يرى أن الدلالة على الله لا يعرفها إلا من عرف كيف إفاض الوجود القديم على الوجود الحادث أو كيفية ارتباط هذا الوجود وافتقاره إلى ذلك الوجود، وعلى الوجود الحادث وتنزيه ذلك الوجود عن وصف هذا الوجود وعدم المناسبة بينهما، فيصير بين له أن وجود هذا الوجود بسبب توجه حضرات الأسماء إليه، لأنها هي الطالبة لظهور متعلقاتها طلب الغنى والوجود مع أن التأثير للذات، فيظهر له كيفية ذلك التأثير وذلك التوجه، والأوجه في ذلك كثيرة يطول شرحها.

وأقرب اختصار وجمع في ذلك أن يظهر له أن المعلومات أربعة: وهي الإنسان الصغير الذي هو الأدمي، والإنسان الكبير الذي هو العالم كله، والحقيقة الجامعة، والذات الأحدية، وأن كل واحد له باطن وظاهر.

فظاهر الإنسان الصغير البشرية وأحكامها، وباطنه اللطائف وأحكامها، والحقيقة الجامعة ظاهرها الحقيقة المحمدية التي هي مجموع التجليات، وباطنها الحقيقة الأحمدية التي هي مظهر هذا التجلي، والوجود الحق ظهر بالالوهية، لأن الالوهية تطلب المألوه، والمألوه هو المظهر، وهو مقام الواحدية، المشار إليها «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [الشورى: ١١] والباطن هو مقام الأحدية، وهو المشار إليها بقوله ﷻ: «كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ» وهو سبحانه الآن على ما عليه كان^(١).

(١) في «تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته» (١٥/٢) كقول بعضهم في حديث عمران بن حاضين: «كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ قَبْلَهُ» و«كَانَ وَلَا شَيْءٌ غَيْرُهُ» و«كَانَ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ».
(٢) [هذه الزيادة ليست من كلامه ﷻ ولكنها مطابقة للحقيقة].

وهذه هي الغاية القصوى التي لا تدرك بالعقول، ولا تكيف بالوصف، ولا تحد بالتقول، ولكل مرتبة من هذه المراتب المتقدم ذكرها نوع إدراك وتعقل، فالأولان يدركان بالمعانية والمثال، والثالثة تدرك بالمثال فقط، والرابعة لا تدرك لا بالمعانية ولا بالمثال وهي الوجود المطلق، ولا سبيل إلى معرفته إلا باعتقاد أنه موجود، وأنه لولا وجوده لم يوجد شيء من المراتب الأخرى، وأما الحقيقة الجامعة فإنه يضرب له فيها أمثلة يفهم منها ارتباط هذا الوجود بذاك الوجود من غير حلول ولا اتحاد ولا اتصال ولا انفصال.

وأما العالم الكبير يظهر له أنه لا بد أن يكون في مرتبة واحدة لأن له حقيقة تجمعه، وهي حقيقة المصطفى ﷺ كما أشار إلى ذلك حديث جابر: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر»^(١) ويعرف كيف امتد بسط العالم من هذا النور من غير زيادة في نفسه ولا نقصان، ويقرب لهم فهم ذلك بكيفية تركيب الألف من النقطة من غير زيادة في نفس النقطة، وتركيب الحروف في الألف من غير زيادة في نفس الألف، وظهور المعنى من تركيب الحروف من غير زيادة في نفس الحروف.

وفي هذا الإشارة إلى القول بأن كل ما في الكتب المنزلة فهو في القرآن، وكل ما في القرآن فهو في الفاتحة، وكل ما في الفاتحة فهو في بسم الله الرحمن الرحيم، كل ما في بسم الله الرحمن الرحيم فهو في الباء، وكل ما في الباء فهو في النقطة التي تحت الباء، وفي هذا أيضًا إشارة إلى ارتباط المراتب كلها ببعضها، وفناء البعض بالبعض، ويظهر له أيضًا صفة الإنسان الكامل الذي هو الأدمي واندراج الكل في كماله، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله ﷺ: «كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد»^(٢).

وقد أشار إلى ذلك أيضًا سلطان العاشقين عمر بن الفارض على لسان الحضرة النبوية بقوله:

(١) انظر: «الجزء المفقود من الجزء الأول من مصنف عبد الرزاق» (ص ٦٣) و«شرف المصطفى» للحرثي (٧٠٣/١) و«كشف الخفاء» للمجلوني (٣١١/١) و«المواهب اللدنية» للقسطلاني (٧١/١) و«مواكب ربيع» للحلواني (ص ٥٠) بتحقيقنا.

(٢) أخرجه ابن سعد (٥٩/٧) وابن أبي شيبة (٣٦٥٥٣) وابن قانع (٣١٧/١).

ولائي وإن كنت ابن آدم صورة. فلي فيه معنى شاهد بأبوني

ويقرب له المعنى إلى ذلك بكيفية واحدة السراج وانتشار نوره وتنوعه في الأجرام التي يتصل بها نوره، فإن اتصل بزجاجة خضراء يتراءى له أنه أخضر، أو بزجاجة حمراء يتراءى له أنه أحمر وهلم جرا، مع أنه لا تعدد في لونه في الحقيقة، وأن النور الذي انتشر من ذاته ليس هو ولا غيره، لأنه بوجوده يوجد وبعدمه يعدم.

ويظهر له أيضًا أن هذا العالم الثاني ليس غير هذا العالم، لأنه داخل في مابة العالم، فإذا تقرر له ذلك يتدبّر في كيفية ظهور وحدة الوجود، وهذه هي الغاية القصوى وهي طريقة أهل الدوائر الكبرى كسيدي الشيخ أحمد التجاني رحمه الله وابن العربي ونحوهما، ولا توجد طريقة بعدها ولا ثم أقرب منها، ولا أوسع في الرشد، لأن خلوة صاحبها الوجود كله ويتضح لك ذلك من قولهم: إذا جالست علماء الرسوم فصحح النقل، وإذا جالست الصوفية فاحفظ جوارحك، وإذا جالست أرباب الإرادة فاحفظ خواطرك، لأن الله تعالى يطلعهم على أكثرها، وإذا جالست العارفين الكمل فكن كما شئت، لأنك لا تكون في حالة عندهم إلا وفيها وجهة تعرف من الله والدليل على أن هذه الطريقة أقرب الطرق وأجمعها أنك تعلم أن مدار مقصد أهل الطرق الأولى وثمرتها الثقات القلب إلى الله تعالى وشغله به عن غيره، وما تم طريق من تلك الطرق تستغرق القلب وتدل على الله في كل شيء، وعند كل شيء، مثل هذه الطريقة، وإن أردت تمام ذلك فاجتمع على شيخ يسلك بك هذه الطريقة، ثم انظر هل تستحسن بعدها طريقًا أولًا، وإن لم يسره الله لك فاعتقدها تمل بركتها، ولا تكن ممن ينكر الشيء قبل معرفته وقبل وصوله، لأنك إذا لم تكن ممن يؤمن بالغيب لا تكن ممن يكذب بالغيب، وأهل هذه الطريقة قالوا: إن من أنكرها يحرم الوصول إليها بقية عمره أي مادام منكراً.

ظهور المصطفى ﷺ للصالحين بصور مختلفة كالرؤية المولدة

وأجمع أهل الكشف على أنه ما أنكر أحد أمرًا إلا حرم الوصول إليه، وفي «الإنسان الكامل» أن من أنكر شيئًا من علمنا هذا حرم الوصول إليه مادام منكراً، واعلم أن الإنسان لا ينتفع بشيخه إلا إذا رآه بعين الكمال، ولا يراه بعين الكمال إلا

إذا اعتقد أن جميع ما يفاض عليه من الحق بواسطته، ولا يتحقق له ذلك إلا إذا علم تطور المصطفى ﷺ في الوجود، لأنه الإنسان الكامل.

قال سيدي عبد الكريم الجيلي في الباب الستين من كتابه «الإنسان الكامل»: الإنسان الكامل هو محمد ﷺ وهو القطب الذي تدور عليه رحا الوجود من أوله إلى آخره، وأنه تنوع في ملابس ومظاهر تسمى بها باعتبار لباس، ولا يسمى بها اعتبار لباس آخر فاسمه الأصلي محمد ﷺ، وكنيته أبو القاسم ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين، وله اعتبارات ملابس أخرى، وله في كل زمان اسم لائق بلباسه في ذلك الزمان.

قال: وقد اجتمعت به ﷺ في صورة شيخي الشيخ إسماعيل الجبرتي، وكنت أعلم أنه النبي ﷺ وكنت أعلم أنه شيخي، وهذا من جملة مشاهد شهادته فيها يزيد لسنة ستة وسبعين وسبعمائة، فإذا ظهر لك هذا علمت أن المصطفى ﷺ هو محمد ابن عبد الله وهو حقيقة الوجود كله، فإن أردت أن تخرج شيئاً من الوجود عن حقيقته ظناً منك أنك سلكت معه مقام التعظيم خوفاً من أنك تخرج عن مقام تمييزه عن الحق، فقد أبطلت ما جاء به من غير شعور منك^(١) والذي فررت منه وقعت فيه هذا حكم حقيقته.

وأما حكم بشريته فإنك إذا جعلت شيئاً يداتيه في التعظيم فضلاً عن أن يساويه من العظماء فضلاً عن غيرهم فقد استصغرت عظيمًا، ووقعت في الذي يخاف منه أيضًا فطريق الخلاص والنجاة في هذا الأمر هو أن تعلم أن ثم شريعة وحقيقة، فيكون حكمك واعتقادك في ذاته الشريفة المبعوث بها لكافة الخلق بشهادة ﴿لَيَكُونَنَّ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، بشهادة قوله ﷺ: «بعثت إلى الخلق كافة»^(٢) على حسب ما تقتضيه الشريعة، ويكون حكمك واعتقادك في حقيقته بحسب ما تقتضيه الحقيقة من عدم خروج شيء من الموجودات عنها.

كما أشار إلى ذلك حديث جابر، حين سأله عن أول مخلوق فقال له: «أول ما

(١) [الممكن غير الواجب].

(٢) أخرجه مسلم (٥٢٣)، والترمذي (١٥٥٣٤).

خلق الله نور نبيك يا جابر فقسم ذلك النور... إلخ»^(١) فما أخرج ﷺ شيئاً من الموجودات عن ذلك النور المقسوم وغيره من الآيات والأحاديث الدالة على هذا المعنى، ولا بد في المخلوقات من مخلوق أول، وإلى ذلك الإشارة بقول سلطان العاشقين سيدي عمر بن الفارض على لسان الحضرة النبوية:

وإني وإن كنت ابن آدم صورةً فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

وإذا تقرر هذا عندك علمت أنه لا تثبت بنوته لأدم وأبوته إلا بهاتين الطريقتين المتقدمتين، ولا يتأتى ذلك إلا إذا ثبت تطوره في الموجودات، ومن جملة ما يثبت لك تطوره في الموجودات ما ورد من أنه ﷺ ظهر في الأرض باسمه محمد ﷺ، وفي السماء باسمه محمود، وفي الجنة باسمه عبد الكريم، وفي النار باسمه عبد الجبار، وعند الوحوش باسمه عبد الرازق، وعند الكل باسمه أبو القاسم، فإن علمت ذلك ظهر لك أن ثم شريعة وحقيقة، وأن لكل منهما حكماً وأنت إن أبطلت حكم أحدهما بحكم الأخرى يكون ذلك إبطالاً أيضاً للثاني أبطلت بها.

ومن ذلك يظهر لك أنك لم تحكم بشيء ولا على شيء ولست محكوماً لشيء، فإذا أراد الله تعالى هدايتك للصواب يعطيك عينين، عيناً تلاحظ بها حكم الشريعة، وعيناً تلاحظ بها حكم الحقيقة؛ لأنك إذا لم ترزق الجمع بينهما ربما أذاك ذلك إلى أن تجعل مع الله شريكاً في فعله أو تعارض الرسل فيما أتوا به بزعمك أنه متناقض، والكل هو المحذور الذي يخاف منه، وذلك أنك تعلم أن الشريعة أمرت بنسبة كل حسن لله تعالى، وكل قبيح للعبد قال الله تعالى: ﴿مَا أَضَاهَاكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَضَاهَاكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] والحقيقة هي أن تنسب كل فعل لله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، ولهذا الفقه أشار ﷺ بقوله: «إذا أراد الله بعبد خيراً يقيه في الدين»^(٢)

(١) تقدم لخرجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢١)، والطبراني (٩٠٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٦٦١)، وابن عساكر (٣٤٢/٥٦).

وقال لابن عباس: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل.

ولعزة هذا المقام قال الحسن البصري لفرقد السنجي لما أخبره بشيء من الحقيقة وقال له الفقهاء يخالفونك، فقال له يا فرقد وهل رأيت فقيها قطا يعني أن الفقيه هو الذي جمع بين الشريعة والحقيقة ولأن من لم يجمعهما لا ينبغي أن يقال له فقيه، لأن معنى الفقيه هو الذي علم الشيء وأدركه، ومن أدرك الشريعة بدون الحقيقة فما أدركها على الوجه المطلوب ولذا قالوا شريعة بلا حقيقة عاطلة وحقيقة بلا شريعة باطلة، وقد قدمنا لك أن المطلوب إجراء حكميهما بين ذات المصطفى ﷺ البشرية المعظمة على سائر البرية وبين حقيقته الكلية الحائطة بكل جزئية، وأن من لم يفعل ذلك يقع في مثل الحكم الذي قدمناه لك من نسبة الحسن إلى الله والقيح إلى العبد، مع أن الكل صادر بقدره الله تعالى^(١).

وإذا فتح الله بصيرتك ونظرتك ﷺ بعين الشريعة والحقيقة، وظهر لك أنه ﷺ هو الإنسان الكامل الذي لا يظهر كماله إلا بكماله، وقد قبل الإنسان الكامل هو الاسم الأعظم، فمن هنا تعلم أن الكمال الذي ظهر في شيخك هو عين ذلك الكمال، ثم ينبغي لك أن تجري أحكام ذلك الكمال مع شيخك، ومن جملة أحكامه ما قدمنا لك من أنك لا تتفع بشيخك إلا إذا اعتقدت أن جميع ما يفاض عليك من الحق بواسطته، ولا يتحقق لك ذلك إلا إذا علمت أن ظهور كمال شيخك هو من ظهور كمال المصطفى ﷺ لأنك تعلم أن المصطفى ﷺ هو الوسطة بين الحق والخلق الذي لا تفاض رحمة على ذرة من الوجود إلا به، وإن لم تجر هذه الأحكام مع شيخك.

وترى أنك تحصل لك الإفاضة في بعض الأشياء من غيره، ولا ترى الإفاضة منه إلا في البعض فيصير بهذا الحكم ناقضا عندك من جهة وكاملا من أخرى، فحينئذ يتطلع قلبك إلى ما هو أكمل لتدرك به كمال النقص الذي تطلبه؛ فيرتفع قلبك عن شيخك بسبب النقص الذي فيه وتصير معه بالجسم فقط، قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤] فإذا ظفرت بمن هو أكمل

(١) [ولا تعارض بين أولية روحه ﷺ وبين تأخر بشرته].

يتراءى لك النقص فيه أيضًا فتطلب من هو أكمل منه، وهكذا إلى أن تنتهي إلى مراتب الرسل؛ لأنك تعلم يقينًا أنهم أكمل خلق الله.

ثم أنك بعد ذلك تعلم أن حقيقة الكمال حقيقة لله ويصير طلبك بهذا الطريق لعله هو عين البعد وذلك أنك تعلم أن الله تعالى جعل لكل شيء شيئًا، قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَأَنِتُّغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يبلغ خلقه بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٨] ولهذه الإشارة أمر باتباع الصحابة بعده بقوله ﷺ: «عليكم بستي وستة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»^(١) ويقول ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(٢).

ثم أشار بعد إتباع الصحابة إلى إتباع أئمة الهدى، وقد روي عن معاوية رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»^(٣).

وفي رواية: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»^(٤).

واعلم أن أهل الكشف حين رأوا ترتيب حكمة الله للوجود يربط بعضه ببعض، ولا يعقل له ظهور وجود إلا بذلك الربط، ومن جملة ذلك توسط الرسل بين الخلق والحق، وتوسط الأولياء بين الخلق والرسل بإذنه، وأنه لا وصول لأحد من الخلق إلى الحق إلا بهذه الرابطة، قالوا: لولا الوساطة لذهب - كما قيل - الموسوط ومن ظن أنه يتقرب إلى الله بغير هذه الوسائط فتقربه هو عين البعد، وهذا الذي حجب كثيرًا ممن تعلقوا بأهل الله عن الوصول، وسبب ذلك أنه يرى أن كمالهم ليس من كمال المصطفى ﷺ فيؤديه ذلك إلى أن يطلب أكمل منهم، فلم يزل كذلك حتى

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٦٨٨١).

(٢) أخرجه الأجرى في الشريعة (١١٤٨)، وابن بطة في الإبانة (٧٠٩)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٠٧٩).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٩٢٢)، والطبراني (٩١٠) قال الهيثمي (٢١٨/٥): رواه الطبراني بروايتين وإسنادهما ضعيف.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٥١) وأبو عوانة (٧١٥٣) والبيهقي (١٦٣٨٩).

(٥) [والبيعة القاهرة في انتقام أمر الدنيا أعظم منها البيعة التي يصلح بها الدين والروح وأمر الآخرة].

يجرّه ذلك إلى أن يطلب الحق من غير واسطة الخلق ويعمى عن حكمته في ربط الأسباب بعضها ببعض، فهناك يتيه في مهامه الهوى، ويسد عليه الحق تعالى بإيه؛ لأن من اتخذ إلهه هواه ضل عن الحق.

ولا تغلط أو تظن بوهمك أن هذا من باب التحجير على كل المريدين من أن أحدًا منهم إذا رأى طريقة أفضل من طريقته لا ينتقل إليها لا بل ليس الأمر كذلك؛ لأننا نحن فرضنا المسألة في كونه مقيمًا مع شيخه وقلبه متعلق بغيره ظانًا منه أنه أكمل من شيخه؛ لأنه حيثئذ يصير ناظرًا لشيخه بعين النقص؛ ولذلك يعين الكمال فلا يتفع بشيخه، كما قال سيدي عدي بن مسافر: لا نتفع بشيخك إلا إذا كان اعتقادك فيه فوق كل اعتقاد، فهناك يجعلك في حضوره، ويحفظك في معييه، ويهذبك بأخلاقه، ويؤدبك بإطراقه، وينور باطنك بإشراقه، وإن كان اعتقادك فيه ضعيفًا لا تشهد فيه شيئًا من ذلك بل تنعكس ظلمة باطنك عليك، فتشهد صفاته هي صفاتك، فلا تتفع به أبدًا ولو كان أعلى الأولياء درجة، انتهى من «الطبقات».

فمن اعتقد في شيخ أنه أكمل من شيخه، فيبغي له أن ينتقل حيثئذ إلى طريقته؛ لأن الانتقال من قربة إلى قربة أعلا منها جائز، ومن هذا ما قرره أهل الأصول أنك إذا كنت على مذهب من مذاهب الأئمة وظهرت لك أرجحية غيره منه يبين يتعين عليك الانتقال إليه؛ لأنهم لا يرون لتقليد المفضول مع وجود الأفضل وجهًا، وأوردت لك هذا مع أنه من أحكام أهل الظاهر؛ لأجل أن تنأسى بهم، وتعلم أن لهذا الحكم وجودًا في الظاهر والباطن.

وأيضًا لا يكون انتقاله برؤية النقص في شيخه بل من باب كون: «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» [يوسف: ٧٦] «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ» [الزخرف: ٣٢] وهذا من جملة ترتيب الحكمة الذي ذكرنا أن الله رتب الوجود عليها؛ لأن الخلق إذا تساوا في المرتبة والمزية صار تعلق بعضهم ببعض لطلب تلك المزية من تحصيل الحاصل، وإذا كان منصب الرسل الذي لا يقبل النقص جرت فيه هذه الحكمة وبه الله تعالى بقوله تعالى: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» [البقرة: ٢٥٣] فمن دونهم من باب أولى.

ولهذا لما انتهت الفضيلة إلى المصطفى ﷺ انسحبت الفضيلة على أمته فصارت أفضل الأمم، ولو خير الإنسان الآن بين الأمم لما اختار أن يكون من غيرها من غير

رؤية نقص في الرسل المتقدمين، ولذلك قال بعضهم في ترتيب اعتقاد الفضيلة أنه يعتقد أفضلية من غير مفضول؛ لأن المفضولية نقص والنقص لا يجوز في حق الرسل، وإذا اعتاص هذا على ذهنك، فاعلم أن ذهنك لا يقدر أن يقدر فضل واحد منهم مع معرفته تفاوت بعضهم بعضاً، ويسلم ذلك لحكمة الله التي ترتب الوجود بمقتضاها، فحيث إذا استصحب هذه الملحوظات التي قدمناها لك، فلا يكون انتقاله من باب المحذور الذي قدمناه أولاً.

ثم ترجع ونقول: إن أحكام طرق المشايخ متباينة، ولذلك قال بعضهم الشيخ في قومه كالنبي في أمته يعني لا يقاس حكم طريقته على حكم طريقة أخرى، فإذا جعل الولي من شروط طريقته أن من دخلها لا يخرج منها، وإذا خرج يحصل له المحذور الفلاني مثلاً، فينبغي للداخل أن يعول على هذا الشرط ويكتفي بها ولا يلتفت لغيرها، وإذا لم يعول على الشرط وظن أنه دخل في الطريقة المذكورة فقد كذب؛ لأن الشرط تابع للمشروط وجوداً وعدماً، وإن دخلها بقبول الشرط المتقدم.

وبعد ذلك ظهر له الانتقال إلى غيرها لميزة ظهرت له فيها، فلا يتوصل حيثئذ لتلك الميزة إلا بوجود المحذور المتقدم ذكره، وذلك ضرر فانتقاله حيثئذ ممنوع من طريق الأصول؛ لأنهم قالوا: دفع المضرة مقدم على جلب المصلحة، فلا يكون منعه حيثئذ من باب المحذور الذي تقدم في الكلام الأول، فلا يرخص له أيضاً بسبب الكلام المنقول بعده في جواز الانتقال؛ لأن حكم هذه الكيفية غير حكم القضيتين المتقدمتين وفي الحديث: «المؤمنون عند شروطهم»^(١).

وأيضاً أنت تعلم أنه ورد عنه ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء»^(٢) ومراده بالعلماء: العلماء بالله تعالى.

(١) حديث أنس: أخرجه الدارقطني (٢٨/٣)، والحاكم (٢٣١٠)، والبيهقي (١٤٢١٣).

وحديث عائشة: أخرجه الحاكم (٢٣١٠)، والبيهقي (١٤٢١٣).

حديث أبي هريرة: أخرجه البيهقي (١١٢١١) وابن الجارود (٦٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٦٣)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رضاء بن حيوة وليس هو عندي بم متصل. ثم أورد له إسناداً وقال هذا أصح. وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٩٦).

واعلم أن كل ولي على قدم نبي من الأنبياء؛ لأنه وارثه ويكون تفاوت فضل الأولياء الوارثين بحسب تفاوت فضل الأنبياء الموروثين، فيكون تفاضل أمم الأنبياء بحسب ذلك التفاضل، وأيضاً قد انسحب ذلك الحكم على الأولياء وأتباعهم. الأمر كذلك ووجدت وليين مثلاً وأطلعك الله بطريق الأخبار والكشف أن أحدهما على قدم سيدنا إبراهيم والآخر على قدم سيدنا موسى على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فينبغي لك أن تتبع من هو على قدم سيدنا إبراهيم دون الذي على قدم سيدنا موسى؛ لأن فضيلة أتباعهما بحسب فضيلة متبوعهما، وذلك لأنك تعلم أن سيدنا إبراهيم أفضل من سيدنا موسى، بل إبراهيم أبو المسلمين كلهم قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمُّكَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨].

وإذا كان هذا التفاوت فينبغي لك إذا ظفرت بالوارث المحمدي الذي هو على قدم سيد الوجود ﷺ أن تنتقل إلى طريقته، ولا تكثرث ولا تتأني ساعة واحدة؛ لأنك أتقاً قد علمت ما بين المقامات من البعد في كل شيء وتعلم أيضاً من مفهوم ما تقدم من جهة التعقل أنه لا يكون إلا واحداً؛ لأن كل الفضائل الظاهرة في الوجود منسجة على أهلها من كمال الحق وكل الوجود مظهر لوحدة الله (١) ثم المصطفى ﷺ هو سر لذلك المظهر، فظهر بسبب ذلك فرداً من أفراد بني آدم فانسحب مظهر تلك الفردية على الأفراد من الأجناس والأنواع والفصول، وذلك لأن كل شيء أقرب إليه ﷺ من غيره يكون هو ذلك الفرد الذي انتهت إليه الفضيلة، فانتهدت فضيلة الأجناس إلى الحيوان، وانتهدت فضيلة أنواع الحيوان إلى الإنسان، وانتهدت أنواع فصول الإنسان إليه ﷺ وتنوع الفضل في النوع الإنساني بحسب القرب إلى ذلك الفضل وأقرب إليه الرسل والأنبياء وانتهى فضلهم لأولى الناس به وهو إبراهيم (٢).

ثم بعد الرسل والأنبياء الصحابة فانتهدى فضلهم إلى واحد وهو سيدنا أبو بكر الصديق (٣)، ومن هنا تعلم أن هذا التفاوت فيه بنوع عظيم كما ورد أنه لو وزن

(١) بطريق الفضل لا اتحاد ولا حلول ولا تجسيد ولا تغير.

(٢) لأنه المثل الكامل للعبد الكامل وليس فيه من صفات الألوهية شيء، فإن الألوهية للموجب لا للممكن المخلوق فهو ﷺ أفضل المخلوقين.

إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح بها "مع أنك تعلم أن في الأمة سيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علي، الذين لو كانت الغايات تدرك لأدركوها، وهذا التفاضل سار في الزمان والمكان وسريانه بحسب قرب النسبة إليه ﷺ وهو من سر الوحدة.

أما في الزمان فهو لما كانت ليلة القدر أعطيت لهذه الأمة، وانتهى فضل الليالي إليها كما انتهى فضل الأيام في يوم الجمعة إذا وافق وقوف الأمة على عرفة.

وانتهى فضل الشهور إلى شهر رمضان الذي هو شهر هذه الأمة، ولا ينافي ذلك فضيلته على شهر رجب وشعبان المنسوب إلى الله ورسوله؛ لأن رجب وشعبان في الحقيقة كلها شهور الله، ولأن الكيفية التي يدرك بها فضل رمضان من صيام وقيام وغيرهما، فالمصطفى ﷺ هو السابق فيها على كل سابق فيصير الشهر له وللأمة، فمن هذه الحجة يتعقل فضيلة رمضان على غيره، وأن الفضيلة منسجة عليها من جهته ﷺ.

وكذلك الأمكنة فالأمكنة المفضلة على وجه الأرض ثلاثة: مكة جعل الله فيها بيته الحرام؛ لأنها مسقط رأس نبيه ﷺ ومحل نشأته وبعثته وعبادته، وبعدها المدينة المنورة؛ لأنها دار هجرته، وأما محل قبضته التي دفن فيها فبسبب أنها ضمت أعضائه الشريفة صارت أفضل من الكعبة وبيت المقدس والعرش والكرسي والجنة، وبيت المقدس؛ لأنه آخر بقعة صعد منها إلى السماء ليلة مسراه وهو محل إمامته للرسل ومحل بعثتهم ونشأتهم وهم نوابه.

ومن ذلك أيضًا أن ابنة فاطمة هي سيدة نساء الدنيا والآخرة، وابنه إبراهيم لو عاش لكان نبيا ولكن لا نبي بعده، ومؤذنه بلال سيد الموالى، وناقته العضباء أفضل الإبل وحمارة يعقور أو عفير أفضل الحمير، وبغلته دلدل أفضل البغال، وسيفه أفضل السيوف، وداره في الجنة أفضل ديار الجنة، فافهم وتأمل، فإنني قد فتحت لك بابًا عظيمًا من معرفته ﷺ فظهور حكمة الله في الأشياء بسببه، وكونه المقصود في الأشياء تنهي الفضيلة إلى فرد من أفراد، وذلك الفرد فيكون هو أقرب الأشياء إليه ﷺ وبسبب هذا القرب يكتسب ذلك الفضل.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٦)، وابن بطة في الإبانة (١٥٥)، عن سيدنا عمر ﷺ.

ومن هنا تعلم أن الأولياء لما كان كل واحد منهم على قدم نبي من الأنبياء يكون الولي الذي على قدمه ﷺ أقرب الأولياء إليه وأفضلهم، ولا يكون إلا واحداً لما قدمناه إليك من انتهاء فضل الأصناف إلى واحد؛ لأن الأولياء صنف من أمة وينبغي أن يكون هذا الولي في مقام لا يسبق، ومن جملة ذلك أن يكون من نسل الشريف؛ لأنه إن لم يكن من نسل الشريف كان مسبوقاً بفضل عظيم، وينبغي أيضاً أن تنسحب عليه بعض أحكام ظهوره ﷺ بأن تبقى طريقته آخر الطرق كما تصير ملته هي الملة الباقية.

ويكون هذا أيضاً ممد الأولياء كما كان ﷺ ممد الرسل، وإن تكون طريقته تمحو الطرق كما كانت ملته تمحو الملل، وأن يكون لاتباعه فضل على باقي الأمة كما كان لأمة ﷺ فضل على باقي أمم الرسل.

وأيضاً قال بعض العارفين: إن من نور الله بصيرته وأطلعه على بعض أسرار حكمته يعلم أنه لا يكون من أرض الحجاز؛ لأن نوابه ﷺ من الرسل وأكثر أولياء الله خارجون عن هذا القطر لحكمة وجود بيت الله فيهم قبل ظهوره ﷺ، وبعد ظهوره ارتبطت به ﷺ عقول الناس، فصار لا يظهر مع نوره ﷺ نور، وللإشارة إلى هذا السر، قال الله تعالى: ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

فالشام الذي هو محل أكثر رسل الله هو حد المغرب من المشرق، وما غربه معدود من المغرب والحجاز، وما دونه معدود من المشرق؛ فلأجل تقدمه ﷺ على الكل ومقابله للكل ورجحانه عليهم بدأ الله بالمشرق قبل المغرب؛ ولأجل حكمته في ظهور دينه ﷺ ذكر المغرب بعد المشرق؛ لأنه محل أكثر نوابه وأكابر أولياء أمة. ومما قررناه لك تفهم أن وارثه الذي هو قائم مقام النبوة عنه ﷺ يكون بالمغرب؛ لأنه إذا ظهر معه بالمشرق يخفى نوره بسببه ولا يظهر كل الظهور بسبب ما قدمناه آنفاً. وإذا تتبع ما قلناه وطلعت طبقات الأولياء، وتصفحت بلادهم وجدت أكثرهم خارجاً من مكة والمدينة، وتجدهم أكثرهم غرب الحجاز من الشام إلى مصر إلى المغرب الأقصى.

ومما يدل ذلك على ما قلناه أيضًا قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة»^(١) وهم بالمغرب، ولأجل ذلك اتفق أهل الكشف أن المهدي يخرج من المغرب، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»^(٢) رواه مسلم في «الصحيح».

ومن الدلائل أيضًا أنه لا بد أن يكون لوارثه ﷺ من العلوم اللدنية بغير تعلم ما ليس لغيره؛ لأنك تعلم أنه ﷺ هو النبي الأمي الذي لم يكتب.

ومما يستحسنه العقل أيضًا أن تكون ذات وارثه لها شبه بذاته كما ورد ذلك في المهدي يشبه ذاته ﷺ التي هي مرسومة في السمائل؛ لأن ذلك أبلغ في تمام الإرث، ويكون أيضًا سيره بقدرة السنة النبوية، ومن ذلك أيضًا أن الله يكسبه هيئة تعصمه عن أذية الناس وغير ذلك من الشواهد التي يطول ذكرها.

ومن أكبر الدلائل أيضًا وأقواها: ظهور الخوارق الكبار التي ظهرت من بعض المعجزات للمصطفى ﷺ من ذلك إطلاعه على اللوح المحفوظ وأخذه علومه منه، ومنها أنه يأخذه علومه من المصطفى ﷺ بقفلة لا منامًا من غير واسطة ويعطيه كشفه على أنه الوارث المحمدي، ولا يعتمد أيضًا على كشفه في ذلك؛ لأن الكشف له أوجه كثيرة.

ومن طرقه أنه قد ادعى كثير من الأولياء المهدوية ومات ولم يصلها، وكثير منهم ادعى ورائته ﷺ، وأنت تعلم مما تقدم أن الوارث لا يكون إلا واحدًا فلا بد أيضًا مع الأوصاف المتقدمة أن يخبره ﷺ بقفلة لا منامًا أنه هو الوارث المحمدي والقطب المكتوم والفرد الجامع؛ لأن هذا المقام يعره أهل الله كلهم وكل واحد منهم يتمنى أن يكون له، فلا بد أن المصطفى ﷺ يخبر صاحبه بأنه هو حتى يتحقق له ذلك؛ لأن ابن العربي ترقى إلى أقصى مقامات الولاية حتى ظن أنه بلغ ذلك المقام الذي ما بعده مقام وهو مقام ختم الولاية، وأنشأ يقول:

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠)، والترمذي (٢٢٢٩)، وابن ماجه (١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٧).

بنا ختم الله الولاية فانتهت إلينا فلا عثم يكون لها بعدي

وما فاز بالختم الذي لمحمد من أمته والعلم إلا أنا وحدي

ثم ظهر له بعد ذلك هذا المقام المعلوم الذي هو فوق مقامات الأولياء كلهم، وهو مقام الختم الذي هو للوارث المحمدي، فطلب الوصول إليه، فقبل له: ليس لك ذلك إنما هو لولي يكون في آخر الزمان ليس ولي أكرم على الله منه.

وأما سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمه الله وأرضاء فقد أخبره المصطفى عليه السلام بقطة لا مناماً أنه هو الختم الوارث المحمدي، وهو القطب المكتوم والبرزخ المختوم، وأيضاً جميع ما تقدم لك من الأوصاف والعلامات التي تدل على الوارث متوفرة فيه وظاهرة عليه، ومن أدل دليل على ذلك أيضاً أنه عليه السلام مدّ له وسطاه وسبابته وقال له لا تزال روحي وروحك كهاتين، روحي تمتد الأنبياء والرسل وأشار إلى وسطاه وروحك تمتد الأولياء والأقطاب وأشار إلى سبابته.

ومن أدل دليل أيضاً عند من رزقه الله أدنى نور يدرك به الأشياء مناقبه التي خصه الله بها دون سائر الأولياء، ومناقب أتباعه الذين خصهم الله بها دون أتباع سائر الأولياء، فإن كل منقبة على حدتها تدل على أنه هو الوارث المحمدي الذي انتهت إليه الوراثة المخصوصة التي لا يشترك فيها اثنان كما أن مقامه عليه السلام في النبوة، والرسالة والولاية لا يشاركه فيها أحد من الأنبياء ولا الرسل.

المعرفة الخاصة

ومن كلامه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب الحق فريضة على كل مسلم»^(١)

(١) أخرجه ابن عدي (٢٠٢/١)، ترجمة ٤٨ أحمد بن هارون بن موسى) وقال: له نسخ موضوعة مناكير ليس عند أحد منها شيء كنا نتهمه بوضعها. وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٧/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٦٥)، وابن عساكر (٣٤١/٥٢)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في الأوسط (٩)، وفي الصغير (٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣٢٣/٨)، والإسماعيلي في معجم الشيوخ (٧٧٥/٣)، والقضاعي (١٧٥)، والبزار (٩٤) وقال: هذا كذب ليس له أصل عن ثابت عن أنس فأما ما يذكر عن النبي ﷺ أنه قال طلب العلم فريضة على كل مسلم فقد روى عن أنس من غير وجه وكل ما يروى فيها عن أنس فغير صحيح. قلت: وهو حديث صحيح بشواهده.

رواه ابن ماجه وابن عبد البر في العلم عن أنس، فهذا الحديث صريح في فريضة طلب الحق ﷺ وطلبه هو معرفته، فإن الخلق مكلفون بمعرفة الله تعالى مع أن معرفته ﷻ على الوجه اللائق به لا تتأني لأنه كما قيل: لا يعرف الله إلا الله فقيدت هذه الفريضة بكون معرفة كل أحد بحسبه لأن إطلاقها يؤدي إلى تكليف ما لا يليق فاللائق بالإنسان أن يجتهد في تحصيل معرفته على حسب جهده وطاقته.

ثم يعرف أنه إنما عرفه بالمعرفة التي فطر عليها من جملة الخلق لأن الله تعالى فطر الخلق على معرفته سواء في ذلك الجماد والحيوان إلا أن معرفة كل بحسبه، فمعرفة الحيوان أتم لمزيد صفات المعاني الموجودة فيه، وإن كانت غير كاملة فيه، ومعرفة الإنسان أتم من سائر الحيوان والجماد إما لكمال أو لقبوله للكمال لمزيد العقل الذي سرى سره في سائر صفات المعاني الموجودة فيه، ولذلك كل بالمعرفة زيادة على ما في الفطرة الحيوانية وحاصله أن للإنسان معرفتين، أحدهما: المعرفة المفطور عليها من جملة الخلق الموجود في العالم الجسماني، والثاني: المعرفة التكليفية وهي التي يشارك فيها الجن والملائكة، وهي المودوعة في قابليته وهي: ﴿فَطَرَتْ أَتَمَّهُ أَتَى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

ففي المعرفة الأولى العامة في بني آدم وغيرهم يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا أَكْثَرًا﴾ [الرعد: ١٥] وفيها معًا يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] فصدر الآية دال على المعرفة الأولى العامة، وآخرها الذي هو قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] مشعر بأن هذه غير تلك، ثم أنه مما يعين الإنسان على التحقق بهذه المرتبة أن يشهد أن هذه المعارف إنما هي من الحق وإلى الحق، فيشهد أن كلامه وكلام غيره من كلام الحق ﷻ الذي كلم به الأشياء قبل ظهورها بقوله: ﴿كُنْ﴾ [يس: ٨٢] وأن يشهد سمعه في المسموعات أنه سمعها بسمع الذي تجلى به في حقائق الممكنات، فسمعت به خطاب الحق بقوله: ﴿كُنْ﴾ لو لم تسمعه لما وجدت.

ثم يشهد في بصره أنه باصر بنور الله تعالى المشار إليه بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] ثم يشهد في بصيرته التي تفرعت عنها جميع الإدراكات الحسية والمعنوية أنها من حضرة السعة وإليه الإشارة بما يروى: «ما

وسعني أرضي ولا سمائي، وسعني قلب عبدي المؤمن»^(١) وهلم جرًا. ثم مع ذلك فليعلم ويتحقق أنه قاصر عن معرفة الله تعالى بكل وجه وبكل اعتبار، لأن معرفته غايتها إنما تكون من طريق العقل والحواس، فأما الحواس فإن لكل حاسة منها حدًا لا تتجاوزه إلى غيره كالبصر، فإنه مقصور على المبصرات فيكون مفتقرًا إلى اللمس والسمع والذوق، وهكذا كل واحدة من الحواس الخمس مفتقرة إلى أخواتها قاصرة عنها.

وأما العقل فهو في البدن كالسراج، لأن منه تنوير سائر البدن فلا يتحرك البدن ولا يسكن إلا به، وكما أن السراج أيضًا مهبط أمالته الريح مال، فكذلك العقل وله إدراك من طريق الحواس وإدراك من طريق الفكر ينتج عن إدراك الحواس اللهم إلا أن العقل الناقص لا يسع إدراكات الحواس كلها في الزمن الواحد، إذا طرقت السمع مثلاً التفت إليه بكلية عما عداه من الحواس بحسب قوة ذلك الطارق وضعفه بالنسبة لما عداه، وهكذا سائر الحواس على حسب ورود التجليات الواردة عليه من جهتها.

وأما إدراكه من طريق الفكر هو إدراك الحواس القلبية لما يناسبها من عالم الغيب على حسب حالها في القوة والضعف، وهي القوة المصورة والمخيلة والمفكرة والحافظة والذاكرة وكلا الإدراكين ضعيف ففي ضعف إدراك العقل لضعف الحواس الظاهرة، وفي الثاني ضعف لضعف إدراكه لعالمي الخيال والمثال الذي يكون الإدراك بواسطتهما، ولا يكمل العقل في الإدراك إلا بعد المعرفة العيانية فإن صاحبها تنطبع بصيرته في سائر حواسه الظاهرة والباطنة، فيصير كأنه كله عقل فيتعدى إدراكه إلى أقصى العالم العلوي والسفلي إلى ما وراء ذلك حتى تكون العوالم ذاتية فيه، وفيه روي: «ما وسعني أرضي ولا سمائي وسعني قلب عبدي المؤمن»^(٢).

ثم بعد كماله إلى هذا الحد فإنما يكون إدراكه إلى الحق من جهة تجلياته في مكوناته التي هي قسم الممكن ولا سبيل له إلى الوصول إلى حقيقة الوجود في

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (١٤/٣)، وقال العراقي: لم أر له أصلاً.

(٢) تقدم في سابقه.

ماهيته، لأن هذا القسم الممكن البرزخية العظمى بين الوجود المطلق والعدم المطلق فلا هو هما، ولا هو غيرهما؛ لأن الإنسان حال الوجود الحقيقي يقول له لو كنت أنا لما ظهر لك ظل إذ الظل ظلمة والظلمة عدم، ولو كنت غيري لما ظهرت إلى الوجود ولسان حال عدم الحقيقي يقول له لو كنت أنا لما برزت إلى الوجود ولو كنت غيري لما ظهر لك ظل، إذ الظل ظلمة والظلمة عدم وهي من قسمي الممكن.

وحاصله أن يطون الذات عماء محض لا يتصور فيه الإدراك بوجه من الوجوه؛ لأن الذات في ماهيتها بعيدة عن العبارات والاعتبارات والتصورات، وإنما ظهورها بالصفات والذات اعتبارات في الصفات يعبر عنها عند العارفين بالكينونات، ومن الجملة لها كينونة في حضرتي الكلام والعلم وهما يتعلقان بالواجبات والجائزات والمستحيلات، ومن هذا المعنى أسرار لا يمكن إفشاؤها^(١) فعلم من مجموع ما قررناه أنه لا سبيل إلى إدراك الذات في ماهيتها، وإنما يتأني الإدراك من طريق الظهور.

ثم إن الإدراك من طريق الظهور لا يكمل إلا بالجمع بين مرتبتي التنزيه والتشبيه؛ لأن كلا منهما ورد بها النقل، وفي الأولى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ونظائرها من الآيات والأحاديث، وفي الثانية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَلَى الْعَرْشِ أُسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ونظائرها من الآيات والأحاديث الواردة بالمعاني التي تقتضي التشبيه من التشبش والضحك والعجب وغير ذلك.

فمتى انفرد الموجود بمرتبة التنزيه كان ناقصاً وهو توحيد أهل النظر ومتى انفرد المعتقد بمرتبة التشبيه كان كافراً كالمجسمة وأمثالهم، وإنما الصراط المستقيم الجمع بينهما بحيث أن لا يرى المشاهد في اجتماع الأضداد إلا الصراط المستقيم. وظهور الحق إنما يشهد في المظاهر، ففي المظاهر يشهد الحق ^{عَلَّاهُ}، إما في مرتبة وحدة الأفعال، وإما في مرتبة الأسماء والصفات أو الذات، ثم إنه لم يكمل الظهور في مرتبة من حقائق الأكوان كالحقيقة الإنسانية، ولذلك كان فيهم الكامل

(١) [لأن تصورهما لا يدرك إلا من فاقه ولا يمكن التعبير عن الموت مثلاً حيث لا يدرك إلا من فاقه، وكذلك أحوال المشاهدة والمواجه حتى بعض المحسوسات].

والأكمل كالرسل - عليهم الصلاة والسلام - فمن دونهم وكان فيهم الناقص والنازل إلى أسفل سافلين؛ كفرعون ونمرود الذين كانا يبدعيان الربوبية فتلك غاية في السعادة، وهذه غاية في الشقاوة وبينهما مراتب لا تحصى.

والسر في ذلك أن هذا النوع الإنساني هو محتد الخلافة العظمى، ولذلك سخر لهم الحق تعالى خلقه فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ خَبِيرًا ۝١٣﴾ [الباقية: ١٣] وذكرهم الحق تعالى أيضًا بالتكريم والتفضيل، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الاسراء: ٧٠] والعلة في هذا التفضيل والتكريم والكمال خلقه على الصورة التي هي مرتبة ظهور الحق ﷻ، وهي الحقيقة المحمدية، ومن هذا القول ورد قوله ﷻ: «إن الله خلق آدم على صورته»^(١).

ثم انتهى هذا الكمال والفضل والتكريم إليه ﷻ فهو منه وإليه فله جميع المناصب الإنسانية التي هي النبوة والرسالة والولاية بالأصالة ولغيره من بني آدم من طريق الإرث عنه ﷻ ولهذا الكمال والفضل والجامعية فيه ﷻ التي بها صار مظهر كمالات الحق ﷻ، فانسحب هذا السر على بشرته ﷻ فكان يرى أنه كل الوجود ووجهة الحق الحقيقية والحقيقة الجامعة للمراتب كلها من تجليات الجلال والجمال التي من مطلب في غيرها الحق وانقطع وانفصل وضاع سعيه وخسر عمله.

ومن أكمل أهل هذه المرتبة سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ ومنهم من يراه في مرتبة التنزيه اللائق بمرتبة الرسالة، ثم يترقى من ذلك إلى أن يراه أكمل الخلق وأفضلهم من الرسل وغيرهم، ومنهم من يراه في ما دون هذه المرتبة، ومنهم من يراه على عكس هذه المراتب التي تقدمت، كمن يرى أنه يتيم بني عبد المطلب كأبي جهل ونحوه من كفار قريش ومن جرى مجراهم، والكل صادق عليه؛ لأنه المظهر الجامع لتجلي الجلال والجمال الإلهيين.

والنوع الإنساني أيضًا مظهر القبضتين السعادة والشقاوة، فمن هنا اختلفت أغراض الخلق فمنهم من قصده في مظهر جماله، والذي هو قسم السعادة الأبدية والحياة الطيبة السرمدية، فاقتفاء آثاره بقدر خطوته ومكانته إما بالتبعية إلى نوابه

(١) أخرجه البخاري (٢٤٢٠)، ومسلم (٢٦١٢).

(٢) [متصفًا بالعلم والقدرة بنسبه والسمع والبصر وغير ذلك].

- عليهم الصلاة والسلام - كالأمم السابقة فهم تابعون له ﷺ لأنهم لو اجتمعوا به ﷺ لاتبعوه كما أخبرهم أنبياءهم بذلك؛ لأن الأنبياء هم أخبروهم أنه سيأتي نبي في آخر الزمان صفته كذا وكذا ليس نبي أكرم على الله منه، وهو مذكور عندهم في كتبهم؛ كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي أَنزَلَ مَكْنُوتًا عِنْدَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فسياق الآيات الأول خاص بهم عام فيهم وغيرهم فسماعهم الله متبعين له ﷺ.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَتَمُّةً أُحَدَّثُ﴾ [الصف: ٦].
وقال بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

فمن تولى بعد ذلك الإقرار المشبوت بشهادة الله تعالى وشهادتهم على أنفسهم، فمن تولى أي: من أمهم فأولئك هم الفاسقون؛ لأنك تعلم أن الأنبياء معصومين، وإما بالتبعية له ﷺ كأمته المشرقة رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن طلب الحق تعالى من هذه الوجهة مجرداً عن التبعية له ﷺ في أحد هذين المعنيين ضاع سعيه وخسر عمله، ولا يزداد من الله إلا بعداً إلا أن أهل الشقاوة يتفاوتون في البعد كما أن أهل السعادة يتفاوتون في القرب ولذلك اختلفت مراتب الكفار، فكان أقربهم نسبة إلى المؤمنين أهل الكتاب بأن كانوا أقرب نسبة من المجوس، ثم خصص منهم النصاري؛ لأنهم كانوا أقرب نسبة من الكل؛ لأنهم جمعوا بين الإيمان وعيسى فهو وإن كان على وجه لم يقبل منهم، ففي الجملة لهم نسبة ما لتصديقهم هذه الوسائط.

الأبوة الروحية

ومن كلامه ﷺ قال: قال الله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَنبَاهِمَ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] والأبوة على قسمين: روحانية وجسمانية، فالأبوة الجسمانية: هي المشهودة بطريق التناسل الحيواني في الحيوانات كلها، ومن ذلك أبوة آدم ﷺ وأبوة بنه إلى قيام الساعة وهي الملحوظة بالتخصيص الإلهي؛ لأن هذا النوع الإنساني هو محل نظر الله من الخلق، ولأجله خلقت المخلوقات وسخرت له كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الباقية: ١٣] وهو

الحامل لأمانة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وبه عمارة الدارين والغير لهم تبع وهم المقصودون بالتكليف الإلهي الشرعي.

والجن لهم تبع أيضاً، ولذلك أكد الله تعالى في شأن هذه الأبوة الإنسانية حيث قرنها مع عبادته، فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَوَضَّيْنَا لِلْإِنْسَانِ يُولَدُهُ حُسْنًا وَإِنْ يَنْهَازْكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: ٨] ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [القمان: ١٥].

وكذلك ما روي في وجوب طاعة الوالدين ولو كانا كافرين إلا فيما لا يرضي الله.

وأما الأبوة الروحانية: فهي أبوة محمد ﷺ، وهي عامة وخاصة، فالعامة: هي الشاملة لجميع أفراد العالم وأجناسه وأشباحه وأرواحه من بني آدم والملائكة والجن وغيرهم من سائر المخلوقات، وسواء في ذلك المؤمن والكافر، وفيها يقول سيدنا عمر بن الفارض ﷺ متكلماً على لسان الحقيقة المحمدية:

وَأَنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنُ آدَمَ صُورَةً فَلِي فِيهِ مَعْنَى شَاهِدٌ بِأَبُوتِي

وإنما تفاوت ظهورها في الخلق، وظهورها في الحيوانات أتم منه في الجمادات، وظهورها في العقلاء أتم من غيرهم كذلك.

وأما أبوة الخاصة: فهي أبوة الإيمان؛ لأن الإيمان هو المقصد الأعلى من جميع الخلق، ولأجله خلقت بنو آدم وغيرهم بالنسبة لما في بساط الحكمة، وفيه يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال بعض العارفين: أي ليعرفوني والمراد بالعبادة المعرفة إلا أن الخلق متفاوتون في هذه الخصوصية، وهذه الأبوة هي المخصوصة بولاية الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

هذه ومن خصائص هذه الأبوة أن الأب فيها أولى بالابن من نفسه، ومن هذا القليل ورد قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وانسحب حكم هذه الأولوية على الروح والجسد، فأما الروح فلأنها إنما تستمد نور

إيمانها من مشكاة نور إيمانه ﷺ من غير انفصال عنه ﷺ، وهو لها كالروح للجسد بل هو ﷺ صورة ذلك الإيمان وجوهره بالنظر إلى الحقيقة.

وأما الجسد فلأنه إنما جعل مطية للروح تركب عليه لتؤدي به التكاليف الشرعية التي هي فروع الإيمان.

ثم إنه لا تكمل أبوة الإيمان إلا لمن شهد أبوته ﷺ على جميع العالم في مراتب اليقين، أما في مرتبة علم اليقين وهي أعلاها، ثم إن مبادئ هذه المرتبة هو الاستهلاك الكلي بفناء العبد في حقيقة الأبوة لفناء غيرها، وهو أيضاً ناقص حتى يترقى منها إلى مرتبة الصحو والبقاء، فيعطي العراتب حقها حقية وخلقية فهناك يلتحق بدرجة الكمل، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

فإذا فهمت هذا يظهر لك أن الأبوة الجسمية فرع عن هذه الأبوة الروحية وأداء حقها فرعاً عن أداء حقها أيضاً، فأما كونها فرعاً عنها فمعلوم مما قررنا، وأما كون أداء حقها فرعاً عن أداء حقها فلأن أداء حق الأبوة الروحانية هو تقديم الشارع على النفس المشار إليه بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا بِالْمُؤْمِنَةِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وهو يستلزم ترك الأهوية لهواه.

وأكد من ذلك قوله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواء تهباً لما جئت به» وهذا التقديم للشارع وموافقة هواء هما الموجبات للقيام بأداء حق الأبوة الحسية، لأن هوى الشارع هو التكاليف الشرعية، وأداء حق الأبوة الحسية فرع من فروعها.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن لهذه الأبوة الروحانية تناسلاً كما أن للأبوة الحسية تناسلاً، وذلك مقتضى الحكمة الإلهية في وضع الوسائط والأسباب، ومنشأ ذلك ثلاث مراتب منحصرة فيه ﷺ، وهو النبوة والرسالة والولاية، فولايته ﷺ هي التي تلي جهة الحق ﷻ، وهي حضرة جمع الجمع والروح الكلي، وحقيقة جمع الحقائق وهي باطن نبوته ورسالته ﷺ، ورسالته ﷺ هي التي تلي جانب الحق وهي مستمدة من نبوته ﷺ، كما أن نبوته ﷺ مستمدة من ولايته، وورثه في هذه المراتب الثلاث طوائف ثلاث:

(١) أخرجه الحكيم (١٦٤/٤)، والخطيب (٣٦٨/٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١٥).

الأولى: طائفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ورثوه في مرتبة الرسالة، وكانوا أفضل وأكمل من الطائفتين، فجمعهم بين المراتب الثلاثة لتوقف الرسالة على النبوة والولاية، فكل رسول نبي وولي ولا عكس.

والثانية طائفة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وارثون في مرتبة النبوة وفازوا بدرجة الأكملية والأفضلية بعد الرسل عليهم السلام؛ لأنهم جمعوا بين النبوة والولاية لتوقف النبوة على الولاية وورثه في مرتبة الولاية الأولياء، وكانوا أكمل الخلق وأفضلهم بعد الطائفتين السابقتين، وهذا الحكم أغلى وإلا فقد يخص الله المفضلون بمزية لم يتلها الفاضل كالصحابة رضوان الله عليهم، فإنهم اختصوا برويته ﷺ في دار الدنيا وصحته ونصرته، وبذلك اختصوا بمزايا لم يتلها الأنبياء ولا الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وفازوا بدرجة الأفضلية على من بعدهم إلى قيام الساعة بل عامتهم أفضل من أكابر الأقطاب، فكل ما يذكر في أفضلية الأولياء فالصحابة أعلى وأسمى منه، وإذا كان ثم من أمة محمد ﷺ من يقول في وصف أصحابه البيضة منا بألف والفرخ لا يقوم، ومع ذلك ففي أمة ﷺ من هو أكمل منه، فما بالك بأصحابه ﷺ فمما أظهر من فضلهم ﷺ أنه قال: «إن الله اصطفى أصحابي على سائر العالمين ما عدا النبيين والمرسلين»^(١).

وقال ﷺ فيهم أيضًا: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(٢). وقد قال سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ في «جواهر المعاني» عند قوله: «وسألته ﷺ عن تفضيل الصحابي الذي لم يفتح عليه، وعن القطب من غير الصحابة؟». فأجاب ﷺ بقوله: «اختلف الناس في تفضيل الصحابي الذي لم يفتح عليه على القطب من غير الصحابة»^(٣) فذهبت طائفة إلى تفضيل الصحابي، وذهبت طائفة

(١) أخرجه الخطيب (١٦٢/٣) وقال: غريب. وابن عساكر (٢٠٧/٣٠)، وابن جرير الطبري في صريح السنة (٢٣). قال المزني في تهذيب الكمال (١٠٤/١٥)، والحافظ في تهذيب التهذيب (٢٢٧/٥): الحديث بطوله موضوع.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٥٤١).

(٣) لما جاء عنه ﷺ: «هاتي أيام للعامل فيهن أجر خمسين قبل: منهم أو منا يا رسول الله؟ قال: بل منكم» رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي ثعلبة.

إلى تفضيل القطب، والراجح تفضيل الصحابي على القطب بدليل قوله ﷺ: «إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النيين والمرسلين»^(١) رواه البزار عن جابر بن عبد الله بسند رجاله ثقات ووراء ذلك ما لا تدركه العقول، ولا تحيط به النقول.

ثم إن استمداد هذه الطوائف منه ﷺ بطريق التناسل الروحاني، ففي كل طائفة منها الفاضل والمفضول، والواسطة والموسوط، حتى تنتهي الأفضلية والأكملية إلى فرد من تلك الطائفة، ويكون ذلك الفرد هو وارثه ﷺ إما في مرتبة النبوة، وإما في مرتبة الرسالة، وإما في مرتبة الولاية، فالأولياء من هذه الحيثية على أقدام الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

(١) أخرجه البزار (٣/ ٢٧٦٣)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٤١)، والخطيب في «التاريخ» (٣/ ١٦٢)، وفي «الموضح» (٢/ ٢٨٠) من طريق عبد الله بن صالح، ثنا نافع بن يزيد، حدثني أبو عقيل زهرة بن معبد، عن سعيد بن المسيب، عن جابر مرفوعاً فذكره. قال البزار «لا تعلمه بروي عن جابر إلا بهذا الإسناد، ولم يشارك عبد الله بن صالح في روايته هذه عن نافع بن يزيد أحد تعلمه».

قلت: قد توبع عبد الله بن صالح عليه. أخرجه الخطيب في «الموضح» (٢/ ٢٨٠) من طريق أبي العباس الأثرم، محمد بن أحمد، حدثنا علي بن داود القنطري، حدثنا سعيد بن أبي مريم وعبد الله بن صالح، عن نافع فذكره. ولكن يبدو أن هذه المتابعة لا تثبت، فقد قال أحمد بن محمد الشري: «سألت أبا زرعة عن حديث زهرة بن معبد في الفضائل، فقال: باطل، وضعه خالد المصري، ودله في كتاب أبي صالح فقلت: فمن رواه عن سعيد بن أبي مريم؟ قال: هذا كذاب، قد كان محمد بن الحارث العسكري حدثني به عن أبي صالح وسعيد» فعلق الذهبي بقوله: «قلت: قد رواه ثقة عن الشيخين، فلعله مما أدخل على نافع، مع أن نافع بن يزيد صدوق بقطر انتهى. قلت: فيظهر مما سبق أن متابعة سعيد بن أبي مريم لا تصح، إنما هي مفتعلة ثم ألصقت بالثقات، وبقي عبد الله بن صالح وقد تفرد بالحديث، وكما يظهر أنه أدخل عليه بسبب غفلته فحدث به. قال الذهبي: «قامت عليه القيامة» قال أبو زرعة: «بلي أبو صالح بخالد بن نجيع في حديث زهرة بن معبد، عن سعيد وليس له أصل». وقال النسائي: «حديث موضوع». أما الحافظ ابن حجر فقال في «الإصابة» (١٣/ ١): «رجالاه مؤثنون» وقال الهيثمي (١٠/ ١٦): «رجالاه ثقات، وفي بعضهم خلاف» فهذا لا يعارض ما تقدم. والله أعلم.

فإذا فهمت هذا يظهر لك أن من ورثوا هذه المراتب الثلاث منه ﷺ ثلاثة أحدهم وارثه ﷺ في مرتبة الرسالة، والثاني وارثه في مرتبة النبوة، والثالث وارثه في مرتبة الولاية. فكل واحد من وارثيه في المراتب الثلاث يكون لتلك الطائفة المتناسقة عنه أباً ثانياً بعد أبوته ﷺ.

فمن هذه الحيشة لازال الأولياء - رضوان الله عليهم - يعلمون مقام خاتم الولاية من كونه فائقاً لجميع مقامات الولاية، ويتمنى كل واحد منهم أن يكون هو، ومنهم من ظهر في كشفه أنه هو ثم تبين له الأمر على خلاف ذلك، حتى ظهر به سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمه الله، بما ظهر له في كشفه من وجه لا مزية فيه، وشهد له النبي ﷺ بذلك، في رؤيته له يقظة لا مناماً، ودلت عليه إشارات الأولياء قديماً وحديثاً، ومما أظهر من الفضائل والمناقب في أصحابه، بحيث تكون نسبتهم إلى باقي الأمة المحمدية كنسبة الأمة المحمدية إلى الأمم الحاضية.

فعلى هذا فمن رأى أن سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمه الله هو الأب الثاني بعد أبوته ﷺ، يكون كأنه هو الأب الثالث لجميع الخلق، إذا كان متمسكاً بطريقته؛ إذ يكون حبيذاً متحقق النسبة إليه ﷺ، ومتعلقاً به بكل وجه وبكل اعتبار.

ثم بعد أبوته ﷺ أبوة المشايخ رضوان الله عليهم، وهي على قسمين: عامة وخاصة. فالعامة: هي المعهودة بطريق العلم الفظاهر الشرعي، فإنها أبوة أيضاً، وحقها أكد من حق الوالدين كما هو مقرر في محاله.

والثانية الأبوة الخاصة وهي أبوة المشايخ الكاملين، وحقهم أكد من الكل؛ لأن أبوتهم هي الأبوة الروحانية التي تحصل من طريق الإرث النبوي، ولقد قدمنا لك الكلام فيما بين أبوته ﷺ وأبوة آدم عليه السلام، فليفسر ذا بذاك.

إلا أن الناس في صفة المشايخ على أقسام: فمنهم من يصحب الشيخ على أن يذله على الطريق ويسير هو بنفسه.

ومنهم من يرى أنه بمنزلة المريض والشيخ بمنزلة الطبيب، فيسلم إليه نفسه على أن يخلصه من تلك العلل التي أعرضته، والعلل في حقه هي العوائق القاطعة عن الله تعالى.

ومنهم من هبت عليه نسعات القرب، وحصل له الاسترسال في ميدان

الحقائق، فيعلم أن حقيقة الشيخ هو فرق الوجود وجمعه، فأما كونه فرق الوجود فإن جميع الكائنات قائمة بأسماء الله تعالى، وتمايزه في عين قيامها بالصور والمقادير والأزمنة والأمكنة وغير ذلك، والشيخ الكامل متحقق بتجليات جميع الأسماء الإلهية التي يطلبها وجود الكون وقوامه، وهو المدد لجميع الكائنات بسر تلك الأسماء والسر في ذلك التمايز، بحيث إنه سر اللطافة في اللطائف والكثافة في الكثائف، وغير ذلك من المعاني التي لا تحصى.

ومما يقرب لك الفهم في قيام الأكوان بالأسماء الإلهية وتحقق الشيخ بها أن تعلم أن جميع الموجودات ثابتة في حضرة العلم، وتخصيص ذلك الثبوت بالصور والمقادير والأزمنة والأمكنة وغير ذلك هو سر الإرادة، وإبراز ذلك التخصيص هو سر القدرة، وقوام ذلك الإبراز هو سر القومية، ودوام ذلك كله بحضرة الربوبية، وأما تحقق الشيخ بها فهو من كملت له المشاهدة، فيشهد أن جميع الأسماء طالبة له وبارزة عنه، بحيث يكون ذا وجهتين، وجهة إلى الحق ووجهة إلى الخلق، فمن حيث وجهته الحقية يشهد أن منتهى جميع الموجودات إلى الوحدة، وهو عين تلك الوحدة، ومن حيث وجهته إلى الخلق يشهد كثرة الأسماء ومطالبها من المؤثرات باختلاف المؤثرات باختلاف الأسماء، فالأولى تعطي أنه جميع الوجود، وهذه تعطي أنه جمع فرق الوجود.

وبعد أن يتحقق المرید أن الشيخ هو جمع الوجود وفرقه، فليعلم ويتحقق أن النبي ﷺ هو جمع جمع ذلك الوجود، والشيخ خليفة عنه في جميع ما ذكرناه، فيشعر أن النبي ﷺ هو الواسطة العظمى بين الحق والخلق، وأن الشيخ هو الواسطة بينه وبين النبي ﷺ وجل الناس جاهلون في حكم هذه الوسائط بين النبي ﷺ والشيخ، فتسمعهم يقولون لا رازق إلا الله وهذا حق، ولكن من يقطع النظر عن الواسطة بالكلية، فهو عن الحق بمعزل، ثم بعدما يتحقق أن النبي ﷺ هو جمع الجمع، فليعلم أن مرتبة كنه الحق ﷻ من وراء ذلك كله، بحيث إنها لا تدرك بالذوق ولا بالعقل، وأنه ليس لجميع الأولياء والعارفين والملائكة والنبیین إلا القسط بوجودها فقط، كما قيل من طلب أن يعرف الله تعالى في تلك المرتبة ضاع سعيه وخسر عمله وليس له إلا التعب.

ثم قال الشيخ ﷺ: وقد علمني الله تعالى بعد هذه المراتب أن مرتبة الشيخوخة،

ومرتبة النبي ﷺ ومرتبة الحقيقة، ألوفاً مكررة من المراتب، وحجب عني ألوفاً لا تحصى؛ لأن كمالات الحق لا نهاية لها وكلها من وراء العقل.

ثم لتعلم أن هذه الاعتقادات التي قدمناها لك في اختلاف الناس في صحة المشايخ المظلومة في حق الشيخ، هي السبب الباعث إلى محبة المشايخ، ومآلها كلها إلى الوصول إلى الله تعالى، وإنما تتفاوت في القرب والبعد، فكل من أدام السير وتوجه بها في إحداها تنتهي به إلى الأخرى، وخلاصتها كلها هي الأخيرة، وهي معرفة حقيقته ﷺ وحقيقة الشيخ.

والمعرفة في ذلك على مراتب؛ أولها: مرتبة علم اليقين.

والثانية: مرتبة عين اليقين.

والثالثة: مرتبة حق اليقين.

والرابعة: مرتبة حقيقة الحق، ووراء ذلك مما لا تكيفه العبارة.

ثم إن تحصيل تلك المراتب فأما مرتبة علم اليقين فبدوام التوجه والاسترسال في حضرة الشيخ والنبي ﷺ أو الحق ﷻ، والمذاكرة والتعلم، فبدوام ذلك كله يحصل الجزم واليقين؛ لأن من لازم فناء كما يقول أعطى ملكوته، ويكون ذلك مع عدم التعويل على حكم العقل فيما يخالف أرباب الشهود" ورد نظره ودواعيه ودعاويه عليه.

وأما مرتبة عين اليقين: فبدوام الإقبال إلى ما اتقدح من علم اليقين من غير فتور ولا نفور، وصرف جميع الصوارف والقواطع، وبدوام ذلك كله أيضاً ينتهي إلى مرتبة حق اليقين.

وأما آداب المريد مع الشيخ، فمنها المحبة وهي الأساس الأعظم؛ لأنها هي العقدة الرابطة بين الشيخ والمريد، فإذا انحلت انحلت جميع العقد التي بينهما. ومنها: تعظيم جنابه بحيث ألا يرى من يساويه في مرتبته، فقد قيل: إن من ساوى بين رتبة الشيخ وبين رتب سائر الأولياء كمن ساوى بين رتبة نبيه محمد ﷺ وبين رتب سائر الأنبياء فهو عنوان على احتجابه والعياذ بالله.

(١) (في مواطن جواز غطاء).

ومنها: أن ينقطع إليه بقلبه وقاله بحيث لا يشرك معه شيخاً آخر في الأخذ، ولا في الاستمداد عنه ولا في المحبة فمن كلام سيدي علي وفا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَحْكُومِينَ لَنَنبَأَنَّ مِنَ الْجَبَالِ﴾ [إبراهيم: ١٦] قال عليه السلام: كما أن الجبال لا يزيلها عن أماكنها إلا الشوك بالله تعالى، كذلك قلب العارف لا يزيله عن مريد إلا الشوك.

قال سيدي محيي الدين بن العربي عليه السلام: لا يفلح مريد بين شيخين كما لا يصلح عالم بين إلهين، ولا مكلف بين رسولين، إشارة إلى اتحاد هذه المراتب الثلاث. ثم قال عليه السلام: ولا امرأة بين زوجين على جهة التمثيل.

ومنها: مطاوعة أمره سرّاً وجهراً، فقد علمت مما قدمنا لك أنه خليفة النبي عليه السلام، وقد قال الله تعالى في حق نبيه عليه السلام: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] وللخليفة ما للمخلف، كما أن للوارث ما للموروث، بل هو الوارث الحقيقي، ثم بعدما يتمسك بهذه الآداب حسب جهده وطاقته، فليعلم ويتحقق أنه لو بلغ في ذلك ما بلغ لما أتى على أقل قليل بما يستحقه حضرة الشيخ منه فصحيح الاعتقاد تجد المراد والسلام. انتهى.

واعلم أنني كنت سابقاً أعتقد أن علم الظاهر حجاب لأهله عن صحبة المشايخ لما يرون منهم من الأمور المناقضة لما عندهم من العلم، وأن العامة الجاهلين سالمون من ذلك لخلوهم عن تلك العلة، ثم تظاهر لي أن لكل من أهل العلم وأهل الجهل آفة تخصه، وإن كان حجاب أهل العلم الظاهر أكثف، ومما حضرني من آفات أهل الجهل، فإن منهم من يزهد في صحبة المشايخ على الوجه المطلوب، أو يكدر عليه الدوام عليها، عدم معرفة عزة المطلوب فيظنه شيئاً هيناً فيؤديه ظنه إلى استعظام صحبته، وما يلزم فيها من التكاليف المناقضة لهواه في جنب ما هو طالب فينقطع.

ومنهم من يكدر عليه ذلك اعتقاد لزوم ظهور الكرامات المشهورة عن الأولياء، مثل الطيران في الهواء والمشي على الماء وطى الزمان والمكان وغيرها، على كل من بلغ درجة الولاية، وحيث لا يرى ظهورها من شيخه يتشوش خاطره فينقطع. ومنهم من يكون مؤثراً لأغراض نفسه، من الميل إلى الراحة والعكوف على الشهوات، والرفاهية في الطعام والشراب واللباس، معتاداً لذلك فتتغير عادته مع الشيخ أو يتوقع تغييرها فينقطع.

ومنهم من تحكمت في عقله الموازين العادية التي اتخذها الناس [.....]، وذلك كما يرون من لزوم كل من ينتمي إلى الخير والصلاح أن يكون متحملاً للآذى، وصابراً وراضياً بكل ما يجري من الخلق، سواء كان فيه فساد ديني أو دنيوي، وأن يكون متظاهراً بالزهد ملازماً للمخلوات، متقطعاً لما يجري عليه من منافع الخلق مثل الهدايا وإجارات المزائم والزكوات ونحوها.

فتحت الكلام مع الشيخ ومرادي أن أسرد له هذه العلل التي امتحنتها، بأن قلت له يا سيدي إني كنت سابقاً أعتقد أن العلم الظاهر حجاب لأهله عن صحة المشايخ، وأن العامة متأهلون للصحة لخلوهم عنه، فبدأ لي الآن لكل منهم آفة، ولم أكمل معه الكلام إلى آخره.

فقال لي: إن الآفة كلها في دعوى العلم فإن صاحب الجهل البسيط بجهله متبرئ من الدعوى، لا ينازع في شيء، ولا يدعي معرفة شيء، وتكون معرفته بجهله وسيلة إلى تصديق المشايخ، واستحسان كل ما يصدر منهم من قول أو فعل.

وأما صاحب الجهل المركب، وهو الجاهل بجهله، وصاحب العلم الظاهر، إنما دخلت عليهم الآفة من جهة الدعوى، لاعتمادهم على موازينهم، فهذا يزن المشايخ بميزان علمه، وذلك يزنهم بميزان عقله، فصدوا وأعرضوا وضلوا وأضلوا؛ لأن كلا منهما مستغني بما عنده من الموازين غير ناظر إلى ما وراءها، مع أن الله تعالى يقول: «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ عَظِيمٌ» [يوسف: ٧٦] فهذان لا تتأني لهم صحة المشايخ والانخراط في سلكهم إلا بعد الانفكاك عن وثاق هذه العلة.

ألا ترى الذين خالفوا الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لم يمنعهم من اتباعهم إلا موازين عقولهم كقولهم: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً» [المؤمنون: ٢٤].

وقولهم: «مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ» [الفرقان: ٧].

وقلت: والذي أخذته من كلام الشيخ أن ينبغي لمن صحب شيخاً أن يجعل جميع معلوماته المحتملة من قبيل الجهل المركب ليصح له بذلك الدخول في مرتبة الجهل البسيط، حتى يرى نفسه بمنزلة الجنين في وقت خروجه من بطن أمه

(١) يابض في الأصل.

(٢) أو من حقق وجد أعمال الصالحين عين الشريعة.

حيث يقول الله تعالى في حقه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

ثم قال ﷺ لعلك عارف بأن الجهل من تجل العمى، كما أن العلم من تجلي [...] العارف الكامل من استوفت فيه جميع التجليات حقها، فصارت فيه ذاتية، ويستلزم ذلك أن يكون متحققاً بتجليات العمى كما يكون متحققاً بتجليات الظهور لاستوائها فيه، فمن هذا القليل ترى المعارف تظهر المعرفة فيه في جميع أطواره من أقوال وأفعال وأحوال لقوة سلطان الظهور، وتارة تراه كالجاهل الذي لا يفقه شيئاً لقوة سلطان العمى، وتارة قريب من هذا، وتارة قريب من ذاك، وتارة قريب من ذلك، وهذا هو المراد بما قاله العارفون رضوان الله عليهم: الشهود لا يدوم؛ إذ لو دام له شهود لبطل في حقه ظهور العمى.

وقد سمعت منه ﷺ مرة أخرى ما يقتضي أن الشهود الذي لا يدوم في حق كل بحسبه، إما شهود الذات في مرتبة الأحدية أو الصفات والأسماء والأفعال، وعليه يحمل قول من قال منهم: «منذ أربعين ما حجبت عن الله»، ومن قال: «لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عدت نفسي من المسلمين»، فيكون كلما حجب عن الحق أو رسول الله ﷺ في مرتبة يشهدها في ما دونه وهو وجيه.

ثم قال لي ﷺ: وكل ذلك لا يقتضي نزول العارف عن درجة المعرفة، أترى النائم في حال نومه يحكم له الإيمان أو الكفر، فقلت له: إن حالة النوم من حيث هي لا تقتضي إيماناً ولا كفرة، وإنما يحكم له بما كان عليه في حال اليقظة، فقال لي: وكذلك العارف يحكم له بالمعرفة في حال ظهور سلطان العمى ولأنها ميدانه والسلام. انتهى.

العلو للحق علو ذاتي لا يقابله سفل

اعلم أن ما ورد من الآيات والأخبار المذكور فيها العلو والفوقية في العلو المنسوب إلى الحق، وقد تنزهت ذاته عن الجهة، وقد غلط بعض الطوائف وأيدوا غلطهم بذكر الفوقية المنسوبة إليه تصريحاً وتلويحاً وذلك لقصور في أذهانهم؛ لأن

العلو الذي لا يشبهه علو وليس معه علو هو الذي لا يقابله سفل. وأما لو قابله سفل وفرض انتفاء ذلك السفل انتفى عنه العلو وانتفاء ذلك السفل لأنه لا يعلم علوه إلا بمقابله له، وإن فرضنا أيضًا له مقابل صار المقابل مماثلًا وكل ما جاز عليه المثل جاز على معائله، فتفرض له أيضًا علوًا فوقه، فيصير أسفل بالنسبة إليه فينتفي عنه العلو.

وأما العلو الحقيقي فهو الذي ليس معه شيء ولا فوقه شيء ولا تحته شيء. وهذا ثابت لله قبل وجود المخلوقات وبعدها، لحديث الأعرابي الذي سأل المصطفى ﷺ حيث قال له: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال: «كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَخْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ»^(١).

وأيد ذلك بقوله: «كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ»^(٢) وهو منزّه سبحانه عن التغيير فهو الآن ولا يزال على ما كان عليه في الأزل.

التفاوت في المعرفة

اعلم أن جميع الخلق عارفون بالله تعالى، لكن معرفة كل واحد منهم بحسبه لا بحسب ما يليق بمعرفة الله تعالى، كما قال بعض العارفين: إلهي ما عرفناك بحسبك ولكن عرفناك بحسبنا فكل بحسبه لا بحسب غيره.

فالمطلوب من كل عارف إذا عبر عن الشهود ألا يكون تعبيره إلا عن ذوقه فقط، بل أن حكى بحكى ما دونه في المراتب أيضًا، ليعلم الواقف أن أصحاب تلك المراتب لهم شهود أو معرفة أيضًا، لأنه لا يخلو أحد عن المعرفة بحسبه لا بحسب غيره كما تقدم، ومن هنا يعلم المتكلم في الشهود أنه شهد ولم يشهد لأن كمال الشهود لا يكون إلا بمجموع الشهود الذي تفرق في الأفراد حتى يكون شيئًا واحدًا، ومثال ذلك كإدراكنا للروح التي نعلم اتصافنا بها ولا نعرف حقيقتها لأن مجموع الأرواح روح واحدة، فكل واحد معه جزء من ذلك الروح الكلي، ومن عنده الجزء

(١) أخرجه أحمد (١٦٢٣٣)، وابن جرير في التفسير (٤/١٢)، والطبراني (١/٤٦٨)، وأبو الشيخ (٨٣) والطيالسي (١٠٩٣)، والترمذي (٣١٠٩)، وابن ماجه (١٨٢).

(٢) تقدم تخريجه.

لا يدرك الكلّي، فمن هذه الحبيثة غاب عنا إدراك حقيقتها مع علمنا بأنها فينا. فإذا تقرر لك هذا وعلمت تفاوت المراتب في المعرفة تعلم حيثئذ أنه لا أكمل فيها من شهود وحدة الوجود؛ لأن العارف فيها يكون هو العارف نفسه بنفسه، كما يشير إليه حديث «لا يزال عبيدي يتقرب إلي بالنوافل»^(١) لا حلول ولا اتحاد، وأما غيرها من المراتب فهو نقص بالنسبة إليها.

ومن أمكنه أن يتوصل إلى رتب الكمال فلم يسع إليها، وقنع بما دونها مع أنه يتعين عليه طلبها إن كان مستعداً له - أي: متأهلاً - وترك الطلب فهو كمن هو قادر عن الخروج عن التقليد بالنظر الصحيح الذي ينتج المعرفة ولم يفعل، انتهى.

واعلم أن التوحيد أربع درجات: إقرار باللسان من غير جزم، وإقرار مع جزم ورؤية صدور الأفعال الكثيرة من واحد، ورؤية الكثرة في الوحدة، وهذه هي الغاية، وقد يتوصل إلى شهودها من غير إدراك شهودها، ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفة المصطفى ﷺ، ولا سبيل إلى معرفته إلا بتصديقه في جميع ما جاء به ﷺ وإذا صدقته وتبعت ما جاء به تعلم أنه هو محمد بن عبد الله الذي هو فرد من أفراد بني آدم وأنه الوجود كله، وأن الوجود المعقول كله منه، وأنه فوق ذلك المعقول، وأنه الحجاب الأعظم الذي لا يتجاوزه عارف.

أما كونه محمد بن عبد الله فهذا معلوم عند الخاص والعام، وأما كونه الوجود كله، فمن ذلك كل ما ورد في حديث جابر، وأما كون الوجود المعقول كله منه فذلك؛ لأنه قسمة من نوره كما تقدم، وأما كونه فوق ذلك الوجود المعقول فلأنه وراء الحد الذي تقف عنده العقول، وأما كونه الحجاب الأعظم فلأنه الوساطة بين الحق والخلق، بدليل: «لولاك لولاك»^(٢).

وسأله ﷺ فقال له السائل: إن المصطفى ﷺ هو الوجود كله فهل يخفى عليه شيء في الوجود؟ فإن قلتم لا قلنا إن الذي ثبت من القرآن ومن سيرته يدل على ذلك، كما في قوله تعالى: «وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَعْتَكِرْتُمْ مِنَ الْخَيْرِ» [الأعراف: ١٨٨].

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٣٤٧)، والبيهقي (٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

(٢) ذكره السيوطي في «اللائن المصنوعة» (٢٤٩/١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] وغير ذلك من الآيات ولحديث تأييد النخل الذي قال لهم فيه «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(١).

وإن قلتم: نعم فما السر في ذلك؟

الجواب: والله الموفق للصواب.

اعلم أن هذا السر لا يدركه ولا يعلمه إلا من علم سر وحدة الوجود، وأن الوجود، كله مظهر للحق، وسبب وجوده هو ما اقتضاه الجمال والجلال، ومقتضى الجلال والجمال هو توجه حضرات الأسماء إليه بأجمعها، وأن حضرات الأسماء مرتبطة بعضها ببعض بحيث لو فرض نقص واحد منها لما وجد الوجود؛ لأن الوجود حيطة واحدة محكمة لا يتأنى فيها النقص ولا الزيادة، ولهذا المعنى أشار حجة الإسلام بقوله: «ليس في الإمكان أبدع مما كان».

ولكن لما كان تعلق حضرات الأسماء متبايناً؛ لأن مظهر بعضها ينافي مظهر الآخر، كالظاهر والباطن والضر والنافع والمعطي والمانع والمعز والمذل وغير ذلك، ظهر الوجود مختلفاً ومتبايناً؛ لأنه لو ظهر على نسق واحد لما ظهر سر البطون والظهور، ولما ظهرت الحكمة في القبضين، ولما تفاوت الوجود، وإذا لم يتفاوت الوجود لا بد أن يصير في رتبة واحدة، ولا بد أن تكون تلك الرتبة هي مظهر الجمال الذي هو مظهر الرحمة، أو هو مظهر الجلال الذي هو مظهر الانتقام، وكان ذلك يبطل الخوف والرجاء؛ لأن الخوف من الانتقام والرجاء للرحمة.

وإذا دقت النظر تعلم أنه إذا بطل أحدهما يبطل الآخر أيضاً؛ لأن الرجاء هو توقع ما عسى أن يكون، وإذا توقع الشيء يخشى ألا يعطيه ذلك الشيء، ولأجل ذا قالوا: إن الرجاء والخوف ممتزجان لا يوجد أحدهما بدون الآخر، وإذا كان كذلك لا يعقل إذا حكم الألوهية على المألوه؛ لأن المألوه هو المذلول المقهور تحت قهر الإله، وعزه وقهره لا يكون إلا بالخوف والرجاء لا بد لكل منهما أن يكون بسبب مقتضى ذلك هو الأمر والنهي، واتباع كل منهما لا بد أن يكون له سبب، وسبب

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٣).

ذلك العلم بالله والحجاب عن الله، والعلم لا يكون إلا من مقتضى الظهور، والحجاب لا يكون إلا من مقتضى الباطن، وكل منهما سبب في الآخر كما قدمنا في الخوف والرجاء لكن بوجه آخر، ومقتضى الظهور والباطن وما نشأ منهما هو مظهر كمال الألوهية.

ولما كان الإنسان هو نسخة الوجود وسره، ظهر فيه مقتضى الأمرين، ولأجل ذلك ركب الله فيه الشأنتين اللتين كل واحدة منهما قابلة ومقابلة لمقتضى أحد الأمرين، وهي اللطيفة الروحانية التي هي نورانية، والنور يقتضي الظهور، والجلبة البشرية التي هي مقتضى الكثافت، والكثيف هو مقتضى الحجاب، ومجموعهما هو مقتضى الحكمة والكمال كما قدمنا لك.

ولا يخرج عن مقتضى هذه الحكمة شيء من الوجود، فجميع ما تراه في الوجود من متفق ومختلف، ومتضاد ومتباين ومتساو، فهو من مظهر الحكمة بين مقتضى الظهور والباطن.

فإذا ظهر لك هذا وعلمت أنه هو عين الكمال، وأنه ما اجتمع ذلك الكمال إلا في الإنسان، لكن قد يجتمع في نوعه وفصله، وذلك الفصل الذي يجتمع فيه الإنسان الكامل، والإنسان الكامل هو الذي اجتمعت فيه الكمالات الإلهية هو سيد الوجود ﷺ، وأنت تعلم أيضًا أنه هو كل الوجود وأن الوجود هو مرآة الألوهية، وقد علمت أيضًا أنه هو فرد من أفراد ذلك الوجود، وأن ذلك الفرد لا بد أن يكون مرآة لكل كما كان الكل مرآة للألوهية. انتهى.

من الوصايا

ومن كلامه ﷺ في الوصايا: قال ﷺ قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] فالتعاون على البر والتقوى إنما يكون من أهله، بحيث أن يكون الأخ لأخيه، إذا نسي ذكره، وإذا غفل نبهه، وإذا جهل علمه، وإذا كسل نشطه، وإذا عجز أعانه، وذلك لأن للإنسان صفات مذمومة وصفات محمودة، وقد وصفه الله تعالى في معرض الأولى بقوله: ﴿فَتِلْكَ الْأَنسُ حُمَاتُهَا أَكْثَرُ﴾ [عبس: ١٧] وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شُكْرًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وفي معرض الثانية بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١] وذلك ناشئ عن أصل المزج الذي في أصل طبيته من خير وشر، لأن الأرواح من حيث هي هي كلها مخلوقة على غابة الصفاء والطهارة على نسبة واحدة، وإنما طرأت عليها الكدورات والظلمات من استقرارها في الأجسام الكثيفة، وتفاوتت في ورود الظلام عليها بحسب تفاوت الأجسام في الصفات الظلمانية، وتفاوتت في قبول الخير بحسب امتزاج الصفات الخيرية بها، وهذه الكيفية هي المعبر عنها بقوابل الطبيعة، ومن هناك انقسم الناس بين قبضتي اليمين والشمال، فريق في الجنة وفريق في السعير.

وكون الخير على درجات لا نهاية لها والشرك كذلك، وصف الله تعالى النفوس بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف مراتب النفوس في التحلي والتخلي بالخير والشر. فقال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وهي التي لا تزال ميالة إلى المعاصي والمخالفات، منقطعة عن الحضرة الإلهية.

وسماها أيضًا لؤامة، في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] وهي التي تأتي المعاصي والمخالفات ثم تلوم صاحبها على اتباع الهوى.

وسماها أيضًا مطمئنة، وهي التي اطمأنت للخير، وكان غالبًا عليها حكمه.

وسماها أيضًا راضية، وهي التي كمل رضاها على مولاهما فيما يورد عليها من مشقة التكاليف والبلايا والمحن.

وسماها أيضًا مرضية، وهي التي صار دأبها الأنس بالله والانقطاع له عما سواه، فكمّل رضاها بالله وكمّل رضا خالقها عليها، وفيها يقول تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

ثم إن هذا الإنسان بسبب هذا الامتزاج وتعدد هذه المراتب، صار لا يقر له قرار ولا يقدر أن يثبت على حالة واحدة أبدًا لأنه مجبول على خلقيتين: وهما الرغبة والرهبة، إحداهما: تسوقه بحث وانزعاج إلى المرتبة التي هو بسبيلها وهي الرغبة، والثانية: تخوفه من الانقطاع عنها والرجوع إلى ضدها، لأنه إن لم يكن في زيادة فهو في النقص لا محالة.

ونشأت عن هذين الخليتين خصلتان أخريان، إحداهما: هي الفرح الذي هو من

السرور والابتهاج بطيب التمتع بما أدركه، والثانية: الحزن على ما فاتته وهي الكآبة المقنضية لتكدير الخاطر والبال وتشويش الحال وهي ضد الأولى، ويسبب هاتين الخصلتين صار يدرك لذة ما هو فيه بالنسبة لما دونه، وألم ما هو فيه بالنسبة لما فوقه. ولذلك قال بعض العارفين: لو خلقنا الله في الجنة لم نجد لها لذة كذلقتها عندنا بعد رجوعنا من الدنيا، ونظير ذلك أن المؤمن الذي نشأ في بلاد الإسلام لم يعهد من نفسه كفرًا أبدًا، لم يجد للإسلام لذة كمن كان كافرًا وذاق مرارة الكفر ثم انتقل إلى الإسلام.

وبسبب تركيب هذه الخصال الأربعة في الإنسان، صار كلما سار إلى مرتبة يظن أن فيها غاية نعيمه وابتهاجه، تكون رغبته في الوصول إليها، وخوفه من الانقطاع عنها والسقوط إلى ضدها، فإذا وصل إليها بعثته الفرح والسرور بها ويعتريه الخوف من النزول إلى ما دونها، فعما قليل يبدو له طلب ما وراء ذلك فيرغب في الطلب ويخاف الفوات ويحزن لتحقيق الفوات، ويفرح بالإدراك، وهكذا دائمًا أبدًا، وقد يغلب البعض منها على البعض ويتفاوت الناس في هذه الغلبة أيضًا.

فقد روي أن كثيرًا من العارفين يموتون خوفًا أو رغبة أو فرحًا أو حزنًا، بعضهم يذوب حتى يصير ماء في الحال، وذلك كله لما يلاقون من ورود التجليات الجلالية والجمالية والتلذذ بالمناجاة، فإنهم الذين عجلت لهم جنتهم ونارهم اللتان هما الشهود والحجاب، إذ الشهود عند العارفين هو غاية النعيم، كما أن الحجاب هو غاية العذاب، إذ الجنة إنما انسحب عليها النعيم من نظر الحق ﷻ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِأَمْرِ رَبِّهَا نَاضِرَةٌ﴾ [إلى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ] [القيامة: ٢٢-٢٣].

والنار إنما انسحب عليها العذاب من جهة الحجاب عن الحق ﷻ، كما قال الله تعالى في أهل النار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُولُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

واعلم أن الصفات التي قدمناها لك هي الرغبة والرغبة والفرح والحزن تنبني على العلم بأصل الشيء المحبوب وبفضيلته وبكيفية السعي في طلبه، ثم دوام ذكره في القلب، ثم دوام الإقبال عليه، ثم العلم بأضداد هذه المكروهات، وحيث إن الطينة الإنسانية مزوجة بصفات الخير والشر فلا زالتا متجاذبتين فيه، فلاجل ذلك كلما التفت إلى جهة منها يغلب عليه النسيان لما عداها، وكلما دام السير فيها فعما قليل

تعتبره السامة، وهي تؤدي إلى الضجرة، وهو يؤدي إلى الزهد، وهو يؤدي إلى الترك فمن هنا احتاج الناس إلى الشيخ المعلم، والأخ الناصح المرافق بحاله أو بقاله.

ثم إن الناس عالمون بهذا الامتزاج إلا أنهم مختلفون في الاهتداء إلى جهة الخير والشر، فالبعض اختاروا الدنيا على الآخرة، وصار كمال سيرهم فيها، فتجدهم يؤثرون ما يلائم أغراضهم الدنيوية من حب الجاه والمال وحبون العرض، ويبالغون في ذلك بكل وجه أمكن ولو كان في ذلك إتلاف دينه كالمعاصي والكفر، وهم في ذلك على درجات، وفيهم ورد قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وبالعوض أثروا الآخرة على الدنيا، وهم على درجات أيضًا، وكل من أهل الدنيا وأهل الآخرة يحتاج إلى المعاونة والمناصرة والمعاضدة والمساعدة إلا أنها تمحضت في الشر فهي محط التنهي في الآية التي هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ثم إن المعاونة قد تكون بمعنى الدلالة، وهي على قسمين: حالية ومقالية فإذا اجتماعا فهو أبلغ في التأثير، وإذا انفرد أحدهما عن الآخر فدلالة الحال أشد تأثيرًا؛ لأن الكافر أو العاصي إذا صاحب كافرًا أو عاصيًا مثله فأمره بالتقوى، أو أمر الكافر بالإسلام لا يكون لأمره كبير جدوى، وكذلك المسلم إذا صاحب مسلمًا مثله وأمره بالكفر لا يكون لأمره كبير أثر.

وأما إن صاحب المسلم كافرًا أو المتقي عاصيًا وأمر المسلم أو المتقي صاحبه بما هو عليه أو العكس، فلا بد أن يكون لهذا الأمر أثر وإن خلا عن أمره، فلا بد أن يكذب أحدهما صاحبه بحاله، ولذلك قالوا: «لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله» ومن هذا القليل نجد كثيرًا من الكفرة كاليهود والنصارى والمجوس، بل كلهم في بلادهم على غاية من الصلابة والمعاونة في دينهم، من حيث لا يرون غيره، كما أن المسلمين في الإسلام أشد من ذلك، بخلاف ما إذا كان الكفار متوطنين في بلاد المسلمين أو العكس، فإنه لا يتنظم لهم أمر دينهم كل الانتظام فإنه لا بد من الزوال الكلي أو الضعف.

كما أنك ترى بعض الكفرة المقيمين في وسط المسلمين غالبًا يتخلقون

بأخلاقهم، وربما يستحسنون دينهم ويحيلون إليه كل الميل، ومنهم من يدخل في دين الإسلام، وكذلك المسلم إذا استوطن بين الكفرة والفساق، فإنه يميل إلى طبعهم ضرورة، وهذا الأمر الذي ذكرناه تدل عليه المشاهدة الضرورية في الأمور الدنيوية والأخروية والعادية.

مثال ذلك: أنك إذا نشأت في بلاد الإسلام وقدمت إلى الديار المصرية أو الشامية أو غيرها، وخالطت أهلها وعاملتهم وطال عليك الحال، فلا محالة أنك تنهج نهجهم وتستحسن حالهم وتميل إليهم، وتنسب أهل بلدك إلى الغباوة والجهل وترى ما هم عليه أشبه شيء بصفات البهائم والوحوش.

فمن هذا القبيل تأكد للمؤمن الراغب في طريق الخير، الهارب من الشر، الساعي في إتقاد مهجته أن يسعى أولاً في اتخاذ أخ ناصح صالح، يذكره إذا نسى ويعلمه إذا جهل، ويرافقه فيما هو بصده من طريق الله ﷻ، ويحفظ نفسه ويصونها عن قرناء السوء حسبما أمكن وكيف ما أمكن، ثم إذا نزل الحال عن ذلك وألجأت الضرورة إلى الانفراد عن من هذه صفته، ينبغي له أن يتخذ قسطاً مستقيماً من الموازين العقلية يفرق بين الحق والباطل، ويميز له الأعلى من الأدنى، ويتخذ حرزاً من الصلابة في دينه، فإن الصلابة قد تقوم مقام الجماعة، فإننا قد شاهدنا بعض النصارى المقيمين في وسط المسلمين على غاية من الصلابة في دينهم، مع اعتقادهم أنهم على الباطل.

وقد روى بعض الإخوان من بعض النصارى من القبط أنه قال له: إن النصارى يتعجبون منا معاشر القبط من جهة صلابتنا في ديننا، ويقولون لنا: كيف تكونون في وسط المسلمين وتسمعون أقوالهم وتشاهدون أحوالهم وأفعالهم، وتسمعون أذانهم وتقيمون على دينكم، وذلك كله من إثارهم الجاه وصون أعراضهم عند النصارى، وما يعثريهم من المنافع الدنيوية، فكيف بمن يرجي بعمله السعادة الأبدية والمنافع السرمديّة، جدير بأن يتصلب فيه حيث لا يرجع عنه ولو قطع بالمناشير وسحق وألقى إلى الرياح.

فمثال الموازين التي يتخذها الإنسان فيما نحن بصده، فإننا تعلم من حيث ما علمنا الله بالعقل والنقل أن أفضل بني آدم بعد الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين المؤمنون، وأن أفضل المؤمنين أمة محمد ﷺ، وأن أفضل أمة محمد ﷺ

الصحابه رضوان الله عليهم، ويلبهم في الفضل الأولياء رضوان الله عليهم، وأن أفضل الأولياء وأكملهم الوارث المحمدي الذي هو ختم الولاية، وهو سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمه الله، وأن كل واحد من الأولياء عليه السلام فضله منسحب على أصحابه.

فينبغي لمن علم ذلك وتحققه بالتواتر، أن يختار طريقة الوارث المحمدي، فإذا تمسك بها فينبغي له أن يسعى في مواصلة أربابها ومذاكرتهم ويتعرف منهم زيادة المناقب والفضائل التي لا نهاية لها، فإذا فعل ذلك فلا بد أن يكون من أهل الرسوخ واليقين الذين لا تأخذهم فيها لومة لائم، ويبلغ بها إلى رتبة حق اليقين، فإن ألقاه الضرورة إلى الانقياد فينبغي له أن يجعل تلك الموازين وغيرها ديدنه، ليشد عضده بها.

وأما إن خلا عن هذين الوجهين فلا يأمن أن يتسلط عليه أحد من شياطين الإنس والجن، يصدّه عن طريقه بأي وجه من وجوه الصد، إما باستحسان طريقة غيرها وإما بالالتفات إلى البطالة الدنيوية التي توجب الرجوع عنها، وغير ذلك مما هو حالي أو مقالي؛ لأن الطباع تسرق الطباع، وهكذا كل من كان متمسكا بطريقة وترجحت عنده على غيرها، واستقامت له فيها موازين الترجيح.

وأما إن ترجحت عنده طريقة غيرها يجب عليه الرجوع إلى تلك، ولكن بعد التحقيق والتدقيق وإخلاص الوجهة لله تعالى، وليحذر كل الحذر من شوائب الأغراض النفسية والسلام.

ومن كلامه عليه السلام في «الوصايا» قال: قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ ﴿قُرْآنُكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤] فينبغي للعاقل الراغب في طريق الهداية أن يتعرفها من أربابها الذين هم سفراء الحق عليه السلام؛ لأن الحق تعالى لا يتقرب إليه بمناسبات العقول، وإنما يتقرب إليه بالشرع المنقول، ثم يعرف القواطع القاطعة عنها. وقد أخبرنا سيد هذه الحضرة مولانا رسول الله تعالى بذلك فقال لنا: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وقال تعالى في سورة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا الْخَبِيرَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].
 وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ زُرُّوهُ أَخْقُ أَنْ يُرْضُوهُ إِن كُنَّا نُوْمُنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]
 فهذه الآيات الأربع إنما هي منبهة على الاحتراس من هذه الأشياء الأربعة التي هي
 النفس والدنيا وإبليس والخلق.

ورد في الحديث التنبيه عليها أيضًا، من ذلك قوله ﷺ: «إن الشيطان يجري من
 ابن آدم مجرى الدم»^(١) وأخبرنا ﷺ أنه يلتزم قلب ابن آدم يوسوس إليه، وكيفية
 الخلاص منه إنما يكون بالمراقبة وهو أن يعلم الشخص أن الله تعالى لا بد أن يسأله
 عما أراده من قول أو فعل مما ألقى إليه الشيطان في قلبه، أي: إذا صدر منه القول
 أو الفعل، فإن رأى الجواب صوتًا وسدادًا فليعلم أن ذلك من الملك، وإلا فليعلم
 أنه من لمة الشيطان.

وأما النفس: فإنما تأمر بمقتضى شهواتها من حلال أو حرام، والواجب على
 الشخص أن لا يبادر إلى مطلوبها حتى يزنه بالموازين الشرعية فإن كان واجبًا
 فليبادر إلى فعله، وإن نزل عن ذلك فيختلف باختلاف أحوال الخلق من قوة
 وضعف وإن كان منهم من يتهمها في القربات، كقول البوصيري ﷺ:

وراعها وهي في الأعمال سائفة وإن هي استغلت القرعى فلا تبسم

فما بالك بما دونهم، ومعالجة النفس إنما تكون بالمجاهدة الشديدة، ولذلك
 ورد: رجعت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر^(٢).

وأما الدنيا: فقد ورد بأنها عدوة لله، وعدوة أولياء الله، وعدوة أعداء الله.
 فأما عداوتها لله: فإنها تقطع السائر إلى الله عنه، وأما عداوتها لأولياء الله: فإنها
 تكدر عليهم أنفسهم، وأما عداوتها لأعداء الله: فإنها ترفعهم إلى السماء ثم ترميهم
 إلى أسفل سافلين، والسقوط من العلو إلى السفل أبلغ في المكيدة مما دونه،
 وأخبرنا أيضًا أنها أسحر من هاروت وماروت، وحيث كان الأمر كذلك فعلى

(١) أخرجه البخاري (٣١٠٧)، ومسلم (٢١٧٥)، وأبو داود (٢٤٧٠)، وأحمد (٢٦٩٠٥)، وابن
 ماجه (١٧٧٩)، وابن رجب (٨)، وعبد بن حميد (١٥٥٦)، وأبو يعلى (٧١٢١)، والطبراني
 (١٨٩).

(٢) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٣٧٣)، وقال: هذا فيه ضعف، والخطيب (٥٢٣/١٣).

الحازم اللبيب أن يكتفي منها بقدر زاد المسافرين، لأنه مسافر منها إلى الدار الآخرة، وقد ورد في الحديث: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»^(١).
وأما الخلق: فإنهم شاعل كلّي، خصوصاً الآن فإنهم شر محض، لما كانوا عليه من الحيل والمكر والخديعة، وما أحدثوا من ارتكاب البدع والفجور فلا سلامة لا في دين ولا في دنيا.

واعلم أن هذه القواطع الأربعة عن الله تعالى صارت كالبحر لا يتيسر الخلاص منه بسهولة، ولم يقم بكمال الاجتهاد في التخلص منها إلا أهل الصدر الأول، خصوصاً الأقدم فالأقدم، ثم صار كلما تأخر الزمان يتعاضم الأمر وتسقط الهمم، وأقصى الحال في هذا الزمن إلى الهلاك الكلّي، ولذلك قال بعض الصحابة لبعض التابعين: لو رأيتم أصحاب رسول الله ﷺ لقلتم مجانين ولو رأوكم لقالوا شياطين، وذلك لما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من كثرة التقلب في طرق الاحتراس من هذه الأمور، ولما كان عليه من بعدهم من التفریط والابتداع، فالواجب على الشخص أن يعرف زمانه وأهله ويسعى في طريق الخلاص والسلام، انتهى.

ومما سأل عنه سيدنا ﷺ بعض الفقهاء من أصحابه ﷺ، ورد عن سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ، أن أصحابه لا يتصرف فيهم أحد من الأنس ولا من الجن، مع ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لما سئل عن الطاعون: «إنه وغرأ أغذايكم من الجن» أو كما قال وورد في الحديث: «إنه شهادة»^(٢).

فعلى هذا فهل يصاب به التجاني أم لا؟ فإن قلتم: إنهم يصابون، فما محط كلام سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ، وإن قلتم: لا يصابون، فكيف يرضون بتفويت الشهادة؟

فأجابه بعض الحاضرين: بأنهم لا يصابون بدليل ما روي عن سيدنا الشيخ أحمد التجاني ﷺ، وإن الشهادة ثابتة لهم من غير ذلك، وهذا الجواب مبني على

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٣)، وابن حبان (٦٩٨)، والبيهقي (٦٣٠٤).

(٢) أخرجه الحاكم (١٥٨) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأحمد (١٩٧٢٣)، والبخاري (٣٠٩١)، والرويان (٥١٤٤)، والطبراني في الأوسط (٣٤٢٢) قال الهيثمي (٣١٢/٢): رواه أحمد بإسناد، ورجال بعضها رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى والبخاري في الثلاث.

مصطلح القوم أن الشهادة عندهم صغرى وكبرى، فالصغرى هي القتل بالسيف في سبيل الله، والكبرى هي المرتبة التي دون مرتبة الصديقية وفوق مرتبة الإحسان، وأن سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمه الله ذكر أن أصحابه أعلا مرتبة من أكابر الأقطاب، فيستلزم ذلك أن تكون مراتبهم متضمنة لمرتبة الشهادة بالأولى.

وعلى بعضهم هذا الجواب بقول الشيخ رحمه الله: أصحابي لهم لطفان: لطف خاص بهم، ولطف مع عامة الناس، واستظهر بعضهم الجمع بين القولين أيضًا، وبأن رضاهم بذلك لا يتنافى رغبتهم في الخير، بدليل ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا»^(١) أو كما قال أصحاب رسول الله ﷺ مع حرصهم على الفضائل يدفعون عن أنفسهم غاية الدفع ويتوقونه بالترس والدروع ونحوهما.

هذا كله مع أن الشهادة بالسيف أقوى من شهادة الطاعون.

فلوح الشيخ رحمه الله بأن هذه العبارات كلها غير موفية بالمقصود، والتحقيق في ذلك أن لفظة الجن لها وجهان، وجه عام وخاص، فمن عمومها أنها تطلق على كل غائب عن الأبصار، ويشمل ذلك الجن والشیاطين والروحانيين والملائكة، بدليل قوله تعالى: «وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَاً» [الصافات: ١٥٨] والمراد بهم الملائكة.

ومن ذلك أيضًا الروحانيون المخلوقون من أعمال العباد وخطر أنهم من الملائكة رحمة أو ملائكة عذاب على حسب مراتب العمل في الحسن والقبح.

ومن ذلك أيضًا كلما دخل تحت حكم الوهم والخيال، وإذا حمل الحديث على هذا الإطلاق فالعداوة المذكورة في قوله ﷺ: «إنه من وخز أعدائكم الجن» إما حقيقة كعداوة الكفار من الجن والشیاطين، وإما صورية لا حقيقة كالملائكة ومن ضاهاهم من الروحانيين سلام الله عليهم أجمعين، ويدخل في ذلك حكم الوهم والخيال فإنه داخل في هذا الحكم.

فمن هذا القبيل حكاية مشهورة عن بعض ملوك مصر السابقين، وهي على ما

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٤٢)، وأبو داود (٢٦٣١)، وأحمد (١٩١٣٧).

يحكى أنه ذكر له أن الوباء حل بالبلد ومات منه خلق كثيرون من الناس، وتراءت للناس صور من الجن قائمين بذلك الأمر، فقال: ردوهم عليّ، فلما مثلوا بين يديه، قال: ما شأنكم؟ فقالوا: أمرنا بقبض عشرة آلاف من هذه البلدة، فقال: أو لا تزيدون على ذلك؟ فقالوا: لا تزيد على ذلك، فقال أعطوني أختامكم فأعطوه أختامهم، ثم صبر مدة من الزمان والوباء نازل فكشف عن ديوان الصحة، فوجد الأموات ثلاثين ألفاً من ذلك الوباء، فأرسل لتلك التماثيل، فقال: ما شأنكم أُلِّم تعطوني موثيقكم وأختامكم على أن لا تزيدوا على عشرة آلاف؟ قالوا: نعم، ونحن على العهد ولم نقبض إلا عشرة آلاف، وأما الزيادة فمن طائفة غيرنا تسمى الوهم، والمراد به ما يتقدح في الأوهام من خوف الموت حتى يموت الإنسان فرقاً.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن السر في ذلك أنه ما ثم إلا صور القضاء والقدر، وأن ما قاله سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمته الله ليس آخر ما جاء عن حكم القضاء والقدر، بل تجري عليهم الأقدار كما تجري على غيرهم من وجه لا ينافي كمال اللطف بهم، وعدم تصرف الغير فيهم.

ويشاكل ذلك القول في الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فقد نصّ العلماء - رضوان الله عليهم - على كمال تنزيههم عما يؤدي إلى نقص مراتبهم العلية من الأمراض التي تشين بهم كالعمى والعرج، ونحوهما مع ما قصه الله تعالى علينا في كتابه العزيز في حق يعقوب عليه السلام بقوله تعالى: «وَأَنبِئْهُمْ أَنَّ مَنَ الْخُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ» [يوسف: ٨٤] وفي حق أيوب: «أَنِّي مَسْنِي الصُّرُوءَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» [الأنبياء: ٨٣].

وما روي عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما زالت الأكلة التي بخير تعاودني حتى أن أوان انقطاع أبهري»^(١) أو كما قال غير ذلك مما وقع للسادات الأخيار من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والعارفون يميلون إلى الجمع بين ما قاله العلماء رحمته الله من كمال تنزيههم وبين ما قصه الحق علينا في كتابه من وجه لا منافاة فيه ويرون أن ذلك هو مقتضى الكمال وتصوره صعب، اللهم إلا أنه يمكن أن يشار إليه بأن لكل من الروح والجسم نعيماً

(١) أخرجه البخاري (٤١٦٥).

وعذابًا على حدته عند أهل الحقيقة، وعند اجتماعها ينسحب حكم كل منهما على الآخر، إما على وجه الموازنة وإما على وجه الغالية والمغلوبة، فمن كان من العوام غلبت طبيعته على روحه، ومن كان من الخواص غلبت روحه على طبيعته، ومن كان من خواص الخواص كان مطلقًا فإن شاء تقيد بحكم أحدهما وإن شاء توسط وإن شاء ترقى إلى ما وراء ذلك، فهذا المقام هو مقام الرسل والأنبياء، ومن ألحق بهم من الكُثُل جعلنا الله منهم بمنحصر فضله وكرمه.

ومن كون الكتاب العزيز بهذه المثابة من حيثية الإطلاق وكل آية منه فيها من الوجوه كل ما تحتمله من المعاني في لغة العرب، فمن هذه الحيثية أخذ منه كل أناس مشربهم فأخذ أهل الظاهر منه وجه التنزيه، وأولوا ما خالفه وروده إلى وجه التنزيه، وأخذ منه أهل الله مشربهم وسلموا أهل الظاهر ما هم عليه لعلمهم بسعة دائرة الكتاب العزيز، وقد يجتمع هذا الكمال المذكور في حق الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من حيثية الحس أي: على حسب ما يحتمله وذلك كما اجتمع لرسول الله ﷺ في أكلة السم فقد تخلف ضرر السم عن عادته ظهور وجه التنزيه، ثم صارت وفاته بسببه لحصول الشهادة، والله أعلم.

ومن كلامه ﷺ في طريقة سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ: اعلم أن طريقتنا هذه تدور على أربعة أقطاب، على حسب الأصحاب، لأن مقام رجال القطب الأول: الأخذ عن الشيخ ومحبه مع ملازمة الأدوار فقط، وهذا القطب هو أساس الطريقة، ومبادئ الوصول إلى درجات الحقيقة، فمن أدام التوجه به فلا بد من وصوله إلى الغاية ولو بعد حين، وإلى ذلك أشار سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ بقوله إن من أحبنا لا يموت حتى يكون وليًا.

وقال في أخذ ورده أيضًا: لا يموت حتى يكون وليًا، وهذا أكد لجمعه بين الفضيلتين وحيازته للوظيفتين.

القطب الثاني: هو المحافظة على الصلوات الخمس في الجماعات، وملازمة الصلاة على النبي ﷺ لاسيما صلاة الفاتح لما أغلق، وهذا أعلا من الأول بكثير لأن المحافظة صاحبه على صلاة الجماعة والصلاة على النبي ﷺ تسرع له بتنوير البصيرة ومحبة المصطفى ﷺ ومحبة الشيخ ﷺ والإقبال إلى جهة الرب ﷻ وذلك عنوان السعادة ومقدمة الشكر واستحقاق الزيادة.

والقطب الثالث: هو السير بالفكرة، والمذاكرة في حقيقة المصطفى ﷺ ومحبة الشيخ ومعرفة منزلته من العالم ومنزله من الأولياء، ككونه خاتم الأولياء ومدبرهم وغير ذلك، وهذا أعلا من الأولين؛ لأن الذكر مطلوب للفكر ولأنه ترقا من المحسوسات إلى الروحانيات وهي مظهر العلوم والمعارف والأسرار والأنوار.

والقطب الرابع: هو أن ينظر صاحبه في قول الله تعالى للمصطفى ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ إِنَّمَا بُنِيعُوا آلَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٠] وقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ومقتضاه أن الله تعالى أنزله المنزلتي التي ليس بعدها منزلة، وكذلك المصطفى ﷺ أنزل سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ المنزلتي التي هي بمثابة تلك المنزلتي، بقوله ﷺ له: «أصحابك أصحابي وفقراؤك فقراي وتلاميذك تلاميذي» فيتج له ذلك السير والتأمل شهودا ومعرفة بحقيقة الحقائق فلا يرى إثنينية في الوجود أصلا؛ لأنه يشهد الحقيقة الجامعة وهي تتطور في الموجودات وهو غاية الغايات ومتهى الترقيات، انتهى.

قلت: وما أنتجه الفكر والتأمل في حقيقة سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ من معرفة المنزلتي التي أنزله المصطفى ﷺ بواسطة الشهود من عدم تأني الإثنية فيها يجري في الكل من أصحابه معه ﷺ كسيدي محمد الشريف ﷺ وذلك لوجهين:

أحدهما: إن رسول الله ﷺ حقق نسبتهم منه بتلك المنزلتي التي تقدم الكلام عليها بقوله له ﷺ فكل من أذنته وأعطى لغيره، فكأنما أخذ عنك مشافهة، وأنا ضامن لهم.

والثاني: لأن نظامهم وتكميلهم على يده ﷺ بكل وجه ويكل اعتبار، يقتضي أن لهم مشربا منه خاضا بهم دون سائر الأولياء؛ لأن روح التلميذ من روح شيخه فكان أرواحهم رجعت إلى مقرها الأول، انتهى.

وسمعه ﷺ يقول: قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقال تعالى في حق سيدنا داود ﷺ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابَ﴾ [ص: ٢٠] ولما أوتيته من الحكمة كان خليفة الله في أرضه كما قال تعالى: ﴿بِذَاؤُودَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] والحكمة هي ملكة راسخة في الشخص يدرك بها بواطن الأشياء ويضع الأمور مواضعها، وهي لصاحبها كالإكسیر وكالسراج وكالدليل وكالمرشد.

فأما كونها كالإكسیر: فهو أن صاحب الإكسیر غني بما في يده من الإكسیر،

بحيث يرى أن أغراضه طوع يده، لأنه متى ما احتاج إلى شيء من الأشياء يمكنه أن يضع قيراطاً أو نحوه من الإكسير على التراب أو الحجر أو النحاس أو الرصاص بوجه الحكمة وعلى كسب مرتبة في القوة والضعف فيصير ذهباً أو فضة، فيحصل منه ما شاء من أغراضه فكان بسبب ذلك ثابت القلب لثقتة بما في يده من الإكسير، فكذاك صاحب الحكمة إذا أمدّه الله تعالى بقوة الإيمان واليقين في مجاري القضاء والقدر، في العطاء والمنع والغناء والفقر والنعمة والضر ونحو ذلك يصير مشاهداً لفضل الله تعالى فيه، فيقصر نظره على القسمة الأزلية الأولية لما عنده من العلم بأن اللاحقة تابعة للسابقة، كما قال ﷺ: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك»^(١) فيكون أوثق بما عند الله مما في يده، بل يكون فرحه بما عند الله لا بما في يده، بل يشهد المنع هو عين العطاء، فيستريح في هموم الدنيا وغمومها، كما قال الشاعر:

إن القناعة من يحلل بإاحتها لم يلق في ظلمها هما يؤرقه

فصاحب هذا الحال يكون أغنى؛ لأن صاحب الإكسير قد تصرفه عنه الصوارف أو خشية النفاذ في إكسیره، وهذا ليس كذلك لأن قلبه متعلق بالله تعالى وهو الذي لا يحول ولا يزول.

وأما كونها بمثابة السراج: فهو أن من قذف الله في قلبه نور الحكمة الإلهية نظر إلى الأمور الغيبية نظر عيان لما أشرق في قلبه من مصباح الحكمة الإلهية، فهناك يصير عنده إشار الأخرة على الدنيا أمراً ضرورياً، وذلك المصباح هو نتائج الحجج العقلية والنقلية، ولذلك قال بعضهم: لو كانت ذهباً يفتنى والأخرة خزناً يبقى، لكان حق العاقل أن يؤثر ما يبقى على ما يفتنى أو كما قال: كيف وأن الدنيا هي الخوف الفاني والأخرة هي النعيم المقيم، ومنه النظر إلى وجه الله الكريم.

وقال آخر: اصمل للدنيا بقدر مقامك فيها، واعمل للأخرة بقدر رغبتك فيها، واعمل للنار بقدر صبرك عليها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، فإذا رأى صاحب

(١) أخرجه أحمد (٢١٦٢٩)، وعبد بن حميد (٢٤٧)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وابن حبان (٢٧٢٧)، والطبراني (٤٩٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٢).

الحكمة في الدلائل المقتضية لتأثير الآخرة على الدنيا سعى في العمل الموصل إليها، وهو فعل المأمورات وترك المنهيات الشرعية، فإن الله تعالى قد أوضح الطريق للسالكين، على لسان نبيه الكريم وأعظم الحكماء هو من أمده الله بنور القرآن فقدمه أمامه، فإن الله تعالى وصفه بأنه هدى ونور وثباتاً لكل شيء. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وأما كونها بمثابة الدليل لصاحبها: فذلك لأن سبيل الحق واحد، وسبيل الشيطان كثيرة متصلة بها، وقد حذرنا الله تعالى منها، فقال تعالى: ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والداعي إلى طريق الحق هو الشارع ﷺ والدعاة إلى طرق الضلالة هم شياطين الإنس والجن كما قال ﷺ: «على كل طريق منها شيطان ينادي»^(١) أي: مع مساعدة النفس والهوى والقائد إلى طريق الشارع هو واعظ الله في قلب عبده المؤمن وهو نور الحكمة الإلهية الذي قال فيه ﷺ: إذا حل النور في القلب اتشرح وانفسح، وعلامة ذلك الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله، فهذا الواعظ الذي هو واعظ الله في القلب بمنزلة القائد والدليل حتى يوصله إلى المقصود.

وأما كونها بمثابة المرشد: فهو أن الإنسان قد صار مشغولاً بعالم الحس والطبيعة، ونفسه التي بين جنبيه والشيطان يجري منه مجرى الدم، وحب الدنيا معجون في طبيعته، والخلق لا مخلص له منهم، مع كون هذه الأشياء تصده عن سبيل الحق الذي هو طريق النجاة، وتورده طرق الهلاك فصارت بهذه المثابة أعداء في صورة نصحاء لا يغفلون عن عداوته ونصب الحيل والمكائد التي توقعه، وهو غافل عنهم لا يميز منهم الصادق من الكاذب، والحكمة هي التي ترشده إلى معرفة العدو ومكائده وإلى كيفية التخلص من ورطته.

والحاصل أن أهل الحكمة هم المتمسكون بالعروة الوثقى من دين الله تعالى، والحكيم هو من تحقق بهذه الأشياء بحاله وقاله وعمله، وقليل ما هم، وأما غيرهم

(١) أخرجه أحمد (٤٢٢٥)، والدارمي (٢٠٢).

من عامة الخلق فيسمعها حكايات تمر عليه فلا تؤثر فيه لما في القلب من تكاثف الحجب الحائلة بينه وبين ذوقها، كحيلولة الصفراء بين حاسة الذوق وبين المذوق، فيجد صاحبها طعم السكر مرًا، والحال أن العلة قائمة به لا بالسكر.

وفي هذا المعنى قال الإمام البوصيري:

قد تُتَكَبَّرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ زَمَدٍ وَيُتَكَبَّرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ كَمِ سَقَمٍ

ثم قال ﷺ: والله الذي لا إله إلا هو لا أعلم سبيلاً في هذا الزمان إلى النجاة كسبيل سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ، ولا أعم باباً أقرب إلى الاتصال بسيدي أحمد التجاني أقرب من حضرتنا والسلام، انتهى.

معرفة الزمان وأهله

ومن كلامه ﷺ قال: إن من لوازم الشخص الباحث عن دينه أن يعرف كيفية زمانه وأهله، ليقابلهما بما يليق بهما مما يستبرأ به لدينه وعرضه، فأما الزمان فإنه منذ زمان رسول الله ﷺ صار كلما تأخر الزمان يكون أشد مما قبله، وإلى ذلك الإشارة بما في بعض الأحاديث من قوله ﷺ: «كل عام ترذلون»^(١) وما ورد من ما معناه، أنها تكون في آخر الزمان فتن كقطع الليل المظلم.

وأما أهله فهم الذين ظهرت فيهم فضيلة الزمان؛ إذ الزمان من حيث هو هو لا يعلم له تفاضل إلا من حيث ما فضله الحق ودل عليه الشرع كيوم الجمعة وغيره من الأوقات الفاضلة، وأما نسبة التفاضل وعكسه إليه بحسب ما يظهر فيه فمجازي، ومن هذا القليل ما ورد من الأحاديث وأقوال العلماء والصالحين والشعراء قديماً وحديثاً من ذم الزمان ومدحه.

ومما ورد في أهل الزمان ماضياً ومستقبلاً قوله ﷺ: «افترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين كلها في النار إلا ما عليه أنا وأصحابي»^(٢) أو كما قال.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٣٩) بلفظ: «يوم».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، والحاكم (١٠)، والبيهقي (٢٠٦٩٠)، وأحمد (٨٣٧٧)، وأبو يعلى (٥٩١٠)، وابن حبان (٦٢٤٧).

والسر في تغير الزمان وتغير أهله بعد رسول الله ﷺ شيان: أحدهما حسبي والآخر معنوي، أما الحسي: فلأن ما أتانا به رسول الله ﷺ عن الحق ﷻ، هو الأوامر والنواهي، وحيث إن الطباع الإنسانية مجبولة على الولوع بعالم الحس، وما يلابسه من الركون إلى اللذات والشهوات والميل إلى الراحة، بعد عنها الإيمان بالغيب على الوجه الأكمل، وحيث إن الناس لم يباشروا ربهم ﷻ عياناً، وإنما بلغهم رسول الله ﷺ فتلقوا منه الأوامر والنواهي لما ظهر لهم من دلائل صدقه، فلما توفي رسول الله ﷺ صار كلما تقدم الزمن يتكاثف حجاب الغيب، وكذلك الأمر الخطابي كلما تقدم زمنه يهون أمره عند الناس.

وأما المعنوي فهو ما ذكره بعض أهل الحقائق أنه كان في صدر الإسلام نور رسول الله ﷺ متراكم على القلوب لقرب عهده، ولذلك لم يكن في الصدر الأول التربية الاصطلاحية المعروفة اليوم عند المشايخ، فإنه كان بمجرد التقاء التلميذ بالشيخ يسر له في أذنه فيكون من خاصة أهل السر، لتور قلبه بالنور النبوي، فمن ذلك الوقت صار كلما تقدم الزمان تنقص تلك النورانية شيئاً فشيئاً إلى عهدنا هذا.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن زماننا هذا من أعظم أواخر القرون الإسلامية، ومما يدل على ذلك ما نقله سيدي عبد الوهاب الشعراني رحمه الله عن سيدي أحمد زروق رحمه الله أنه قال: نحن في دهليز القيامة.

ثم قال الشعراني: إذا كان الشيخ أحمد زروق في دهليز القيامة فنحن في بحبوحتها، انتهى.

فإذا فهمت هذا فما بالك بقرننا هذا الذي هو تمام نحو أربعة قرون من زمان الشعراني، فيلزم أن يكون أشد مما قبله من الأزمنة الماضية، وهو الذي دل عليه القياس والتواتر والمشاهدة، واللائق بالشخص أن يعرف ما ظهر فيه من الآفات، ويسعى في تحصيل الكتب المؤلفة في هذا الشأن، ككتاب «البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية» لسيدي عثمان بن فودي و«كالحجبة السنية» لسيدي مختار الشنيطي التي ألفها في طباع الأقطار السنارية من البلاد السودانية.

وتم آفات بدعية جميلة غفل عنها جميع المشايخ المتأخرين، وهي أصول

البدع التي أُلِف فيها المشايخ، ينبغي للحازم التنبيه والتنبيه عليها، وهي أن أهل الزمان اتقسموا على أقسام، واختص كل قسم بعوائد ليست للقسم الآخر، ومن تعاطاها من القسم الآخر فكانما تعدى طوره، فصارت جمهورية الرجال العوام قسماً، ويسمونهم العتقالة، والنساء قسماً، والرقيق قسماً، والفقراء قسماً، وشرح حال كل فريق منهم كما ينبغي بطول بنا شرحه، فلنقتصر على التزير القليل.

فأما العتقالة والنساء: فنبذوا حبل الشريعة وراء ظهرهم غالباً، واستحكمت فيهم العوائد المنافية للشرع ومن تكلم مع فريق منهم فيما هم عليه من العادة يراه الناس أنه تكلم فيما لا يعنيه، فكان من شأن العتقالة المجاهرة بالزنا وشرب الخمر والاختلاط في جمهورية النساء وجميع المعاصي، ولا يعيرون بذلك؛ لأنه صار لهم عادة جيلاً بعد جيل.

وأما النساء: فمن عوائدهن الاجتماع مع الرجال في الأعراس والختان، وكل أمر مطرب ومحزن، كالبكاء ونزول المصائب، فتجدهم في أوان الفرح في غاية من الصفقة والرقص ومماسة الرجال، وفي أوان الحزن كالبكاء يتلاصقون ويموجون في بعضهم ولا حرج في ذلك عندهم؛ لأنه صار لهم عادة.

ومن دأبهن أيضاً مشاط الرؤوس بالصمغ، وشده بالخيوط، حتى أنه لا سبيل إلى وصول الماء إليه لا في وضوء ولا في غسل، حتى إن منهم من لا يعرفن فرضية غسل الجنابة أصلاً، كما حققه بعض الإخوان وهذه الآفة التي هي مشط الرؤوس بالصمغ والخيوط لا سبيل إلى زوالها غالباً لأن النساء يرون أن تركها مما يخل بالشباب.

وكذلك النباحة لأنهن يرون أن تركها من الجفاء الكلي، ومن تركها يعد من جملة الأموات، وإذا تعرضت للنساء أو العتقالة بالهداية إلى طريق الحق، البعض منهم يستهزئ بك، والبعض منهم يقول لك: محمولة وملاقية ربها، والبعض منهم يحتج عليك بشفاععة الرسول.

وبقى المدار في الديانات على جماعة الفقراء، وبقي أمر الفقراء مبيتاً على التصنع، والحيل التي يتوصلون بها إلى أكل الدنيا بالدين بتلبسات يخيلون أنها من آثار السلف الصالح. انتهى.

فمن نور الله بصيرته جاهد نفسه واحترز من كل فريق منهم فإن طريق الحق واضح، كما قاله ابن الفارض:

وتنهج سيلي وأصبح لمن أعتدى ولكنها الأهواء غثت فأعتبت

ومن أراد الله خذلانه تتبع عوائد أهل زمانه، يميل هواه حتى يهوى به الهوى في الهاوية وهو لا يشعر ولا يدري والسلام.

إيثار الخلق للدنيا

ومما سأل عنه شيخنا رحمه الله بعض الفقراء في مجلسه: ما سبب إيثار الخلق للدنيا على الآخرة مع التصديق بوعد الله تعالى ووعيده في الأعمال الآخروية، مثاله في فضل صلاة الفاتح لما أغلق من كونها تعدل ستمائة ألف صلاة من كل صلاة وقعت في العالم من ملك وجن وإنس مع أن كل صلاة بأربعمائة غزوة، وكل غزوة بأربعمائة حجة إلى غير ذلك.

ثم فهل أنتم مؤمنون مصدقون بذلك أم لا؟ فقالوا: مؤمنون مصدقون بذلك.
فقال: أيسركم أن يعطيكم أحد ريالاً أم يقرأ صلاة الفاتح لما أغلق ويهب لكم ثوابها؟ فقالوا: يسرنا إذا أعطانا ريالاً.

فقال: هذا هو محط السؤال فما العلة في ذلك، مع أن الدنيا كلها بالنسبة إلى ذلك قليلة، ومن العقل إيثار الكثير على القليل.

وأيضاً إن الدنيا فانية والآخرة باقية، ومن العقل إيثار الباقي على الفاني، لا العكس وما الدواء المخلص من هذه العلة المعضلة؟ فقالوا: لا ندري.

فقال: إن هذه المسألة من أعظم المسائل التي ينبغي الجهد والسعي في كشفها ولا أكشفها لكم إلا بشرط، ثم امتحنهم في ذلك الشرط بنوع من أوجه الامتحان حتى علم منهم صدق الطلب في ذلك.

ثم قال رحمه الله: أما السبب فهو أن الإنسان مجموع شيئين، روح وجسم، والمعتبر منه الروح لأنها سر الحياة التي هي شرط في وجود الأركان، ولها اعتبارات مختلفة وتعددت أسماؤها واختلفت باختلاف تلك العبارات فباعتبار تدبيرها للبدن وسعيها في مصالحه تسمى طبيعة، وباعتبار تعلقها بعالم الحس تسمى حساً،

وباعتبار الإدراك تسمى النفس الناطقة، وباعتبار تمييزها للحسن من القبيح تسمى عقلاً، وباعتبار إضافتها إلى الحقيقة المحمدية تسمى نوراً، فقد قال ﷺ: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر»^(١).

وقال ﷺ: «أول ما خلق الله العقل»^(٢) وباعتبار إضافتها إلى الرب ﷻ تسمى روحاً قال الله تعالى: «وَنَسْفَعُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» [الإسراء: ٨٥] واعلم أن الأصل في الروح من حيث هي هي مشغولة بمرتبة الحق ﷻ، ومحبة وتعظيمه لتحقيقها بجميع المراتب الحقيقية، فلما نزلت هذا العالم الجسماني الظلماني وانصبغت بما هو عليه من الصفات المضادة للعطافتها، انسحب عليها حكمه، فجهلت مرتبة الحق ﷻ، إلا أنها في أول أمرها من ابتداء تركيبها في الجسم، تولدت فيها الطبيعة الشهوانية التي تميل إلى الملائم وتنفر من المنافي، ومن ابتداء تركيبها في الجسم إلى زمن خروج الجنين من بطن أمه، جاهلة بأحكام الحقيقة والخلقية، قال تعالى: «وَأَنَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا» [النحل: ٧٨] وهي قابلة لكل منهما، وربما كانت أميل إلى جهة الحق، كما قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودونه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(٣).

فكان من حيثية هذه المرتبة الثانية التي هي مجموع الروح والجسم، كان الأصل في الأنسب الجهل، فاكسب العلم أولاً بطريق الحواس، وهي مقصورة على المحسوسات، والعقل إنما يبرهن على المغيبات بالمحسوسات، فكان من هذه الحيثية الحواس أصل بالنسبة إلى العقل، والمحسوسات أصل بالنسبة إلى المغيبات، وعالم الحس هو محط الوهم، فلذلك غلبت ظلمت الوهم على نور العقل، فصار تأثير المحسوسات على المعقولات، كأنها حظ الطبيعة، والمعجل على المؤجل دنيوياً أو أخروياً، فمن هذا القبيل كان كل مكان مناسباً للطبيعة كانت

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١٩١/١): أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأبي نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين. وقال الحافظ (٨٩/٦): ليس له طريق ثبت.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٢٦٥٨)، وأبو داود (٤٧١٤).

إليه أميل، فقدمت الدنيويات على الأخرويات كما ركنت إلى الدنيوي المعجل أكثر من المؤجل، ولو كان الإيمان موجوداً في كليهما.

مثال تقديمهما الدنيوي على الأخروي مع الإيمان، فإنك قد ترى الرجل يحب رسول الله ﷺ محبة لا توازنها محبة الأهل ولا المال ولا الولد، ومع ذلك يقع في أكبر المعاصي المؤدية إلى غضب الله تعالى ورسوله، في هوى أدنى إنسان وما ذلك إلا لاستيلاء حكم الحس والطبيعة. ومثال تقديم المعجل على المؤجل فإن الإنسان إذا ألقى بذراً في أرضه، ونبت على أحسن ما يكون من الحسن والتضارة، وكان يؤمل فيه قدرًا جسيمًا ثم دفع عليه إنسان نصف ما كان يؤمل في ذلك الزرع فإنه يميل إليه ويؤثره على ما يؤمل في زرعه وما ذلك إلا لقوة الحس والطبيعة.

وأما كيفية الخلاص من هذه العلة، فهو في أمرين:

الأمر الأول: أن تكون معترفًا بتقصيرك في ذلك، لأننا لنفسك، نادماً على ذلك، حزيناً مترعجاً لعلمك أنك محبوس في سجن الطبيعة، وهي محط الشبه وهي محط الهلاك والوبال، فإذا كنت كذلك كان الله وليك، لقوله في الحديث القدسي: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»^(١) أو كما قال ولذلك ورد الندم توبة.

والأمر الثاني: أن تعلم أن الله تعالى متجل في جميع المراتب الذاتية التي من جملتها عالم الحس والطبيعة، وقبول كل مرتبة من ذلك التجلي بحسب ما هي عليه من الضيق والسعة، ثم إن عالم الحس هو أضيق المراتب مجالاً قبوله من ذلك التجلي على حسب ما هو عليه من الضيق فتشهد سعة الحق ﷻ في عين ضيق الحس والطبيعة، فكلما داومت السير في ذلك اتسع إيمانك وشهودك، فتتسع بسعة الحق فتكون مع الحق لأمع الطبيعة والحس.

فمن كانت وجهته إلى هذين الأمرين سلم من هذا الداء العضال والتحق بمرتبة أهل الكمال، والله يتولى هداك. انتهى.

وسمعت ﷻ يقول قال رسول الله ﷺ: «كل نسب وحسب منقطع يوم القيامة إلا نسبي وحسبي»^(٢) أو كما قال مشيراً بذلك إلى أنه ﷺ هو الأب الأول كما في حديث

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٧٧/٦).

(٢) أخرجه ابن سعد (٤٦٣/٨) وسعيد بن منصور في كتاب السنن (١٧٢).

جابر «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر» إلى أن ذكر كيف انقسام المخلوقات من نوره ﷺ.

فالإنسان مجموع من حقيقتين تلازمهما الاثنينية في عدة من اعتباراتها لأنه مجموع من روح وجسم، أو لطائف وكثائف، وقلب وقالب، وعقل ومنطق، وفي الحقيقة ما ثم إلا تطورات الروح، كما أنه لا روح إلا سيد الوجود ﷺ، ولكل من هاتين الحقيقتين أبوة، فأبوة الجسم هي أبوة آدم ﷺ، وأبوة نبيه من طريق الجسمية إلى قيام الساعة، وأبوة الروح هي أبوة المصطفى ﷺ، وأبوة الكُثُل من ورثته إلى قيام الساعة، وهذه الأبوة الثانية هي الأصل للأبوة الأولى، وإليها يشير قول ابن الفارض ﷺ على لسان الحقيقة المحمدية:

وإني وإن كنت ابن آدم صورةً فلي فيه معنًى شاهد بأبوتي

ولكل من هاتين الأبوتين أحكام تخصها، من البر والإحسان وغير ذلك، فإذا نظرت إلى مطالب الأبوة الحسية، حيث أكد الله في أمرها بقوله تعالى: «وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُفْرِكُوا بِيَدٍ شَيْئًا وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا» [النساء: ٣٦].

وقوله تعالى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا» [الإسراء: ٢٣].

ثم أمنت النظر في عطفه الأمر بالإحسان إلى الوالدين على الأمر بعبادته، مع أن مآلها أي: الأبوة الحسية إلى الذهاب والتلاشي، ونسبها منقطع يوم القيامة، وفهمت أن الأمر في ذلك لأداء حق الأبوة الحسية، يظهر لك وجه الحق في قوله تعالى: «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» [النساء: ٨٠] وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» [الفتح: ١٠] ولذلك أكد الله تعالى في أمره في مواضع من كتابه منها قوله تعالى: «الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» [الأحزاب: ٦].

فإذا فهمت هذا فاعلم أن سيدنا الشيخ أحمد التجاني ﷺ هو الأب الثاني بعد أبوة النبي ﷺ لأنه الوارث المحمدي، وخاتم الأولياء، وثبت لمرتبه على لسان الكُثُل من أولياء الله تعالى ما يقتضي ذلك، منها قول سيدنا الحجة العظمى محيي الدين ابن العربي وسيدنا صاحب «الفتوحات الربانية» الشيخ عمر الفتوي، أن الله

تعالى ما جمع خلقه جميعاً أحدياً في أول التعينات الإلهية، لم يكن في ذلك الوقت نبي عالم بنبوته، ولا ولي عام بولايته، إلا سيد الوجود ﷺ وخاتم الأولياء من طريق الوراثة له ﷺ أو كما قالوا، وذلك لأن روح خاتم الأولياء أول روح ظهرت في مقام الفرق عن سيد الوجود ﷺ فاشتقت منها حيث الاشتقاق في الحقيقة، ومن هناك توجهت على العالم بالإفاضة والرحمة، فروح المصطفى ﷺ تمد جميع المخلوقات من وجه عام، وتمد جميع الأنبياء والرسل والصحابة من وجه خاص، وروح خاتم الأولياء تمد جميع العالم بوجه النبوة عن رسول الله ﷺ من وجه عام، وتمد جميع الأقطاب والعارفين والأولياء من الأزل إلى الأبد من وجه خاص.

فإذا فهمت هذا يظهر لك أن إمداد جميع الأنبياء من رسول الله ﷺ بالنسبة إلى مدد الأولياء منه خاص من عام، ماعدا خاتم الأولياء ﷺ.

فإن قلت: إن هذا الشيخ عندكم أعلا درجة من أكابر الأنبياء والرسل فمن دونهم، قلنا: لا، ولا يلزم ذلك؛ لأن نبوة جميع الأنبياء ورسالتهم إنما هي عين نبوته ورسالته ﷺ من غير تعدد، ولذلك قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي ﷺ بعدما اطلع على كلام الغزالي ﷺ من تعدد مرتبة الصديقية وقع في رقاب الأنبياء، فقال الشيخ المذكور: من تعدد مرتبة الصديقية وقع في رتبة سيد الوجود ﷺ مشيراً بذلك إلى عدم التعدد في مرتبة النبوة والرسالة.

فمن عرف أن سيدنا أحمد التجاني ﷺ هو الأب الثاني ورسخ في هذه المعرفة وتحقق بها، صار كأنه هو الأب الثالث لجميع العالم؛ لأنه يصير حيثيلاً مشاهداً لأبوة الشيخ عليه، فتكون له الأبوة الخاصة من الشيخ والنبوة الخاصة للشيخ منه، وتناسل البنين إنما يكون عن الابن المباشر كما أن أبوة سيد الوجود ﷺ لا يتفع بها إلا من علمها وأذعن لها، وأما غير ذلك فمتقطع عنها بالكلية.

فقلت له: كيف تكون هاتان الأبوتان خاصة لمن علمهما وأذعن لهما ونظر في ذلك الوقت إلى حقيقة الأمر فقال ﷺ: قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] ومراده بذلك أن هذا الانقطاع ليس انقطاعاً في الحقيقة، إنما هو انقطاع حجاب، إما حجاب عن الله تعالى، وإما حجاب عن سيد الوجود ﷺ وعن سائر أهل الخصوصية، وإما عن الجنة.

ثم بعد هاتين أبوة جميع المشايخ والأستاذين، إما من طريق العلم الظاهر

الشرعي، وإما من طريق الباطن، وأبوة العلم الظاهر بالنسبة إلى هذه بمنزلة الأبوة الجسمية إلى الروحية، لأن أبوة الروح هي التي تخلص المرید من كدورات النفس ورعوناتها، وتلقيه في بحر الشهود والفناء في حقيقة الحق، لأنه أبو الروح وحقيقته، لأن روح التلميذ من روح شيخه، وهي التي يشير إليها جميع العارفين في وصاياهم وكتبهم، فمن ذلك قول بعضهم: من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه. وقولهم أيضاً: من لم يمت تحت بيعة مات ميتة جاهلية، وقولهم: من لا شيخ له لا مولى له، واستدل على ذلك أيضاً بدلائل من «طبقات» الشعراني من كلام سيدي علي وفا.

ثم إن مرتبة الأستاذية لها أحكام تخصها تنقسم إلى اعتقادات وآداب، فأما الاعتقادات فتختلف باختلاف الأحوال، والناس منها على درجات: فمئهم: من لا مدخل له في علوم الحقائق ولا يميز فيها أصلاً ولا فصلاً، فهذا يطلب منه في ابتداء سلوكه أن يعرف وجه المغايرة بين روحه وجسمه، ليعطي كل ذي حق حقه، فيعلم أنه كما أن أباه من طريق الجسم هو مغذي جسمه في زمان ضعفه، وهو زمن الطفولة إلى حد البلوغ، كذلك شيخه هو مربّي روحه في زمان ضعفها، وهو زمن الحجاب إلى زمن بلوغها وهو زمن الفتح الأكبر، وغذاء الجسم بالطعام والشراب وغذاء الروح بالعلم والمعارف ومعرفة الآداب، ويعلم المرید أن هذه العلوم التي أتت على يد شيخه من جهة النبي ﷺ كما يعلم أنها واردة على النبي ﷺ من جهة الحق.

ومنهم: من يرى أنه متوجه إلى الحق وسائر إليه، ويعلم أن الشيخ من عبيد الحضرة الإلهية، ومن أولياء الله تعالى، وصحبه لله، بأن يقول: هذا ولي الله وأنا أوليه لله تعالى، ويتعلم منه الآداب التي توصله إلى حضرة الله.

ومنهم: من يرى أنه بمنزلة المريض والشيخ بمنزلة الطبيب فيسلم إليه نفسه على أن يخلصه من تلك العلة التي أعرضته، وهي مجموع العوائق القاطعة عن الله.

ومنهم: من هبت عليه نسيمات القرب، وحصل له الاسترسال في ميدان الحقائق فيعلم أن الشيخ هو فرق الوجود وجمعه، فأما فرق الفرق فيعلم أن جميع الكائنات قائمة بأسماء الله تعالى، ومتميزة في ذلك القوام بالصور والمقادير والجهات والأزمنة والأمكنة وغير ذلك، بأن يكون زيد غير عمرو ومقداره غير مقدار عمرو، وقس الباقي.

ويعلم أن الشيخ متحقق بجميع الأسماء، وهو الممد لجميع الكائنات بتلك الأسماء والسر في ذلك التمايز بحيث أن يكون هو سر اللطائف، والكثافة في الكثائف والرطوبة في الرطوبات، واليبوسة في اليابسات، وهكذا جميع الموجودات على طبقاتها من صورها ومقاديرها واختلافها وتباينها وتنافرها لأن جميع الموجود ثابت في حضرة العلم، وتخصيص ذلك الثبوت في الجهات والمقادير والأزمنة والأمكنة وغير ذلك، وهو سر الإرادة وإبراز ذلك التخصيص هو سر القدرة.

وقوام ذلك الإبراز هو سر القيومية ودوام ذلك كله هو سر الربوبية، وأما وجه الجمع فيعلم أن جميع الأسماء المذكورة متنهاها إلى وحدة، والشيخ هو عين الوحدة المنظورة في ذلك الوجود من جهة المؤثرات لأن جميع الأسماء تندرج تحت كل اسم، وهذا كل اسم يطلبه وجود الكون، انتهى.

الفقه والفهم

ومن كلامه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١) ومفهوم الحديث: إن من يرد الله به شراً لا يفقهه في الدين، والمراد بالخير في هذا الحديث السعادة، والمراد بالشر في مفهومه الشقاوة، والمراد بالفقه في الدين هو الفهم عن الله، أي: معرفة مراد الحق ﷻ في أوامره ونواهيه التي هي موضوع الشريعة، ومعرفة مراده ﷻ في جريان مقاديره التي هي فلك الحقيقة، ومعرفة في ظهور حكمته التي هي موضوع الطريقة الجامعة بين الشريعة والحقيقة. ومن هذه الحيثية انقسم الناس على طوائف على حسب اختلاف نسبهم في السعادة والشقاوة. فمنهم: طائفة اعترضوا على الله ﷻ في أوامره ونواهيه، فقالوا: في فرض الصلاة والصوم مثلاً ما يفعل الله بصلاتنا وصومنا؟

ومنهم: من قال في فرض الزكاة: إن الله فقير ونحن أغنياء، ولو فهموا عن الله تعالى أنهم عبيد مكلفون بعبادة الله من عند الله، والله هو المعبود بالحق مع غناه عن العالمين لما اعترضوا؛ لأن العبد لا يذ أن يرضى بحكم سيده، ويمثل أوامره ويجتنب نواهيه.

(١) تقدم تخريجه.

وطائفة أخرى اعترضوا على الله بحسب ما تظاهر لهم من معارضة الشريعة والحقيقة، فقالوا: كيف يكلفنا الله وهو الخالق لأفعالنا؟ وغفلوا عن حكمة الله في الشرعيات والعاديات التي مقتضاها ربط الأسباب بالمسببات مثلاً لها في الشرعيات مثال التكاليف الشرعية، فإنها سبب في تمييز قبضتي السعادة والشقاوة.

ومثالها في العاديات مثال الزراعة فإنه قد جرت العادة قديماً وحديثاً، أنه لا ينبت الزرع إلا في الطين الذي هو مجموع التراب والماء، فإذا أردت الحراثة مثلاً، فإنك لا تلقي بذرك إلا في الطين، وكان لسان حال الحقيقة يتناديك: ألقِ بذرك في الحجر كما تلقى في الطين فإن الذي ينبت في الطين قادر على أن ينبت فوق الحجر، فالحال مستوفي قدرته؛ لأنه لا يعجزه شيء، ولسان حال العادة يتناديك ألا تنجح لبذرك إلا في الطين فيتعارض عليك أمران؛ لأنك إن ملت إلى جانب الحقيقة تخشى القوات.

وإن ملت إلى جانب العادة كنت متهمًا الله في قدرته، فيفضي بك الأمر إلى الحيرة، فيتناديك لسان حال الحكمة: إن الذي ينبت في الطين قادر على أن ينبت على الصفوان كما خاطبتك الحقيقة، ولكن قد اقتضت حكمة الله التي مقتضاها ربط الأسباب بالمسببات أنه لا يكون الإنبات إلا في الطين، ومع ذلك فإن من شرح الله بصيرته بنور الإيمان شاهد انفراد قدرة الله في جميع الحالات.

وبالجملة: فإنك تلقي حباً أبيض في طين أسود، فظهر من بينهما أمر ثالث مخالف لهما في اللون والطعم والريح، لا طاقة لك بإبرازه، ثم ينمو ويروى بحركات الهواء حتى يستوي، فما ذاك إلا محض قدرته، ولا ارتباط الأسباب الشرعية والعادية بالمسببات.

قال الفقهاء رضوان الله عليهم: إن سؤال الله بما هو محال عادة سوء أدب، وأما بما هو محال شرعاً فقد يكون كفراً، والسبب الأكبر هو المشيئة الإلهية، وإليها يستند كل شيء ولا تستند إلى شيء، وكم من سبب أثروكم من سبب لم يؤثر، ومن أعظم الشواهد على ذلك قصة أبي طالب والعباس عمي النبي ﷺ، فإن أبا طالب كان شديد المحبة لرسول الله ﷺ، وعلى غاية من العلم بصحة نبوته كما يشهد لذلك قوله:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً

لولا العلامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذلك مييناً

وقوله أيضاً: «إن لابني هذا لشأناً» ولازال يجتهد في الذب عن رسول الله ﷺ مدة حياته، ومع ذلك فلازال النبي ﷺ راغباً في دخوله في الإسلام ومطالباً بذلك حتى أنزل الله عليه في حقه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] ولم يتبر منه ذلك إلى أن توفاه الله تعالى فلم تؤثر فيه الأسباب لما اقتضته المشيئة الإلهية، وأما العباس فلم يكن له من المحبة ما كان لأبي طالب، وهو أيضاً في عسكر المشركين من غزاة بدر ثم صار دخوله في الإسلام على بغنة منه كما اقتضته المشيئة الربانية، إلى غير ذلك من الحكايات في هذا المعنى.

ولافتراق هذه الطوائف التي تقدم ذكرها في الاعتراض على الحق ﷻ قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شِقْوَةً جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] وذلك لأن النوع الإنساني من حيث مظهر الكمال فلا يدرك منتهاه في مراتب الكفر كما لا يدرك كنهه في مراتب الإيمان، ولذلك قيل: إن الشيطان يلقي على ابن آدم شيئاً من أبواب الكفر فيتمسك بها ابن آدم، ويستتبط فروغاً من الكفر لا تخطر للشيطان على بال، كما أن ملك الإلهام قد يلقي إلى المؤمن شيئاً من أبواب الإيمان، فلا يزال يستتبط منها علوماً وأسراراً لم تكن عند الملك من حيث الذوق الفعلي، فيتوصل بها إلى حد المعرفة بالله تعالى.

وهم جماعة العارفين الذين بلغوا إلى ما يمكن الوصول إليه من الفقه في الدين ففهموا مراد الحق تبارك وتعالى في الشريعة والحقيقة والطريقة فأعطوا كل ذي حق حقه، فتجدهم يراعون لأداب الشريعة المطهرة في الأحكام الظاهرة، غير منخلين بشيء منها، مع كونهم مستغرقين في بحر الحقيقة الإلهية، فانون في حقيقة المسبب عن الأسباب والمؤثر عن المؤثرات، لا يلتفتون إليها لمحبة، وهم مع ذلك موقنون لأداب الطريقة الجامعة بين المرتبتين مشاهدين لحكمة الله تعالى في الأشياء من حيث جمعها وفرقها وجملها وتفصيلها لا يشغلهم هذا عن هذا، وهو مقام الفرق في عين الجمع والصمود في عين المحو، فصارت جميع تقلباتهم للحق في الحق من الحق عن الحق بالحق في سائر الأمور ضرورية ونظرية وعقلية ونقلية وعادية.

فمثل هؤلاء ليس للشيطان عليهم سلطان، لأن الشيطان إذا أتى إليهم يطفئ كما تطفئ النار التي هي حقيقته من نور المؤمن يوم القيامة فتقول له: جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهي، وذلك لأنهم لا يشهدون الشيطان من حيث هو، وإنما يشهدون الحقيقة التي ظهر منها الشيطان، وفيهم يقول ﷺ: «الغيب واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»^(١).
ودعا لابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(٢) إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث في هذا المعنى، انتهى.

تنزيه الحق عز شأنه

وسمعه ﷻ يقول: قال الله تعالى: «وَأُيُونُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ» [الزمر: ٥٤].
وقال تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [الذاريات: ٥٦].
وقال: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» [طه: ١٤].
وقال: «إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْحَقِي» [العلق: ٨] وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان لمعرفة وتعرف إليه بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله ومؤثراته وأمره أن يعرفه في وجهات تعرفاته كما خلق فكلفه بالعبادة وهي مطلوبة للذكر والذكر مطلوب للفكر، والفكر مطلوب للمعرفة، وبداية المعرفة أن تعرفه بالمؤثرات، فتستدل بها على وجوده تعالى وكمال صفاته لافتقارها إليه في كل لحظة وطرفة، وهذه المرتبة هي مرتبة التنزيه النظري، وقد ضل فيها أقوام لضيق المجال فيها.
فمتهم: من نزهوا الإله عن فعل الشر فأداهم ذلك إلى القول بخلق العبد أفعال نفسه الاختيارية وهم المعتزلة، ولو علموا مرتبة الحق ﷻ في تجلي الجلال والجمال لسموا من هذه العلة المعضلة.
ومتهم: الجبرية القائلون بنفي الاختيار عن العباد، فأداهم ذلك إلى تعطيل الشرائع فضلوا وأضلوا ولو علموا سعة إطلاق الذات الإلهية وظهورها في المراتب المتباينة لتخلصوا من هذه الورطة.

(١) أخرجه ابن عدي (٣٧٨/١)، والخطيب (٩٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٢٢)، والطبراني (١١٥٣١)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٦/١)، وابن سعد (٣٦٥/٢)، والمعالم (٦٢٨٠) وقال: صحيح الإسناد.

وجعل الله مذهب أهل السنة من بين هذه المذاهب لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، ثم نظر أهل السنة في بعض صفات أثبتها الحق لنفسه، ولم توافق ما عندهم من التنزيه فاتفقوا فيها على ثلاث مذاهب:

المذهب الأول: مذهب السلف الصالح ردوا العلم فيها لله تعالى، ولم يخوضوا فيها بشيء.

والمذهب الثاني: مذهب المتأخرين منهم خاضوا فيها بالتأويل وردوها إلى ما عندهم من التنزيه.

والمذهب الثالث: مذهب العارفين أبقوها على ظواهرها في حقه تعالى، على شرط المغايرة بين صفات الحادث والقديم.

ثم نرجع ونقول ثم بعد طول المراقبة في هذه المرتبة تشهد معيته للأشياء؛ لأنه مع كل شيء بذاته^(١) في الخلق وصفاته وأفعاله، على مذهب العارفين كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ثم تشهده فيها ثم تشهدها بلا كون، ثم تنفى عن شهودك ثم تشهد البقاء وهي مرتبة إعطاء المراتب حقها حقية وخلقية، وجل تفاوت الخلق في هذه المراتب.

قال بعض الصحابة: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله بعده.

وقال غيره: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله عنده.

وقال غيره: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله، وهي مرتبة سيدنا أبي بكر الصديق عليه السلام.

ثم اعلم أن هذا هو الصراط المستقيم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وكان السبب في حجاب الخلق عنه أربعة أشياء وهي: النفس والشيطان والدنيا والخلق؛ لأن النفس هي التي بين جنبيك، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وحب الدنيا هو المعجون في الطينة آدمية، والخلق لا غنى عنهم في جميع الضروريات؛ فلذلك عسر الوصول إلى الحق عليه السلام.

ثم اتخذ المشايخ رضوان الله عليهم طرقاً إلى زوال هذه الحجب، من لزوم

(١) (لا على الوجه المعروف).

(٢) (المعية الإلهية التي لا تدرك وهي غير ما يقتضي الجمعية).

الخلوات، والتقلب في أطوار المجاهدات إلى غير ذلك من أنواع الرياضات، ثم إن النفوس في هذا الزمان قد غلظت فصارت لا تؤثر فيها الرياضة ولا المجاهدة لما ألفته من الميل إلى الراحة والعكوف على الشهوات ودوام المعاصي والمخالفات، فأظهر الله تعالى من كنوز دائرة الفضل والإحسان المختصة بأهل هذا الزمان طريقًا مختصرًا وهي طريقة القطب المكتوم والبرزخ المختوم سيدي أحمد ابن محمد التجاني رحمه الله وأرضاه وعنا به، وصفة السير فيها مجموع أمرين.

الأمر الأول: أن تشهد التفصير من نفسك، وترى أنك غارق في بحر التفصير؛ لأنك إذا نظرت إلى الأوامر والنواهي الإلهية المتوجهة عليك من الحق ﷻ فإذا نظرت إلى جانب المعاصي الظاهرة دقيقتها وجليها، وطالعت الكتب المؤلفة فيها، ثم نظرت إلى المعاصي القلبية وطالعت الكتب المؤلفة فيها «كالإحياء» للإمام الغزالي والطريقة المحمدية ونحوها، ثم نظرت إلى تفاصيل الأوامر الشرعية وكيفية أدائها ظاهراً وباطناً، ثم نظرت في أحوال الأنبياء مع عصمتهم والأولياء مع حفظهم ورأيت شدة خوفهم من الله ﷻ.

ثم طالعت سير السلف الصالح كذلك قضيت على نفسك لا محالة باستحقاق الهلاك العاجل والآجل؛ لأن المرتبة الإلهية تقتضي استهلاك عين العبد ورسومه وهويته، «الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر»^(١) هو من قبيل شهود نسبة شيء ما إلى أنفسهم فإذا تحققت بهذا المشهد يدوم بذلك إنكار قلبك فتستوجب بذلك عندية الحق ﷻ المشار إليها بقوله تعالى: «إنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»^(٢).

والأمر الثاني: أن تشهد تجلي الحق ﷻ في المكنونات بأسمائه وصفاته وذاته تجلياً مرتبطاً بالحكمة الإلهية، بل هو عين الحكمة الإلهية من حيث تشهد جميع الأكوان عدماً في وجوده جل وعلا، إذ ما هي إلا شئون ذاتية، ومظاهر صفاتية

(١) أورده الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (٧٧١) والفني في «تذكرة الموضوعات» (٢٠٠).

(٢) تقدم تخريجه.

وأعيان علمية، وهذا التجلي عام في جميع الأطوار الروحانية والطبيعية والنفسية والشیطان وفي جميع حركات العالم وسكناته، ثم تشهد ظهور هذا التجلي في مجلى ذات شيخك: لأن الشيخ كما قيل ملء الوجود؛ لأنه قبله تجلي الحق ﷻ.

ثم تشهد فناءه في حقيقة نبيك محمد ﷺ وهو مرآة الألوهية ﷻ فإذا تحققت بهذا الشهود تكون مع الله لا مع نفسك سواء وافقت النفس أم خالفت؛ لأن المدار على القلب، فسلك هذا الطريق بالنسبة إلى غيره في الراحة وسرعة السير كنسبة السائر في السفينة في وقت اعتدال الريح وإصلاح القلوع، مع الماشي على رجله في البر فلا نسبة بينهما. ومن هذا المعنى قول الشاعر:

فسيرك يا هذا كسير سفينة يقوم جلوس والقلوع تطير

ثم إذا أخذت في هذا السير ينبغي أن لا تقف مع شيء؛ لأن الكمالات الإلهية لا نهاية لها، ومن وقف مع مرتبة احتجب عن الثانية، انتهى.

ومن كلامه ﷺ قال: قال الله تعالى: «وَأَنبِئْهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَّأً» [الكهف: ٨٤-٨٥].

وقال تعالى: «يَوْمَ تَدْعُوا كُلُّ أُنَاسٍ بِإِسمِهِمْ» [الإسراء: ٧١] فالإمام إنما يتخذ لأمرين.

أحدهما: ربط القلوب على قلب واحد؛ لأن للاجتماع أثرًا على إدراك المقاصد ليس في التفرقة.

والثاني: الاعتناء بهدى الإمام إلى فرقان الحق من الباطل، ولذلك لا ينبغي أن يقدم إلا الأكمل في علمه وعمله والعارف الخبير بوجوه المصالح ودفع المضار لموجب الاقتداء بأقواله وأفعاله، ولذلك فضلت الرسل في الإمامة على سائر الخلق؛ لأنهم جمعوا بين الإمامة الظاهرة والباطنة، وفضل الله بعضهم على بعض؛ كما قال تعالى: «يُنَالِكُ الرُّسُلُ فَضْلُنَا بِعَظَمِهِمْ عَلَى بَعْضِهِمْ» [البقرة: ٢٥٣] وأفضلهم وأكملهم نبينا محمد ﷺ؛ لأنه إمام العالم دنيا وأخرى، وأن إمامة جميع الخلق من الإنس والجن والملائكة والرسل والنبيين والأولياء والصالحين فمن دونهم مما دق أو جل من أفراد الخلق إنما هو نوابه في الإمامة ومظاهر إماميته ﷺ.

فإذا علمت هذا فاعلم أن شرف التابع وكماله إنما يكون بحسب شرف المتبوع

وكماله، ولذلك اجتمع في أمة محمد ﷺ من الفضل والكمال والاختصاص ما لم يجتمع في غيرهم من سائر الأمم، وقد نبه تعالى على كمال فضلهم واصطفائهم واختصاصهم في مواضع من كتابه، وأشار إلى ذلك رسول الله ﷺ في عدة أحاديث: منها قوله ﷺ: «أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا به حتى انتصف النهار أعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أعطيت القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيت قيراطين قيراطين، فقالوا: ربنا هؤلاء أقل عملاً وأكثر أجراً، قال: هل ظلمتكم من أجوركم شيئاً؟ قالوا: لا، فقال: ذلك فضلي أوتيته من أشاء»^(١) أو كما قال.

وأعظم من هذا أنهم خصوا بمزايا لم ينلها أكابر الرسل حتى تمنى أكابر الرسل أن يكونوا منهم، كما في قصة موسى وعيسى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام. فإذا علمت هذا فاعلم أنه بعد رسول الله ﷺ تفرقت إمامته في أمته فورثه في الإمامة الظاهرة أمراء الإسلام وأئمة الدين إلى يوم الدين، وورثه في الإمامة الخاصة الأولياء رضوان الله عليهم، وهذه الولاية الباطنة هي الأفضل والأكمل؛ لأن المدار على الباطن، ومن هذه الحثية كان الأولياء كما قيل: حبال الله أدلاهم إلى خلقه، من تمسك بهم نجا، وكون كل ولي على قدم نبي، وأنهم ورثة الأنبياء يقتضي أن يكون فضلهم وكمالهم إلى واحد منهم، ويكون ذلك الواحد هو وارث رسول الله ﷺ، ويكون له الفضل والكمال والتقدم في الفضل والكمال والتقدم في الإمامة على الأولياء على حسب تقدم رسول الله ﷺ على الأنبياء في ذلك كله؛ لأن للوارث ما للموروث وذلك الواحد هو سيدنا ومولانا أحمد بن محمد التجاني ﷺ لما تأكد فيه من دلائل الوراثة التي بطول شرحها ويعظم بثها ودلائل إشارات المتقدمين والمتأخرين عليه فضلاً عما ظهر له في كشفه وصرح به وشهد له النبي ﷺ بذلك.

حيث كان الأمر كذلك فينبغي للإنسان العاقل أن يختار من الأولياء وارث محمد ﷺ كما اختار محمد ﷺ من الأنبياء؛ لأنه كما قدمنا شرف التابع وكمالهم على حسب شرف المتبوع وكمالهم، ولذلك اجتمع في أصحاب هذا الشيخ من الفضل

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦٢٧٧).

والكمال والاختصاص، ما لم يجتمع في سائر أتباع الأولياء، وأكبر من هذا أنهم خصوا بمزيد فضل واختصاص لم ينله أكابر أقطاب هذه الأمة حتى لو رأت أكابر أقطاب هذه الأمة ما أعد الله لأهل هذه الطريقة ليكوا، وقالوا: يا ربنا ما أعطيتنا شيئاً وراثته محمدية، ويلوح للغبي في هذا المحل أن يقول على وجه الغلط والوهم: بأي شيء ينالون ما لم ينله أكابر أقطاب هذه الأمة مع أن بعضهم لم يظهر عليه أثر الفتح، وأيضاً أن القطب يكتب في صحيفته أجور سائر الخلق؟

وجواب الأول: إن الولاية على مراتب، فإن من الأولياء من ينال الولاية في دار الدنيا، وتظهر ولايته للناس بأي سبب من أسباب الظهور، ومنهم من لا تظهر ولايته للناس أصلاً مع أنه متمكن من الولاية الكبرى، ومنهم من لا يكشف له عن مقامه إلا عند الموت فيظهر له أنه من أكابر الأولياء، ومنهم من لا يكشف له عن مقامه إلا بعد الموت فيظهر له أنه من أهل الفتح الأكبر، ومن مات على هذه الطريقة لا يخلو من هذه المراتب، فالأولى تحسين الظن بهم على كل حال.

وجواب الثاني: إنه كما أن القطب يكتب في صحيفته أجور سائر الخلق، فكذلك يكتب في أجورهم مضاعفة إلى مائة ضعف إلى ما وراء ذلك.

والجواب الكافي عن الأمرين أن الشيخ ﷺ سئل: لم أعطوا ذلك؟ فقال: لأجلي فظهر أنهم إنما نالوا ذلك بوجه التبعية للشيخ، لأنهم ملحقون به لا بالنظر إلى أعمالهم.

واعلم أنه ينبغي للطالب سبيل النجاة أن يجاهد نفسه على التصديق والمحبة لتلا يفوته هذا الخير العظيم، وإن لم يقدر على ذلك واعتزته وساوس شيطانية وظلمات نفسانية ينبغي له أن يسلم قياده إلى شيخ كامل وأصل يعصمه عن طريق الزيغ والطمع، أو يلتزم الصلاة على النبي ﷺ حتى يفتح الله عليه، ومن فاته هذه الوجوه خسر الدنيا والآخرة والسلام.

تقديم الأهم على المهم

ومن كلامه ﷺ قال: اعلم أن الوجود كله طالب للحق ﷻ ومتوجه إليه وعابده له، واتفق العلماء على أن الإنسان يجب عليه أن يشتغل بالأهم أي: إذا تعارضت عليه واجبات ينظر للأكد.

فالمفسرون قالوا: الأهم معرفة التفسير، لأن جميع التكاليف من الإله والقرآن منه فنعرف التكاليف منه.

والمحدثون قالوا: يجب أولاً معرفة الحديث، لأن النبي ﷺ هو الذي جاء بالقرآن والحديث، فنعرف تفسير القرآن من معرفة معنى الحديث، لأننا لا نقدر أن نفسره بغير ما جاء به ﷺ.

والفقهاء قالوا: يجب أولاً معرفة الفقه، لأن العامة لا يقدر أن يفهموا، فاجتهد كل من الأئمة المجتهدين ﷺ في استنباط الأحكام من القرآن والحديث، وقد فهم كل منهم فهماً، فإذا كان الأئمة العلماء العاملون قد اختلفوا اختلافاً كثيراً في معنى القرآن والحديث وبعضه لم يفهموه أصلاً، فكيف بغيرهم؟

وأهل التوحيد قالوا: الأهم أن نعرف من تعبد حتى تعبد.

والصوفية قالوا: الأهم أولاً إصلاح القلب، لأن القلب هو الذي يميز الأصلح من غيره.

والعباد قالوا: نعبد الله ونلتجئ إليه؛ يصلح قلوبنا، ويعرفنا كيف نعبد.

والعارفون ﷺ قالوا: هذه كلها حجب عن الله، فالإنسان إذا تفكر ونظر بعين اليقين يرى أنه هو المطلوب لا هو الطالب؛ لأنه ليس لك فعل ولا حركة ولا سكون إلا به وكلامهم حق؛ لكن بعد قطع الحجب؛ لأن جل الناس محجوبون عن هذا لأن من سمع هذا ولم يعرف مقصده يقول: هذا تعطيل للشرعية.

قلت: قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [البقرة: ١٦٤] فتأمل يا أخي في الأشياء المسخرة لك تجد نفسك أنه قد سخر لك أعضائك إن صرفتها في طاعة، أو معصية، أو سخر لك فكراً كلما تفكرت به زاد اتساعاً في كلا الجهتين، ثم تفكر في غيرك فيما سخره لك.

ثم قال ﷺ: واتفقوا على أن هذا كله لا يعرف إلا بالشيخ والشيخ هو السبب في ذلك، فحضرة الشيخ يحتاج إلى معرفة؛ لأنه لما كان هو باب الدخول فاعرف كيف الدخول منه، فطريق ذلك أن تعرف أن حضرة الشيخ هي حضرة النبي ﷺ فاعرف الآداب مع النبي ﷺ وقد أدب الله نبيه ﷺ وأدب له عباده، فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال تعالى في تأديب عباده: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ إلى آخر قوله: ﴿وَتَسْلَمُوا سَلَامًا﴾ [النساء: ٦٤-٦٥].

وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ وَمَا يَنْبَغِي﴾ [الحجرات: ١] إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٥] فإن هذه الآيات تستلزم من الآداب ما لا يقدر عليه إلا المؤيدون.

ومقتضى الحكمة أن الله تعالى أنزل نبيه من المنزلة الزلفى وحياء من الحظوة والمكانة عنده ما لا تدرك له غاية، ولا يوقف له على حد ولا نهاية وأظهر مزيتة لخلقه من حيث أقامه مقامه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَاجُونَكَ إِنَّمَا يُنَاجُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

فكان مقتضى المقام ألا يعصي طرفة عين فنزلت الآيات الكريمة حسب ما اقتضاه المقام، وكان من سعة خلقه وجوده وكرمه ورأفته ورحمته بأمته ما يكافئ ذلك لا سيما وقد أثنى الله تعالى عليه في كتابه فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] واقتضت مرتبة الأمة عدم العصمة من الذنوب لأن العصمة من خصائص النبوة فكان المخالفون مترددين بين سعة الرحمة وبين ما اقتضاه المقام الأول فافترق الناس في ذلك على طوائف:

فرزعت المعتزلة وطائفة من المتصوفة إلى أن ما ورد عن النبي ﷺ إما أمر وإما نهي ولا ثالث لهما، ومبني أمرهم على إجلال أمر النبي ﷺ أن يخالف نظر الحرمة ومكانته عند ربه.

وزعمت طائفة إلى أن من أتى معصية فقد كفر نظراً للمقام الأول أيضاً.

وما عليه جمهور الأمة وجماعة أهل السنة أن الشريعة على أحكام خمسة، وهي: الوجوب والتدب والحرمة والكراهة والإباحة، وأن لا يلزم الوعيد إلا في قسم المحرم فقط، وإن العاصي في المشيئة بين العفو والمؤاخلة ونظرهم في ذلك إلى سعة رحمة رسول الله ﷺ لاسيما، وقد قال ﷺ: «لو لم تذهبوا للذهب الله بكم

ولجاء يقوم يذنبون ويستغفرون الله فيغفر لهم»^(١).

فإذا فهمت هذا وتحققته فاعلم أن سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمته الله هو خاتم الأولياء وهو الوارث المحمدي بهذه المثابة، لأن النبي ﷺ أنزله منزلة نفسه فقال له: «أصحابك أصحابي... إلخ»^(٢) وعظيم حظوته ومكانته عند الله تعالى وشفوف مرتبته على جميع الأولياء سلفًا وخلفًا، معلوم بتواتر نصوص كلامه كشفًا ورواية عن النبي ﷺ، ومن دلت عليه إشارات أهل الدوائر الكبرى من أهل الله الماضين والمعاصرين له، فيقتضي مقامه أن يتلقى أمره بالإذعان والقبول في إرشاداته وأذكار طريقته وشروطه فلا يهمل منها شيء ولا يعصى فيما يأمر به أو ينهى طريقة عين، ومن تهاون بذلك يكون متعرضًا للمقت.

ولكن مقتضى ما ورثه من النبي ﷺ من العفو والرحمة بأصحابه تقتضي لهم بالتجاوز عن سيئاتهم فلا يترك منها شيء، اللهم إلا أن يكون المخالف له معرضًا عن جناب الشيخ أو مبغضًا له، فهذا عرض نفسه للهلاك في الدنيا والآخرة، فإن التلميذ لو رزقه الله سعة على قدر العالم وهو في كل وجهة من وجهاته مقبل على شيخه غير وجهة واحدة، فتلك حظ الشيطان منه، وإذا سمع من شيخه كلامًا ثم اضطرب فيه قلبه فذلك باب قد يؤدي إلى الكفر والعباد بالله.

اختلاف المشارب

ومن كلامه رحمته الله قال: قال الله تعالى: «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِشْرَبَهُمْ» [الأعراف: ١٦٠] ومعناه على طريق أهل الإشارة أن لكل أهل مرتبة من مراتب أهل الإيمان مشربًا غير أهل المرتبة الأخرى، اللهم إلا أن من ضعف إيمانه يكون ضعيف العلم بذلك لاستيلاء الغفلة وتكاثف حجب الأوهام، ومن قوى نور إيمانه رأى ذلك بحسب قوة إيمانه ويعلم وجهة مشربه التي يكون وروده منها فأدناهم أهل الكشف وأعلاهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والسير في اختلاف المشارب هو أن الاستمداد لا يكون إلا من حضرات

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الأسماء الإلهية وحضرات الأسماء متضادة، فكل رسول أو نبي أو ولي لا بد أن يكون استمداده من حضرة منها، ولذلك وقع الاختلاف في شرائع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - مع أن كلها حق لا ريب فيها، ولذلك تجد ما هو حرام في شريعة نبي من الأنبياء حلالاً في شريعة غيره من الأنبياء كتنكاح الأخنين فإنه حلال في شريعة يعقوب عليه السلام حرام في شريعة نبينا محمد ﷺ.

وبالجملة: فكانت حضرة نبينا ﷺ حضرة الرحمة وهي الحضرة الجامعة للحضرات كلها، لأنه ﷺ عين الرحمة الربانية التي هي مجموع مظاهر اسمه تعالى الرحمن، ولذلك خاطبه الحق تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧].

ولذلك أيضاً كانت شريعته السهلة السمحة البيضاء لسهولة ارتدائها ورفعها للحرج الذي كان في شرائع الأنبياء بالنسبة إليها كما قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَثْلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهو ما كان في شرائع الأنبياء من قروض النجاسة بالمقراض من الثوب والبدن، فمنع في هذه الشريعة فصار في هذه حراماً لأنه في الأول إضاعة للمال، وفي الثاني ضرر للنفس وفساد يكفي في ذلك غسلها بالماء.

وكتعين الصلاة في بقعة معينة، ثم نسخ في هذه الشريعة فجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وترتتها طهوراً، مع تضاعف الأجر لهذه الأمة بحسب تضاعف الحسنة إلى سبعمائة ضعف أو أقل أو أكثر إلى غير ذلك من تكفير السيئات ورفع الدرجات.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عنه ﷺ أنه قال: «إنما مثلكم فيمن كان قبلكم من الأمم أوتى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا^(١) فمن الخلق من توجه بظلمة الوهم إلى ظلمة العدم الذي هو وجود الشرك، ومنهم من توجه بنور العقل والشهود إلى نور الوجود وما ثم إلا تجلي العماء والظهور، والعارف يشهد

(١) تقدم تخرجه.

في هاتين المرتبتين كشفًا وذوقًا، لا نقلًا وفهتًا، ولا يكمل له ذلك إلا إذا بلغ مرتبة البقاء بعد القناء فهذه هي الطهارة الأصلية المشار إليها.

وأما الطهارة الفرعية: وهي الطهارة بالماء فهي فرع عن هذه الطهارة التي أشرنا إليها التي هي طهارة الإيمان، ولذلك قال ﷺ: «الطهور شطر الإيمان» لأن الشطر الثاني هو طهارة الإيمان^(١) وإنما شرعت الطهارة بالماء، لأن الماء فيه سر الحياة كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠] ولأن الإنسان كما قدمنا في حكم الميت لأنه منسحب عليه حكم العدم والموت مقدمة العدم لاستيلاء حكم الشرك الطبيعي والغفلة عليه؛ لذلك خوطب بالطهارة المائية ليتعش من موته بسر الحياة المائية، وإنما كان في الماء سر الحياة؛ لأنه وارد من الغيب وكونه إذا تغير بنجس طرح لاعتبار أن النجاسة الطارئة على الإدراكات الروحانية هي بعض الأخلاق الموجبة لإحباط العمل، وأما الملازم فهي الخواطر الطارئة فإنها لا تظهر وهي الهاجس والمخاطر وحديث النفس والهم بخلاف العزم على المعصية فإنها غير معفو عنها.

واعلم أن العلة في طهارة الخبث ما قدمناه لك من استيلاء حكم الشرك على فضلات آدميين وما يلزمهم من بهيمة الأنعام.

وأما طهارة الحدث: فهو الوضوء والغسل أو بدلهما وهو التيمم. انتهى.

سر نيابة الأرض عن الماء في التيمم

قال سيدي عبد الرحيم ومأثته ﷺ: لم نابت الأرض في التيمم عن الماء؟ فقال: لأنه أصلها، وإنما حقيقتها ماء جمد فصار زبدًا قيس الزبد فصار ترابًا، ومما يدل ذلك على ذلك أن النبات في أول بروه من الأرض تراه شيئًا مستقلًا فإذا عصرته يرجع ماء مع أنه في حقيقته مخلوق من الأرض كالإنسان والحيوان، وحالة نباته يثبت أيضًا من الأرض فهذا هو السر في نباتها عن الماء.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٥٩)، والنسائي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٢٨٠)، والدارمي (٦٥٣)، وأبو عوانة (٦٠١)، وابن حبان (٨٤٤)، والطبراني في الكبير (٣٤٢٣).

وأما الحكمة في أمر الإنسان بالتميم فيها فلأنه في الحقيقة نوراً لأن روحه من الملائكة العلوي، ثم تنزل في العالم السفلي وآخر مرتبة برز منها هي التراب، ثم كف بالتكاليف.

ومنها: أيضاً الجولان في فضل هذا الشيخ وما أعد الله لأصحابه، وملاك الأمر الذي هو بمنزلة الشهادتين في الإيمان والإسلام، هو محبة الشيخ ﷺ ومحبة أصحابه في الطريق والتودد إليهم وتوقيرهم واحترامهم وتعظيمهم كما عظمهم الله تعالى. انتهى.

إذا تعارض أمر ونهي

قال جامعنا: وقد آن لنا أن نذكر هنا أسئلة شُئِلَ عنها شيخنا ﷺ فأجاب عنها جوابات لبعض الأحباب لما فيها من الفائدة، شُئِلَ سيدنا ﷺ: ما قول السادة العلماء فيمن تردد في أمر هل هو سنة أو بدعة هل يفعله أو لا؟ وفيمن لا يقدر على إقامة واجب إلا مع الوقوع في محرم.

الجواب والله الموفق للصواب فهو كما قال صاحب الطريقة المحمدية وشرحها ونصه: اعلم أن فعل البدعة أشد ضرراً من ترك السنة لأن فعل البدعة معصية سارية، وترك السنة معصية قاصرة، ولا شك أن المعصية السارية أشد ضرراً من القاصرة، بدليل أن الفقهاء المستنبطين للأحكام من الكتاب والسنة والقياس وإجماع المجتهدين العالمين بذلك قالوا: إذا تردد في شيء بين كونه سنة أو بدعة فتركه لازم أي: مطلوب وجوباً.

وأما ترك الواجب هل هو أشد من فعل البدعة، ففيه اشتباه حيث صرحوا فيمن تردد في شيء بين كونه بدعة أو واجباً بالتطبيق، إما حمل البدعة عما لم ينع عنه بخصوصه والواجب على معنى الفرض أو الواجب على المستقل المطلوب لذاته كالوتر وزكاة الفطر، لا الضمني المطلوب لغيره كإبطال الشبهة وإدخال البدعة وبالحمل على الرايين، والله أعلم.

فالتطبيق بين ما صرحوا به بين مدلول هذه المسألة، حمل البدعة الواقعة في عبارة الفقهاء، على ما لم يوجد فيه نهي عن رسول الله ﷺ بخصوصه، بل يكون داخلاً تحت عموم النهي الوارد في البدعة، وأما البدعة التي في حقها ورد النهي عن الشارع بعينها فعلها أشد ضرراً من ترك الواجب، انتهى باختصار.

وقال في «روح البيان»: ترك السنة لأجل السنة سنة، ومن المعلوم المقرر من أصول الدين إن تعارض الأمر والنهي غلب جانب النهي^(١) لأن دفع المضرة مقدم على جلب المصلحة، وروى في «كشف أصول اليزدوي» حديث: «لترك ذرة مما نهى الله عنه خير من عبادة الثقلين»^(٢) وفيه أن ابن سيرين خرج ليصلي على جنازة فسمع عندها نوحاً فرجع ولم يصل وبهذا تبين أنه قدم الترك على الفعل خوفاً الوقوع في محذور وهو مشاهدة المنكر الذي هو النجاسة.

وذكر العارف الشعرائي في «الطبقات»: أن عروة بن الزبير بن العوام ترك مسجد رسول الله ﷺ فقبل له في ذلك، فقال رأيت مساجدهم لاهية وأسواقهم لاغية والفاحشة في فجاجهم عالية، فكان فيما هنالك عما هم فيه عاقية، وذكر العارف الشعرائي في «الطبقات» أيضاً: أن الإمام مالك بن أنس ﷺ مكث خمسة وعشرين سنة لم يشهد الجماعة، فقبل له: ما يمنعك من الخروج؟ فقال: مخافة أن أرى منكراً احتاج أن أغيره. انتهى.

وذكر في «الإحياء»: أن من علم فساداً في موضع ولم يقدر على إزالته، فلا يجوز له أن يحضر ليجري ذلك بين يديه وهو مشاهد ويسكت، ولينبغي أن يتحرز عن مشاهدته وفيه أيضاً في باب درجات الحلال مثل أحمد بن حنبل عن رجل يكون في المسجد يحمل بحمرة لبعض السلاطين ويختر المسجد بالعود، قال: ينبغي أن يخرج من المسجد. انتهى.

هذا ما ظهر من نقل الفقهاء المجتهدين فخذ منه فتواك؛ لأن معك مفتياً تستفتيه وإن أفنوك، وهو القلب، كما في حديث: «استفت قلبك وإن أفنوك»^(٣) مع أن أرباب القلوب أيضاً يوافقون ما تقدم من النقل لاتفاقهم على قول واحد أن التخلية مقدم على التحلية، والله أعلم. انتهى.

ولما جرى ذكر المسجد فلنذكر هنا أحاديث واردة في الزجر عن الكلام في المسجد، كان نقلها في محل آخر خارج عن هذا الوارد.

(١) ذكره اليزدوي في كشف الأسرار (١/١٥٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٠٣٠)، والطبراني (١٤٨/٢٢) رقم ٤٠٣، والدارمي (٢٥٣٣).

منها: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «ألا أدلكم على قوم لا خلاق لهم ولا صدقة لهم ولا صلاة لهم ولا صيام لهم ولا زكاة لهم ولا حج لهم ولا إيمان لهم وهم عند الله مبغضون؟ قيل: ومن هم؟ قال: قوم من أمتي إذا سمعوا الأذان أخذوا في جهازهم أسبغوا وضوءهم وراحوا إلى مساجدهم وركعوا ركعتين خفيفتين وولوا ظهورهم إلى المحراب يخوضون في أمر دنياهم، فوالله لا تزال الملائكة تقول لهم: اسكتوا يا بقضاء الله، اسكتوا يا مقتاء الله، اسكتوا يا أعداء الله، اسكتوا فعليكم لعنة الله، فإذا صلوا ضربت وجوههم بصلاتهم وانصرفوا وقد سخط الله عليهم» انتهى.

فإن قيل: لا بد لناس من الكلام في المسجد لأننا نأتي من دور شتى. فالجواب: أما كان في كتاب الله وما عطف حيث يقول: «فَأَسْعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ» [الجمعة: ٩] ولم يقل: إلى ذكر الدنيا، إن الجليس في المسجد جليس الله، فإذا قرء بالسكوت وقرء الله بجنات التعيم ومن استهان بحق الله تعالى بالكلام فيه كبه الله في جهنم.

ومنها: ما روي عنه عليه السلام أنه قال: «يكون في آخر الزمان من أمتي أناس يأتون المساجد يقعدون فيها حلقاً حلقاً، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم، فليس الله بهم حاجة» انتهى.

ومنها: ما رواه معاذ بن جبل عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كل كلام في المسجد لغو إلا ثلاث: مصل أو ذاكر أو سائل حقاً أو معطيه» انتهى.

وروي أن مسجداً من المساجد ارتفع إلى السماء شاكياً من أهله يتكلمون فيه بكلام الدنيا فاستقبله الملائكة، فقالوا: بعثنا بهلاكهم. انتهى.

وروي أن الملائكة يشكون إلى الله تعالى من نتن فم المغتائبين والقائلين في المسجد بكلام الدنيا.

(١) ذكره في «بريقة محمودية» (١١٢/٥).

(٢) ذكره العراقي في تخريج الإحياء (٤٠٧) وقال: أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود، والحاكم من حديث أنس، وقال: صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه الديلمي (٤٧٦٤).

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: كان الناس فيما مضى في مساجدهم على ثلاثة أصناف:

- صنف في صلاة لها من الله تعالى نور ساطع.
 - وصنف في ذكر معروج به إلى الله تعالى.
 - وصنف صامت سالم، فانتقل ذلك فصارَت المساجد معادن خوضهم، ومواطن لهوهم يتفكهون فيها بالغية ويفيد بعضهم بعضاً النجاسة.
- وروي عن الحسن البصري رحمه الله قال: «يأتي على أمتي زمان يكون حديثهم في مساجدهم في أمر دنياهم ليس له حاجة فيهم، فلا تجالسوهم»^(١).
- وروي عن الزهري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «الغرباء في الدنيا أربعة: قرآن في جوف ظالم، ومسجد في نادي قوم لا يصلون فيه، ومصحف في بيت لا يقرأ فيه، ورجل صالح مع قوم سوء»^(٢).
- وعن أمير المؤمنين وإمام المتقين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه عليه السلام وأرضاه - قال: يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه يعمرّون مساجدهم وهي خراب من ذكر الله، شر أهل ذلك الزمان علمائهم ومنهم تخرج الفتنة والبهيم تعود.

وقال الحسن البصري: مهور الحور العين في الجنة كنس المساجد وعمارتها.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: من أسرج في المسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحمة العرش يستغفرون له مادام ذلك في المسجد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المساجد بيوت الله في الأرض والمصلي فيها زائر وحق على المزور أن يكرم زائره.

وقال الفقيه رحمه الله: يقال: حرمة المساجد خمسة عشر حصلة:

أولها: أن يسلم وقت الدخول إذا كان القوم جلوساً، وإن لم يكن أحد فيها أو كانوا في الصلاة يقول: السلام علينا من ربنا وعلى عباد الله الصالحين.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الديلمي (٤٣٠١) قال المناوي (٤/١٠٩) فيه عبد الله بن هارون الصوري، قال الذهبي في الدليل: لا يعرف.

والثاني: أن يصلي ركعتين قبل أن يجلس لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لكل شيء تحية وتحية المسجد ركعتان»^(١).

والثالث: لا يشتري فيه ولا يبيع.

والرابع: ألا يسلم فيه السيف.

والخامس: ألا ينشد فيه الضالة.

والسادس: ألا يرفع فيه الصوت في غير ذكر الله تعالى.

والسابع: ألا يتكلم فيها بشيء من أحاديث الدنيا.

والثامن: ألا يتخطى رقاب الناس.

والتاسع: ألا يتنازع في المكان.

والعاشر: ألا يضيق على أحد في الصف.

والحادي عشر: ألا يمر بين يدي المصلي.

والثاني عشر: ألا ييزق فيه.

والثالث عشر: ألا يفرقع أصابعه فيه.

والرابع عشر: أن يترهه عن النجاسات والمجانين والصبيان وإقامة الحدود.

والخامس عشر: أن يكثر فيه ذكر الله تعالى ولا يغفل عنه.

وعن أنس رضي الله عنه: يحشر الله المساجد كأنها بخت بيض قوائمها من العنبر وأعناقها من الزعفران، ورءوسها من الملك الأذفر، وأزمتها من الزبرجد الأخضر، وقوادها المؤذنون يقودونها بسوقونها فيعبرون بها في عرصات القيامة كالبرق الخاطف، فيقول أهل القيامة: ما هؤلاء الملائكة؟ المقربون أو الأنبياء المرسلون؟ فيقال: هم من أمة محمد ﷺ الذين يحفظون صلاة الخمس بالجماعة.

وعن وهب بن منبه - رحمه الله - قال: يؤتى بالمساجد يوم القيامة كأمثال السفن مكللة بالدرد والياقوت فتشفع لأهلها. انتهى.

(١) قد ثبت في الصحيح عن أبي قتادة عن النبي ﷺ أنه قال: إذا دخل أحدكم المسجد، فلا يجلس حتى يصلي ركعتين. وقال: إذا دخل أحدكم المسجد يوم الجمعة والإمام يخطب فلا يجلس حتى يصلي ركعتين.

وقال ﷺ: «المسجد بيت كل تقى»^(١).

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»^(٢).
وعن رسول الله ﷺ: «إن بيوتي في أرضي المساجد وإن زواري فيها عمارها،
فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحقيق على المزور أن يكرم زائره»^(٣).
وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يأتي في آخر الزمان أناس من أمتي يأتون
المساجد يقعدون فيها حلقًا حلقًا ذكرهم الدنيا، فلا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة،
وما من منزل ينزل فيه قوم إلا ذلك المنزل يصلى عليهم أو يلعنهم»^(٤).

ومما كتب به لبعض تلاميذه

ومما كتب لسيدنا ﷺ سلام الله الأسنى وتحياته المباركة الحسنى، إلى حضرة
سيدنا ومولانا ووصلتنا إلى ربنا سيد العارفين على الإطلاق من غير شك ولا
ارتباب، السيد الشريف سيدي السيد محمد الشنيطي باب الرسول المحي للقلوب
روح الأرواح - حفظه الله وأمنه في عمره ... آمين.

وبعد ... فقد أخبرنا محبكم وعبيدكم المتتمي لديكم ظاهرًا وباطنًا بأن: مراده
سرد الصوم مع تناول ما خشن من المأكّل فأمرناه بالمتعارف حسب إطلاقكم لنا من
جهته، فأراد إخبار حضرتكم لتدلوهم لهواكم لهواه، وتدلوهم فيه وفي غيره لما ترونه أنه
الأولى به كما هو دأبكم سيدي، وفي صلاة الفاتح حسب طاقته وحزب السيفي
بينوا له سيدي ما يشفي الغليل ويريه والسلام.

فأجاب ﷺ بما نصه: إنه من خويدم مطلوبكم المشغول بإصلاح قلوبكم القاصد
من قبلة المقاصد وصلتكم إلى مرغوبكم الراقب من منتهى الرغبات مشاهدتكم

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢١٤/١)، وابن عساكر (١٥٣/٤٧)، وعبد الرزاق عن معمر في
الجامع (٢٠٠٢٩)، وهناد في الزهد (٩٥١)، وخيشمة في جزء من حديثه (ص ٧١)، والطبراني
في الأوسط (٧١٤٩)، والخطيب (٣١٠/٨)، والديلمي (٢١٧/٤).

(٢) أخرجه الدارقطني (١٢٠/١)، والبيهقي (٤٧٢٤)، والحاكم (٨٩٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شبة (٣٤٦١٥)، والديلمي (٦٦٥٤).

(٤) تقدم تخريجه.

لجمال الذات، الذي هو أقصى الغايات، فهناك تتمحي عنكم جميع الاعتبارات؛ لأنكم ترون الكل شؤونا للذات ظهرت في مرآة سيد السادات عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليمات.

أما بعد ... فاعلموا أنكم لا تلاحظون تلك الأنوار إلا بعد قطع فيافي توهمات القلوب والقفار بخبرة خبير من أولى الأبصار خبير بالمنازل عليم بما يضر المطايا والمراحل، يدور مع حكم الوقت مخافة من التعرض للمقت، ومن سافر من غير هذا الخير فقد قاده الهوى إلى أمر خطير، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].
وللتحذير من هذا الخطر قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. وقال ﷺ: «عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»^(١). «أنت مع من أحببت»^(٢).

ومن الحث والترغيب في الاجتماع على أهل الله لهداية رأى بعض الصالحين النبي ﷺ في النوم فسأله عن أي الأعمال أفضل، قال: وقوفك بين يدي وليي لله تعالى كحلب شاة وروياه ﷺ حق.

ومن الحث على ذلك أيضا قول بعض الأكابر: ما تعبد متعبد بأكثر من التحجب إلى أولياء الله تعالى، فإذا أحب أولياء الله تعالى فقد أحبه الله، فإن علمتم ذلك ورجوتم ما هنالك، فاعلموا أن السعادة قد احتضتكم وعلى أفضل المقصود أوقفتمكم وعلى أقرب طريقة إلى الله تعالى دلتكم وهي طريقة إمام الساترين ومدد العارفين وحب سيد المرسلين الذي خص من تلك الحضرة بأشياء لا يدانيها مدان، كما يشير إلى بعض ذلك ارتباط السر بين الفاتح والسبع المثاني، وغير ذلك ممن ليس في طوق إنس ولا جان؛ أعني: سيدي وسندي مربي شيعي وروحي وسبب إنجاحي وفتوح السيد الشريف الحسن أبي العباس سيدي أحمد التجاني - آمدا الله وإياكم - من مدده في السر والإعلان.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وإن علمتم ما أفاض الله عليكم من إدخاله لك في دائرة فضله سبب الدخول في طريقته ومحبته والتمسك بحبله، فحافظوا على ذلك باتباع طريقته والمراقبة لحقيقته فهناك تعلمون أن طريقته الأحمدية الحنقية السمحة السهلة التي لا تعب فيها ولا نصب، كما أخبره بذلك من له أحب، وأن لكل ولي قدماً يتبع به سيد من عرج.

وقدم سيدي أحمد التجاني قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»^(١).

ولأجل ذلك كان من طلب من الله الرفق والتيسير عامله الله به، ومن طلب التشديد والتضييق عامله الله به كما جاء عن أبي هريرة ﷺ: أن بني إسرائيل شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، ومن ظن أنه لا ينال الخير الكثير إلا بالتشديد، فينظر يسر الله الذي عامل به هذه الأمة، مع كثرة أجرها والشدة التي عامل بها الأمم الذين كانوا قبلهم مع قلة أجرهم، فإذا علم ذلك فليقبل هدية الله التي أهداها له من دخوله هذه الدائرة التي هي دائرة الفضل واليسر، وليعلم أنه يلقي بهذا السر ما لم يلقيه بالتعب الكثير، بل ربما أداه التعب الكثير إلى الخروج عن الجادة وترك الكل كما قيل في المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وقال ﷺ: «خير الأعمال أدومها، وإن قل»^(٢).

واعلم أن مكيدة الشيطان في طلب كثرة العمل أكثر من مكيدته في طلب ترك العمل كما قال العارف سيدي محمد البوصيري:

وراعها وهي في الأعمال سائمة وإن هي استحلّت المرعى فلا تسم

كَمْ خُسْتُ لَذَّةَ لُفْرِهِ قَاتِلَةً مِنْ خَيْثُ لَمْ يَلِدْ أَنْ السُّمُّ فِي الدُّسَمِ

فإن علمتم ذلك، وطلبتم ارشد واستشرتم ورجحتم مرادنا واستحسنتم فأمرنا أخانا أن لا يزيد على ما أمرناه به سابقاً، وإن حثته النفس وحسنت له غير ذلك فتحن لنا هنالك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(١) أخرجه الطيالسي (٢٠٨٦) وأحمد (١٢٣٥٥) والبخاري (٥٧٧٤)، ومسلم (١٧٣٤)، والنسائي في الكبرى (٥٨٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٠)، ومسلم (٧٨٣)، وأحمد (٢٥٣٥٦)، والبيهقي (١٣٤٢).

وأما قولك: وهل ما عمت به البلوى من صلاة الصلوات الخمس آخر يوم الجمعة من رمضان له أصل أو لا؟

فالجواب: إنه لا أصل له، بل هو بدعة قيحة أحدثها عوام الناس في آخر القرن الثاني، وكان التابعون وثابع التابعين يتكرومون على أهل البدع وعوام الناس ذلك، يعيبونه عليهم، ويقولون لهم أنكم أحدثتم في الدين ما ليس منه، والغلو في الدين كالنقص فيه ولا يبعد أن تكونوا قد خرجتم من الدين بما أحدثتموه فيه، فلم يرد عن سلفكم لا في ضعف من الأثر ولا في مقطوع، ولم يقل به أحد ممن سلفكم مع كذبكم على الله بأنها تقضي ما فات عليكم من الصلوات المكتوبات الواجبات عليكم بالكتاب والسنة والإجماع، فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، وإنما يمحو السيئ بالحسن، وأنتم إنما تريدون غسل الدم بالدم والعذرة بالعذرة فيحكم الله وقبح صنعكم وما أحدثتموه في الدين. انتهى ملخصاً نقلاً عن «الكوكب الوقاد» لفطرب العارفين الشيخ مختار الكنتي، وقد سأله الشيخ عيسى الذي في كسلا وصورة لا سؤال لم نجده الآن.

وأما جوابه عنه فهو لحضرة إمام العارفين وقدة الأولياء الكاملين، روح جمع أهل الكمال روح أهل المعارف والأحوال تاج الانتقاء، وعلم الأصفياء مظهر الولاية وعين العناية المحفوف بصنوف عوارف اللطائف ولطائف المعارف من شرب من بحر العناية الشيخ عيس بن حسن الفلاتي سقانا الله وإياه والمحبين من فيض سيدي الشيخ أحمد التجاني آمين بعد إهداء ما يليق بالمقام من التحية والإكرام، فالذي نخبركم به بهذا السؤال عن كامل أحوالكم، أن سيد الوجود ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه قريب منكم فأنا أولاكم به، وإن سمعتم الحديث عني تنكروا قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه بعيد منكم، فأنا أبعدكم عنه»^(١) انتهى وهذا خاص بأهل التمييز العارفين.

وقد سئل سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ قيل له: أيكذب عليك؟ قال: نعم،

(١) أخرجه أحمد (١٦١٠٢)، وابن سعد (٣٨٧/١)، والبخاري (٣٧١٨)، قال الهيثمي (١٥٠/١): رواه أحمد والبخاري، ورجاله رجال الصحيح، وابن حبان (٦٣).

قال: إذا بلغكم عني شيئاً فزئوه بميزان الشرع، فما وافق فخذوه وما خالف فاتركوه، فما بقي لمؤمن بعد هذا إلا التبصر فيما يبلغه، وهذا الذي بلغكم لا يوافق قواعد الشرع، لأن الشريعة أمرت الجاني بالتوبة والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ والهيلة، لا بترك الطاعة، وأنت تعلم أن طريقتنا مبنية على الاستغفار والصلاة على سيد الوجود ﷺ والكلمة الشريفة التي هي لا إله إلا الله، والجناية ظلمة وليست تمحوها إلا هذه الأنوار، فكيف يظن أنه الجناية تكون مانعة وقاطعة عنها؟

وما أظن أن ثم أعظم جناية ممن يظن هذا القول أو يقول به، قال الله تعالى في ذم مثل ذلك مويخاً بالاستهزام الإنكاري: ﴿أَزَعَمْتُمُ الَّذِي يَنْتَعِي عِبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩-١٠] فقد بان لك بهذا أن هذه القولة ليست من الشرع، وما لا يكون من الشرع لا يقول به الشيخ ولا يأمر به، بل هي مكيدة من بعض شياطين الإنس والجن ليحولوا بها بين صاحب الدين والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ والكلمة الشريفة، لأنهم يعلمون أن ليس لهم نجاة إلا ما ذكر من الاستغفار وغيره وهم لا يريدون نجاته.

قال الله تعالى في الاستغفار: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ تَابَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وغير ذلك من الآيات.

وورد في الخبر: «من قال: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم... إلخ، ثلاث مرات غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زيد البحر أو عدد رمل عالج أو عدد أوراق الشجر أو عدد أيام الدنيا»^(١).

وفي خبر آخر: «غفرت ذنوبه وإن كان فلاناً من الزحف»^(٢).
وقالت عائشة - رضي الله عنها -: قال لي رسول الله ﷺ: «إن كنت أَلَمْتَ بِذَنْبٍ

(١) أخرجه أحمد (١١٠٨٩)، والترمذي (٣٣٩٧) وقال: حسن غريب. وأبو يعلى (١٣٣٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٧٧) وقال: غريب. وابن سعد (٦٦/٧)، والطبراني (٤٦٧٠)، وابن عساكر (٢٦٥/٤) وقال: قال البغوي: لا أعلم لزيد مولى رسول الله غير هذا الحديث.

فاستغفري الله وتوبي إليه... إلخ^(١).
وقال ﷺ: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا^(٢)».

وكان يقول أيضًا: «ما ألهم الله سبحانه عبدًا الاستغفار، وهو يريد أن يعذبه^(٣)»
هذا في الاستغفار يكفي.

وأما الصلاة على النبي ﷺ يكفي في فضلها أن من صلى على النبي ﷺ مرة واحدة صلى الله تعالى عليه بها عشرا، والصلاة من الله هي الرحمة، وإذا رحم الله عبدًا لم يعذبه.

وقال ﷺ: «إن أولى الناس بي أكثرهم علي صلاة^(٤)» وغير ذلك مما ورد في فضلها ومحوها للذنوب.

وأما الهيلة قال ﷺ: «ما من عبد قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار^(٥)».

وقال ﷺ: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة^(٦)».

وقال ﷺ: «لا إله إلا الله لا يسبقها عمل ولا تترك ذنبًا^(٧)».

وقال ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده

(١) هو جزء من حديث الإفك الطويل: أخرجه البخاري (٣٩١٠)، ومسلم (٢٧٧٠) وعبد الرزاق (٩٧٤٨)، وإسحاق بن راهويه (١١٠٤)، والترمذي (٣١٨٠)، والنسائي في الكبرى (٨٩٣١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٠٢٤) وابن ماجه (٣٨٢٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٦٩٩٢) والخطيب (٢٣٣/٩) وابن عساکر (٤/٦٢) وإسحاق بن راهويه (١٣٣٦) والطبراني (١٥٣٣) وأبو يعلى (٤١٧٢) والديلمي (١٩٢٣).

(٣) ذكره الغزالي في الإحياء (١١١/٢).

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١٧٧/٥)، والترمذي (٤٨٤) وقال: حسن غريب. وابن حبان (٩١١)، والطبراني (٩٨٠٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٥٦٣).

(٥) أخرجه أحمد (٤١٧) قال الهيثمي (١٥/١): رجاله ثقات. وابن حبان (٢٠٤) والحاكم (٢٤٢).

(٦) أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٧) قال البوصيري (١٢٩/٤): هذا إسناد فيه زكريا بن منظور. والديلمي (٧٢٧٧).

(٧) أخرجه أحمد (٤٦٤)، ومسلم (٢٦)، وابن حبان (٢٠١)، والنسائي في الكبرى (١٠٩٥٣).

ورسوله لا يلقى الله بهما أحد يوم القيامة إلا دخل الجنة على ما كان منه من عمل^(١).

وقال ﷺ: «من قال لا إله إلا الله لم تضره معها خطيئة»^(٢).

وأنت تعرف أن طريقتنا هذه هي الاستغفار والصلاة على النبي ﷺ والهيللة، فإذا علمت هذا فاعلم أنه ينبغي أن يحث التجاني الخارج عنها على الدخول فيها لينجو ويتال ما سمعته من القرب والفوز، وإذا كان ينبغي ذلك، فكيف يقطن أن الجنابة تكون سبباً لخروج من هو فيها هذا لا يتصوره من قذف الله في قلبه أدنى نور، وأما من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، قال سيدي أحمد التجاني الصغير في «منبته» ناظلاً في «جواهر المعاني»:

ومن عليه كتب المجيد ذنباً فلا يلزمه التجديد

وهذا هو النص الصريح الذي أنتم تطلبونه من الطريقة، فكل من أناكم بمثل هذا الكلام، فينبغي أن تردعوه، وتردوا عليه بأمثال هذه الحجج القواطع التي كتبناها لكم، وتؤلفوا الناس للدخول في هذه الطريقة وتعطوها لكل من طلبها لأنها من محض العناية ولأنها طريقة النجاة.

ومن شروطها ألا تمنع من مسلم ذكر أو أنثى حرًا أو عبدًا صغيرًا أو كبيرًا، ومن ظن غير ذلك فليس بينه وبين سيدي أحمد التجاني علاقة أو صلة، وأنتم إن كنتم تطلبون رضا سيد الوجود ﷺ وإدخال السرور على سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ فكل من أناكم أعطوها له من أحد وسلموا أمر المخلوق لخالقهم، وبلغنا أنكم شيدتموها هناك وأحييتم ذكرها جزاكم الله خيرًا فاعلموا أن ما يتوجه عليكم من عظيم فضل الله بسبب ذلك لا تقدره العقول ولا تحيط به النقول، وأنتم تعلمون ذلك من غير إخبارنا لكم، وإن أشكل عليكم مثل هذا، فبادروا بمخاطبتنا بآدابكم إن شاء الله تعالى بما عندنا في ذلك لازالت الأيام بجودكم زاهرة ويعبر الشاء عليكم عاطرة، انتهى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٣).

(٢) ذكره المتقي في كنز العمال (٧٧/١) وعزاه للطبراني عن ابن عمرو.

مليًا مباركًا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وذلك سنة (١٢٨٧ هـ).

ومما كتب به سيدنا لبعض الفضلاء ممن قريب عهد بأخذ الطريقة عليه، وكان قبل ذلك أخذ على جملة مشايخنا أورافًا قرآنية وأسماء من أسماء الله الحسنى، وأحاديث نبوية وبعض أحزاب وأدعية للأولياء، وكان قد أرسل له بطلب الإجازة فيها، ولم يعينها له ويخبره هل يستعملها أو يتركها، فكتب له هذا الكتاب مشيرًا إليه فيه أن الأوراد بعضها يصلح لعامة الناس، وبعضها يصلح لخاصتهم، وبعضها فيه التفصيل بحسب الاستعداد، والمشايخ أدري بما يناسب كل أحد، وينبغي له ألا يستعمل شيئًا إلا ما أعطاه له شيخه؛ لأن من آفات المريء التي تمنع من الوصول عدم الاتباع والتسليم، الثانية: استحسان غير الذي يستحسنه الواصل، الثالث: الاستعجال وطلب الإحساس ببصره ومن أيقن ببصيرة المرشد فليتبع فإنه كالطبيب.

ومما كتب به سيدنا لبعض تلامذته بالغيش مما سأل عنه، فأجابه سيدي ونفسي ونفيسي ووكر روعي ومحل أنسي وأنيسي مفتاح انفتاحي، وزيت مصباحي ومسعى نجاحي، وثمره فلاحني وأرض إفلاحي، ونور مصباحي، محمد البداية، محمود النهاية سيدي [....] ^(١) «فَأَيُّكُمْ تَوَلَّوْا فَنَمَّ وَجْهَ اللَّهِ» [البقرة: ١١٥] غير أن تلك الإحاطة لها ظهور وبطون بحسب ما تقتضيه الشؤون: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا» [يونس: ٦١] فهو الشاهد والمشهود، وهو المسخر والمعبود: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» [الإسراء: ١١٠].

ومن هنا أنت تعلم معنى عبد الجبار، وعبد الغفار، وعبد المنتقم، وعبد المتعم، وإن كان غير ذلك فلا بد من شيخ يوصلك شخوصها فتعرفها بالعين، والسمع أقطع وإلا فنصف العلم عندك حاصل ونصفه إن حاولته يتمنع: «وَمَا مِتْنَا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» [الصفات: ١٦٤] وللأسماء والآيات حضرات، وللحضرات مقامات، ومن لم يعرف المنازل والنازل تطول عليه المراحل «أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا» [الحديد: ١٣] انتهى.

(١) غير موجود الاسم.

ومما كتب به إلى بعض الأحياب

الحمد لله مسدي كل نعمة، والصلاة والسلام على عين الرحمة، التي هي عين الوجود وذلك لحكمة، وهي أن الوجود موجد وموجود، فمن تفكر في الإيجاد وتبع كلياته إلى الأفراد علم سر الفردية، وإن اجتماع الأعداد لا يزيد شيئاً في الواحد بل كلما ظهر فناء المتخيل معه ظهرت فرديته التي الأشياء لها مظاهر، وهو الظاهر كل ما تخيل الاجتماع بطن؛ لأن الباطن الذي لا يظهر لغيره على الحقيقة، لكن سر الظهور والبطون ظهر وبطن في كثرة الشؤون.

ومن جعلتها الخلق والأمر: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ» [الصافات: ٩٦] وقرنها بلام الملك: «لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ» [الأعراف: ٥٤] «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» [المؤمنون: ١٤] ولا مالك إلا بملك والملك خلقه وأمره كما أنه الخالق وحده وهو أحسن الخالقين ولا يظهر سر الملك والمملوك إلا بحسن الانقياد لأهل السلوك، فهناك يزجونك في بحار دونها صخور، وأمور دونها أزمان وشهور وفنون اعتاضت على كثير من أهل الظهور، والله على ما نقول وكيل، وهو على كل شيء شهيد لا تتركه الأبصار وهو أقرب إليه من حبل الوريد.

ولولا الحجاب لما احتجنا إلى الكتب، ولولا الخطاب لما ظهر الخطأ من الصواب، من من الله أعلم بمراده إلى من من الله علينا بمبايعته وصحبته حتى صرنا من الأصحاب ومن عليه بمبايعتنا حتى صار من الأحياب، وتلك المنة هي عين منة الرحمن على سيدي وسندي أحمد التجاني، بأن جمعه مع سيد الوجود والأكوان، وقال له كلامنا معناه: «دعك كل شيوخك فأنا القائم بأمرك، وأنت تلميذي وليس لشيخ من الشيوخ عليك منة غيري، فأحببك أحبابي، وتلاميذك تلاميذي، وأصحابك أصحابي، وكل من أحسن إليك وإليهم أحسن إلي وكل من أساء إليك وإليهم أساء إلي، وهم أرياب حضرتي، وأنا جليهم في الأذكار ورفيقهم آناء الليل وأطراف النهار».

فإذا تحققت لك معية رسول الله ﷺ التي هي عين القرب من الله، وعلمت ذلك بسبب الانخراط في سلك سيدي الشيخ أحمد التجاني وسبب ذلك سرنا بك قدام أحباب سيدي الشيخ أحمد التجاني، فاحمد الله واشكره حمداً يليق بجلال عظمت، وكلما رأيت المصطفى ﷺ فأظهر له غاية المنة، وإذا رأيت سيدي الشيخ أحمد

التجاني كذلك لعلك تكون عنده من الأفراد، فهناك يدخلك في الفردية فعند ذلك تتحقق بسر الأحدية وليس وراء الله أحد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].
وقد سأله ﷺ سؤال وقد نسبت لفظ السؤال فأجابني ﷺ بهذا الجواب، فعند صدور الجواب منه ألهمني الله أن أخرج لفظ الصلاة التي في صدر الجواب بكلام كالشرح لها وهي: اللهم يا واحد يا أحد يا معبود، صل على قبلة الوجود وكعبة الشهود وحقيقة أبنية الموجود، صلاة تليق بعظيم جلالك يا كبير يا متعال، وتقوم بحق قدره ومقداره عندك في أزل الأزال ونديم سر رحموتها الدائم الذي أسبكته على أهل الفاتح لما أغلق وجوهره الكمال، وزج بي في بحر عنايتك حتى أكون من مظاهر دائرة الفضل والأفضال وصل الله عليه وعلى آله بصلاة الفاتح لما أغلق، وكل صلاة صلى عليه بها أهل الكمال، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم في كل حال.
الجواب: اجعل الشيخ في البال وعليك الامتثال، واجعل محبته جنة تقيك من سيء الخصال، وطريقته عروة وثقى تتعلق بها فتنجيك إلى حضرة الوصول والاتصال، وإن حرمت من هذا فلا تطمع أن ينفعك حال، وقال: والسلام.

وورد الأمر الصادر من مدير العموم المحرر في غرة جمادى الأولى سنة ١٢٩٥ هـ إلى مدير المديرية بربري بخصوص أحد المرشدين أوجب على النار أن يقتدوا ببعض الصالحين ويستدل بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَخْبَرْتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ونادى بأن من الوسائل المقربة إلى الله الشيوخ الذين اجتمع فيهم العلم والعمل، فلما شغل عن مصدر ذلك القول نسب كلامه إلى تاج التفاسير، ونسبت إليه وإلى أصحابه أمور أخرى وطلب مدير العموم أن يعرض الأمر على حضرة مفتي المجلس والشيخ حبيب ولد صديق والفقيه محمد عبد الله خوجلي، والعلماء الموجودين بالبندر يراجعوا التفاسير المعتمدة وينظروا هل دعوى هذا الرجل صحيحة، أو غير صحيحة فعهد العلماء إلى شيخنا السيد محمد بن المختار الشنقيطي في جواب مدير العموم.

فأجاب ﷺ بقوله: الحمد لله الذي علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام على الهادي إلى الصراط المستقيم، وعلى آله وأصحابه السالكين المنهج القويم.

أما بعد... فقد فهم مادون سؤال رفعتكم المشير إلى مطالعة ما تضمنه أمر
سعادة البك مدير العموم المولى إلى النظر فيما أبداه في تفسيره للقرآن عند قوله
تعالى: ﴿يُنَاقِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُفِقُوا آلَهُ وَأَنُفِقُوا إِلَيْهِ آلُوسِيلَةٍ﴾ [المائدة: ٣٥] وقوله
تعالى: ﴿أَوْمَن كَانَ مِثْقَا فَاخِيتَنَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] هل هو موافق لأسلوب التفاسير
الموجودة بهذا الطرف، أو هو شيء مبتكر عنده ومخالف لما قاله السلف، مع سرعة
الجواب الموافق للمصواب.

والحال أن القرآن العظيم هو البحر الخضم الذي لا تنقضي عجائبه، ولا
تستقصى مدى الدهور غرائب، كيف وهو مفجر العلوم ومنبعها ودائرة شمسها
ومطلعها، فترى كل ذي فن يقتبس من توره، ويستمد منه في وروده وصدوره،
فالقلب يستنبط منه الأحكام ويستخرج منه حكم الحلال والحرام، ولا صوفي يأخذ
من بحور أسرار العميقة، ما يبيده للمسترشدين إلى الطريقة والحقيقة، والنحوي
يبنى منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبياني يهتدي
به إلى حسن النظام ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام، فكل قوم وجدوا فيه
مآربهم ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِثْقَالَ نَبْذِهِمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقد أشار إلى كل ذلك النبي الأمي الصادق عليه أفضل الصلاة من صامت
وناطق بقوله: «ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد
مطلع»^(١) فلذلك صارت بضاعة الكل في فهمه مزجاء ولم يدركوا إلا النذر القليل
من معناه، وهذا ولولا تعين امثال سعادة المدير ما ساع لنا الخوض في هذا الأمر
الخطير، لأن الناقد بصير والله هو العالم الخبير، ولما تعلمه من خورة القدم في هذا
المقام، ولما على المفتي من وعيد الملك العلام، ولكن نرجو من حسن قصد
المتسبب في ذلك أن يوفقنا الله للمصواب فيما هنالك ويسلك بنا الكل أحسن
المسالك إنه القريب المجيب المتفضل المالك.

ولذا قد صار الاطلاع على تفسير السيد محمد عثمان، وتبعتها ما ذكر في الآيتين
الشريفتين، فوجدناه ما خرج عن أسلوب التفاسير التي طالعناها هنا، ولفظه: ﴿يُنَاقِهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُفِقُوا آلَهُ وَأَنُفِقُوا إِلَيْهِ آلُوسِيلَةٍ﴾ [المائدة: ٣٥] أي: من الأعمال ما

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٧٠٣)، وعبد الرزاق في المصنف (٥٩٦٥).

يقربكم إليه واطلبوا الوسيلة لبيكم القائل فيها ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة، فإنه لا يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً وشفيحاً يوم القيامة»^(١) رواه ابن أبي شيبه، أو اطلبوا الولي الكامل والعالم العامل وتوسلوا به إلى جناب مولاكم، واطلبوا الدنو به من الحق ينلكم منابكم، فإنه أعظم وسيلة إلى جناب الحق فاتبعوه واحترموا تنالوا سبق: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته» رواه الخليل في «مشيخته» انتهى^(٢).

وقال في قوله تعالى: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا» [الأنعام: ١٢٢] بالكفر والفساد فأحييناه بالهدى والإيمان، وجعلنا له بفضلنا نوراً يمشي به في الناس يستضيء بسره وحكمته، وربما اتسع فهدى به العباد إلى سبيل الملك الجواد، ونصيح الأمة ففاز بأعلى الدرجات، واسع الرحمة وإن أحب العباد إلى الله ورسوله أكثرهم نصيحاً للمؤمنين، كما روي: «أحب عباد الله أنفعهم لعالمه»^(٣).

ولما وصلت في التفسير إلى هذا الموضع رأيت في تلك الليلة النبي ﷺ في محفل من الرسل، ويقول لي: «الأنبياء كلهم من نوري» وطارت نقطة نور منه فخلق منها صورة سيدنا إسماعيل الديبج، فقال لي: «هكذا الأنبياء خلقوا من نوري والأولياء كلهم من نور الختم» ثم رأيت تلك الليلة عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل وأمامه الصديق وخلفه الإمام علي، فقال لي ﷺ بعد أن دنوت منه وقبلت جبهته الكريمة: «ما قام بأمر الله والمؤمنين أحد بعدي مثلك شكر الله سعيك، فقلت: كيف يا رسول الله؟ فقال: تعبت في المؤمنين ونصحتهم، ما تعب فيهم أحد بعدي مثلك، فقلت: أرضاك ذلك؟ فقال: أرضائي وأرضى الله من فوق سبع سماواته وعرشه وحجبه.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٣٣) قال الهيثمي (٣٣٣/١): فيه الوليد بن عبد الملك الحراني، وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال: مستقيم الحديث إذا روى عن الثقات. قلت: وهذا من روايته عن موسى بن أعين وهو ثقة. وابن أبي شيبه (٢٩٥٩٠).

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١٨٩/١): أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمي من حديث أبي رافع بسند ضعيف.

(٣) قال المناوي (١٧٤/١): مرسل، وإسناده ضعيف، لكن شواهد كثيرة. قال العجلوني (٥٤/١): رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد عن الحسن مرسلًا.

ثم نادى رضوان، فقال: يا رضوان عثر جنانًا ومساكن لابني محمد عثمان وأبنائه وصحبه وأتباعه إلى يوم القيامة، ثم قال: يا مالك فحضر، فقال: عثر في النار مواضع لأعداء محمد عثمان إلى يوم القيامة» وأطال الكلام في الواقعة - نسال الله التوفيق لشكر النعم بحق المصطفى صاحب الأسرار الجامعة - انتهى من تفسير السيد محمد عثمان الميرغني.

ثم قال ﷺ: وأما ما ذكره من الرؤية فلا ينبغي عليها حكم شرعي؛ لأن الأحكام الشرعية منوطة بالعقل، وهو مفقود في حالة النوم ولم يذكرها على وجه كونها تفسيرًا بدليل قوله: (ولما وصلت في التفسير إلى هذا الموضع رأيت... إلخ ما ذكر فيها) ولعله ذكرها تحديثًا بنعمة الله.

وأما الواو في قوله: (وامثلوا) في تفسير (اتقوا الله) الأولى حذفه، ويمكن توجيهه.

وأما قوله: (ينلكنم متاياكم) فلعله متاكم والياء تحريف من الناسخ.
وأما قوله (واسع الرحمة) فهو منصوب بنزع الخافض وهو من وإن كان سماعيًا؛ لأن مثل هذا مغتفر أو مجرور معطوف على أعلى بحذف حرف العاطف وهو الواو، وعلى هذا فيكون من إضافة الصفة للموصوف؛ أي: بالرحمة الواسعة.
وأما قوله (المؤمنون) بالرفع، صوابه المؤمنين بالجذر، وهذا كله إن صحت النسخة هذا ما ظهر لنا، والله أعلم.

ولما تعلم من قلة بضاعتنا وفتور هممتنا عما دون ذلك، وصعوبة ما هنالك، رأينا أن نورد ألفاظ التفاسير التي اطلعنا عليها برمتها، فلعل أحدًا يكون أكمل فهما منا وأكثر اطلاعًا.

هذا وبيان ألفاظ التفاسير التي اطلعنا عليها:

أولها: تفسير ابن عباس خبر الأمة - رضي الله عنهما - بأبيها الذين آمنوا بمحمد والقرآن اتقوا الله في ما أمركم وابتغوا إليه الوسيلة والدرجة الرفيعة، ويقال: اطلبوا إليه التقرب في الدرجات بالأعمال الصالحة وجاهدوا في سبيله في طاعته، لعلكم تفلحون لكي تتجوا من السخط والعذاب، انتهى.

(١) والمبشرات تورث الرجاء ولا تورث الأمن ولا بد من عرضها على الشريعة ما قبله فهو مقبول وما لا فلا يعول عليه.

قال في «روح البيان» في تفسير هذه الآية «يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا آلَهُ» [التوبة: ١١٩]: أي اخشوا عذابه واحذروا معاصيه وابتغوا أي: اطلبوا لأنفسكم إليه أي إلى ثوابه، والزلفى منه الوسيلة أي: القرية بالأعمال الصالحة، إلى أن قال: وقال عطاء الوسيلة أفضل درجات الجنة، وفي الحديث «سلوا الله لي الوسيلة» فإنها درجة في الجنة لا يتألفها إلا عبد واحد وأرجو من الله أن يكون هو أنا» المراد منه وعبرة الصاوي على الجلالين.

قوله: (ما يقربكم إليه) أي يوصلكم إليه.

وقوله: (من طاعته) بيان لما، سواء كانت تلك الطاعة فرضاً أو نفلاً، لما في الحديث «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به»^(١) فالتقى هنا ترك المخالفات وابتغاء الوسيلة فعل المأمورات، ويصح أن المراد بالتقوى امتثال المأمورات الواجبة وترك المنهيات المحرمة وابتغاء الوسيلة ما يقرب إليه مطلقاً.

ومن جملة محبة أنبيائه وأوليائه والصدقات وزيارات أحبب الله وكثرة الدعاء وصلة الرحم، وكثرة الذكر وغير ذلك، فالمعنى كل ما يقربكم إلى الله فالزموه واتركوا ما يبعدكم عنه إذا علمت ذلك من الضلال البين والخسران المبين، تكفير المسلمين بزيارة أولياء الله زاعمين أن زيارتهم من عبادة غير الله، كلا بل هي من جملة محبة الله التي قال فيها رسول الله ﷺ: «أَلَا لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا مَحَبَّةَ لَهُ»^(٢) والوسيلة التي قال الله فيها: «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» [المائدة: ٣٥] إلى آخر ما قال، انتهى المراد المقصود في جواب هذه الآية.

وقد قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير الآية الثانية: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا» نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل بن هشام هذه الآية «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا» كافرًا «فَأُحْيِيْتَهُ» [الأنعام: ١٢٢] أكرمناه بالإيمان، وهو عمار بن ياسر.

«وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ - فِي النَّاسِ» بين الناس «كَمَنْ مَثَلُهُ» كمن هو «فِي

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١٢) وقال: غريب إسناده ليس بالقوي. وأحمد (٧٥٨٨).

(٢) تقدم شرحه.

(٣) أخرجه أحمد (١٢٧١٨) بلفظ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ وَلَا جِهِنَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ».

الظلمات في ضلالت الكفر في الدنيا وظلمات جهنم يوم القيامة، وهو أبو جهل
 «لَمَنْ خَارَجَ مِنْهَا» [الأنعام: ١٢٢] من الضلالة في الدنيا والظلمات في جهنم
 «كَذَلِكَ يُزَيِّنُ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [الأنعام: ١٢٢] ويقولون: كما زينا لأبي
 جهل عمله الذي كان يعمل انتهى المقصود منها أيضًا.

وهذا يكفي في هذه الآية، لأن أصل الاعتراض المقصود بالإجابة في الآية
 الأولى، وقد ذكر الله كما وعد في صدر الجواب ألفاظًا، فاخترنا منها ما ذكرناه؛ لأن
 جملة ما فيها في الذي ذكر وإن اختلف اللفظ بل أغلبها متفقة حتى في اللفظ،
 ولندكر أسماء الكتب التي نقل عبارتها بعدما ذكر، وهي «النسفي» و«الخازن»
 و«البغوي» و«الجميل» و«الكشاف» وتجريده.

ثم قال في آخره: وأما ما ذكر في أمر سعادة المدير من اختلاط النساء بالرجال،
 وما يحصل منهن من رفع أصواتهن بالزغاريد، فهذه بدعة منكرة ياباها الشرع
 الشريف وتجب إزالتها، وكذا ما ذكر من أمر الهدية فلا يحل مال امرئ مسلم إلا
 عن طيب نفس، انتهى.

ومثل الله: ما قول السادة الأعلام ولادة أمور أهل الإسلام المسؤولين عن بيان
 ما عملوه من شريعة سيد الأنام ﷺ حتى يظهر للمسترشد الحلال من الحرام، وتظهر
 بدعة أهل الضلال اللثام من سنة سيد المرسلين الكرام، فيما أحدثه بعض
 المتعصيين من العوام، عند موت بعض أبناء الصالحين وعند قبورهم وغيرها،
 وذلك أنهم عند موته اجتمع نساؤهم، وهجمت على الرجال الأجانب عند الجنائز،
 صارخات يحثين الثراب على رؤوسهن، وفعل معهن ذلك بعض الرجال.

فقام لهم بعض طلبة العلم وأخرج لهم كتابًا فيه الزجر عن النياحة وتعذيب
 الميت والحي بسببها، فلم يكثرثوا به ولم يسمعوا له كلامًا، فوعظهم ثانيًا فقال لهم:
 إن كان الذي حملكم على هذا محبة الميت أو توقيره، فإن المحب لا يفعل شيئًا
 يعذب حييه، والموقر لأجل الدين لا يفعل شيئًا يخالف الشرع، فلم يفد ذلك فيهم،
 ثم أنهم عند دفنه خلفوا لهم خليفة بايعوه كلهم فاندفع بأمرهم بالشرعية فاستوحشوا
 منه وفروا، بل قال له بعضهم: هذا الذي تأمر به هو الشرعية إلا أنه لا يوافقنا، فإن
 أردت أن تجتمع عليك فوافقنا على ما نهواه.

فقال لهم: الذي اجتمعنا لأجله طريقة ولي، والذي اجتمعنا عليه لأجله ابنه،

وصاحب الطريقة ما نال الولاية وما أحييناه إلا لاتباع شريعة المصطفى ﷺ ونحن لا
 ينتظم أمرنا ولا يدوم إلا باتباع الشريعة، فهلّموا إلينا نحكمها في أنفسنا، وكل من
 خالفها يرجعه الباقون إليها، فلم يسمع له منهم إلا قليل والباقون تركوه وتعصبوا،
 وانصرفوا إلى قبر الميت، ووضعوا على قبره عوداً فيه خرقة.

ثم إنهم يجتمعون بالليل عند القبر نساء ورجالاً في صعيد واحد، ويسطون
 الفرش ويوقدون النيران عند القبر ويتخبون أهل الأصوات الجميلة، ثم يتغنون
 بمدح المصطفى ﷺ والرجال والنساء يستمعون، وبعض النساء يزغردن، فلما رأى
 الخليفة ذلك سار إليهم ونهاهم فلم يكثرثوا به، بل استرسلوا فيما هم فيه، واجتمع
 عليهم أكثر عوام البلد للمتفرجة، ويظهرون أن الذي حملهم على هذا تعظيم ابن
 الشيخ ومحبة وطلب البركة منه، مع أنهم يؤذون أبناء رسول الله ﷺ بالسب
 ويقذحون في العلماء والأولياء أهل الطرق.

ويعلمون أنه كان يبغيض هذه الأمور غاية البغض، وينهي عنها وكان ينهاهم عن
 البكاء، على الميت ويقول: لا أماننا الله في هذه البلاد التي يعذب بها الميت بالبكاء،
 وإذا مرّ بقبر عليه خرق يقول: هذا فعل الجهال، وكان إذا رأى نساء ورجالاً في
 صعيد واحد عند زيارة أو ذكر، ينكر ذلك غاية النكران، وهم يسمعون ومع ذلك
 فعلوا معه ما يكرهه في حياته بعد موته بينوا لنا أدام الله فضلكم ونفع بعلمكم حكم
 هؤلاء، وما يلزمهم في ذلك وما يلزم به المسلمين من أمرهم، وليكن النبيين على
 وجه الشريعة والطريقة، مخافة أنا إذا أجبناهم بالشريعة يقولون نحن أهل طريقة،
 وهل هؤلاء يسمون تلاميذ أو مريدين مع أنهم لا يشتغلون بشيء من الدين في غير
 هذا المظهر، بل هم أرباب صنع مشغلين في صنائعهم، ولم يسألوا فيها هل هي
 موافقة للشرع أو لا، أو لا يطلق عليهم تلامذة ولا مريدين.

الجواب والله الموفق للصواب: اعلم يا أخي من طلب الخير والبركة وتقرب
 إلى الله بغير شريعة المصطفى ﷺ وطريقته فقد سد دونه باب الخير وحرم البركة،
 وضل عن سواء السبيل؛ لأن الخير أجمعه في محبة الله ورسوله، والله قد قطع طمع
 الخلق كلهم في محبة إلا باتباع رسوله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
 فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
 أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

كذب الله من ادعى الإيمان بغير تحكيم شريعة المصطفى ﷺ في نفسه، واقسم على ذلك قطعاً لظمعه في الإيمان، بل من أحب المخالف شريعة المصطفى استحبت عليه شقوته قال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «تدخلون الجنة إلا من أي» قيل: ومن أي؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني هو من أي»^(٢) أو كما قال.

وقال القطب الكبير العلم الشهير الشيخ سيدي مختار الكتتي في «الجرعة الصافية» في مبحث قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال بعض المحققين ليس الشأن أن تحب الله، بل الشأن أن يحبك الله، فكل شيء قدم العبد حبه على حب الله أو طاعته، فهو معبوده من دون الله، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال ﷺ: «ولا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(٣) ثم قال بعده، فجعل تعالى لحيه وحب رسوله علامات وشروطاً وثمرة، فقله: «يحببكم الله» دليل المحبة، وثمرتها وفائدتها اتباع الرسول، فما لم تحصل المتابعة فلا محبة لكم حاصلة، ومحبة لكم متفية، فجعل سبحانه اتباع رسوله دليلاً لمحبتهم لله، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤] فكل من قدم طاعة أحد من

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (٤٥٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٥١).

(٣) أخرجه أحمد (١٢٨٣٧)، والبخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، والنسائي (٥٠١٤)، وابن ماجه

(٦٧)، والدارمي (٢٧٤١)، وابن حبان (١٧٩).

هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قوله على قوله، أو مرضاته على مرضاته، أو خاف أحدًا منهم أو رجا، أو توكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قال بلسانه فهو كذب منه وإخبار بما ليس هو عليه.

قال صاحب «المدارج»: ولا يتم شيء من ذلك، حتى يحكمه على نفسه وماله وولده وجميع أموره تحكيمًا ليس فيه اختيار ولا معه.

وقال في «تفسير روح البيان» عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١] فمن ادعى محبة الله وخالف سنة نبيه فهو كذاب بنص كتاب الله، كما قيل تعصى الإله وأنت تظهر حبه... إلخ.

قال الإمام القشيري - رحمه الله تعالى: قطع الله أطماع الكمل أن يسلم لأحد نفسه، إلا ومقتداهم سيد الأولين والآخرين، انتهى.

وقال تعالى: ﴿يَتْلُوا الَّذِينَ نَامَتُْوا أُطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ثم اعلم أن المراد بأولي الأمر في الحقيقة العلماء الذين يستنبطون الأحكام من الكتاب والسنة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] ومنهم المشايخ الواصلون.

والمراد بالخرج في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَزَيْتَك﴾ [النساء: ٦٥] الحرج النفسي، وحكمه بعد موته كحكمه في حياته؛ لأن كتاب الله الذي هدى فيه واهتدى بأيدينا وبين ظهرانينا، فكل من لم يرض بأحكامه الظاهرة والباطنة، ولم يتأدب بأدابه الظاهرة والباطنة، ولم يؤمن بوعدده ووعيدده ولم يتزجر بمواعظه البالغة، ولم يميز ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه، فليس من محبة الله في شيء، بل هو في قيد الجفاء والبعد والطرده عن الله، فهذا حب عامة المؤمنين بدليل قوله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

وكتب إليه بعض الأحياب مستشيرًا له بما صورته أسني سلام تحركت بنشوء رياح الشوق والغرام والعشق والهيام وأزكى تحيات تضوعت بها جهات العالم من

(١) أخرجه الحكيم (١٦٤/٤)، والخطيب (٣٦٨/٤) وابن أبي عاصم (١٥)، والبيهقي (٩٨/١).

الفوق والتمت واليمين والشمال والخلف والإمام إلى جناب حضرة من تحقق بمقام كتته، فتطور بأطوار الأبنية حيث توسع بماء الغيب وصلى في محراب عين هاء الهوية قطب رحي العرفان، ومجمع بحري الوجود والإمكان رق كتاب الأزل الفاهر سر التفصيل في عين الجمل سيدي ومولاي وملجني وملاذي السيد محمد ابن السيد المختار لازال حلية لسؤدد والفخار الذي هو حلية أولي البصائر آمين ثم آمين.

بعد إهداء ما يليق بثللك الحضرة العظمى ذات الفخر الأعلى والمجد الرفيع الأسمى والعز المنيع الأسمى من التحيات المعنوية والصورية المتوجهة بإقبال الحضرة النورية المقرونة بتقيل الأنامل والأقدام وتمريغ الوجه بالمشاهد الكرام لا يخفى شريف علمكم الكريم الظاهر بكيثونة علم الله القديم، سيدي إنه بمقتضى ما ورد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من صريح وإشارات من التأكيد على طلب الشيخ الكامل كقوله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفَقُوا اللَّهُ وَأَتَنَفَعُوا إِلَيْهِ أَلْوَسَلَةً﴾ [المائدة: ٣٥] ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفَقُوا اللَّهُ وَكُتُبًا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقوله ﷺ لأبي جحيفة: «سل العلماء وخالط الحكماء واصحب الكبراء»^(١)، وصرحوا بأن المراد بالكبراء المشايخ المرشدون، إلى غير ذلك وكانت سبقت صحبتنا وإقامتنا معكم على ذلك المقتضى، وبملاحظة نيابتكم عن سيدي الشيخ أحمد التجاني مع علمنا من أنفسنا بأننا في أسفل درجات التقصير والقصور من مناسبة ذلك الجناب، وإنما الاعتماد والتعويل على سعة الفضل والكرم وتقوى الرجاء على أن تقلب سيناتنا حسنات، وحسناتنا درجات وبحسب تلك الملاحظة ظهر لنا أنكم في مرتبة يغطيها الأوائل والأواخر ويتضاءل في جنب عظمتها الأكابر والأصاغر.

وبمنه تعالى قد حصل لنا من إقبال حضرتكم علينا ما لو صادف قابلية لبلغ بنا قاموس البحر مما خفي ومما ظهر وما غاب وما حضر، ومن المساعدة في الأمور

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٧٧٩).

الدنيوية ما لو ساعد الدهر لانقضت به كل أمنية، ومع ذلك قد ظفرنا من قوة ذلك الإقبال بقدر وافر من محبة حضرتكم والاعتقاد فيها، مع معرفتنا بأن تلك المحبة تنتهي بالأصالة إلى المحبة التي لا تنقسم.

وبالجملة: فقد بلغت تلك الجزئية التي حزنناها من المحبة والاعتقاد في حضرتكم مرمى بعيداً، ولو لم يستتر نجمها بظهور شمس خصوصيتكم المتجلية بأشعة أطوار بشريتكم لعظمت شأننا وارتفعت مكانة ومكاننا، وكذا حصل لنا من معرفة سيدي الشيخ أحمد التجاني، والمحبة والاعتقاد فيه ما لا يتحصل عند غيركم في سنين متطاولة لعلمنا بأن حقيقته هي أحدية الولاية التي هي إشراق شمس أحدية النبوة، بالآثار البارزة في الوجود وكون تلك الشمس هي مظهر صفات الألوهية.

ومن هذا القبيل كان سيدي الشيخ أحمد التجاني مركز التعيم والجحيم، فتعيمة فلك درجات أعلا عليين، كما أن جحيمه فلك درجات أسفل سافلين، فلذا كانت محبته هي العروة الوثقى التي من تمسك بها لا يشقى ويغضه نار تطفى لا يصلاحها إلا الأشقى غير أنه يا سيدي مع ما ذكر مما حصل لنا من المحبة والاعتقاد في المحضرة، فالحال كما يرى ويشاهد من ظهور سلطان النفس علينا، واستعانتها علينا بتعسر الدنيا مع ملازمة الفقر وضرورته، وفي الحديث «كاد الفقر أن يكون كفراً»^(١) وتصور لنا أنا لو ضربنا في الأرض، لبلغنا وطرنا من جهة الدنيا وما تشتمل عليه.

ولا خفاء في أنه يبعد على أمثالنا أن يقاومها أو يغالبها ويساومها، ومن أين يتأتى له ذلك، مع ما ورد عنه عليه السلام أنه قال وهو راجع من الغزو: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس»^(٢) فحيث كان الأمر كما ذكر لزم لنا تحريرهم إليكم وبه نرتجي ونؤمل من المراحم الكريمة والعواطف الرحيمة، صدور الإذن الصريح الجازم لنا في السفر في طلب المصالح الدنيوية، وتحصيل بعض أغراضنا وأن تصحبونا بخاطركم مع المعونة بالدعوة الصالحة، والاكتفاء منا بالمزاورة ولا خفاء في أن العبرة باجتماع الأرواح لا الأبدان، ولعل وعسى أن

(١) أخرجه أبو نعيم (٥٣/٣).

(٢) تقدم تخريجه.

تصبحنا خواطركم الشريفة وأنفاسكم المتيفة أن نفوز بفضيلة الامتثال والاستمداد
والتمني، بقوله ﷺ: «أزر غنا تردد حبا»^(١) والله المسؤول أن يتجح المقاصد في
المصادر والموارد والسلام.

فأجاب ﷺ بعد البسملة: اللهم صل وسلم على الياقوتة الفريدة قبلة الأرواح
السعيدة وآله المتعرضين لبحر نواله، وبعد فأنت مسجون وباب سجنك الإيمان
الذي هو الإسلام، فمكتك معنا إحسان فكيف تقلبه إلى خسران، فوضح لنا السبب
نزدك في البيان، وإلا فاصبر حتى نبديه لك، واحذر سبيل من هلك، فهذا ما عندي
إن اعتمدت نصيحتي، وإلا فأني شيء يتوقف عليه إذني، وما فائدة خلعتني وذني
وهو وذات وأنت، انتهى.

وقد كتب إليه بعض الأحياء جواباً في شأن رجل اتاهم وادعى أنه من ذرية
سيدي الشيخ أحمد التجاني وشاهد الحال يكذبه.

فأجاب ﷺ بقوله: أسنى سلام يتجلى من حضرتي الحب والود في مظهر اسمه
الودود، وتنزل به أفلاك السعادة في مطالع السعود، وتتواضع له عناصر الأشواق
وتحمله مكسواً بأنوار الهيبة والشهود، إلى حضرة من نظر الله إليه بعين اللطف
والرأفة والرحمة والرعاية، فألقاه في بحر مركز دائرة حضرة الفضل والعناية فظهرت
عليه آثار لطفه الخفي والجللي، حضرة أختنا ومحبتنا فلان بن فلان بعد إهداء جزيل
ما يليق بجنابكم الفخيم من التحيات والتسليمات والتعظيم، أولاً السؤال عن كامل
أحوالكم فيما يختص بأمور الدين والدنيا والآخرة، أسبغ الله تعالى عليكم فيها
جزيل نعمه باطنة وظاهرة، وبلغكم من كل منها كل وطر وأمنية وجعلها فيه ومنه
وإليه، وأمدكم فيها بكمال العون والمعين.

ثم نعلم حضرتكم أنه قد أتانا جوابكم الكريم، وتلقيناه بالقبول والتعظيم وكل
ما به فهو معلوم، من منطوق ومفهوم، ومن أهم ما اقتضاه الحال، على وجه السرعة
والاستعجال، التعريف لكم في قضية الرجل المشار إليه في جوابكم المدعي أنه من
ذرية سيدي الشيخ أحمد التجاني، وأن سيدي الشيخ أحمد التجاني كان له أربعة

(١) أخرجه الطبراني (٣٥٣٥)، والحاكم (٥١٧٧)، وتمام (٦٤)، والطبراني في الأوسط (٣٠٥٢)،
وفي الصغير (٢٩٦) قال الهيثمي (١٧٥/٨): فيه محمد بن مخلد الرعيني وهو ضعيف.

أولاد في حياته... إلخ ما ذكر، فالحال أن جميع ما ذكره الرجل المحكي عنه مخالف لما في سيرة سيدي الشيخ أحمد التجاني المعلومة من كتبه وكتب أصحابه، ومشهورة بالتواتر عن ثقات أصحابه.

فأما قوله: (إن سيدي الشيخ أحمد التجاني كان له أربعة أولاد يدعى أحدهم إبراهيم، وله أربعة وعشرون ولداً، ودعواه أنه أحد أبنائه) فهذا مما يردّه النقل والتواتر وأن سيدي الشيخ أحمد التجاني لم يكن له في حياته غير ولدين، وهما سيدي محمد الكبير، وسيدي محمد الحبيب، وهو المنصوص عليهما في الكتب في بشائر سيدي الشيخ أحمد التجاني كقوله أوصاني ﷺ علي ولدي سيدي محمد الكبير وسيدي محمد الحبيب وضمن لهما خيراً كثيراً.

وقال صاحب «منية المريد» أيضاً:

ولهما ضمن طه المعرفة بربه له فيالها صفة

ولم يترك الشيخ أيضاً بعد مماته غير هذين الولدين وإلى ذلك أشار «صاحب المنية» بقوله:

وتترك الشيخ من الأولاد من بعده لرحمة العباد

ولدين منهلين للوراد كلاهما كالكوكب الوقاد

وهذا لا يخفى على أحد من أصحاب سيرته.

وأما قوله: (إنه كان مقيماً بالمدينة المنورة ستة وعشرين سنة مع نسبه إلى سيدي الشيخ أحمد التجاني) فهو مما يبرهن على كذبه لكوننا أقمنا بالمدينة المنورة عدة من السنين، مع ممارستنا للواردين والمجاورين من التجانية، وتفحصنا عن أخبار أهل الطريقة، ولم يخبرنا مخبر ولا جرى له ذكر ولو كان قوله على صحة لعلم لدينا ولدى كافة التجانية لشدة حرصهم على آثار سيدي أحمد التجاني، ولأخبركم به أيضاً السيد أحمد البدرابي لكونه مستهتراً في محبة سيدي الشيخ أحمد التجاني، وقد سافر لزيارة ضريحه الشريف ﷺ وزيارة أنجاله وهو كما شاهدتموه مستغرق الليل والنهار في سيرته وسيرة أصحابه.

وأما ما سمعتموه من الألفاظ المحرفة في الأذكار فهو مخالف لما في كتب سيدي الشيخ أحمد التجاني وهو أيضاً مما ترده أحكام الشريعة والحقيقة.

ومن أعظم الدلائل الدالة على كذبه جهله بشروط هذا الورد لكونها يقدم اشتراطها على أخذ الورد باتفاق أهل الطريقة، وأيضاً فهي مما اشتهر وعلم من الطريقة ضرورة فلا يجهلها إلا أجنبي حشاً ومعنى، فحيث كان الأمر كذلك، وكان مقتضى الحال أن يحضر هذا الرجل بين يدي من يلزم وتؤخذ معه المذاكرة إظهاراً لجهله وعجزه ورداً لكلامه، وسدّاً للذريعة، ورداً لأهل الافتراء والكذب، اللهم إلا أن هذه الكيفية لم يساعد عليها الوقت، فاللازم حيتلّ ألا يعتني به ولا يواصل ويترك سبيله يذهب حيث شاء وتحذر منه كافة الإخوان، والله المسؤول أن يجعلكم من أنصار الرحمن الذين يحذرون من أتباع الشيطان، وفيما ذكرناه من هذه السيرة كفاية والسلام عليكم.

صورة تحشية:

ومن خصوص أيها الأخ أنه ما صار انتقالنا من بربر حتى تركناكم على ما فيه الكفاية من معرفة سيرة سيدي الشيخ أحمد التجاني، وكتبه أيضاً موجودة بين أيديكم مع ما أنتم عليه من المحقق والقطانة والخوض في العلوم الظاهرة والباطنة، ولكم نظائر في هذه الكيفية شرقاً وغرباً، وعلى قدر معرفتنا إذا استقمتم على الحالة التي تركناكم عليها، ووجدت البركة والتأييد واتفاق الكلمة، لا يطمع في الدخول فيكم أهل الباطل بباطلهم، وكان مقتضى الحال أن يعرف لديكم حال هذا الرجل وأمثاله من أول وهلة، لأن جهلهم بالجهة التي يتسبون إليها مما يبرهن على كذبهم، ولا سيما هذا الرجل فإنه بنى أساسه على شيء لا يقبله من عنده أدنى تأمل.

غير أنه يا أخانا إن الآفة كل الآفة هي التفرقة وترك الوفاق، واستبداد كل برأيه، وترك اهتمامه بأمور إخوانه والتهاون أيضاً بالمزاورة والمذاكرة ومواصلة الرحم الديني في الله، فإن هذا ليس شأن أهل طريق الله قاطبة، لا سيما طريقة سيدي الشيخ أحمد التجاني، بل وإن وظيفة المقدم في طرق أهل الله، مع زيادة التأكيد الشديد في طريقتنا أن يهتم بأمور الإخوان ظاهراً وباطناً، ويلم شعثهم ويسعى في دفع الشبه عنهم، ويدعوهم في طريق الله إلى كل فضيلة، وينهاهم عن كل رذيلة بأي وجه من وجوه الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن من غير فتح باب

خصومات، ولا تكلف شيء يخرج عن طلب الحق وفيما ذكرناه كفاية والسلام عليكم، انتهى.

من من الله أعلم بما أخفاه وأبداه ﴿وَقَعْنِي رُتْكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] والاتباع معلوم والحاكم اليوم غذا هو المحكوم: «كما تدبّر تدان»^(١).

جاء في الوعد والوعيد ﴿وَمَا رُتْكَ بِظُلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] من أنفاس أنتم أعطارها ودوحة أنتم ثمارها، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩].

فالمعية نالها أهل الانقياد من حزه الآن ثم إيمانك يا عمر، آية أبو عبيدة في قتل أبيه أمرها اشتهر، والإكسير الذي يزيل خبث النفوس يفهمه من كان فيهما، أو يسلموا تسليماً، فالبيعة شأنها غير مكتوم، والمبايع في كل بيعة هو المعلوم يد الله مع الجماعة، والإمام يقوم مقام الكل في الطاعة من لو حللتموه أقامكم الله فيه، ومسجد قلب دخلتموه بحيلة التنبيه، فأحسنوا جوار الله يزدكم ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ولكن علمه مسطر في رق الوجود بمداد الغيب لم ينقله ناقل:

تأمل مسطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل

تعصي الإله وأنت تظهر حبه؟ هذا هو محال، من ملك القلوب ملك الأموال والرجال كالجبال، من محمد بن المختار إلى أبو الحسن بن المختار، من محمد الشنيطي إلى أبو الحسن الشنيطي، من محمد التجاني إلى أبو الحسن التجاني، من محمد صاحب الطريقة إلى أبو الحسن صاحب الطريقة، من محمد شيخ الحقيقة إلى أبو الحسن شيخ الحقيقة، من محمد صاحب سلطان دارفور إلى أبو الحسن صاحب سلطان دارفور، من محمد المتزوج في كردفان إلى أبو الحسن

(١) أخرجه عبد الرزاق في الجامع عن معمر (٢٠٦٦٢)، والبيهقي في الزهد (٧١٠)، وأحمد في الزهد (ص ١٤٢).

المتزوج في كردغان، من محمد المتزوج في المئمة إلى أبو الحسن المتزوج في المئمة، من محمد المحبوب عند السعد إلى أبو الحسن المحبوب عند السعد، من محمد المنكور عليه.

وبعد حمدا لله جلّت نعماءه، وتقدست أسماؤه، وتتابعت آلاؤه فإن سألتم أخ بعد أزكى تحيات تزفها يد العناية إلى مقامات التبجيل، وأنتم تسليمات مصحوبة بالاحترام لعظماء هذا الجيل، أعني: حضرة عزيزنا الذي لا يقابل أحد بترح محمد آغا سليمان فرح، ونفسنا بن قطب هذه الديار، وسيدنا في كل الأمور، سيدي محمد السهوري والأخ الذي تمت شفقتة على الشقيق محمد أفندي الصديق والأخ الذي عاملنا بما بدا له في التحقيق، محمد عثمان الصديق، بلغهم الله كل مقصود، وكان معهم في الصدور والورود، المرفوع للقرائح الزكية أنه قد ورد علينا جوابكم وما به استقر في الذهن، وهذا شأن أمثالكم تدارك الأمور قبل الوقوع في الضير برد المظالم أو الصلح والصلح خير، ولكن الطلب أولا يتوجه على الطالب لأن الترك له.

وأما المطلوب فغاية بغية الترك لأن فيه راحته، وإن لم يكن ثم تداعي إنما هو هجر بعد الخوة^(١) فليُنظر الذي ترك ويطلب منه الرجوع كما كان فانظروا من حصلت منه هذه الأمور ووجهوا عليه الطلب.

وأما قولكم: إن الطرق لا مدخل لكم فيها، يا ليت غيركم قالها في هذا المعرض، لأنكم تعلمون أنها أصل الخلطة فنبذتم الأصل الذي به الخلطة وطلبتهم غيره وهو ما كان حتى يعود، وأيضا هذا الشخص الذي أشرتكم له، إذا لم يرجع كما كان، وقبلنا منه صرفا أو عدلا، فسيدي أحمد التجاني وجده سيد الوجود ﷺ يقطعون حبل وصلنا بهم وهو يعلم ذلك؛ لأن كتب سيدي أحمد التجاني عنده.

ومن جملتها: ومن يجالس مبغض الشيخ هلك وضل في مهامه وفي حاله:

(١) الخوة: أصلها الفترة التي نصيب، من الخوى وهو الجوع فاستعبرت. انظر: الفائق في غريب الحديث (١/١٤٦).

قالهروب الهرب قلت لك نصيحة ولو يكون ولدك
والحذر الحذر أن تؤذي من كان أخاك في الطريق احذر
لأنها لأحمد العبداني إذابة وأحمد الشجاني
وسيد الوجود في ذا شدا ومصرحا بنهيه مؤكدا

وقال: إن من يكون يفعله، صار هباء في هواء عمله... إلخ.

وهذا الشخص أظهر من الاعتراض على سيدي الشيخ أحمد التجاني وتخطته
وأخراجه عن دائرة الشيوخة ما هو موجود بخطه، وقد نشر في ذلك منشورات
على التجانية وهي بأيديهم الآن، ثم تصدره لإخراج الناس عن طريقته على هذا
السييل، وسعيه في أذية التجانية المرة بعد المرة بحسب ما يمكنه من أنواع الأذيات،
وفي كلها يأتونني متضررين ونامرهم بالصبر والتسليم إلى أن وصلت أذيته إلى
الشكاية في الدواوين، وتحزبه بالسفهاء بما فيه ضياع الأنفس فضلاً عن الأموال.

وعلى تقدير إذا حصلت منه مناقضة في ذلك فأجمعوا بيننا وبينه، ويكون فائدة
جمعيتنا في إثبات ذلك أو نفيه، فإن ثبت عليه ما ذكر وحصلت منه التوبة والرجوع
كما كان لزمنا أن نقبله وتكون معه كما كنا؛ لأن: «الثائب من الذنب كمن لا ذنب
له» فحيث لا يحتاج الأمر إلى واسطة وتكون أولى ببعضنا، وإن لم يرجع نكون
معدومين عند حضراتكم.

وإن لم يثبت عليه ذلك نكون تحت نظركم وأمركم في الصلح من عدمه، ونحن
غاية طلبنا له في الرجوع ومنع الفقراء له عن مكافأته في تجرأته عليهم وعلى
أشياخهم إنما هو شفقة عليه؛ لأن طريقة سيدي أحمد التجاني وأهلها في غنى عنا
وعنه، لأننا لا نؤثر فيها نفعا ولا ضررا، وإن صالحته أنا على ما هو عليه فالتجانية

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني (١٠٢٨١)، وقال الهيثمي (٢٠٠/١٠): رجاله رجال
الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه. والبيهقي (٢٠٣٤٨)، والقضاعي (١٠٨). قال
المنذري (٤٨/٤): رواه ابن ماجه والطبراني كلاهما من رواية أبي عبيدة ابن مسعود عن أبيه،
ولم يسمع منه، ورواه الطبراني رواية الصحيح. وقال المناوي (٢٧٦/٣): قال ابن حجر:
حسن.

بجعلونا نحن وهو جهة واحدة وينبذونا وراء ظهورهم، بحسب الشروط المقررة عندهم، فحيث لا يؤثر صلحنا معه إلا الانقطاع عن سيدي أحمد التجاني وتلامذته أحياء وأمواتا وحيث ما توجهنا في أرض الله نجدها كلها تجانية فتكون كلها لنا أعداء.... إلخ.

وقد سئل الله عن سف التبتك في رمضان وشربه بالعود ونحوه، وما حكمه في مذهب الإمام مالك وأبي حنيفة؛ لأن هذين المذهبين عليهما مدار العمل ببلادنا؟ فأجاب بأنه يفطر، وناقضه أحد العلماء الحاضرين بالبندر، وقلده بعض العوام تبعا لأهوائهم، وعمت المفسدة والبلوى وقتل بذلك لما تعلم من استتاد العوام لأدنى شيء يجيء على غرضهم وصورة السؤال ما وجدناه الآن. وهذا هو الجواب والله الموفق للصواب: اعلم يا أخي أن سقوف التبتك مفطر من أوجه:

الأول: إنه متحلل لا يقدر متعاطيه على دفعه عن حلقه، بل وكل جوفه، قال العلامة الشيخ الدرديري في شرحه على المختصر: وصحته بترك إيصال متحل. قال محشيه أي: وصحته بترك وصول شيء، يغلب سيقه لحلقه. قال الدردير بعد كلام: وبترك إيصال بخور بفتح الباء أي: الدخان المتصاعد من حرق نحو العود ومثله بخار القدر، فمتى وصل للحلق وجب القضاء، ومنه الدخان الذي يمس بالقصب ونحوه، فإنه يصل للحلق بل للجوف. قال محشيه الدسوقي عند قوله: (ومنه الدخان) أي: ومن قبيل البخور الدخان فإنه يصل للحلق ويتكيف به الدماغ أي: يحصل له به كيفية وقوة، وكذلك الدخان الذي يتشوق به؛ فحيث هو مفطر فقد ظهر لك أن الشيخ الدردير قطع بإيصال الدخان ونحوه للحلق بمجرد الشرب وتبعه الدسوقي في ذلك، بل زاد أنه يحصل منه تكيف للدماغ سواء تعاطاه بغمه وأنفه؛ لأنه قال: وكذلك الدخان الذي يتشوق به، فإن الشوق من الأنف ويعني به الشوق الذي يجعل في الأنف مع أن الأنف أبعد للحلق من الفم والتكيف يحصل بالأنف والفم. الوجه الثاني: إنه مكيف كما تقدم لك.

الوجه الثالث: أن متعاطيه إن استعمله من غير أن يقف على نص في ذلك فقد

حكم بما لم يعلم، والذي حكم بما لم يعلم يطل حكمه، ولا يجوز له الإقدام عليه.

قال الأخصري: ولا يحل له أن يعمل عملاً حتى يعلم الله فيه.

قال خليل: وتنقض حكم جاهل وإن وافق الحق، وأنت تعلم يا أخي أنهم كرهوا بل منعوا مداواة الحفر نهاراً للصائم.

قال خليل: عاطفاً على المكروهات ومداواة حفر.

قال الشيخ الدردير: ومداواة حفر بفتح الفاء وسكونها فساد أصول الأسنان ومنه: أي: الصوم وهو النهار، ولا شيء عليه إن سلم فإن ابتلع منه شيئاً غلبه قضي، وإن تعدد كفر.

قال محشيه الدسوقي: مفهومه جواز مداواته ليلاً، فإن وصل لحلقه نهاراً فهل يكون مثل هبوط الكحل نهاراً أم لا وهو الأظهر، فإذا كانت مداواة الحفر بالعقاقير للصائم نهاراً بين الكراهة والمنع فما بالك بالسفوف لأجل الكيف، واعلم أن ما ثم عقاقير أخرى ولا أسرى في الطبيعة من التثاقل.

هذا ما ظهر لنا من مذهب إمام دار الهجرة، وأما مذهب الإمام الأعظم فقد قال في «تنوير الأبصار» باب ما يفسد الصوم: إذا أكل الصائم أو شرب أو جامع، ودخل حلقه غبار أو ذباب أو دخان إلى أن قال أو احتقن أو استعط أو أقطر في أذنه دهناً أو داوى جايقة... إلخ.

قال محشيه: وأما ما في فتاوي قاضي خان لو أدخل دموعه أو عرق جبينه فسد صومه يوافق ما ذكرناه. انتهى.

وأقول في الخلاصة: في القطرة والقطرتين لا يفطر أما في الأكثر فإن وجد الملوحة في جميع الفم... إلخ أفطر وإلا فلا، وهذا ظاهر في تعليق الفطر على وجدان الملوحة في جميع الفم، ولا شك أن القطرة والقطرتين ليستا كذلك وعليه ما في الخاتمة، انتهى.

وقال عند قول الشيخ أو أكل أو شرب غذاء بكسر الغين وبالدال المعجمتين والمد ما يتغذى به أو دواء ما يتداوى به والضابط وصول ما فيه صلاح بدنه لجوفه ومنه عرق جبينه، فيكفي وجود معنى صلاح البدن فيه دارية وغيرها. انتهى الدر.

قال في «الجوهرة»: واختلفوا في معنى التغذي، قال بعضهم أن يميل الطبع إليه وتنقضي شهوة البطن به. انتهى.

وقال بعضهم: هو ما يعود نفعه إلى صلاح البدن كذا في المحيط. انتهى.
قال في «الجوهرة»: وعلى هذا فالورق الحبشي والحشيشة والقطاط إذا أكله
فعلى القول الثاني لا تجب الكفارة وعلى القول الأول تجب، لأن الطبع يميل إليه
وتنقضي به شهوة البطن.

قال: وعلى هذه البدعة التي شهرت الآن وهو الدخان إذا شربه لزم الكفارة
نسأل الله العفو والعافية. انتهى.

مداد الفتاح قال في «رد المحتار»: أنه لو أدخل حلقه الدخان أي: بأي صورة
كان الإدخال حتى لو تبخر ببخور فأواه على نفسه أو اشتمه ذاكراً لصومه أفطر؛
لإمكان التحرر عنه، وهذا مما يغفل عنه كثير من الناس، ولا يتوهم إنه كشم الورد
ومائه والمسك لوضوح الفرق بين هواء تعطيب بريح المسك وشبهه، وبين جوهر
دخان وصل إلى جوفه بفعله إمداداً وبه علم حكم شرب الدخان، ونظمه النثر
نبلاي في شرحه على الوهبانية بقوله:

ويمنع من بيع الدخان وشربه وشاربه في الصوم لا شك يفطر

ويلزمه التكفير لو ظن نافعا كذا دافع شهوات بطن فقرروا

أما من قاس سفوف الدخان على ذوق الملح ومضغ العلك وغيرهما من
المكروهات، فلا وجه لقياسه؛ لأن ذوق الملح يضطر إليه الصانع، ويجب عليه مجبه
حالا أما مضغ والعلك.

قال في «الدر»: وكره مضغ علك أبيض ممضوغ ملتئم وإلا فيفطر.

قال محشيه ابن عابدين: قد بدا لك لأن الأسود وغير الممضوغ وغير الملتئم
يصل منه شيء إلى الجوف، وأطلق محمد المسألة وحمها الكمال تبعا للمتأخرين،
قال: للقطع بأنه معلل بعدم الوصول فإن مما يصل عادة حكم بالفساد؛ لأنه
كالمتيقن. انتهى.

هذا ما قاله السادة الحنفية فقد ظهر لك أننا أنعمنا من بيع الدخان وشربه
تبقنا أن ذلك مما يصل للحلق، هذا ما ظهر في حكم إفساده للصوم، وأما حكم
مشاعطيه فيلزمه الكفارة والقضاء أو القضاء.

قال العلامة ابن عابدين في «حاشيته على الدر» ناقلاً عن «الوهبانية»:

ولو أكل الإنسان عمدا ومشهزة ولا عذر فيه قيل بالقتل يؤمر

قال الشرنبلالي: مؤادها تعمد من لا عذر له الأكل جهازا يقتل، لأنه مستهزئ بالدين أو منكر لما ثبت منه بالضرورة، ولا خلاف في حل قتله والأمر به، فتعير المؤلف قيل ليس بلازم الضعف هذا في حكم الحد، وأما القضاء والكفارة فقد تقدم الكلام فيهما وأما حكم من رآه أو سمع به من العلماء الأعلام، أو من أمراء الإسلام فهو الزجر.

فأما العلماء فيجب عليهم ذلك بإظهار النصوص وإنكار هذه المسألة التي يفعلها، ولم يقل بها أحد من علماء الإسلام، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين وهو المهم الذي بعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة، وسرى الفساد واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلكت العباد.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولأن الله جعل نصيحة من يعلم واجبه على من لا يعلم.

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُفِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [النوبة: ٧١].

قال حجة الإسلام الغزالي في معنى هذه الآية: فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف فالذي هجر الأمر بالمعروف خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية، وأما الأخبار فقد قال ﷺ: «من كتم علما نافعا ألجمه الله بلجام من نار»^(١). ومن جملة الأحاديث التي عليها مدار دين الإسلام قوله ﷺ: «الدين النصيحة»^(٢).

(١) أخرجه ابن ماجه (٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٨٢)، ومسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧)، وأبو عوانة (١٠١)، وابن خزيمة في السياسة كما في إتحاف المهرة للحافظ (٢٤٥٦)، وابن حبان (٤٥٧٤)، والبقوي في الجعديات (٢٦٨١) وابن قانع (١٠٩/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٢٦٥)، وأبو نعيم في المعرفة (١٢٩١) والطبراني (١٢٦٧)، وابن عساكر (٥٤/١١).

وهذا أعني: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعذر في هذا الزمن وصار المشتغل به كأن أمره لا يجدي شيئاً بل يخشى صاحبه على نفسه الضرر، وطرد ذلك في جميع الأمر مع أن الأمر ليس كذلك؛ لأن الإنسان كثير من الأمور متمكن فيها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يخشى على نفسه ضرراً مثل ولده الذي يؤدبه ليلاً ونهاراً ولا أحد يعارضه فيه، وخادمه وعباله بل كثير من الناس ليس عنده قدرة يضر بها أحداً وكثير عنده قوة يدفع بها عن نفسه الضرر.

وكثير من المسائل إذا أمر بها أحداً ونهى لا يحصل له ضرر من أحد أصلاً؛ لأنه يحصل ممن له شوكة والشوكة الآن تكاملت في الدول وأهل الدولة لا يعاضدون الأمر بالمعروف، بل لا يلتفتون إلا لشيء فيه خلل في نظام مملكتهم أو فساد أموالهم وأما ما عدا ذلك فإنهم يوافقون غالباً جميع من انتبه على شيء فيه مصلحة للدين، وأيضاً كثير من مصالح المسلمين في دياراتهم وأمور دنياهم لا دخول لهم فيه، ومن جعلتها هذه المسألة، وأكثر عوام المسلمين فيما ظهر لنا مسترشدون فيها يريدون إظهار الحكم؛ لأن هذه المسألة شاعت والذي أشاعها واحد ينتمي للعلم فبسبب ذلك دخلت عليهم الشبهة، ومعلوم أن رد الشبهة عن العوام واجب. انتهى.

وسمعه ﷺ يقول: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] فمقتضى الحصر في الآية نفي الإيمان عن من لم يتصف بهذه الصفات، وذلك لأن القلب له وجهان، وجهة إلى الظلام ووجهة إلى النور، والمراد بالظلام ظلام الكفر كما أن النور هو نور الإيمان، وهو يشاكل المحسوس من حيث الكشف عن الأشياء.

فكما أن النور المحسوس كنور الشمس والقمر والنجوم تنكشف به ظواهر المحسوسات من الصور والعقاير والألوان، فكذلك نور الإيمان تنكشف به حقائق المعقولات، إما فيما يتعلق به وعد الله ووعيده، وإما في تعلق حكمته تعالى بالأشياء ثم الترفي منها إلى مرتبة الأسماء ثم الصفات ثم الذات، وهذا النور هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] فمن انقذ في قلبه هذا النور اتصف بتلك الصفات ضرورة يشهد لذلك قوله ﷺ: «إن النور إذا دخل في القلب انشرح وانفسح، قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله، قال:

الإجابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله^(١).
فمثال الشهود فيما يتعلق به وعده الله تعالى مثال الشهود بقوة الإيمان في
مجالس الذكر حيث يقول ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»^(٢) وما رياض الجنة!
قيل: فإن المؤمن الكامل الإيمان يشهد بها روضة من رياض الجنة حقيقة ويتنعم
بذلك المجلس كما يتنعم أهل الجنة في الجنة بل الجنة، وما فيها بالنسبة إليها كلا
شيء. لأن المذاكر جليس الحق ﷻ والجنة إنما كانت نعيمًا بما ظهر فيها من الرحمة
الإلهية من نور الحق، وأما ضعف الإيمان المحجوب بكثافت طبيعته فلا يشهد
شيئًا من ذلك؛ ولذلك تجده كثير الملل والسأم في مجالس الذكر لا يطيق المثابرة
عليها قدر ساعة، وإذا جلس في مجلس ربح دنيوي وتراكم عليه الريح غير المعتاد
تجده كل ما ازداد الريح كأنما يزيد نشاطًا.

ومثال الشهوة في الحكمة الإلهية بنور الإيمان أولاً علمًا إجمالًا أن الله لا يفعل
شيئًا إلا بحكمته ثم يشهد بها في تفاصيل الأشياء حتى تصير له حالاً ضروريًا، فإن
الحكمة ضالة المؤمن ولا تدرك إلا بنور الإيمان، كما أن ضالة الحواس وأخرى إذا
كانت صغيرة كالإبرة ونحوها لا تدرك إلا بالنور المحسوس.

فإذا قوى القلب في شهود الحكمة الإلهية ترقى في مراتب الكمالات من شهود
وحدة الأسماء ثم الصفات، ثم وحدة الذات، ثم ذات الذات، وذات الذاتين، وذات
الذوات، والطريق الموصل إلى هذا الشهود هو صراط الله المستقيم، وهذا الشهود
هو الجنة المعجلة التي أشار إليها ابن الفارض ﷺ بقوله:

جَنَّةٌ عِنْدِي رِيَاهَا أَمَخَّلْتُ أَمْ خَلَّثْتُ عُجَلْتُهَا مِنْ جَشِي

وتفاوت الخلق في هذه المراتب إنما يكون بحسب التفاوت في نور الإيمان
التقليد ثم البرهان ثم علم اليقين ثم حق اليقين.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٧٨٩٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٣١٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٥٤٥)، والترمذي (٣٥١٠) وقال: حسن غريب. وأبو يعلى (٣٤٣٢)،
والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩) والطبراني في الدعاء (١٨٩٠)، وأبو نعيم في الحلية
(٢٦٨/٦).

فإذا فهمت هذا فاعلم أن الإيمان كما قال ﷺ: «بضع وسبعون شعبة أعلاها كلمة لا إله إلا الله، وأدناها إمالة الأذن عن الطريق» وهذه الشعب منها أحكام عامة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقضاء بين الخلق، ونحو ذلك، وأحكام خاصة كأحكام الطريقة وخاصة الخاصة كأحكام الحقيقة وكلها كانت مجموعة فيه ﷺ وموف بوظائفها وآدابها على ما هي عليه.

ثم قام بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي - رضوان الله عليهم أجمعين - وذلك لسعته ﷺ وسعة خلفائه حتى توسعوا بسعته ﷺ ولذلك قال ﷺ: «عليكم يستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ».

ثم لما مضت مدة الخلافة وضائق القلوب افتقرت الخلق إلى عامة وخاصة وخاصة الخاصة، وهلم جرا، فقام كل فريق منهم بقسم من شعب الإيمان فقام الأمراء بوظيفة إقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير المسكرات باليد واللسان وجوباً ونهياً، وقام القضاة بوظيفة القضاء وقام العلماء بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان والقلب وتعليم الجاهل، وقام العباد بوظيفة العبادات من واجباتها ومندوباتها، وقام الصوفية بتصفية القلوب وتحرير النيات والعبادات ومقصدتهم الصدق مع الله تعالى في كل شيء لما ظهر لهم أن القلب هو الذي عليه المدار.

وفي الحديث: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

وقام العارفون - رضوان الله عليهم - بوظيفة الوصول إلى المعرفة بالله تعالى؛ لأنها هي المقصد في جميع العبادات ولها خلق الإنسان ولذلك الإشارة لما يروى:

(١) أخرجه أحمد (٩٣٥٠)، ومسلم (٣٥)، وأبو داود (٤٦٧٦)، والنسائي (٥٠٠٥)، وابن ماجه (٥٧)، وابن حبان (١٦٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٣٩٨)، والبخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، وأبو داود (٣٣٢٩، ٣٣٣٠)، والترمذي (١٢٠٥)، والنسائي (٤٤٥٣)، وابن ماجه (٣٩٨٤)، والدارمي (٢٥٣١).

«كنت كثيرًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت خلقًا فتعرفت إليهم فبي عرفوني»^(١) فلذلك لا يمكن الوصول غالبًا إلى معرفة الله تعالى إلا على يد المشايخ الكُثُل العارفين، ثم إن للعارفين إلى الوصول إلى معرفة الله تعالى طرقًا لا تحصى كما قيل الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلق ولكنها وإن كثرت فيرجع حاصلها إلى ثلاث طرق:

أحدها: طريقة الغزالي رحمه الله وهي مكابدة العبادات وتصفيتها من العلل والشوائب وقد ألف في ذلك كتاب «الإحياء» في أربعين كتابًا ثم كتاب «الفصول» في أربعين فصلًا، ثم ظفر بطريق أقرب من ذلك في آخر عمره، وألف فيه كتاب «منهاج العابدين» ورتبه على سبع عقبات، وجعل آخرها عقبة الحمد والشكر، وهو الباب الموصل إلى محبة الحق ﷻ في تذكر النعم الواردة منه تعالى، وتلك تؤدي إلى الفناء في المحبوب.

ثانيها: طريق سيدي أبي الحسن الشاذلي وبدايتها شهود النعم الواردة من الحق جل جلاله والشكر عليها، وهي خلاصة طريقة الغزالي وتبجتها محبة المنعم لقوله ﷻ: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها»^(٢) وذلك يؤدي إلى الفناء في المحبوب وهو المطلوب.

ولذلك كان يقول لأصحابه: كلوا من ألد المطاعم واشربوا أحلى المشارب وناموا على أوطأ الفراش واشكروا الله تعالى، فإنكم إذا فعلتم ذلك وشكرتم الله تعالى وافقكم كل عضو منكم على ذلك، وإذا أكلتم من أحسن المطاعم وشربتم من أمر المشارب وشكرتم الله تعالى لا يساعدكم على ذلك إلا اللسان، انتهى أو كما قال، ولا يخفى أن طريق سيدي أبي الحسن الشاذلي هي خلاصة طريقة الغزالي.

وثالثها: طريقة سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمه الله حيث نظر إلى كثرة النعم

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١٦/٢٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٢١/٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٩٨٣)، والقضاعي

(٥٩٩)، والديلمي (٢٥٨٨)، والحديث موضوع كما قال الحافظ أحمد الغماري في المغير

(ص ٣٩).

وتشعبها، وذلك الشعب ووروده على العبد على اختلاف مراتب النعم يتجاذب خاطر المريد، فهو وإن كان أقرب من طريق الغزالي فثم طريق أقرب منه وهو شهود أحدية تلك النعم، وهو الحقيقة المحمدية عليها من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم كما قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤] أي: نعمته بمحمد ﷺ فجمع بين الغاية والوسيلة، فمدار هذه الطريقة على السير في محبة ﷺ وتعظيمه والصلاة عليه وشهود أحديته في المظاهر وشرف وعظم ومجد وكرم.

ومما سمعناه من شيخنا ﷺ قال: قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۖ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧] فأما قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا﴾ [يونس: ١١] فإن هذه الآية وردت مورد التنبيه على شهود وجه الحق الظاهرة بالأمور، لأنه قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١١] ولم يقل: انظروا السموات والأرض، فإذا نظرت بمجموع بصرك وبصيرتك ماذا في السموات والأرض ظهر لك [جلال الحق وكماله وجماله وفضله ورحمته فهو المتجلي فيها مع التنزيه فلا وجود لشيء إلا به، لا حلول ولا اتحاد ولا تجسيم ولا تغيير ولا تبديل هو قيوم كل شيء] سبحانه لا غيره، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ﴾ [القصص: ٨٨] أي: وجه ذلك الشيء ووجهه هو الحق سبحانه، الظاهر بوجوده ولذلك، قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] إذا حقت الحقائق ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] ﴿إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْزَجْتِ﴾ [العلق: ٨].

وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] فهذه الآية دالة على أن كل شيء فان في وجوده سبحانه فناء أزلياً أبدياً في الماضي والحال والمستقبل لا وجود له مستقل ولا قوام له من ذاته، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ

(١) لأنه ﷺ تحقق فعلاً بكل ما هو كمال في الخلق، فكان كماله كمال مفرق في الخلق ﷺ.

وَالْإِكْرَامِ [الرحمن: ٢٧] أي وجهه الواحد، فإذا فهمت معنى الآيات وتحققته ظهر لك أن الحق سبحانه ظاهر في كل شيء ومتعين به.

وهذا التعين بالأشياء إذا نسب للحق من حيث ذاته العلية كان وجودًا واحدًا أحد لا يقبل غيرية، وإذا نسب له من حيث ظهوره في الخلق كان على مراتب تسمى مراتب للتزلات، وهذه التزلات مجرد صور اعتبارات بالنسبة للوجود الأحد، فأولها: النور المحمدي وهو المجموعة فيه الأشياء جمعًا أحديًا.

ثانيها: الإنسان الكبير الذي هو وجهة أحدية الأجسام البشرية، وهو المشار إليه بقوله تعالى: «هَلْ أُنِ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ لَمْ يَدَّرْ لَمْ يَكُنْ شَيْفًا مَذْخُورًا» [الإنسان: ١] ثم خلقه بشرًا من طين ثم وجوده نقطة ثم علقه ثم مضغة وهي عشرة أطوار متباينة؛ لأن حقيقة كونه تراثًا تباين حقيقة كونه بشرًا سويًا وهلم جرا، ثم له عشرة أطوار أخرى أخريات.

الأول: منها حلوله في البرزخ وهو الحاجز بين الشيتين وسمي البرزخ المعهود برزخًا لأنه حاجز بين تحقق العبد بالحقائق الخلقية؛ لأن الأطوار العشرة التي تقدمت كلها في التنزل الذي هو التحقق في المراتب الخلقية، وأما الأطوار العشرة الأخروية فهي مراتب الترقى في الحق وغايتها الكتيب الأبيض الذي هو انمحاء الأعيان في عين الذات، ولذا قال في الآية: «وَالِيهِ تُرْجَعُونَ» [القصص: ٨٨].

فإذا فهمت هذا وظهر لك تنزل الحق ﷻ وتعينه بالأشياء فلا مانع أن يتعين في صور بعض عبيده، ويتزل منه الخطاب بلسان تلك الصورة مثلاً؛ إذ مرتبة سبحانه مرتبة الإطلاق المقابلة للإطلاق والقيود لاسيما، وقد ورد التصريح بذلك في الأحاديث النبوية.

من ذلك ما ورد في الحديث القدسي: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: جَعْتَ فَلَمْ تَطْعَمْنِي، وَمَرْضَيْتَ فَلَمْ تَعُدْنِي، وَاسْتَسْقَيْتَ فَلَمْ تَسْقِنِي، فَيَقُولُ الْعَبْدُ: كَيْفَ تَجُوعُ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ وَكَيْفَ تَمْرَضُ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ سَبْحَانَهُ

(١) [أي: الظهور المعنوي].

(٢) [أي: في الخطاب].

مفسراً لذلك: إنه جاع عبدي فلو أطعمته لوجدتني عنده... إلخ^(١) أو كما قال.
 ووجه الشاهد نيابة الحق عبده في نسبة الجوع والمرض وغيرهما إليه، فالنسبة
 فيما ذكر إشارة إلى تعيين الأشياء بوجود الحق، والمراد الحث على الخير مع تنزيهه
 سبحانه، وإذا تقرر ظهور ذلك التعيين في صورة المريض والجائع، فمن ذلك يفهم
 من له أدنى بصيرة الإشارة في الآية الشريفة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْذِينَ يُنَادُّونَكَ
 إِنَّمَا يُنَادُّونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَمَيْتُ إِذْ زَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ زَمَى﴾
 [الأنفال: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] فهذه
 الآيات تشير إلى أنه ﷺ وجهة أحدية الحق المنبسطة بصور أعيان الخلق مع أنه ظهر
 بالصورة البشرية فرداً من أفراد الخلق، ثم بطنت تلك الحقيقة عن الحواس والعقول
 وتنزلت إلى مظهر أحدية الولاية، لأن التنزلات الأحدية التي هي وجهة إيجاد
 الخلق وإمدادهم ثلاث تنزلات وهي الألوهية والنبوة والولاية، وهي أيضاً قبلة
 جميع العقول.

وإن جميع أهل الملل والنحل يعلمون أن هذه المراتب الثلاثة هي مرتبة
 أجدادهم وأمدادهم وقبلة عقولهم مع تصديقهم وإيمانهم وجزمهم بمقتضى قوله
 تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

فأما مرتبة الألوهية فهي مرتبة التنزيه والكمال، وأما مرتبة النبوة: فهي مرتبة
 الحقيقة المحمدية التي هي مرتبة جميع الخلق وهو ﷺ قطب أحدية تلك المرتبة
 ومعنى القطب هو الذي تدور عليه أفلاك تلك الأحدية.

وأما مرتبة الولاية: فهي مرتبة فرق الخلق وقطبها الذي تدور عليه أفلاكها^(٢) هو
 وارثه ﷺ وخاتم الولاية ومحنده الجمع الأحدي المشار إليه في قول سيدي محيي
 الدين بن العربي: إنه لما جمع الله الوجود جمعاً أحدياً لم يكن نبي عالماً بنبوته ولا
 ولي عالماً بولايته إلا سيد الوجود ﷺ وخاتم الولاية تبعاً للرسول ﷺ وجميع الأولياء
 يعلمون مرتبته ويعلمون أنه سيدهم كما كان ﷺ سيد الأنبياء من غير تعيين حتى ظهر

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩).

(٢) ذلك من بعض الوجوه فإن مرتبة الصحابة أرفع مرتبة بعد النبيين كما ورد في الحديث.

بها سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمه الله بشهادة سيد الوجود رحمه الله لقوله رحمه الله له في عالم الروح: «أنت ولدي ووارثي وحبيبي».

وقوله رحمه الله له وقد جمع بين إصبعه السبابة الوسطى: «روحي وروحك كهاتين روحي تمت الأنبياء والرسل وروحك تمت الأقطاب والعارفين والأولياء من الأزل إلى الأبد والصحابة خارجون عن هذه المرتبة».

وقوله رحمه الله له: «أنت القطب المكنوم والبرزخ المختوم» ومن هذا القيل صرح رحمه الله بقوله: أنا سيد الأولياء كما كان رحمه الله سيد الأنبياء.

وقوله رحمه الله: ينصب لي منبر من النور يوم القيامة فأرقى عليه ثم ينادى مناد في أهل الموقف يا أهل الموقف: هذا إمامكم الذي كان مددكم منه في دار الدنيا من غير شعور منكم.

وقوله رحمه الله: قال لي سيد الوجود رحمه الله أنت من الأمنين وكل من أحبك من الأمنين، أنت حبيبي وكل من أحبك حبيبي، وفقرائك فقرائي، وتلامذتك تلاميذي، وأصحابك أصحابي، وكل من أخذ وردك فهو محرر من النار، ووالداه وأزواجه وذريته المنفصلة عنه لا الحفدة وكون فضل أصحابه على سائر الأمة المحمدية كفضيلة الأمة على سائر الأمم، وقوله رحمه الله في أصحابه: لا مطمع لأحد من الأولياء في مراتب أصحابنا حتى الأقطاب الكبار ما عدا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبالجملة فإذا تفحصت ما ورد في مناقب أصحابه تجد كل فضيلة منها دالة على وراثته رحمه الله صريحاً أو تلويحاً.

ولما قيل له رحمه الله: يتم نالوا ذلك؟ فقال: لأجلنا والله الحمد، كما ورد عنه رحمه الله حيث تكلم على فضل أمته وهذا منها.

فإذا فهمت هذا فلا تخلو من أربعة أحوال إما أن تؤمن وتصدق وتكون من أهل ورده أو تكون من محبيه فقط من غير أخذ الورد، أو تكون مسلماً له دون تعرض إلى اعتقاد ولا انتقاد وأذية له ولا لأصحابه، أو تكون منكراً متفقداً، فإن كنت من أهل ورده فهتيت لك بما حوته من الفضل العميم والفوز الفخيم الذي نلت من غير عمل منك ولا كسب، فإن فضلك لا ينطق به لسان ولا يعبر عنه جنان لقول سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمه الله.

ومما ذكر لي فيهم وضمنه رحمه الله أمر لا يحل لي ذكره ولا يرى ولا يعرف إلا في

الدار الآخرة، وإن كنت الثاني وهو الصادق في المحبة من غير أخذ للورد، فاعلم أن عامة أحاب هذا القطب أفضل من غيرهم كما بشر به الشيخ ﷺ لأن سيد الوجود ضمن لهم أن يموتوا على الإيمان والإسلام، وأن يخفف عنهم سكرات الموت، وألا يروا في قبورهم إلا ما يسرهم، وأن يغفر لهم جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر، وأن تؤدي عنهم جميع تبعاتهم ومظالمهم من خزائن فضل الله ﷻ لا من حسناتهم وأن يكونوا آمنين مطمئنين من تغييض أعينهم إلى الاستمرار في عليين.

وألا يروا هول الموقف ولا يروا صواعقه ولا زلازله، بل يكونون في ظل العرش مع المصطفى ﷺ وأصحابه، وألا يحاسبهم الله ولا يناقشهم عن القليل والكثير يوم القيامة، وأن يحوزوا على الصراط أسرع من طرفة عين على كواهل الملائكة، وأن يدخلوا الجنة من غير حساب ولا عقاب من أول الزمرة الأولى، وأن يكونوا في عليين مع الخاصة العليا من خلق الله تعالى، وأن النبي ﷺ ضمن لهم أن يحبهم محبة خاصة عن سائر الأمة، وأن من أحبه لا يموت حتى يكون وليًا.

ومجموع هذه الفضائل لم يذكرها أحد من الأولياء في أصحابه لا خاصتهم ولا عامتهم قدم على محبتك فهنئًا ثم هنئًا لك وبالله التوفيق.

وأما إن كنت من أهل التسليم وعدم التعرض فلا لك ولا عليك، وسكوتك إلى هذا الزمان غنيمه، وأما إن كنت من المتقدمين المبغضين المعرضين فالويل ثم الويل لك، فقد ألقيت نفسك في أعظم المهالك وسلكت جائر المسالك، ويظهر ذلك بحجتين نقليه وعقلية أما العقلية فلأن الأشياء تمتاز بأضدادها، فكما ارتفع أصحاب هذا الولي إلى عليين، فلا بد من هبوط أضدادهم إلى أسفل سافلين، وجدير أن تكون فداء لهم إذ قد ورد، وما من مؤمن إلا كان له كافر فداء.

وأما الحجة النقلية فمنها ما ذكره عامة العارفين في قولهم: من أنكر شيئًا من علمنا هذا حرم الوصول إليه ويخشى عليه أن يموت على سوء الخاتمة.

وقد صرح سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ أن سيد الوجود ﷻ أخبره أن من سبه وداوم على ذلك ولم يشب لا يموت إلا كافرًا نعوذ بالله من الخذلان، وفي

الحديث القدسي: «من عادي لي ولينا فقد آذنته بالحرب» انتهى.

ومن كلامه ﷺ قال: قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّهُ مِنْ وَزَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠] وقال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوْنَ فَنُجْةٌ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] فالمراد من هذه الآيات تعريف الحق ﷻ لنا بمجموع صفاته الدالة لنا على ذاته ففى قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوْنَ فَنُجْةٌ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] إشارة إلى ظهوره تعالى فى المؤثرات فى كل وجهة من الجهات.

وفي قوله تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» [الإخلاص: ١] إشارة إلى تلك الوجوه
مرجعها إلى أحدية الذات التي لا تقبل التعدد بحال، وفي قوله تعالى: «وَأَلَّهُ مِنْ
وَزَائِهِمُ مُحِيطٌ» [البروج: ٢٠] إشارة إلى صفة الإحاطة المقتضية لظهور الأحدية في
الكثرة وظهور الكثرة في عين الأحدية.

ثم اعلم أن الله تعالى قد طلب من الإنسان معرفته في وجهات تعرفاته الدالة على عين ذاته، وجعل مفتاح ذلك النظر في آياته النفسية والآفاقية، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ أَيُّهَا الْمَلِيقُ إِنَّكَ الْغَنِيُّ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلِيْ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُنْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وقيل: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»^(٢٧).

وكيفية النظر ومراقبته أن ينظر الإنسان في الآثار من حيثة افتقارها ودلائنها على وجود المؤثر الصانع وهو أول توجه القلب إلى معرفة الحق وهي مرتبة أهل النظر ثم ينظر في اختلاف ظهورها وارتباطه بالحكمة الإلهية ويديم السير والمراقبة في ذلك حتى يتسع نظره في الحكمة الإلهية، بحيث أن يشهد ذلك في توجهات قلبه، ويصير بحيث لا يشذ عن نظره شيء لا يشهد فيه الحكمة الإلهية، حتى إنه لو تعطل شهوده بوجود الغفلة أظهر له عند إفاقة من تلك الغفلة وجه الحكمة في عين الغفلة، فإذا رسخ قدمه في ذلك دله اختلاف الحكمة الإلهية على اختلاف تجلياته تعالى، فيصير يشهد تجليات الحق تعالى في جميع المحسوسات والمعقولات، وفي جميع المغيبات والمشهودات.

(۱) أخرجه البخاري (۶۵۰۲) .

(٢) ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (٦٥٧/١).

فإذا قوی فی ذلك بإعطاء كل تجل حقه، ثم یرقی من ذلك إلى شهود الصفات، ثم یرقی من ذلك إلى شهود الذات^(١) بحيث ألا رسم ولا علم ولا شهود إلا حضرة الحق، ومثال هذا النظر والشهود إذا شهدت كوناً من الأكوان، مثلاً أن تشهد فيه وجه الدلالة على وجود الله تعالى، إذا كنت في مرتبة أهل النظر، فبدوام المراقبة في هذا الشهود وتقوى عقدة إيمانك، ثم تشهد فيه وجه الحكمة الإلهية، فبدوام المراقبة في هذا الشهود يثبت في قلبك شجرة التسليم في كل ما یرز إليه من قبل الحق لقوة شهود الحكمة الإلهية، ثم ترقى من ذلك شهود تجليات الحق تعالى في المكونات، وأقرب ما يكون من الطرق إلى ذلك فناء الحقائق في بعضها، مثال ذلك إذا سمعت صوتاً جميلاً أن تشهد مظهرًا من مظاهر صوت داود عليه السلام.

ومن هذا المعنى قوله عليه السلام في أبي موسى الأشعري عليه السلام: «لقد أعطى مزامراً من مزامير آل داود»^(٢).

ثم تشهد صوت داود عليه السلام مظهرًا من مظاهر أصوات نبينا محمد عليه السلام لأنه المظهر الأعظم الذي تفجر منه جميع الحسن بدليل قوله عليه السلام: «ما بعث الله نبيا حسن الوجه لأحسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجهًا وأحسنهم صوتًا»^(٣) ثم تشهد ذلك مظهرًا من مظاهر خطابه تعالى في كلمة الحضرة الإلهية التي هي كلمة كن، ثم شهود تجليات الأفعال ثم الأسماء ثم تجليات الصفات، وإذا رأيت صورة جميلة أيضًا تشهد ذلك الجمال مظهرًا من مظاهر جمال يوسف عليه السلام الذي أعطى شطر الحسن، ثم تشهد جمال يوسف عليه السلام مظهرًا من مظاهر جماله عليه السلام لأنه أعطى كل الحسن.

ثم تشهد جمال بشرته عليه السلام مظهرًا من مظاهر جمال حقيقته عليه السلام لأنه مظهر تجلي الجلال والجمال، ثم تشهد فناء ذلك الجمال في ظهور حقيقة اسمه تعالى الجميل، ثم تشهد ظهور جمال الصفات ثم الذات.

(١) [الشهود اللاتق].

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٠١٩) والبخاري في الأدب المفرد (١٠٨٧) ومسلم (٧٩٣) والنسائي في الكبرى (٨٠٥٨) والدارمي (٣٤٩٨).

(٣) ذكره الزرقاني في شرح المواهب (١٤١/١).

ومن هذه الحشية التي ذكرها فكم من يرى متعشقا بظهور صورة جميلة، وفي حقيقة الأمر فهو فان عن تلك الصور في شهود الجمال الحقيقي؛ لأن الجمال الحقيقي يظهر على تلك الصورة بحسبها، والمشاهد يترقى من تلك الصور إلى ما وراءها على حسب حظوته ومكانته من الشهود، ومن هذا المعنى حكاية مجنون ليلي، فقد حكى عنه أنه كان من شدة غرامه وولعه بليلى يضع الحشائش على بطنه فتذوب من ساعتها، ومع ذلك فكانت تأتيه ليلي وتقول له: أنا محبوبتك أنا مرغوبتك أنا ليلي، فيقول: إليك عني، فإن حبك شغلني عنك، مراده أنه شهد الجمال الحقيقي في مظهر جمال ليلي فاشتغل به عن ليلي فبلغ من الغرام ما بلغ، لأنه كان صاحب شهود.

ومن هذا القبيل صار العارفون يتغزلون في الذات الإلهية باسم ليلي، والحاصل من ذلك كله أن سير المريد يكون أولا إلى الله، وصاحب هذا السير دائم الثقلب في أطوار المجاهدات؛ لأنه يطلب الحق تعالى من وراء المكنونات.

وكم من مريد فتح له في المكنونات من العرش إلى الفرش، ولم يشهد فيها الحق تعالى، كما روي أن مريدا كوشف بالعوالم من العرش إلى الفرش، ولم يشهد فيها الحق تعالى فذكر ذلك لرجل من أهل العرفان، فقال له: أشهدت العوالم من العرش إلى الفرش؟ فقال: نعم، فقال: انظر إلى أذنك، فقال له: لم أشهدها؟ فقال: كيف شهدت العالم الأعلى والأسفل ولم تنظر إلى أذنك؟ هناك اعترف بالعجز الذي هو صفة النفس، فعرف الحق تعالى بصفات الكمال فشهد في العوالم، وإنما لم يشهد الحق تعالى في الأول؛ لأنه وقف مع العوالم، وفي مذهب العارفين من وقف مع مرتبة من مراتب التجليات احتجب بها عن الأخرى، والمقصود إنما هو الحق ﷻ ولذلك قال العارف سيدي رسلان: يا أسير الغفلات والعبادات والمكاشفات والمقامات أنت مشغول بك عنه متى تشغل به عنك.

ثم بعد أن يتجاوز المريد هذه المرتبة يكون سيره مع الله، ثم في الله، ثم عن الله، ثم يشهد في الكل وهو مقام الفناء في الوحدة، ثم مقام الصحو وهو مقام إعطاء المراتب حقها، وهو شهود السعة الإلهية التي هي مرتبة الإحاطة.

ثم اعلم أن هذا الطريق ذو مخاوف ومهالك وقواطع وأنت أعمى، فلا بد لك

فيه من قائد وهو النبي في زمن النبوة، والشيخ في زمن الولاية، ومن أراد السير في هذا الطريق من غير شيخ انقطع وانفصل إلا أن تدركه عناية ربانية والشيخ هو المظهر الأتم الذي يشهد فيه الحق ﷺ؛ لأنه مظهر الحقائق الوجودية والإمكانية فاللائق بالمريد أن يشهد الحق في جميع حركاته وسكناته ووجهات قلبه، ويسعى وينادى إلى مرضاته، ويفنى في هذه المشاهدة فناء صرفاً ويتحقق فيه كماً وكيفاً، ومن هذا القبيل ما روي عن بعض المجاذيب بمصر أنه كان يقول: جبن جبن ليس له ذكر ولا عمل غير ذلك ولا إرادة ولا شهود، والسبب في ذلك أنه كان ساعياً في مرضاة أستاذه منهمكاً في محبوباته، فكشف له عن قلب شيخه فشهد وجهته إلى الجبن قوله بذلك.

ثم قال ﷺ: أريد أن أحكي لكم بعض الخصائص التي منحني الله إياها، ولكن معني من ذلك كونه يحتاج إلى تركية النفس إلى الغاية، وهذه أخشى منها على قلوب الضعفاء منكم، ولكن صاحب البصيرة يكفيه انقسام الخلق فينا إلى معرض متغالي ومقبل إقباله متوالي، بحيث إنك إذا نظرت إلى جانب المعرضين ترى حسنااتنا عندهم سيئات، وإذا نظرت إلى جانب المقبلين ترى سيئاتنا عندهم حسناات، والسر في ذلك أنها وراثه عسوية علوية تجانبية؛ لأنه قيل في سيدنا عيسى ابن مريم ﷺ: قسيم الجنة والنار، وكذلك ورد في سيدنا علي ﷺ وكذلك سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ أقول لكم في.

كما قال في علي بن أبي طالب ﷺ: إنه قسم الجنة والنار من أحبنا يقال له: ادخل الجنة، ومن أبغضنا يقال له: ادخل النار وأنا وارثهم في هذه الخاصية والله الحمد، ثم نادى بعض جلسائه، فقال: يا فلان، فقال: لبيك، فقال: إنك حججت إلى بيت الله الحرام وزرت قبر نبيه ﷺ، فقال: نعم، فقال: هل وجدت ما وجدته هنا؟ فقال: لا، فقال: إذا فاقصد الله في بيته المتسع بحقيقة نبيه ﷺ الذي قال فيه: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»^(١).

(١) تقدم تخرجه.

(٢) مثل المجلس الصالح كصاحب المسك، والمحبة الصادقة ناقله وليس المراد أن الصفة =

وكان الفراغ منه ضحوة الخميس ل (٣٠) خلون منه سنة (١٣٥٠) هجرية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية.

انتهى الجزء الأول من الكتاب

أفضل من الحج والزكاة وإنما المقصود أن من أدى الفرائض يتنفع بعدها بالتواقل لأنه يظهر أثرها في النفوس المستعنة ولا بد من أداء الفرائض أولاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء الثاني

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، حمدًا لمن جعل وارادات قلوب أحبابه جواهر المعارف والأسرار، وأنطقهم بها رحمة لمن حجب بكتائب النفوس وظلمات الأغيار، فمن قبلها منهم ذاق منها أحوال القلب التي خرجت من تلك الحكم، ومن ردها رجع خائبًا عن حضرة مولا العدل الحكم، وأصلي وأسلم على مظهر تجلي الذات الواحدية، طلسمها الذي لا يخوض أحد بحر المعارف طائبًا الوقوف على حقيقته المحمدية، إلا ويرجع من حيث جاء، مخافة الاحتراق بالحجب النورية، بل يسير ترقيًا وتدلًا على حسب القابلية، فهو الحجاب الأعظم الذي لا يتجاوزه مخلوق وإن تنهى، بل لا يشم رائحة من حقيقته الأحمدية لبعد مرماها، فكيف يطمع أحد في معرفة الجليل الجميل، المنزه عن الند والخذ والمثيل، بل غاية معرفته العجز عن معرفته كما قاله الصديق الأكبر عند ترقيه لغايته.

وبعد... فهذه رشحات معارف من بحور شيخنا الزاخرات سيدنا السيد محمد ابن السيد المختار من الله تعالى عليّ بتلقيها، وفهم قبل من تلك الرشحات، وأما فهمها على ما ينبغي فلا يعلمها إلا هو ﷻ، وأمثاله؛ لأنه أمد بوارادات لا تحيط بها الدفاتر، فهو عند إيراد كلامه له فيه عدة أوجه من المعاني يفهم السامع منه معنى، ويكون أيضًا له في هذا الكلام بعينه علوم وأسرار أعلى مما يفهمه السامع، وإنما يمنعه من ذكرها حكم تلك الحضرة التي أظهر فيها الكلام من عدم تأهل السامع، أو ضرره، أو إنكاره، لقصور فهمه، أو غير ذلك فما كل حق يقال، ولكل مقام رجال، فأقول وبالله التوفيق:

أول ما تبدأ به وحدة الوجود التي اعناص فهمها على الأفهام، حتى أفردت بالتأليف العقظام.

قال ﷻ: إن مما يعين على فهم وحدة الوجود وفناء الحقائق بعضها في بعض،

مثال ذلك: أن تشهد فناءك في حقيقة أبيك، ثم تنظر في هذا الشهود فإن نسبتك إليك كانت تلك مثال وحدة الشهود، وإن نسبتك إلى أبيك فهو مثال وحدة الوجود، وهكذا جميع ما بعدها من الحقائق، ثم تشهد فناء أبيك في حقيقة أبيه، وهكذا إلى آدم ﷺ.

ثم تشهد فناء آدم ﷺ في التراب، ثم تشهد فناء التراب في حقيقة الماء، لأنه منشأ التراب، ثم تشهد فناء الماء في حقيقة الدرة البيضاء، التي هي عالم الجبروت، وهي مرتبة الأسماء، ثم تشهد انطماس هذه المرتبة في حقيقة الواحدية التي هي ظهور شعاع الصفات، ثم تشهد انطماس الصفات بظهور شمس الأحدية التي هي أول نزلات الذات في الذات، وهذه المرتبة لا سبيل إلى تخطيها لملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عن من دونهم، ووراءها مراتب الذات ما لا سبيل إلى حصره، وتسمى بأسماء عديدة من جملتها: الذات الساذج، ومرتبة الطمس والعسى، وعين الكافور، ويطون البطون، وأزل الأزل... وغير ذلك، مع إبعاد الشبه والكيفية في كل ذلك.

ثم إنك من حيثة شهودك لا تخلو عن حالين: إما أن تشهد الحق بالحق فلا كلام معك، لأنك فإن، والفاني غير مدرك شيئاً، وإنما الإدراك للحق وهذه هي وحدة الوجود.

وإما أن تشهد الحق بك، وهذه وحدة الشهود، فما أدركت الحق، وإنما أدركت الحجاب الأعظم الذي هو الحقيقة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، لأنه الوسطة العظمى بين الحق والخلق؛ لأن مرتبة الذات هي مرتبة الإطلاق التي كلت عنها العبارات، وضاعت فيها الإشارات، وكل الخلق في حجاب التقيد بإدراكات العقول والكشوفات، وأنى للمقيد أن يدرك المطلق، هيهات... هيهات، إن هذا لبعيد التصور.

ثم إن هذا الحجاب الأعظم الذي هو الحقيقة المحمدية قد عجز عن إدراكه أكابر الرسل والأنبياء فضلاً عن من دونهم، وفيه يقول أويس القرني رضي الله عنه: سيدنا عمر وسيدنا علي رضي الله عنهما: لم تروا من رسول الله ﷺ إلا ظله، قالوا: ولا ابن أبي قحافة؟ قال: ولا ابن أبي قحافة.

قال سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه: فلعله غاص لجة المعارف طلباً للوقوف على عين الحقيقة المحمدية، فقبل له: هذا أمر قد عجز عن الوصول إلى حقيقته أكابر الرسل والأنبياء، فلا سبيل إلى ما وراءها.

فإذا فهمت هذا فلم يبق إلا القفط بوجود الحق، وقصد توجه القلب إليه فقط دون إحاطة بما عليه الحق، ومن هذا المعنى مقالتنا التي شاعت وذاعت، وهي: المعروف المصطفى ﷺ والمقصود الحق ﷻ.

وهذا المعنى شامل لتتزيه أهل النظر في قولهم كما يخطر ببالك، قاله بخلاف ذلك، وكلما يتزه عنه الحق ﷻ فهو ثابت في حقيقة المصطفى ﷺ، لأنه كل العالم^(١) كما أشار إليه ما روي عن جابر ﷺ: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر... إلخ»^(٢).

وأيضاً: إن هذا المعنى هو المدرك لأهل الحقيقة شهوداً إلا أن لهم شهوداً منه وراء ذلك، وهو أنهم يشهدون هذه الحقيقة حقيقة، ويطلقون عليها لفظ الحق والذات مجازاً، ومن ذلك قول سيدي عبد الغني النابلسي: كلما يخطر ببالك فإله من حيث ذاته بخلاف ذلك، ومن حيث أسمائه وصفاته عين ذلك، انتهى.

ومن هذا المعنى قول الجرجاني ﷺ: الحقيقة المحمدية هي الذات مع التعيين الأول^(٣) وذلك من جهة ظهور الحق بتجلياته في مكوناته، والمصطفى ﷺ هو مجموع تلك التجليات.

والأمر الجامع لمراد تلك الطائفتين: أن تعرف أن المصطفى ﷺ هو جمع الوجود، وفرقه وطيه ونشروه، وهذا الشهود بحسب حال المشاهد لا بحسب الحقيقة في ماهيتها، فإما أن يشهدا في مرتبة تجلي الأفعال، أو الأسماء، أو الصفات، أو الذات، وهي غاية الغايات، فيعلم مما ذكر أن المشاهد ما شهد إلا حقيقة نفسه باعتبار، وشهد الحقيقة المحمدية باعتبار، وشهد الذات باعتبار آخر.

مثال ذلك - والله المثل الأعلى - إذا قال لك قائل: المصطفى ﷺ هو الحق ﷻ، فهذا القول يردّه التتزيه المحض، ويقبله الشهود من جهة ظهور الحق في المكونات، ويرده من جهة البطون ومرتبة الإطلاق: تقبل ذلك كله - بضرب من التأويل - وتتزه عن ذلك كله، وتتزه عن التقييد والإطلاق أيضاً فليست إلا السكوت عن الكلام والسكون، وعلى وساطة الحقيقة المحمدية يقاس كل ذي وساطة من

(١) [لكنه جامعا لكل كمالات العالم].

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أي: من حيث ظهور كمال الذات فيها.

المشايع الكاملين فيما بين المشاهدة والحقيقة المحمدية أيضًا انتهى الوارد.
وسئل عليه السلام عن ابتداء دائرة نقطة الوجود وانتهائها فأجاب عليه السلام بما معناه أن ابتداء
دائرة نقطة الوجود هو الحقيقة المحمدية، وانتهائها هو الحقيقة الإنسانية؛ لأنها
مظهر كمال الحق، فقبل له: وكيف تكون مظهر كمال الحق أي: مع أن الله تعالى
غني عن العالمين؟ فقال عليه السلام: إن للعارفين في ذلك أقوالاً:

إنها قول الشيخ محيي الدين بن العربي عليه السلام في «الفتوحات المكية»: نحن حسب
كما هو حسبنا، وقال أيضًا: ظهرنا به كما ظهر بنا وهو الفاعل ولا فعل للعبد، فقال
سيدي عبد الوهاب الشعراني: هذا المحل أصعب ما في «فتوحات» ابن العربي،
وصرح بأن الله تعالى غني عن العالمين، فلا يتأتى ظهوره بغيره، أو كما قال،
انتهى.

وكل عبر على حسب شربه وريه، والتحقيق في ذلك أن ذلك الكمال والظهور
بالغير أمر اعتباري لا حقيقة له.

مثال ذلك: إن آدم أبو البشر عليه السلام فإن وجوده مشتمل على وجود حواء، ووجود
بنيه اشتمالاً أحدياً لا يقبل التعدد؛ لانحصاره في حقيقة واحدة وهي الأدمية، وإنما
ظهر التعدد من حيثية أخرى، ومن تلك الحيثية فهم كمالاته وفي الحقيقة ما ثم إلا
آدم، وإنما صار الإنسان مظهر الكمال من هذه الحيثية دون غيره من الخلق؛ لأن
مشأ الوجود من عالم الأرواح، فمن عالم الأرواح ظهر الجوهر والعرض، فإذا
تركب الجوهر صار جسمًا جمادًا إذا، نما الجماد صار نباتًا، فإذا أدرك النبات صار
حيوانًا مع أن هذا الجسم مشتمل على لطائف وكثائف تجمعها حقيقة الجماد،
والإنسان مشتمل على ذلك كله، وزائد عليه الكمال الذاتي الذي لا يطاق، فإذا
فئت هذه الاعتبارات بأجمعها رجع الأمر إلى أحدية الذات التي هي أول التنزلات،
ومثال ذلك أيضًا: أن رسول الله عليه السلام من حيثية حقيقته هو كل الوجود، ومن حيث
بشريته هو فرد من أفراد بني آدم، فلما أسرى بجسمه الشريف إلى سماء الدنيا ثم

(١) اقتضاء المراتب في ظهورها هو افتقارها لغناء المطلق، ولن يزال الأمر كذلك، وطلب المقتدر
الطلب الذاتي وعطاء الغنى الذاتي، فلا توهم في كلامه عليه السلام شيء لا يليق بالكمال
الأعلى سبحانه.

إلى ما وراء ذلك حتى قطع مسافة العرض والجوهر أخبر بأنه زج في سبعين حجاباً، وهذه الحجب ليست من عالم الجوهر والعرض بل هي عبارة عن الروح التي قال الله فيها: «وَتَشْفُلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» [الإسراء: ٨٥] وذلك إشارة إلى أنه صار هو عين الروح الكلي التي هي أصل جميع المخلوقات، وهي لهذه الروح الحيوانية كالروح للجسم، فلما قطع تلك الحجب بأسرها انتهى إلى مرتبة قاب قوسين، وهو كناية عن مرتبة الوحدة التي لا ظهور فيها لاسم، ولا رسم، ولا زمان، ولا مكان، ولا علم، ولا جهل.

ومن حيث إن تلك المرتبة منزهة عن الجهات واللوازم والاعتبارات نهى عن تفضيله على يونس بن متى؛ لأنه ناجى الحق ﷻ في بطن الحوت، وفي قاع البحر، ثم ترقى ﷻ من مرتبة قاب قوسين إلى مرتبة سره وخلوته بربه التي لا يصل إليها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهي مرتبة أو أدنى، وإليها الإشارة بقوله ﷻ: «ولم أر عند ربي أحداً حتى ظننت أن جميع من في السموات والأرض كلهم قد ماتوا»^(١) أو كما قال.

وتفسير هذا الإسراء أن الإنسان له قدرة وإرادة وعلم وحياة وسمع وبصر وكلام، ولكل منها خاصية لا يمكنه التطور إلى غيرها في مرتبة الحس، وكلها مظاهر للعقل، فإذا ذهب العقل تعطلت خواصها بأجمعها فظهر من ذلك أنه ما ثم إلا تطورات العقل، فإذا تفكر الإنسان في ذاته مثلاً من رجليه إلى رأسه، ثم تفكر في فكره، ثم تفكر في فكره الأول والثاني يجدهما شيئاً واحداً.

وإنما ظهر التعدد باعتبار تطور القوة المفكرة وترقيتها باللطفة الروحانية، فإذا تفكر الإنسان في مادة فكره وتطوراته يجده من حضرات الأسماء والصفات، وتنتهي به حضرات الأسماء والصفات إلى مرتبة الوحدة وهي مرتبة قاب قوسين، فإذا فني في ذلك بصير كله عقلاً محضاً فهناك يخرج عن دائرة الحجب إنه كان قبل ذلك لا يتأتى له الخروج عنها؛ لأنه مع ترقيه يشهد أنه سائر إلى الحق سبحانه، ولو تخلص عن ذلك قبل دخوله في حضرة الوحدة، فلا بد أن تبقى فيه بقية غيرية، وهي من أعظم الحجب عند العارفين، كما قيل:

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢٩٩/٧).

إذا قلت ما أذنبت قالت مجيبة وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

فإذا وصل إلى هذه المرتبة أدركه حياء وعجل مما كان فيه قبل ذلك، ثم يحن إلى بدايته، لأن التزل عندهم أعظم من الترقى، فيبقى للمحق بالحق في الحق عن الحق، انتهى الوارد.

ومن كلامه ﷺ في وحدة الوجود قال ﷺ: إذا حققت النظر إلى الوجود، وجدته عدماً وبيان ذلك أن الوجود ما يكون إلا باجتماع العرض والجوهر، فإذا رجعت الجواهر للفرقة، ثم قدرت منع كل عرض عن جوهره شهدته عدماً، لأن ضم ذلك وتصلبه بالقيومية.

وكذا إذا رأيت جمال ثوب أو غيره بسبب اجتماع الألوان من بياض وسواد ومزج وغير ذلك شهدت أن ذلك الجمال لم يتكون إلا باجتماع الألوان، والاجتماع عدم، لأنه من الأكوان الأربعة وهي: الاجتماع، والافتراق، والحركة، والسكون.

وكذلك إذا اجتمع اثنان فأكثر، كالبذر والأرض والماء خرج النبات، وهو غير ما ذكر في اللون والطعم والرائحة، أو اجتمع غير ما ذكر من الألوان، أو الطعوم أو الروائح أو غيرها، خرج غير المجتمع، والاجتماع الذي به يخرج غيره عدم - كما تقدم - فإذا شهدت هذا المشهد قلت: سبحانه من أظهر الوجود في العدم، وكذا اللطيفة الربانية التي في الشخص إذا قوى الله تعالى صاحبها وانتشرت في الجهات الستة وبلغت حدود العالم ورجعت في لحظة تقيد ذلك.

ياقوت:

إذا تأمل الإنسان نعمة الذوق أو اللمس أو غيرها وجد نفسه مفهوزاً عليها بتجلي اسمه تعالى الباعث في صورة مختار، ثم يجدها لا تكون إلا باللسان مثلاً؛ لأنه العضو الذي جعل لذلك بحكمته تعالى، فإذا وضع العسل على غيره لا يجد له طعمًا، وكذا إذا قطع اللسان ثم جعل في العسل، وكذا إذا جعل عليه بعد خروج الروح، بل قد يكون اللسان في موضعه، والشخص حي ولا يجد له لذة؛ كالمرضى والنائم مثلاً أو نحو المرض؛ كنوم أو غيره، فإن لك من هذا أن اللذة لا تكون إلا باعتبار الهيئة الاجتماعية من المقابلة المخصوصة في الجرمين، والصحة، وحضور العقل، والاجتماع المتكونة منه اللذة عدم، كما تقدم.

فسبحان من أظهر الوجود في عين العدم، فما أعظم حجاب من يرى أنها منه! مع أن بدايتها ونهايتها من تجلي أسمائه تعالى، كالباعث والمنعم مع بقية الأسماء، سواء في ذلك أسماء العزة والرحمة أو الانتقام، لأن بينهما تداخلاً باعتبار التعلق، فظهور هذا في مظهره متوقف على تعلق هذا بمظهره هذا بحسب تعلقنا. فالرازق يطلب رزقاً ومرزوقاً لكن بعد تعلق الخلاق والقادر والمريد والعليم، وإلا فهي باعتبار الوحدة لا ترتيب فيها، فلو تقمص اسم منها لا تنفي كمال الألوهية وهو باطل، بل اعتدل ظهور جميعها في الحقيقة المحمدية، ومن هنا كان ﷺ دائم البشر متواصل الأحزان، فلو لا اعتدالها فيه لما أمكن ذلك؛ لأن دوام البشر ينافي تواصل الأحزان وعكسه، فإذا شهدت هذا المشهد فشقه في بقية لذة الحواس والعقل وآلامها.

دُر:

اعلم يا أخي أن التجلي تارة يكون زمانياً وتارة يكون مكانياً على حسب تنوع أطوارها، فاشهد أن ذلك مظاهر أسمائه حتى لا تنكره في تجلي من التجليات، وإن كان بينهما غاية المضادة؛ كالشقاوة والسعادة والحرارة والبرودة.

فالأولى: مظهر اسمه العدل والمنتقم والجبار ونحوها.

والثانية: مظهر اسمه الرحمن الرحيم والمنعم والكريم ونحوها، ولا يترك المكلف لحظة بل هو أسير بين مظاهر الأسماء، فتارة يظهر فيه هذا إذا انقضى سلطانه تولاه اسم آخر؛ ليظهر فيه حكمه، وهكذا على الدوام.

فإذا شهدت مظاهر الأسماء وسرت بها، غرقت في بحر التسليم، وصرت لا تفرق بين جنة أو نار، أو عطاء أو منع أو غير ذلك من اختلاف التجليات؛ لأنك دائر مع مشاهدة الأسماء، فهذه التجليات كلها تعرف منه إليك؛ سواء وافقت الطبع أو خالفته، كما قال صاحب الحكم: إذا أعطاك أشهدك بره، وإذا منعتك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك، ومقبل بوجود لطفه عليك.

جوهر:

فالهبة التي تصدم الشخص عند الاجتماع بالناس الكثيرة ويفقدها مع الواحد؛ لأنهم مجموع مظاهر أسمائه تعالى فيهم مظهر الجبار والمنتقم والقهار وغير ذلك،

وأما الواحد فلا يوجد فيه ما يوجد في الجماعة إلا أن يكون مظهر اسمه الملك، فهذا سر الهبة في الجماعة دون المنفرد، فحضرات الأسماء كأمواج البحر في التلاطم، فتارة تظهر حضرة العليم، ثم تدخل عليها حضرة الفهار، ثم تدخل عليها حضرة الملك، ثم تدخل عليها حضرة الخافض والرافع أو المستقم أو غير ذلك.

فينبغي لك الأدب مع مظهر تلك الحضرة حتى تدخل غيرها، فالحكم لها، فقرارك من حضرة الانتقام إلى حضرة الرحمة أو اللطف ليس لأجل المظهر، بل للاسم الظاهر فيه وهو المستقم، كما أن المفرور إليه في المثال وهو حضرة الرحيم اللطيف ليس لذاته بل للاسم الظاهر فيه، وهو أكمل أدبًا من عدم الفرار كما قال العارفون.

بلخش:

إذا شهد الإنسان كثرة الأطوار من جماد ونبات وحيوان، ثم شهد اختلاف أنواع الطور الواحد اختلافًا متباينًا بالأصوات والألوان وغير ذلك، مع أن الأصل واحد وهو على نمط واحد أفضى به العجب إلى غايته؛ لأن هذا إذا صدر بمعاونة جماعة من الفاعلين في طور واحد دل إتقانه وترتيبه العجيب على كمال صفاتهم، فكيف إذا كثرت الأطوار واتحد الفاعل، فإذا رأيت في اللحظة الواحدة من الاختلاف المذكور ما لا يحصى وهو على ترتيبه امتلا قلبك من عظمة الفاعل وجلاله، ثم قلت: سبحان من لا يشغله شأن عن شأن.

مرجان:

إذا وجد الإنسان محبة شيخه ملأت قلبه ثم منه رقي إلى الصديق الأكبر ﷺ، وما أتخفه الله به من المزايا رأى قلبه لا يسعه محبته، بل يقف متحيرًا عاجزًا، ثم إذا رقي منه إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم إلى الرسل منهم، ثم إلى أولي العزم منهم، ثم إلى سيد الوجود ﷺ رأى عجزًا لا يكفيه، ثم منه إلى الجليل ﷺ يجد عجزًا لا يوصف، والمعرفة بجلال من ذكر بهذه المثابة في الدرجات المتقدمة.

لؤلؤ:

إذا تأملت في الحصير المصنوع من السعف وجدته لم يزد على السعف بغير الاجتماع، مع أنك تراه بالوهم موجودًا غيره، ثم إذا نظرت إلى السعف وجدته

تكون من البلر، وهو من الأرض، وهي من الماء، وهو من الدرة، وهي من الحقيقة المحمدية، وكل مخلوق رجع لأصله بهذه الحبة، فإذا شهدته هكذا في التعدد، ورأيت واحدًا ظهر في واحد، فيكون سيرك في الترقى بفناء الأخير في الذي قبله، وما قبله في الذي قبله... وهكذا، وفي التدلي بالنظر إلى المخلوق الأول، ثم من الذي يليه... وهكذا إلى آخر موجود بليك.

ماس:

اعلم يا أخي إذا وصل الله إليك نعمة، سواء كانت جلب نفع، أو دفع ضرر، ثم نظرت إلى الأسباب التي تكونت فيها تلك النعمة، ثم نظرت إلى أسباب تلك الأسباب من جميع الجهات إلى السبب الأول رأيت الوجود كأنه ما سبق إلا لوجود هذه النعمة، فإذا شهدت ذلك امتلأ قلبك فرحًا بالمنعم، فالمراد بشهود الله في المكونات: شهود أفعاله وتصرفاته فيها، فالشاهد، والمشاهد، والشاهد، به فعل الله تعالى فكانه شهد فعله بفعله.

إذا حل الشخص في علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين، أو الفناء في الله تعالى، أو البقاء به، وسمع عبارة ثم استغربها لا يزنها بميزان المقام الذي هو فيه؛ لأن من لم يرق إلى المقام الذي فوقه كيف يفهم ما فيه.

إذا تصفحت وجوه بني آدم مثلاً ولو جميع نوعهم، لا تجد وجه اثنين يتشابهان أبداً مع أن النوع واحد، والأصل واحد، والمحل واحد إلا أن يكونا توأمين، فيحصل بينهما شبهة لوجودهما في زمن واحد، ومع ذلك من تأملهما وجد بينهما فرقاً في الخلقة، وكذا اختلافهم في الأصوات بالرقّة والغلفظ وغيرها، وكذا اختلافهم في الخواطر والمقاصد والألوان وغير ذلك، مع أن النوع واحد والفاعل واحد، مع الاختلاف المذكور في جميع الأطوار امتلأ قلبك من عظمته وجلاله، ثم أفضى بك العجب إلى أن قلت: سبحان من لا يشغله شأن عن شأن، ولا يعثره زهول ولا نسيان.

فالجمع بين المنافسة المطلوبة شرعاً بقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] وبين قولهم: كن مع ربك كالमित بين يدي الغاسل، إنك تنافس من حبة الكسب الذي كاف الله به كل شخص في مقصوده الممدوح

شرعاً، سواء كانت محبة كسيدي عمر بن الفارض وغيره من المحبين، أو معرفته كسيدي محيي الدين بن العربي وغيره، أو تشاكهوه ﷺ فإنه قال: راعيت جميع ما صدر عن النبي ﷺ غير أنه كان يبيت في بيت بنته اختيأراً، وليس لي بنت، ولا ترض بالرتبة الدنية، بل كن رجلاً رجله في الثرى، وهامة همته في الثريا.

وأما من حيثية القضاء والقدر فتكون كالبيت بين يدي الغاسل سواء أوقعك في نعيم أو في جحيم، فالكسب عبارة عن حق الحياة والسمع والعلم والبصر والكلام والقدرة والإرادة، فكما لا يمكن الشخص عدم الرؤية للمرء مع فتح البصر وعدم المانع لا يمكنه عدم الفعل في بقية الصفات، إذا عدم المانع، ولو أراد ذلك، ثم خلق الله تعالى للعبد عقلاً أناط به التلكيف؛ لأنه إذا عدم سقط عنه الخطاب مع وجود الصفات المتقدمة.

فالكسب عبارة عن خلق الله تعالى للعبد العقل مع ما تقدم من الصفات، فإذا خلق لك ما ذكر فقد هبأك للفعل، وبذلك كلفك فالحجة له عليك لا لك عليه، إذا أردت أن ترقى من الوقوف مع الأسباب إلى المسبب، فتأمل ما أقول لك!

اعلم يا أخي أن أكثر الخلق ما حجبهم إلا الوقوف مع الأسباب لأنهم رأوا مهما وضع البذر في الأرض، ونزل عليه الماء نبت وأورق وأزهر، وصار زهرة على شكل واحد في أكمامه، ولونه كزهر العشر مثلاً، فإن له خمسة أكمام مع أن صفتها لا تزيد ولا تنقص، ولو تتبع جميعه، فلما رأوا هذا الترتيب العجيب لا يختل نظامه، لم يشهدوا فيه الحكيم العليم، بل غفلوا عن المسبب، ووقفوا مع الأسباب فلما علم أزلأ منهم الوقوف، مع ذلك تعرف إليهم في هذه المادة بما يتأثير الأسباب، فأوجد له بذراً في الأرض لا يخضر مع نزول الماء عليه ثلاثة أشهر، بل يرونه ظاهراً عليه أثر اليبس وهو شجر الحراز، إذا كانت الأسباب لها دخل، فلم لم تؤثر فيه فكل سبب حجبك إذا تأملت فيه وجدت في نوعه ما يخالفه تعرقاً من الله إليك؛ لئلا تقف معه، فهذا هو النظر بعين الحقيقة.

وأما الشريعة فهي أمرة بالأسباب، فمن كان ناقص المعرفة رأى بينهما منافاة، ولا يقدر أن يوفق بينهما إلا بالطريقة، لأن من أراد أن يبذر في أرض الزراعة امثالاً لأمر الشريعة بالأسباب، ناداه لسان حال الحقيقة: لم خصصت هذه الأرض بما

ذكر؟ فأنا مستو عندي البذر فيها أو في الصفا لأن الإنبات بالقادر، فلو كان لها تأثير في ذلك فلتخرجه لك فتأتي الطريقة فتقول للحقيقة: حقاً ما قلتيه، ولكن القادر هو الذي أمر بالأسباب في الشرع، وعين لها مواضع يبرز منها النتائج، فالأدب: الوقوف مع حكمة الحكيم، لأنه ما جرت عادته إلا بالإنبات فيما ذكرنا لأنها باب من الأبواب يخرج منها رزقه لخلقه لا بالإنبات في الصفا وإن كان قادراً عليه، فوضع البذر في الأرض دون الصفا أدباً معه فقط، وإن كنا نعلم أنه على كل شيء قدير، فإذا خرج النبات من الأرض فقد تعرف الله تعالى به لخلقه.

إذا نظرت لتقسيمه تعالى الأرزاق لخلقه حية أو معنوية أفضى بك العجب إلى غايته، لأنك تجمع الحبوب بعد التعب في أسباب تحصيلها، وتظن بوهمك أنها رزقك ومن تعوله، ثم ترى ما يتساقط من الحبوب فتأخذ القارة منها نصيبها، والنملة، وغيرها من الحيوانات.

ثم بعدما يصنع طعاماً ربما أكله أناس لم يصنع لهم، والعجب من أخذ كل منهم رزقه وتمييزه بعد وضعه بينهم، وكذا جميع حركاتهم وسكناتهم في جميع اللحظات تظهر على ما سبق به العلم القديم، فإذا علم الله إيجاد ممكن وإعدامه كان هو مراد الله تعالى، قال ﷺ: «أبى الله أن يرزق العبد إلا من حيث لا يحسب»^(١) كما هو مشاهد.

فإن الإنسان قد يصنع له طعام فقبل أن يأكله يحضره غيره يأكله، أو يتحرك هو لجهة أخرى، فيأكل غذاء غيره، والأرزاق حية ومعنوية، ولكل منهما ذوق، وقد يتحد الذوقان فيترقى في الحسية إلى أن ينتهي إلى المعنوية، ويسير في المعنوية بالتروفي والتدلي حتى تصير المعنوية حية، فيذوق في المعنوية لذة الحواس الخمس.

فإن الإنسان قد يأكل الطعام ثم ينظر في ذلك الطعام من أين هو؟ فيجده من حضرة اسمه الرزاق، والمعطي، والباسط، والمدير وهكذا حتى يستكمل فيه حضرات الأسماء كلها، فيجدها حيلة واحدة، فيشهد جمعها بعدما شهد الفرق، ثم يرجع إلى نفسه فيجد نفسه عدماً لكونه مجرد اجتماع حضرات وقد عرفت

(١) ذكره الحسيني في البيان والتعريف (١٣/١)، والمجلوني في كشف الخفاء (٣٥/١).

اتحادها، فلا يشهد إلا واحدًا يتجلى في المشاهد، هذا يرجوع الحسية إلى المعنوية، وأما رجوع المعنوية إلى الحسية فإن كثيرًا من العارفين قد يعبر العبارات فيذوق فيها جميع اللذات كما هو مقرر كثيرًا في كتبهم فلا تعطيل بذكره، فهذا ترجيع المعنوية إلى الحسية.

والذوق على أقسام: ذوق في العبارة، وذوق في الأحوال.

فالذوق في العبارة: أن تسمعها، ثم تفهمها، ثم تستحسنها.

والذوق في الأحوال: أن تعلم بها بأي سبب من أسباب العلم بصورها كان أو سمعًا أو غيرهما، ثم بعد العلم تميل إلى ذلك بقلبك بحسب وروده، كثرة أو قلة، فإذا زال فهو حال، لأنه سريع التحول، وإذا دام فهو مقام، انتهى.

انطواء العوالم في الإنسان

واعلم أن العوالم كلها انطوت في الإنسان وله عقل، والعقل نور يقذفه الله في القلب لسر: «كنت كنزًا مخفيًا فأحييت أن أعرف فخلقت المخلوق في عرقوني»^(١) والعقل له امتداد يكون بالفكر، وهذا الامتداد هو جريان العقل، وذلك الجريان بسفينة، وهي الروح، ولها مجاديف، وهي الحواس، وبحرها العوالم، والعوالم مجرى الظهور، والإنسان له سر، والسر مجراه في الظهور، لكنه يطلب الاستشراق إلى البطون، ولا ثم إلا الظاهر الباطن لأن من ظهر بنفسه لنفسه على نفسه ظهوره لغيره بطون «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان»^(٢).

من ظهر بنعوت صفاته المظهرة لأياته فظهوره جلي، لأن الآيات مظهر التجلي، والتجلي هو الظهور، والآيات قرآنية، ونفسية، وآفاقية.

قال تعالى: «سُئِلَ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنْتَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ» [فصلت: ٥٣-٥٤].

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدمت الإشارة إليه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

﴿بَلِّغْ آيَاتِ اللَّهِ نَفْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ قَبَائِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ ﴿[الجبائية: ٦] فمن شدة الظهور في الآيات، والبطون في ماهية الذات، قال تعالى: ﴿قَبَائِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ، يُؤْمِنُونَ﴾ [الجبائية: ٦] والظهور والبطون مرتبتان، والعقل لا يصل إلا لأقربهما وهو الظهور، والظهور هو الاتصاف والانكشاف، وحيث إن الظاهر غير مدرك لنا انقلب الظهور بطونا، وهو الظاهر الباطن، وأما العقل فلا تمكن له في الظهور، وذلك لعدم مجاله في البطون، والسر لسعته في مجال الظهور أكثر من العقل نصير تلك السعة بالنسبة إلى العقل بطونا، فمن هنا يبرق بارق البطون والظهور للإنسان من غير إدراك حقيقة الباطن، ولذا قال بعض العارفين: ما عرفناك حق معرفتك أي: بحسبك، ولكن عرفناك حق معرفتك أي: بحسبنا، انتهى.

وقال في «التحفة المرسلة» وهو كتاب قد ذكر فيه صاحبه مراتب الوجود في الظهور والبطون: إن أحدية كنه الحق % وحقيقته غير معلومة لمن سواه.

فأما معرفة الوجود في هذه المرتبة فأصيب المعارف مجالاً، وأعسرهما مقالاً، وأعضلها على الفكر، وأبعدها من قبول الذكر، كما أشار إليه إمامنا حجة الإسلام أسوة الأنام الغزالي رحمه الله تعالى:

العجز عن درك الإدراك إدراك، ودعوى الإدراك بالحواس الخمسة إشراك، فقطع الطمع في أصل المعرفة تعطيل، ودعوى كمال المعرفة من الخيال تشبيه وتمثيل، فاقطع بوجود بلا تشبيه، واطمئن إلى تعظيم وتقديس وتنزيه، انتهى.

وفي الإشارة إلى البطون والظهور أبيات ذكرها صاحب مقامات السائرين وهي:

ما واحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد
توحيد إياه توحيد ونعت من ينعت لاهد

الوحدة الحقيقة هي عين ما يقول به علماء التوحيد الظاهر.

فقد علمت من ذلك أن هؤلاء مشيرون إلى مقام البطون، وبهذه الاعتبارات يرى كل من ليس عنده فتح كبير أن توحيد أهل وحدة الوجود مغاير لتوحيد أهل البراهين، والحال أن ليس هناك مغايرة، إلا أن أهل وحدة الوجود شمرُوا في صقل قلوبهم حتى ظهر لهم فيها سر وراء دائرة العقل، وأهل البراهين براهينهم مبنية على مبادئ التصورات والتصديقات التي هي مبنى الحجة، والحجة هي محط النفي والإثبات، وهذا كله من مجال الفكر، وقد تقدم أن الفكر هو امتداد العقل، والعقل لا يجاوز مجاله مرتبة الظهور.

وأما السر فله مرتبة في الظهور لا يبلغها العقل، فعند وصوله يظهر له من البطون ما لم يظهر للعقل، فيتكلم على رتبة للبطون فينكر صاحب العقل هذه الرتبة؛ لأنه ما بلغها، والحال أنه عالم أن الظهور الذي عنده وراء بطون لم يصله، ومع ذا ينكر تعبير من وصل إليه عنه مع إثباته له؛ لأنه يعلم أن الحق هو الظاهر الباطن.

وأما أهل الدوائر الكبرى لا يرون خلافاً؛ لأن المقصود عندهم واحد، والمقاصد كلها تطلبه فيرون أهل العقل وصلوا رتبة من الظهور، وأهل السر ظهرت لهم رتبة فوق ذلك لم تظهر لأهل العقل، والكل على هدى من ربهم.

وفي هذا المعنى قال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن العربي رحمه الله:

(١) أي: من يصف الحق بغير ما وصف به نفسه.

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه^(١)

فالعوالم أولها عالم الحسن، ثم عالم المثال، ثم عالم الخيال، ثم عالم الملكوت، ثم عالم الجبروت، ثم عالم اللاهوت، ثم نفس اللاهوت، فكل عالم أوسع من الذي قبله، لأن عالم الحسن لا يرى فيه إلا الجهة المقابلة للحساسة البصرية لا غيرها.

وأما عالم المثال فأوسع من ذلك، لأن الشيء يرى فيه من جميع الجهات، وأما عالم الخيال فأوسع من عالم المثال، لأنه قد يرى فيه الكبير صغيراً وعكسه، والصغير يتلع الكبير أو يحمله، والإنسان يرى حجراً وعكسه، إلى غير ذلك من الاختلاف، وكل عالم إذا غلب على الشخص سهل له دخول ما بعده، فإذا غلب عليه عالم الحسن سهل له دخول عالم المثال، ولذا ترى صور عالم الحسن كثيراً ما ترد على القلب، فإذا تمكن من عالم المثال دخل عالم الخيال، وهكذا بقية العوالم.

واعلم أن العوالم قد ترتبت في الوجود كترتيب السبب على المسبب والموجد، لذلك كله هو الله ﷻ فأول العوالم المدركة عندنا: عالم الحسن، وعالم الخيال، وعالم الملكوت، وعالم الجبروت، وعالم اللاهوت، ونفس اللاهوت.

فعالم الحسن: ما يدرك بالحواس، ويقال له عالم الملك والشهادة. وعالم الملكوت: هو عالم الغيب، يعني: ما غاب عنا، ويقال له عالم اللطائف، وهو ما يدرك بالعقل: كالجنان، واليران، والسموات وما فوقها، والروحانيين، وغير ذلك.

(١) حللت عقائد الخلق فوجدتها ترجع جميعها إلى واجب كلف الخلق وأرسل سفراء إليهم يرشدونهم إليه ويحذرونهم وينذرونهم الضلال والعذاب في الدار الآخرة، فباعترفت العقيدة إذا حذفنا ما هو باطل من اعتقادي الخلق يرجع إلى الحقيقة التي هي عقيدتي، فمن اعتقد به شريكاً فهو معتقد في أصل الألوهية، وإذا كان الحق سبحانه الواحد له القدرة المطلقة على خلق الخلق وكفائهم فلا لزوم للشريك، وحيث إنه قادر على العفو ولا مستكره له فليعف عن ذنب الإنسان ولا لزوم لقتل من لم يعص فإن المقصود العفو وهو ممكن له، وعلى هذا فليس. فالاعتقاد الصحيح مخرج عن الاعتقادات الباطلة كلها ويحقق القدر الحق فيها بأكملها.

وعالم المثال: هو ما يرد على القلب من صور عالم الغيب، وعالم الشهادة إذا غاب عالم الشهادة عن الحس.

وعالم الخيال: هو مقدمة لعالم المثال، وغايته عالم الرؤيا، فعالم المثال والخيال هما الواسطة بين عالم الغيب والشهادة، فكل واحد منهما يحكي مثال عالم الغيب ومثله الشهادة.

وعالم الجبروت: هو جهته ﷻ التي يفيض منها على الخلق، ويقال له الحقيقة المحمدية.

وعالم اللاهوت: هو جهته التي ينافي بها الفيض من الحق تعالى، ويقال لها الحقيقة الأحمدية، ونفس اللاهوت هو الذات الأحمدية.

فكما أن عالم المثال والخيال رابطة بين عالم الغيب والشهادة كذلك عالم الجبروت رابطة بين عالم الملكوت وعالم اللاهوت، وكذلك عالم اللاهوت واسطة بين عالم الجبروت ونفس اللاهوت، فكل واحد هو سبب إفاضة إيجاد ما بعده، فعالم اللاهوت وجد بسبب وجود اللاهوت، وعالم الجبروت وجد بسبب عالم اللاهوت، وعالم الملكوت وجد بسبب عالم الجبروت، وعالم الملك وجد بسبب عالم الملكوت، لأن إيجاد ما في عالم الحس بسبب الأمهات، التي هي العناصر، وسبب الآباء التي هي الأفلاك، وما يوصل بين الآباء والأمهات وهي الكواكب التي هي سبب بزايز هذا الإيجاد، وأرحام تلك الأمهات التي يكون فيها التكوين هو جملة الطبائع.

وسمعه يقول: نحن غرقى في بحور النور والقلمة والهواء، يعني: نحن غائبون فيه كغنية الحيوانات البحرية في الماء، وذلك سبب امتداد إيجادنا، لأنه لو منع منا روح الهواء ساعة لمثنا، وهذه الأشياء منحصرة في المكان، وهو منحصر في الزمان، وهو غيب من غيوب سر الله الظاهر عند حركة الأفلاك، لأن بها تقسيم الزمان.

فكذا كل عالم غيب بما بعده، لأن لا مناسبة بينه وبينه في السعة، فعالم المثال أوسع من عالم الحس لأن عالم الحس يرى فيه الشيء من جهة واحدة، وأما عالم المثال فبإزاء من جميع الجهات، وعالم الخيال أوسع من عالم المثال، لأنه يرى فيه الكبير صغيراً وعكسه، والصغير يتلع الكبير والإنسان حجراً وعكسه، ولولا سعته لما روي ذلك، بخلاف عالم المثال فإنه لا يرى فيه إلا مثال الشيء، انتهى.

الاقتداء بالباطن بالمصطفى ﷺ

اعلم وفقنا الله وإياك أن الإنسان له قلب، ويطلق عليه العقل، وهو الذي به الإدراكات، وتلك الإدراكات هي تطوره في المعقولات، وتلك التطورات من جهة الفكر عند الذكر هي المنازلات، وامتدادها هي المقامات، والكل هو السير إلى الله تعالى، فمثال ذلك ينبغي للمريد إذا جلس الذكر أن يتدبّر بالاستغفار، ثم يستحضر صورة شيخه، ويكون ابتداء ذلك باستحضار الصورة البشرية ثم منها يترقى فيه لكمالاته الروحانية، وذلك لا يكون إلا باللطفية التي في القلب المعبر عنها في بعض الإشارات بالسِر.

وأقرب تعريف لها هو: أن الإنسان إذا تصور الشيء العظيم يعلم أن المتصور أعظم من الذي جال فيه فكره، فعلمه بذلك التعظيم لا يكون إلا باللطفية، وهذه الحيثية هي التي تمد العقل في معاني المتصور إلى غاية ما يمكنه الوصول إليه، وذلك أن اللطفية كلما أشارت إلى الصورة التي هي أعظم من المتصور في الذهن يدركها العقل حالاً، واللطفية تدرك ما وراءها... وهلم جرّاً^(١).

ثم إن الذي يعينه على الشيخ في بحار حقيقة شيخه أن يعلم أن جميع نعوت كمالات الحق ظهرت في سيد الوجود ﷺ، ومنه انتشرت على الخلق، ولأجل ذلك قال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»^(٢) فيستشعر من هذا أن الكون كله مستمد من سيد الوجود ﷺ، وأن شيخه خليفة له بطريق الوراثة، فهناك يعلم أن شيخه أقيم مقاماً عظيمًا في الوجود، فسبح بالعقل، واللطفية في مقام شيخه في الوجود على حسب القاعدة المتقدم ذكرها، فإذا فتح الله عليه نصيباً من ظهور ذلك المقام فيجعل نفسه عند ذلك الاستغفار أنه عبد ذليل حقير ضعيف كسير اجترأ على مخالفة مولا الجليل العظيم الملك القدوس، القادر على غاية تعذيبه ولو بأهداب أشفار عينيه أن

(١) [والاستحضر كيف يذكر شيخه بأدب وخشوع فيقتدي به]

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٦٣)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجا بن حيوة وليس هو عندي بم متصل. ثم أورد له إسناداً، وقال: هذا أصح. وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٩٦).

يجعلها رماخاً تمزقه، ويجعل إحدى يديه أسفل الطاحونة والأخرى أعلاها، ويطحنه بهما حتى يجعله عدفاً، فضلاً عن أن يعذبه بشيء خارج عن بدنه.

فإذا استشعر عظم الجناية فهناك يجعل صورة شيخه التي حصلت في قلبه كأنه جان، وجد شقيقاً عظيماً عند المشفع عنده، فتحصل له إذ ذاك كيفية غير كيفية الخوف المحض، وغير كيفية الأمن المحض، وهو أنه إذا نظر لجنائته يأخذه بسببها حياة وهية من الملك القادر، وإذا نظر إلى شفاعته حصل له نوع من الأطمئنان، وجمع هاتين الكيفيتين هو أقرب شيء، للجمع بين الرجاء والخوف؛ لأن الخوف له باعث و الرجاء له باعث، فكان مبعث الرجاء من جهة شيخه، ومبعث الخوف من جهة جنائته، ويتمادي على هذا الحضور مدة استغفاره حتى يتم عنده المعلوم عندهم.

ثم إنه يجعل الكيفية المتقدم ذكرها لا تليق فيقول عند ذلك «سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ» [الصفات: ١٨٠] ويجعل نفسه أن الذي دعاه سابقاً لارتكاب الجناية غفلته من جهة الحق، والأن استشعر وتدم على ما فات، وسيد الوجود ﷺ قال: «التدم توبة»، قال أيضاً ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

فعند ذلك يستشعر مقام التخلية، لأن التخلية هي الخلاص من ريقه الذنوب، وإن الله تعالى جعل الاستغفار أعظم شيء في محوها، بل ورد أنه لا يهدي للاستغفار أحداً إلا الذي أراد أن يغفر له، فهنا يعلم أن الله تعالى حين تفضل عليه وألهمه الاستغفار أخلاه عن الذنب ثم يطلب مقام التخلية، وذلك يكون بذكر الكلمة؛ لأنها أفضل الأذكار التي تفيض منها الأنوار لقوله ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله» وحيث إن أنوارها عظيمة والقلب إذ ذاك ضعيف، وإذا تكاثفت عليه تلك الأنوار مع ضعفه يحصل له ذوبان واضطراب، فاحتاج أن

(١) أخرجه أحمد (٤٠١٢)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣٧٣/٣)، وابن ماجه (٤٢٥٦) قال البوصيري (٢٤٨/٤): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وابن حبان (٦١٢)، والمحاكم (٧٦١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٠٢٩).

(٢) تقدم تخرجه.

(٣) أخرجه مالك (٥٠٠)، والترمذي (٣٥٨٥)، والبيهقي (٩٢٥٦).

يجعل بين الاستغفار والكلمة عددًا من الصلاة على رسول الله ﷺ كعددتهما لأن مساواة الأعداد وتفاوتها بحسب درجة الأذكار فيه سر لا يطلع عليه إلا أهل الأسرار، والصلاة على رسول الله ﷺ تهين القلب لقبول تلك الأنوار على حسب الطاقة.

وقد ضربوا لذلك مثلاً: وهو أن الأنوار كالأمطار الغزيرة التي تنزل على الأرض دفعة واحدة فتغرقها، ثم تذيبها وتذهب بها إلى ناحية أخرى فيضيع المقصود من تلك الأرض، وهو بحسب الطاقة مطلوب بحسب ما يسقيها ويبقيها في موضعها لكي تثبت ما هو مطلوب منها، وذلك لا يكون إلا بتدبير سائق المزن.

ولما كان ﷺ هو قاسم الأرزاق بإذن ربه - والله المعطي - كانت الصلاة عليه بمنزلة الملك الذي يفيض من المزن بقدر ما تطيقه الأرض شيئاً فشيئاً، وهذا التدرج لا ينقص ما قسم لها من الإقامة، وإنما هو رفق بها، لأن نزولها دفعة واحدة يغرقها، ويحصل من المحذور ما تقدم، فحيثما يبتدئ في الصلاة على رسول الله ﷺ ويتصور حضور ذاته الشريفة ﷺ أولاً على الصفة المذكورة في الكتب، كالشمائل والشفاء.

ثم يترقى منها في كماله ﷺ التي استغرقت كمالات الوجود، بل هي الوجود، ويكون سيره فيها باللطف على الصفة المتقدمة، لكن عند تلك الكمالات يزعج في بحر لا يرى له ساحلاً، فعند ذلك يحتاج إلى شيخه فيرجع إليه، ويستحضر صورته البشرية بينه وبين صورة المصطفى ﷺ، ويترقب من شيخه أنه يطلب الإفاضة من ذاته ﷺ على ذات الذاكر، ثم إنه يطلب الترفي على هذه الهيئة بذات شيخه الروحانية من ذات المصطفى ﷺ التي ردت الحيرة سابقاً عنها بالتدلي، لكن عند دخوله في هذا المقام يفنى عند وجود شيخه في حقيقة وجوده ﷺ الذي هو حقيقة أصل الموجودات.

ويشعر الإفاضة من الذاتين بحسب ما تقدم، لكن الإفاضة الأولى مثالها كتلقيح الأشباح بالأرواح، والإفاضة الثانية كإثارة الأرواح والأشباح بالظهور، ويشعر عند ذلك قوله تعالى فيما روي: «لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك» وهي جزء من قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ» [البقرة: ٢٩] كما أنه يشعر عند الأولى «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ» كما أنه يشعر عند

القلما: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] كما أنه يستشعر عند الإيمان ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾.

ثم يتبادى في هذا الحضور إلى انتهاء الصلاة ﷺ، فعند هذا يظهر له من عظمة شيء لم يخطر بباله ولا يسمعه عقله إلا بطريق هذا الترقى، ويظهر هذه العظمة بتحقيق عجزه عن إدراك جلال عظمة الألوهية فعند ذلك يقول: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ • وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ • وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ١٨٠-١٨٢] ثم يشرع في ذكر الكلمة المشرفة، ويستعد لتلقي تلك الأنوار العظيمة، انتهى.

ومن كلامه ﷺ في الوصايا قال: ﷺ شرف الإنسان وسعادته ونجاته في العبودية، وذلك وشدة وقته في طلب الخروج منها، فأما العبودية: فهي الرضا بأحكام الله تعالى والتسليم لفضائه وقدره، وإن لم يكن فالإلجاء إلى الله حالاً ومقالاً وقلناً وقالياً، بأن يتضرع العبد إلى الله تعالى ويقول: اللهم إنك سلطت علينا عدواً شديداً شيطاناً مريداً يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم، وقد أضلنا عن سبيلك، وصدنا عن الرضا بفضائك وقدرتك، فنسألك اللهم أن تنجيننا من كيده، وتجعلنا من خاصة عبادك الراضين المستسلمين لفضائك وقدرتك، إنك على كل شيء قدير.

واعلم أن الرضا والامتثال للقضاء والقدر لا يتيسر إلا بمعرفة أمور: الأول منها: معرفة أن كل واقع في الوجود من خير وشر من الله تعالى، فليس لسواه تحريك ولا تسكين، فجميع حركات العالم وسكناته وخطواته وإراداته هالكة في هذا الميدان، لم يشذ منها شيء، وعلى هذا قام الدليل العقلي والنقلي كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما هذه الأسباب العادية والشرعية فإنها امتحان واختيار من الله تعالى لعباده، فمن وقف مع الأسباب، وكلما وصل إليه خير يرى أنه أدركه بحوله وقوته، أو ينسبه إلى أمثاله من أبناء جنسه، وكلما وصل إليه شر كذلك ينسبه إلى نفسه أو إلى غيره من المخلوقين، فقد ضل سعيه وخسر عمله، ولا يزال في عناء وتعب من منازعة المقادير حتى يتصل به الهلاك في الأولى والعقبى.

والثاني: معرفة ما ابتلى الله به أنبياءه ورسله والصالحين من عباده الذين هم خاصته من خلقه، فمن ذلك ما أودى به رسول الله ﷺ من الإهذاءات التي لا تطيقها الجبال الرواسي، كإخراجه من مكة التي هي محل ولادته، ومقر أسلافه كابراً عن كابر، وأحب بلاد الله إلى الله وأحبها إليه ﷺ، وما تحمله من المشاق التي ألجأته إلى الاحتماء بدخوله في غار ثور، وتسلب سفهاء الناس عليه من أجلاف العرب والنساء والعبيد والأطفال وتحوهم، ورميهم له بالحجارة حتى خضبت رجلاه بالدماء، مع انفراده عن الصديق والشقيق والنصير والحميم، فكلما التجأ إلى أحد يجد قلبه أقسى عليه من الحجر، وأشد عليه ممن قبله وأنشد في المعنى:

وأودى النبي ما لم يؤذى من قبله من النبيين وذا
مما به يضاعف الأجورا ولو يشاء دمروا تدميرا

ومن ذلك ما روى الإمام الغزالي في «متهاج العابدين» أن بعض الأنبياء ابتلي بالجوع والقمل وغيرهما من أنواع الضرر، فسأل الله الراحة من ذلك، فأوحى الله إليه: إن هذا الذي ابتليتك به هو الذي سبق به قضائي وقدري، فوعزتي وجلالي لئن تلجلج هذا في صدرك لأمحون اسمك من ديوان النبوة، أو كما قال

ثم قال الغزالي ﷺ: فإذا كان هذا فعل الله تعالى مع خاصته من خلقه فما بالك بغيرهم، فإذا عرف الإنسان ما ابتلى الله به أنبياءه ورسله مع أنهم معصومون من الذنوب، فلا محالة إذا وزن حاله بحالهم واستقام له الوزن أن يرى أنه أحق منهم بتلك البلياء والمحن، والقياس يقتضي أن يبتلي بقدر زيادته من الذنوب والمعاصي بالنسبة إليهم، غير أن الألفاظ الإلهية الناشئة عن سبق الرحمة للغضب اقتضت إيراد تلك البلياء والمحن على حسب مراتب الناس في الصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وكل من أطفاه، إذ الصابر بمجزيل أطفاه صبر، والناجي يخفي أطفاه نجا، ولذلك يقول ﷺ: «أشدكم بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأئمة فالأهل»^(١) ومع ذلك فالمطلوب من العبد التأسي بهم، والرضا بأحكام الله وقضائه وقدره كما

(١) أخرجه الطيالسي (٢١٥) وأحمد (١٤٨١) وعبد بن حميد (١٤٦)، والدارمي (٢٧٨٣)، والترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣)، وابن حبان (٢٩٠١)، والحاكم (١٢١).

صبروا على حسب جهده واستطاعته، وإن لم يدرك شأوهم، وجل أن يدرك فقد قيل في هذا المعنى:

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ إِنَّ الثَّابِتَ بِالْكَرَامِ فَلَاحُ

والثالث: معرفة تفاوت مراتب الأشياء، ومن جعلتها الأضرار والمنافع، فليعلم أنه ما من نعمة إلا وفوقها ما هو أعلى منها، ودونها ما هو أيسر منها، والنعمة كذلك، فالمطلوب من الإنسان أن ينظر إلى من هو دونه في النعمة فيحمد الله عليها حيث فضله على من هو دونه، وينظر إلى من هو فوقه في البلية فيحمد الله على السلامة مما ابتلي به غيره، فإنه وإن كان في بلية فهي نعمة بالنسبة على ما فوقها من البلياء، فإذا دام له هذا الحال، واستقام له القيام به كما ينبغي، تصبر له جميع البلياء عنده نعمًا يحمد الله عليها ويشكره، فضلاً عن النعم الأصلية.

ومن هذا المعنى ما روي أن عيسى عليه السلام مرّ برجل مصاب بالفالج من شقيه الاثنين، ومبتلى بالجذام والبرص، وموضوع على محل النمل ويأكل النمل من لحمه، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه، فقال له: يا هذا، وأي نعمة أنت فيها حتى تحمد الله عليها؟! وأي بلية أنت سالم منها؟! فقال له: إنما أحمد الله إذ لم يجعل تلك المصائب في قلبي حتى تحول بيني وبينه، فسلامة القلب من ذلك هي السلامة الكبرى وإقباله على الله ﷻ هي النعمة العظمى أو كما قيل، فسأل الله تعالى له العافية فبرئ في الحال، واتخذ من حواريه، وذلك كله من بركة صبره وشكره؛ إذ الصبر عنوان الفرج والشكر عنوان المزيد.

والرابع: معرفة أن كل ما وقع في الوجود فهو خير؛ لأنه برز من حضرة الرحمة؛ لأن الوجود كله برز من عين الرحمة، فيتضمن أن كل ما أصاب العبد من كل ما كان فهو خير، ولذلك روي: «لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع».

ومن هذا المعنى ما روي أن لقمان عليه السلام كان يقول لابنه: يا بني إن كل ما يقضيه الله تعالى فهو خير، وكان ابنه يقول له: يا أبت إنا نشاهد الأشياء بعضها خير وبعضها شر، فيقول له: لا يا بني إن كل ما قضاه الله خير، فاتفق أنهما سافرا سفرة طال أمدها وهلكتا دوابهما، فمشيا على أرجلهما في البرية من غير زاد ولا ماء حتى أجهدهما الجوع والعطش، وضاق بهما الحال، حتى أشرفا على قرية ورأياها من بعد فجدا في السير إليها.

فبينما هم كذلك إذ عثر ولده على شقة عود قطعت في رجله من أسفلها فخرجت من أعلاها فجعل يسلي ابنه على عادته، ويقول له: يا ولدي إن ما أراد الله هو الخير، فقال له ولده: يا أبت أرايت لو وصلنا القرية سالعين ليس بنا من بأس، واسترحنا من مشقة السفر، واستطعنا وشربنا أما كان خيرا لنا من هذا كله؟ فقال له: لا يا بني فإن هذا الذي نحن فيه خير مما ذكرت.

فبينما هم كذلك إذا رأوا دخانا صاعدا من القرية متصلا بعنان السماء، فتحيرا في ذلك، فأناهم فارس وسلم عليهما واستقبلهما باليشر والترحيب، ثم سأل لقمان فقال له: أنت لقمان؟ قال: نعم، فقال له: وأنا جبريل فإن الله تعالى أرسلني إلى تلك القرية، وأمرني أن أهلك تلك القرية بأن أجعل أعلاها أسفلها، وأضعها في قعر جهنم، وكنت في السماء السابعة فرأيتكما قاصدين تلك القرية، فسألت الله تعالى أن يشغلكما عنها بشاغل فوقع بولدك ما ترى، وأطمعهما وساقهما ومسح على رجل الولد فبرئت في الحال وانصرف، فتعجبا من ذلك. ثم قال لابنه: يا بني ألم أقل لك كلما قدره الله تعالى خيرا، فقال له: نعم يا أبت الأمر كما ذكرت. انتهى.

العبادة والرضا والتسليم

ومن كلامه ﷺ قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] فالعبادة تطلق على معاني:

أحدها: إن العبادة هي الإذعان لأحكام الربوبية، وأحكام الربوبية ما شذ عنها شيء من المخلوقات.

وثانيها: إن العبادة هي اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما جاءوا به عن الحق ﷻ.

وثالثها: إن العبادة هي معرفة نفسك بصفات النقص، ومعرفة ربك بصفات الكمال، وكل واحدة من المعرفتين تستلزم الأخرى؛ لأنك إذا عرفت نفسك بالعجز افتقرت إلى القادر الذي يقوم بشأنك في إيجادك وإمدادك، وإذا عرفت نفسك بالضعف افتقرت إلى القوي الذي يمدك بقوته في حركاتك وسكناتك، وإذا عرفت نفسك بالدلة، والدلة المجردة عن روائح العزة تفتضي سقوط المنزل حتى لا يرى لها عين ولا أثر.

وكل ما دخل تحت حيلة الوجود فله حظ من المتزلة، وأنت من جملتهم، فإذا عرفت نفسك بالذلة المجردة عرفت ربك بالعزة التي أمدك بها، حتى سرت بها، وفضلت على كثير ممن خلق ربك تفضيلاً وسأوتك مع أبناء جنسك، وإذا عرفت نفسك بالفقر والاضطرار الكلي في جميع حركاتك وسكناتك وإيجادك وإمدادك عرفت ربك بالغنى المطلق بكل وجه وكل اعتبار، وعرفت أنه الممد لك في كل ما أنت مفتقر إليه.

فأما الأولى: التي هي الإذعان لأحكام الربوبية.

والثانية: التي هي اتباع الرسل... إلخ، فإنهما متلازمان، ويحتاج الكلام فيهما إلى ميزان دقيق، وهو: أن الإذعان لأحكام الربوبية ينبنى على الإيمان بالقضاء والقدر، وهو الاعتقاد الجازم بأن كل واقع في الوجود من خير أو شر فمن الله، ثم الرضا والتسليم لأحكامه؛ لأنه الفاعل المختار الذي لا يسأل عما يفعل^(١) وأن اتباع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فهو مطابق لذلك من حيث مجيئهم إلينا بذلك، وربما أوهم المتأففة من حيث الأمر بمحبة الإيمان والطاعات وأهلها دون أضدادها وهي الكفر والمعاصي، فمحط الإيهام هو بغض هذه الأخيرة، مع أن التسليم والإذعان لأحكام الربوبية لم يخص شيئا.

والصراط المستقيم في ذلك أن الكفر والمعاصي لهما وجهتان، والشأن أن تحبهما من حيث إنهما فعل الله الفاعل المختار الذي لا يسأل عما يفعل، وتحب أهلها من حيث إنهم عبيد الله؛ لأن عبد المحبوب محبوب^(٢) وكلما يفعل المحبوب محبوب وأن تبغضهما وتبغض أهلها من حيثية بغض الله لهما كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] وسمى أهلها أعداءه.

ومثال ذلك كملك له ممالك، فجمعهم في صعيد واحد ليميز فيها أصفياه الذين جعلهم أهلاً لكرامته وفضله ومودته، ويميز فيها أعداءه الذين جعلهم محل عدله وانتقامه ونقمته، فوضع على الجميع علامات، البعض منها خضر، والبعض

(١) لأنه قبيح ذاته حكيم لا يجوز العبث في فعله، وفعله تعالى عين الحكمة عرفها الخلق أو لم يعرفوها.

(٢) [من حيث كونه ما أراد الله خلقه إلا بحكمة].

منها سود، ثم قال لنا: العلامات الخضر عنوان أهل محبتي ومودتي، والعلامات السود عنوان أهل بغضي وإعادي ونقمتي، فلا محالة إذا كان هواتنا مطابقاً لهوى الملك، وكنا مدعئين له بالسمع والطاعة، أن نحب تلك العلامات جملة من حيث إنهم عبيد الملك، إذ لم تخرجهم تلك العلامات عن ملكه، وأما من حيث بغض الملك لها فنبغضها ونبغض أهلها، والذي يحملنا على ذلك محبتنا للملك، ومطابقتنا لمراده.

ومن هذا المعنى قول صاحب ليلي:

أَمَرُ عَلَى الدِّيارِ دِيارِ لَيْلى أَتَبَلُّ ذَا الْجِدَارِ وَذَا الْجِدَارِ

وَمَا حُبُّ الدِّيارِ شَغَفَنَ قَلْبِي وَلَكِنْ حُبٌّ مِنْ تَكُنِّ الدِّيارِ

فعلى هذه الكيفية تكون محبتنا لأهل المعاصي وبغضنا لهم وبغض أفعالهم لأن الحق ﷻ خلق عبيده أولاً على نية واحدة لا ندري فيهم السعيد من الشقي، مع أنه أمضى في أزله القديم ما أمضى من سعادة السعيد وشقاوة الشقي، كما روي في بعض الأحاديث من قوله ﷻ: «جف القلم بما هو كائن»^(١) ثم وضع الميزان الشرعي، وأوضح فيه الأوامر والنواهي، وجعل الطاعات عنواناً على أهل محبته، والمعاصي عنواناً على أهل عدله وعذابه ونقمته. وأعلمنا بذلك فقال لنا: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ» وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي عَذَابٍ [الانفطار: ١٣-١٤].

وقال تعالى في أهل الجنة أيضاً: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا» [الكهف: ١٠٧].

وقال لنا في أهل النار أيضاً: «فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ» وَجُنُودٌ يُدْعَوْنَ [الشعراء: ٩٤-٩٥] فعلمنا من هذه الآيات ونظارها عنوان أهل السعادة وأهل الشقاوة، فلزمنا الميزانية التي تقدمت في كيفية الحب والبغض، لأن محبة الطائفتين ومحبة أفعالهما من جميع الوجوه من غير فارق بينهما يقضي إلى جمع السعادة والشقاوة والحسن والقيح في درجة واحدة، وهذا لا يقبله العقل ولا الطبع ولا الشرع والسلام.

(١) أخرجه الطبراني (١١٢٤٣) وأحمد (٢٨٠٤)، والضياء (٢٣/١٠)، رقم (١٣).

ومما سأل عنه سيدنا ﷺ بعض الفقهاء في مجلسه ما معناه: إن الله تعالى أوجب علينا الرضا بالقضاء فإذا ورد على الإنسان السخط بالقضاء، إما لذهاب ملائم للطبيعة أو حدوث منافي لها، ثم حصلت منه التفتاة قلبية أعطته العلم بأن ذلك السخط من جملة القضاء، فيصير مطالب فيه من جهتين:

أحدها: الرضا بالقضاء، ومعلوم أن الرضا بالمعصية معصية.

والثاني: عدم الرضا بها فرازا عن تلك المعصية، فيكون مدفوعا من حيث عدم رضائه بالمقدور فكيف العمل؟ فأجابوه بما قاله علماء الشريعة ﷺ في المعاصي: من كون الإنسان مطالباً فيها بالرضا بالقضاء دون المقضي، فيكون رضاه من حيث نسبه إلى الله تعالى وعدم رضائه به من حيث نسبه إلى نفسه.

فقال ﷺ: هذا ما فهموه من بساط الشريعة، وأما في مقام الحقيقة فوجه آخر مقتضاه أن المطلوب عند أهل الحقيقة نسبة الأفعال إلى الله جملة وتفصيلاً على الحد الذي ذكره ﷺ بقوله: «جف القلم بما هو كائن فقالوا يا رسول الله: ألا نتكل على السابقة، فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(١) والمراد به أن عملكم من جملة ما جف به القلم.

وحاصل الأمر في بساط الحقيقة أن المقادير لا نهاية لها إلا الذات التي لا نهاية لها، فكما أن الإنسان مطالب بمعرفة الله تعالى ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالعجز عن معرفته لمقتضى قولهم: كل ما يخطر ببالك فالله بخلاف ذلك، ومعلوم أن القلب لا يسكن إلا إلى المعرفة الإحاطية، والمعرفة تقييد، والذات المقدسة مطلقة، والتقييد منافي لحال الإطلاق من كل وجه، غير أن له أي: القلب، لطيفة روحانية تطلب الترقى دائما لطلب المعرفة.

فإذا انتهت على شيء وتمسكت به يعارضها قولهم المتقدم: كلما يخطر ببالك... إلخ، فتطلب الترقى أيضاً، ويحل بقوة القلب محلها الأول، وكلما ترقى من مقام يجله العقل والحامل القلب فلا سبيل إلى معرفة الله في مرتبة الإطلاق، وحيث لا نهاية لمرتبة الإطلاق فيطلبها بما لا نهاية له وهو القلب، ومعرفته ما ذكرنا

(١) تقدم تخريجه، وهو مختصر

هو عين السير في الحيرة الذي أشار إليه سيدي عمر بن الفارض بقوله:

زدني بفرط الحب فيك تحيزاً

وبذلك يتضح لك قول الصديق الأكبر رحمه الله: «العجز عن درك الإدراك» وما جاء في الحديث القدسي: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»^(١) والمراد به: المؤمن الكامل، فإذا فهمت هذا وتحققت بتضح لك معنى الشهود في الرضا بالمقادير.

وحاصلها أن تسخط في عين سخطك من حيث صدور الفعل من نفسك، وترضى بالقضاء من حيث صدوره عن الفاعل المختار الذي لا يسأل عما يفعل، توفية لمقام الشريعة، ثم تشهد ثانياً أن رضاك وسخطك، وخطاب الشرع المتعلق بأفعال المكلفين، وذاتك المؤدية لتكاليف العبادة، وجميع حركاتك وسكناتك من أقوال وأفعال قلبية أو بدنية شرعية أو غيرها من جملة المقادير، فإنك إذا سرت هذا السير تنتهي إلى غاية تشهد فيها أنك ما عرفت المقادير إلا بالمقادير إلى ما وراء ذلك، فحينئذ يتجه عندك معنى قولهم: ما في الوجود إلا الله وأفعاله.

ثم ذكر رحمه الله مسألة تناسب ما تقدم وهي: أن الله تعالى أوجب على نفسه بحسب وعده الصادق دخول الجنة لعبده المطيع على مذهب القائلين به، والحق ﷻ فاعل مختار «لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ» [الأنبياء: ٢٣] فإذا قدرت أن الله تعالى أدخل عبداً مطيعاً في النار فتعلم أن هذا عين الإرادة من وجه لا ينافي الإيجاب، فقلت له: فإذا لا يكون للإيجاب معنى فقال رحمه الله: «إن شاء لا يكون له معنى، انتهى»^(٢).

(١) تقدم تخريجه

(٢) في الحديث «لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير عالم لهم» ولكان لذلك وجه من الحق وإن كان علمنا لا يحيط به، وإذا فإيجاب الحق على نفسه تنعيم الطائعين هو محض فضل من المنعم ﷻ فوق فضل التوفيق، فلو فرض أنه ﷻ عذب الطائعين لكان ذلك مظهر العدل فهو ملكه وهو الحكيم سبحانه يحيط بما لا يحيط به غيره، ولا ينافي هذا تنعيمه فإنه مظهر الفضل.

فمعنى قوله ﷻ: «إن شاء لا يكون له معنى، أي: لو شاء الحق عذاب الطائعين لكان ذلك عدلاً من الحق سبحانه - لا وجه فيه للظلم - من وجوه لا نعرفها، فإن مشيئة سبحانه منزّهة عن

قلت: ولعل مراده بقوله: إن شاء الله لا يكون له معنى، أن ذلك بحسبنا لا بحسبه تعالى، وإلا فجل ربنا أن يفعل شيئاً عبثاً، ومقام الشيخ يتزه عن نسبة ذلك إلى الله تعالى.

والتحقيق في ذلك أن الله تعالى وعد ووعد الصادق الذي لا يخلف؛ فيحتمل أن يكون عنده من العلم ما لا يتناوله ذلك الوعد، بدليل ما ذكره سيدي أحمد التجاني ﷺ في قصة سيدنا موسى ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه: ٦٧] أي: بعد ظهور السحر له من جانب السحرة من إلقاء حبالهم وعصيتهم بعد قول الله تعالى: ﴿بِقَائِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعْنَا الْغَلِيُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقول سيدنا شعيب ﷺ لقومه بعد قولهم له: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُوذَنَّ فِي مَلِئْنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] فقال ﷺ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوذَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] ومحط الأشكال هو الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] مع علمه بأنه معصوم، فقال ﷺ: إنما ظهر الخوف من سيدنا موسى ﷺ لكمال علمه بأن في علم الله ما لا يتناوله ذلك الوعد، وهو محط الاستثناء من سيدنا شعيب ﷺ.

ومن كلامه ﷺ: اعلم أن الإنسان لا يمتاز عن الحيوان إلا باللطيفة الإنسانية، واللطيفة الإنسانية لا تحقق إلا بتميز الحسن من الفصح، والخطأ من الصواب، والأعلى من الأدنى، وتقديم الأهم فالأهم، ومتى فقد الإنسان هذا التمييز كان حيواناً فقط، ملحقاً بدرجة البهائم، وتميز الأمور الدنيوية المجردة عن قصد الحق لا يسمى تمييزاً في هذا المحل، ولا كلام لنا عليها، وكذلك لا كلام لنا في الكفارة لأنهم أضل من البهائم، لأن الله تعالى يقول: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

العلق بعث فكيف يظلم، ولا يظلم ربك أحداً، ومن ذلك أن المالك يتصرف في ملكه كيف يشاء.

وتقديرنا للظلم إنما هو بحسب دارتنا، فإن الظلم عندنا أن تعتدي على الغير أو تتصرف في ما ليس لك، والكل له سبحانه فلا ظلم.

[الأنفال: ٢٢] وإنما كلامنا فيمن يدعي الإيمان، فمتى فقد التمييز في هذه الأمور كان حيواناً فقط، وإذا نقص عن كمال التمييز كان نقصه عن الإنسان بحسب نقصه من التمييز.

مثاله: إذا رأيت إنساناً مستقيم الحركات، مهتدياً لأمر معاشه النبوية، ضالاً عن طريق الحق، فاعلم أنه ليس من الإنسان في شيء، لأن من الحيوان الحقيقي ما هو كذلك أو قريب من ذلك، كالقرد وغيره.

ثم التمييز يقع ابتداءً بكمال العقل، وبه يهتدي الإنسان إلى معرفة وجود الحق ﷻ، وكمال صفاته، وبروز المعالم من الحق على مقتضى تلك الصفات كما عند أهل النظر، وبذلك يعلم أنه مفتقر إلى الحق ومملوك له في سائر حركاته وسكناته، ثم يتدرج من ذلك إلى تصديق الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما جاءوا به من الشرائع، إما بحسب الدلائل الواردة على تصديقهم كالمعجزات المتزلة منزلة شهادة الحق بتصديقهم، وإما بنور يقذفه الله في القلب كإيمان الصديق ﷺ.

ثم إذا ثبت عنده تصديق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما أخبروا به من وجه لا يتطرق إليك الشك، فمن الخبر ما لا يسعه عقله ويلزمه قبوله، لوجوب إتباعهم، ومنه ما يسعه عقله ويشاهده حسه، كالإخبار بالموت، وزوال الدنيا وتغيرها وكدوراتها وغير ذلك، ومنها ما يجوزه العقل بحسب الإمكان ويعطابق أخبار الرسل - عليهم السلام - ويلزمه الإيمان به كالأول، وذلك كالإخبار بالآخرة وأنها دار خلود وانقسام الناس فيها إما إلى سعادة وإما إلى شقاوة، والعمل المؤدي إلى كل منهما.

فإذا انتهى بحسب عقله إلى هذا الحد أقضى به ذلك إلى إثبات الآخرة على الدنيا، لأن الآخرة هي الباقية، بخلاف الدنيا، ولا يخفى على من له أدنى عقل أولوية تقديم الباقي على الفاني، فضلاً عن ما فيها من النعيم الذي تضيق عنه العبارات، وتقتصر عنه الإشارات، ولا مناسبة بينه وبين نعيم الدنيا بالنسبة إلى أهل السعادة، وفضلاً عما فيها من شدة العذاب وأليم النكال المقابل لذلك النعيم بالنسبة إلى أهل الشقاوة، ثم إن السعادة أمر لا ينتهي إلى غاية، ولا يوقف له على حد ولا نهاية، والشقاوة كذلك.

وانقسمت الناس فيها على مراتب: طلباً وهرباً، وكل مرتبة بالنسبة إلى ما فوقها

كلا شيء، فكل من وقف عند مرتبة، واستغنى بها عن ما فوقها كان له بسبب ذلك الوقوف حظ من البهيمية، كما أن ترقيه إليه عن ما تحتها يكون بحسب كماله في الإنسانية، لأن لسان الحال لا يزال يتأدى: سر أمامك، فمن الناس من نظر إلى نعيم الجنة وما فيها من النعيم الذي لا يوصف ولا يحد.

وما ورد فيه من الآيات إما إجمالاً كقوله تعالى في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١) وإما تفصيلاً كما في بعض الآيات والأحاديث وأخبار أهل الكشف قديماً وحديثاً ونظر صفة النار وما فيها من العذاب الأليم المقابل لذلك، فصار غاية مطلبه الجنة ومهربه من النار.

ومنهم من تجاوز نظره ذلك إلى أن من بيده الجنة والنار والخير والشر ونظر إلى إطلاق مشيئة واختياره، فعلم أن إنعامه وتعذيبه غير تعذيبهما، فإن شاء جعل جسمه جنة ينعمه فيها، أو ناراً يعذب فيها، أو إن شاء عذب في الجنة، أو نعمة في النار، فعلم أنه المقصد الأعظم، فقصده خوفاً من غضبه، وطلباً لرضائه؛ لاسيما إذا أضاف إلى ذلك طلبه لشهوده؛ لكونه موعوداً به، كما أخبر ﷺ: «وَجُودٌ يُؤْمِنُ تَأْخِذُ»^(٢) إلى زيتها تأخيرة» [القيامة: ٢٢-٢٣].

وقال العلماء في ذلك:

فَيَسْأَلُونَ النِّعَمَ إِذَا رَأَوْهُ فَيَا خَسِرَانَ أَهْلَ الْاِعْتِزَالِ

ثم انقسم أهل هذه المرتبة إلى مراتب:

فمنهم: من جعل رسول الله ﷺ واسطة في إيضاح الطريق والدلالة عليه فقط، وجعل سيره إلى الله تعالى بنفسه، وقال: ليس للرسول ﷺ إلا أن يوضح لنا الطريق إلى الحق، وأهل هذه المرتبة ولو ساروا طول عمر الدنيا ما وازنوا لحظة من السائرين بقدم رسول الله ﷺ.

ومنهم: من جعل سيره إلى الله تعالى بقدم رسول الله ﷺ أنه رأى كل العالم فرأى أن كل العالم كبشريته ﷺ، وأهل هذه المرتبة منهم الإمام البوصيري ﷺ المقاتل:

(١) أخرجه أحمد (٨١٢٨)، والبخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤)، والترمذي (٣١٩٧).

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنة غير خلق الله كلهم

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فهو الأسوة والقدوة في عالم الجسد والروح ﷺ.

ومنتهى العالم مرتبة الهباء التي لا توصف بالوجود ولا بالعدم، ولا بالحدوث ولا بالقدم، ولا بالتقدم على العالم ولا بالتأخر عنه^(١) ودليلهم في ذلك حديث جابر ﷺ الذي هو: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر...» ولم يهتدوا إلى ما وراء ذلك.

ومنهم: من رأى أن رسول الله ﷺ هو الحجاب الأعظم الذي لا يمكن قطعه لملك مقرب ولا نبي مرسل، إلا أنه أداة كشفه إلى أن المراتب فيه متباينة، وأنهم بلغوا فيه حدًا لم يبلغه غيرهم.

ومنهم: أبو يزيد البسطامي القائل: «خضنا بحرًا وفقت الأنبياء بساحله» وفي ذلك يقول الجنيّد ﷺ: «أدركنا سبعين عارفًا يعبدون الله على شك ووهم»^(٢).

ومنهم: أخي أبي يزيد البسطامي، ولو وجد صيّا من صيّاتنا لأسلم على يديه، فليل له في ذلك فقال: كانوا يقولون بلغنا حدًا لم يبلغه غيرنا، ودليل هذه الطائفة أحاديث منها ما روي عنه: «ما عرفني غير ربي» وغير ذلك.

ومنهم: من رآه أنه الحجاب الأعظم كأهل المرتبة التي تقدمت آنفاً، إلا أنهم رأوا مع ذلك أنه حقيقة جميع الحقائق، وأن جميع ذوات العالم وحركاته وسكناته وخطراته وتقلباته إنما هي مظاهر جلاله وجماله وكماله، فرأى أن السير به ليس به، له، منه، إليه، فيه، عنه، ودليلهم في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَاقِضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٠] وقوله ﷺ: «من رأى فقد رأى الحق»^(٣) وغير ذلك.

ومنهم: من انتهى به الأمر إلى أن رأى أن جميع السير في مرتبة الشيخوخة التي هي مرتبة الإنسان الكامل، ولا سبيل إلى تخطيها، وهي مرتبة من مراتبه ﷺ، وفي ذلك يقول سيدي علي وفا ﷺ في آخر كلامه في «سير المريّد»: فلا يرى إلا واحدًا

(١) فهي مرتبة الدعشة.

(٢) شك في المقام لا شك في الأصول.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٦٥٩)، والبخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٢٦٧).

يتجلى في كل المشاهد، وإنما صارت نهايته إلى هذه المرتبة؛ لأنه بحسب البداية تكون النهاية. انتهى.

ومن كلامه ﷺ قال: قال الله تعالى: «وَأَنبِئْهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَيِّئًا • فَاتَّبِعْ سَبِيلَ» [الكهف: ٨٤، ٨٥]، فيؤخذ من هذه الآية أن الله تعالى جعل في كل شيء سيئاً، وهو الذي دلت عليه المشاهدة الضرورية وقرره الشرع، ومن أعظم الأسباب العقل الإنساني؛ لأن الله تعالى أكرم به بني آدم على جميع الخلق فقال تعالى: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» [الإسراء: ٧٠].

وبه سخر له جميع خلقه، فقال تعالى: «وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَتَّئِيًّا» [الجاثية: ١٣] وهذا العقل الإنساني هو أوسع المخلوقات، وبه ساد الإنسان على كل ما عداه، إلا أن العقول متفاوتة، فمنها الكامل، ومنها الأكمل، ومنها الناقص، وفي كل مرتبة منها مراتب لا تحصى:

فأما الكامل: فهو الذي وسع الحق ﷻ من جهة تجلياته في مكوناته، أو في مراتب أسمائه وصفاته، وفيه يقول الله تعالى: «مَا وَسَعَنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَوَسَعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ»^(١) وحيث ما وسع الحق ﷻ فما شذ عنه شيء، إذ الكل مصدرها ومرجعها منه وإليه ﷻ لأنها مظاهره الصفاتية التي هي الأعيان العلمية، التي هي الشؤون الذاتية المرتسمة في مرتبة الأحدية.

فمثال العقل الكامل - والله المثل الأعلى - مثال مرآة مدورة لا تختص بجهة من الجهات، فإنك إذا أخذتها وقابلت بها الجهات الست فإنها تنطبع فيها مرة واحدة من غير تقدم ولا تأخر حتى تصير كأن لا جهة لتساويها واتحادها فيها، ثم إنه لا يكمل العقل الإنساني حتى يتحقق بالعقول العشرة:

الأول منها: وهو آخر العقل العاشر في مراتب التزلات، وأول مرتبة الذات والأولية إلى هذا نسبية، وهي أولية من جهة الترقى، وهو عالم الاعتبار والامتيازات؛ لأن فيه امتازت الأشياء عن بعضها وهو عالم الحسن. والثاني: دوران أفلاك الوجود إذ بدوراتها تألفت الأشياء وامتازت على بعضها.

والثالث: عالم الأفلاك، إذ نفس الأفلاك غير دورانها.
 والرابع: عالم التركيب، ومن هذا التركيب تألفت الأفلاك، وهو تركيب الجواهر في بعضها، وهو العرش المحيط.
 والخامس: تركيب العرض مع الجوهر، وهو أول ظهور الحقيقة المحمدية في المرتبة الخلقية، فمثال تركيب هذه العقول الخمسة مثال تركيب الكلمات من النقطة، فإن الجوهر والعرض إذا تركبا صارا نقطة، فإذا تركبت النقطة من اثنين فصاعداً صارت ألفاً، فإذا تركب الألف من أي شكل من أشكال الحروف الهجائية صار حرفاً، فإذا تركبت الحروف صارت كلمات، ومن الكلمات تحدث المعاني المختلفة.

فالنقطة مثال الحقيقة المحمدية، بل هي نقطة العالم الحقيقية، والألف مثال العرش، والحروف المؤتلفة عنه مثال الأفلاك، والكلمات مثال المخلوقات الناشئة عن دوران الأفلاك، بل يصح أن تكون هي كلمات الحق المشار إليها في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِزَاجًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٩].
 وإلى ذلك أشار بعضهم بقوله:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل
 لقد غطت فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وبنو آدم مثال المعاني المودعة في تلك الكلمات؛ لأنهم العين المقصودة في الجميع.

وإلى هذا المعنى الذي ذكرناه يقال: العالم غيب في العرش كما أن العرش غيب في الحقيقة المحمدية، ثم إن هذه العقول الخمسة هي العقول الخلفية، وكل واحد منها يحتوي على تفاصيل يطول شرحها وذلك مثال العقل الأول منها من هذه الحيثية، فإنه يشتمل على العناصر الأربعة، وهي مشتملة على المولدات الثلاثة إلى غير ذلك.

ثم يلي هذه العقول الخمسة العقل السادس: وهو عالم الهباء، وله طرفان: طرف إلى الحقيقة، وطرف إلى الخلقية، وهو الحقيقة الكلية المعروفة عند العارفين التي لا توصف بالوجود ولا بعدم، ولا بالحدوث ولا بالقدم، ولا بالتقدم على العالم ولا

بالتأخر عنه، فإذا أضفتها إلى القديم كانت قديمة، وإذا أضفتها إلى الحادث كانت حادثة.

والعقول الأربعة الباقية إلهية صرفة، فالأول منها وهو السابع للعقول المتقدمة مرتبة الأفعال وهي: تسلط القوة الفاعلية على المفعولية، وهي النسبة الجامعة بينهما، وهي صفات الأفعال عند المتكلمين، وهي قديمة عند الحائريين.

والعقل الثامن: مرتبة السماء.

والتاسع: مرتبة ظهور الصفات.

والعاشر: مرتبة الذات، فالإنسان الكامل المتحقق بالعقول التسعة الأول بخلاف العاشر، ويسمى في اصطلاح القوم عرش الله، ليس بمعنى العرش المعروف الذي هو سقف الجنة؛ لأن العرشية عند العارفين بمعنى الإحاطة، وهذه الإحاطة ليست كإحاطة الظرف بالمظروف، بل هي بمعنى استهلاك كل شيء في حقيقته، فكل حقيقة محيطة بما تحتها من الحقائق، فهي عرش لها، فالصفات عرش لها وجهة إلى أحدية الذات، ووجهة إلى وحدة الأسماء، والأسماء عرش لها وجهة إلى وحدة الصفات، ووجهة إلى وحدة الأفعال، والأفعال عرش لها وجهة إلى وحدة الأسماء، ووجهة إلى عالم الهباء، وعالم الهباء عرش له وجهة إلى وحدة الأفعال، ووجهة إلى الحقيقة المحمدية، وهكذا كل حقيقة محيطة بما تحتها.

والى ذلك الإشارة في صلاة جوهرة الكمال بقول التي تتجلى منها عروش الحقائق... إلخ، فمن تحقق بهذه العقول فهو العقل الكامل، ثم لا يزال يترقى في درجات الأكملية إلى أبد الأبدن ودهر الداهرين، وهي المرتبة الثانية من درجات العقل.

وأما العقل الناقص: فهو كالمرآة ولا يخفى أن المرآة متفاوتة في الصغر والكبر، ومن طبعها التحكم فيما تصور فيها، فتحدث فيها صورة تليق بحالتها، بحيث لا تفرقه الأشخاص الكبيرة وتليق بحال المصور بحيث ألا تساوي صورة من هو دونه أم أكبر منه، والعقول كذلك.

ووجه التشبيه أن المرآة تأتلك بصورة كل ما وجهتها إليه من الصور والمقادير والجهات والأمكنة، وهي خاصيتها المفعولة فيها بشرط المقابلة وزوال الحائل، فإذا وجهتها إلى حسن أرتك حسناً وإذا وجهتها إلى قبيح أرتك قبيحاً ونحو ذلك

من الطول والعرض ونحوهما، والعقل يشاكلها في هذه الخاصية، وخاصية إدراك المعاني بكل قوة من قواه المجمعولة فيه التي هي القوة المصورة، والمخيلة والمدركة، والحافظة، والذاكرة، والمفكرة.

فأما القوة المصورة: فهي التي تصور كلما تعلقت به؛ سواء كان معنويًا أو حسيًا، قديمًا أو حادًا ولذلك قالوا: كلما يخطر ببالك فإله بخلاف ذلك؛ لأنه لا سبيل إلى الإدراك إلا بالتصور.

وأما القوة المخيلة: فهي التي تجمع الغائبات والمشهودات في مرتبة واحدة؛ لأن الخيال عالم من العوالم، فدخل أجزاء ذلك العالم تحت حكم القوة المصورة هو القوة المخيلة، إلا أن منه خيالاً منفصلاً وخيالاً متصلاً، فالخيال المنفصل: ما لم تسبق له رؤية، وغيره المتصل.

وأما القوة المدركة: فإن الإدراك محله القلب، ومقره مقدمة الدماغ، فيحل أول مرة في القلب ثم يتطبع في مقدمة الدماغ بسرعة ملازمة القلب مع أن القلب سريع التحرك، ولذلك سمي قلباً لسرعة تقلبه، فإذا توجه الإدراك من نور القلب إلى الجوارح فإن حركته تسري إليها في طرفة العين فتدرك الحواس بسببه نسبة الملموس في الملموسات، والألوان والهيئات في المبصرات، والأصوات في المسموعات، ثم ينعكس ذلك الإدراك فيه أيضاً في أسرع من طرفة العين، ثم منه إلى مقدمة الدماغ كذلك، وهي محل الفهم.

ثم يتطبع ذلك في القوة الحافظة وهي: مؤخر الدماغ، وكل ذلك يكون في أسرع من لحظة، وأشبه شيء به في المحسوسات القوة التلغرافية، غير أنها لا تقوى قوته، ثم إنه كما قدمنا لك في المرأة من أن إدراكها بشرط المقابلة وزوال الحائل، فالعقل مشاكل لها في هذه الكيفية أيضاً لأن في الحقيقة نور الروح الذي كان له التحقق بحقيقة كل شيء في مرتبة حق اليقين، قبل التركيب في الجسم وإنما طرأ عليها الجهل بطروء الحجب الظلمانية الحائلة بينها وبين حضرة القدس؛ لولوعها بعالم الطبيعة وركوتها إلى الأغراض النفسانية.

والإدراك الحاصل في القلب إنما هو من بقايا النور الأول، وهو ما ذكرنا من خواص العقل فلذلك صار له الإدراك الحالي في الأشياء المشهورة المقابلة بواسطة الحواس، أو ما ينشأ عنه من نظر القلب، فيكتسب القلب من ذلك علماً ضرورياً أو

فطريقاً، وحسارت له أيضاً الهمة مركباً يصعد بها إلى حيث ما قصد من المقامات العالية؛ لأن الهمة من أقوى القوى القلبية.

ولذلك روي: «ما تعلقت همة مؤمن بشيء إلا أدركته» وفي رواية أخرى: «لو تعلقت همة المؤمن بالثريا لجذبها» فإن الهمة لها تأثير قوي في قطع الحجب الحائلة في أي وجهة كانت، فمن علق همته بشيء لا بد أن يدرك شأوه ولو بعد حين، ولكن مع ذلك فإنما يكون إدراكه بحسب مرتبته كما قدمنا؛ إذ مراتب العقول متباينة، ومادام غير متحقق بمرتبة الكمال الذي هو مرتبة المعرفة كان ناقصاً، وكان سيره في الآيات شهوفاً وعلماً وحالاً من حيث ظهورها مظهر الغيرية، ولو التفت إلى ما وراء ذلك وجد السير في طلبه رأى تلك المظاهر عين الظاهراً لأن مرجعها إليه.

ولذلك قال سيدي عبد الكريم الجيلي رحمه الله: الذات تشهد ولا تعرف، والألوهية تعرف ولا تشهد، وذلك لأن صاحب هذه المرتبة يشهد المظاهر التي هي الظاهر، ولا يعرف فيها إذا لم تمكن معرفته إلا من طريق الشهود، فلما لم يكن من أهل الشهود حجب عن معرفته، وأما كون الألوهية تعرف ولا تشهد فإن الأشياء الداخلة تحت حكم حيلة الألوهية مشهودة ودالة عليها، والألوهية معلومة بما دل عليها ولا سبيل إلى شهودها؛ لأنها مرتبة الذات، والمرتبة لا تشهد.

ولذلك كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يقولون لبعضهم: تعالوا بنا نؤمن ساعة؛ أي: لتفكر في آيات الله الدالة على عظمته وجلاله، فتعلم أحكام الألوهية، مع أنهم ملتحقون بدرجة الكمال - جعلنا الله منهم بقية وكرمه - فقلت له: فهل يكون كلام سيدي عبد الكريم الجيلي الذات تشهد ولا تعرف... إلخ، منسحب على طوائف العارفين أيضاً فقال رحمه الله: أما العارفون رحمه الله فقد صار شهودهم عين معرفتهم، فهم عارفون بالذات بحسبهم لا بحسبها؛ إذ كمالات الذات لا نهاية لها، والمراتب فيها متباينة، فإدراك كل أحد بحسبه وعند كل أحد غير الذي الآخر، فانسحب عليهم كلام سيدي عبد الكريم الجيلي من هذه الحيثية.

ثم قال لي رحمه الله: إنك إذا نظرت مثلاً إلى العالم من حيث جملة تجده ساكناً، ثم إذا نظرت إلى تفاصيله ترى منه المتحرك والساكن، وفي المتحرك ترى منها ما هو

متحرك بالطبع، وما هو متحرك بالإرادة، وما هو متحرك بمحرك، والنبات أشد حركة من الجمادات، والحركة التامة الإرادية هي حركة الحيوان.

ثم إن المتحركات منها السريعة الحركة والبطيئة، وهذا التفاوت سار في جميع أجناسها وأفرادها، وفي الحقيقة فالكل متحرك، والكل ساكن، والعارفون ترى منهم المتحرك دائماً بتحركات العالم، لأن أحواله تلبسه ولا يملكها، فهو متحرك بتحركات العالم وأكثر ما يكون ذلك في مقام التلوين، وأهل هذه المرتبة لم يلحقوا بدرجة الكمل، وأما الكمل فتجدهم كائنات فيكونون متحركين ساكنين وإنما أحوالهم من حيث لا تدرك ولا تكيف، فلا تأخذهم الأحوال لأنهم أمثال الجبال، وقد قال الله تعالى في حقها: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] انتهى.

للمعرفة مرتبة معلومة ومرتبة مجهولة

وسمعه ﷺ يقول: إن من أعظم القواعد والضوابط الموصلة إلى الدخول في علوم الحقائق أن تعلم أن للحق ﷻ مرتبة مجهولة لا تؤمها العبارات ولا الإشارات، ومرتبة معروفة وهي مرتبة النعوت وتسمى مرتبة الألوهية. وللعبد مرتبتان: مرتبة جهله بمجهوله، وهي المشار إليها بقولهم: كلما يخطر ببالك فانه بخلاف ذلك، ومرتبة معرفته بمعروفه.

وللواسطة العظمى الذي هو البرزخية بين العبد وربيه مرتبتان:

أحدهما: مرتبة الحقيقة الأحمدية.

والثانية: مرتبة الحقيقة المحمدية.

ولمعرفة الله تعالى ثلاث مراتب:

أحدها: معرفة الله تعالى نفسه بنفسه.

والثانية: معرفة المصطفى ﷺ.

والثالثة: معرفة الخلق له. انتهى.

ومن كلامه ﷺ: فإن أردت أن تشهد ظهور أحمد بلا ميم فعليك بالكهف والرقيم، فإنه جعل الوجود نقطة، وتلك النقطة هي التي دارت فصارت هيئة ميم بلا خلطه، ومن ظهر له هذا علم أن الوجود لا يتعدد، فهناك يشهد فردية أحمد، ويعلم أن أحمد في أحمد كالواحد، وواحد اثنين من غير تعدد في العدد، فأحمد الثاني من

أحمد الأول، هو الذي ظهرت منه جواهر المعاني، وامتد، ففاضت منه بحور الوجود والأواني.

فمن طالع هذه الإشارات، وفتح الله عليه حتى عرف مقصدي في العبارات، فهناك يعرف حسن مقصدي، ويتلقى الأمر بالقبول ويهتدي، ومن سد الله دونه باب المعارف، فلا يجعل مقصدي مقصده الزائف، ويتكلم على مقصده الذي سولت له نفسه، ويظن أنه تكلم على مقصدي. فيتعدى هناك علي بسوء الظن ويعتدي، انتهى. ومن مناجاته ﷺ: إلهي إن ظهور الحقيقة المحمدية هي الوجود لمن وجد، ويطون الحقيقة الأحمدية هي الغيب لمن فقد، وشهود ذاتك أقرب من كل شيء وأبعد.

ومنها: إلهي كيف لا أعرفك وأنت الموجود، وكيف أعرفك وأنت المجهول المفقود.

ومنها: إلهي كيف لا أشهدك وأنت المشهود، وكيف أشهدك وأنت عين الشهود. ومنها: إلهي أتوجه إليك بالكل أن ترج بي في أنوار الكل في الكل بالكل، وأوصلني إليك بالكل، للكل، وأشهديني إياك حتى أعرفك في الكل بالكل، وأوحدك توحيدك بك حتى لا تحجبني بعده ملابس الأحدية بالكل عن الكل.

إلهي أسألك بلسان الكل وحقيقة الكل، وسر الكل، أن تصلي صلاة بعظمة الكل، كما يليق بقدر الكل، على وجه تعيينات الكل، وأينية المقاصد في الكل محمدك المحمود من الكل بالكل، وأحمدك الدال على الكل بالكل، صلاة تجمع أسرار صلوات الكل عليه بعدد تعيينات الكل، وتحافظ بها على توحيدك في تعرفك إلي بالكل للكل في الكل ﴿وَأَنَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ حَبِيطٌ بَلَّ هُوَ قُرْآنٌ مُجِيدٌ﴾ في تَوْحٍ مَحْفُوظٍ [البروج: ٢٢٠-٢٢٢].

وخبأت توحيدني من غواية كل شيطان في حصن دائرة حفظ الكل، حتى ينمحي جزء يرجع محو الجزء في الكل ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

ومن كلامه ﷺ: سبحانه من ظهر في القرب بعزته، حتى حجب بقربه ويطون

بعظمته، مع أن كل شيء يسبح بحمده، والأشياء لا تسبح إلا من ظهر لها، كما أنها لا تقوم إلا بقيوم أقامها، فالقيوم من قامت به الأشياء، والقيوم لا يكون إلا الواحد الأحد، والواحد هو الذي ﴿لَا يُشْفَلُ عَنْهُ قَوْلٌ﴾ [الشورى: ١١] والأحد هو الذي ليس معه شيء، فاحتاج الأمر إلى ظهور، والظهور في العلم، فظهر ميم العلم في الأحد بضرب من التجلي، فظهرت حقيقة أحمد، ولا عالم إذ ذاك، ولا موجود إلا الأحد.

ثم إن الأسماء والصفات طلبت متعلقاتها، والأشياء طلبت ظهورها التي في علم الأحد، والحي والقيوم القادر هو الذي يوجد كما وعد، فظهر ألف الأحد، وأصلاً الميم القيومية بحقيقة أحمد، وهو الضرب الثاني من التجلي، فصار الظاهر محمد، فظهر من تجلي اتصال ميم القيومية، بميم العلم، بوصلة، ألف الأحمد ميم ثالث في ميم العلم، مع أنه لا وجود لها في الحقيقة، لأن محمداً ليس فيه إلا ميمان.

وأما الميم الثالثة إنما ظهرت من تحقيق ميم العلم، وهو تشديدها، والشيء إذا أريد تحقيقه تظهره القدرة بحسب تخصيص الإرادة وما ذاك إلا تحقيقها، فالميم الثالثة التي ظهرت من ميم محمد، هي دائرة العالم وليس خارجاً عنها شيء من الموجودات كما في العالم غيب في العرش كما أن العرش غيب في الحقيقة المحمدية، فمن ثم دارت أفلاك متعلقات جميع الأسماء كالخلاق، والرزاق، والهادي، والمعز، والمذل، والمعطي، والمانع، وغيرها فظهر العالم بترتيب الحكيم، ثم قبضه الملك الذي لا يسأل عما يفعل قبضتين، فقال: هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي.

ثم أرسل الباعث الرسل ليظهر أسماء الرحمة الانتقام ويقيم حجة العدل بين القبضتين، فمن امتثل الأمر وحمل به كان من قبضة أهل السعادة، ومن خالف واتبع هواه كان من قبضة أهل الشقاوة، مع أنه ليس ثم القبضتان وجعل لامتياز القبضتين يوماً معلوماً، وهو يوم القيامة وخلق الله ملائكة كراماً ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] يكتبون أفعال الخلق في صحف أعمالهم ليعرضوها عليهم يوم القيامة، ويكون الامتياز والحجة بها، فهذا مقتضى الحكمة.

فالذي حجه نظام الحكمة عن العلم الحكيم القادر المريد الحي القيوم الواحد الأحد فهو محجوب عن الظاهر بالمظاهر، مع أن المظاهر لا تقتضي زيادة على

الظاهر عند أهل الحقيقة، كما أن تحجر الثلج لا يقتضي زيادة على عين الماء مع المباينة بين لطافة الماء وصلابة الحجر، وكذا الموج لا يقتضي زيادة على حقيقة البحر، بل هو ظهور صفة فيه، وقد تقدم آنفاً أن الخلق كلهم ظهوراً من مظهر ميم محمد، التي هي ميم أحمد، وقد ظهر لك أن تلك الميم هي ميم علم الأحد، مع أنك تعلم بقينا أن أحمد من غير شبه ليس هو الأحد بعينه، وليس هو العالم بعينه؛ لأنك إن طلبت الأحد فلا يظهر لك شيء أصلاً، لأن الأحد هو الذي ليس معه شيء البتة، وهو مرتبة العماء.

وأما العالم فيطلب معلوماً وهو مرتبة: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق في عرفوني»^(١) فإذا حسبت في بالجمل تجدها اثنين وتسعين، ومحمد أيضاً اثنان وتسعون، فتدبر في ذلك يظهر لك بيان ما تقدم من التقرير، وحقيقة الأحد الآن كما هي أولاً ما زاد عليها شيء؛ لقوله ﷺ: «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان»^(٢) كما أن الحقيقة المحمدية ما زاد عليها شيء في تباين المراتب إنما هي أصل كل الموجودات، كما ورد بذلك النقل في حديث جابر ؓ، وغيره الذي لا تعويل على العقل معه.

فالحق لا يعرف إلا بمحمد ﷺ كما قال البكري ؓ:

فأنت باب الله أي امرئ أناء من غيرك لا يدخل

فمن أراد أن يعرف الحق فليرجع ميم وجوده لميم محمد المتقدم ذكرها، وهي ميم العلم فهناك يعرف الحق والحد في وحدة وجود العالم في محمد كما أنه لا يعرف محمداً إلا بتجلي الأحد بميمي العلم والقيوم، وإلا فلا وبهذا الاعتبار يظهر لك أن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها، لأن الغيرية ظهرت من حيث إن الصفات تطلب شيئاً زائداً على الذات والعينية من حيث ألا شيء في الحقيقة.

ولكن لا يظهر كتحقيق ما ذكرناه لك إلا إن كنت من أهل الإطلاع على كتب القوم وتكون مع ذلك ممن «ألقى السمع وهو شهيد» [ق: ٣٧] لا من قال: «لا

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدمت الإشارة إليه.

تَسْمَعُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ» [فصلت: ٢٦] فإن ساداتنا علماء الظاهر قائلون بالزيادة مطلقاً، وإن من نفاها يلزمه أنه جعل الحادث قديماً وهذا معلوم من لازم قواعد التصورات التي هي مجال الأفكار، ومعلوم أن حقيقة الفكر.

وهذه الفرقة قائلون بالتزوية، منزّه ومنزّه عنه، ومن حيث أن الوجود اثنان: وجود الحق، ووجود الخلق، فالصفات تطلب وجود الخلق، وهو شيء زائد على الذات، فهؤلاء إن لم يقولوا أن الصفات لا غيرية ولا عينية لا يتمشى لهم البرهان، والبرهان هو طريق المعرفة التي هي نتيجة نظر العقل، وأنت تعلم أن الإنسان مادام عليه بتصورات العقل لا يعقل فناء وجود هذه الموجودات في وجود موجدتها.

وأما أكابر السادة الصوفية فقد جدوا في صقل قلوبهم وواظبوا على السير إلى الله بتعمير أوقانهم بالذكر والعبادات حتى خرق لهم الله العادة في العقل كما خرقها لهم في الحس، فظهر لهم شيء وراء طور العقل بطريق الكشف، فهناك ظهرت لهم وحدة الوجود، وعلموا أن هذا الوجود في الحقيقة خيال، والخيال لا وجود له مع الحقيقة، كما قالوا:

من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاء عين محال

فهناك قالوا: إن الصفات لا تطلب شيئاً زائداً على الذات، بل هي عين الذات، وألقوا في ذلك مؤلفات ذكروا فيها العينية مثل: «اليواقيت والجواهر» لسيدني عبد الوهاب الشعراني، قال فيها: إن سيدي محيي الدين شنع على من يقول بالغيرية جداً!

وأنت تعلم أنه لا يسوغ لك بطلان مذهب أحد الفريقين، بل ينبغي لك أن تتعطش وتطلب من فتح الله عليه؛ ليظهر لكم طريقاً يقبله عقلك بجمع لك بين الطريقتين، فإن ظفرت به فادع له؛ لأنه خلصك من مشكلة عظيمة، فإن كان هذا التقرير أزال عنك وجه الإشكال، فالحمد لله ذلك المطلوب وإلا أتركه وسلم عرض صاحبه من الاعتراض واجعله من جملة المشكل عليك آنفاً.

وها أنا أعطيك علماً ثانياً بحملك على حسن الظن بالجميع، وهو أنك تعلم يا

(١) الوجود المستغنى ببلائه واحد، ونحن نقول: إنه لا يوجد وجود عن غيره، وأما ما سواه فمادام لا وجود له إلا به فهو تابع له ناشئ عنه فهو وجوده أي ملك له.

أخي أن المطلوب من كل الأعمال والاعتقادات هو رضا الله، والحق سبحانه قد تفضل وقيل من أهل البرهان توحيدهم، وقيل من أهل وحدة الوجود توحيدهم، ورضي عن الجميع، فما بقي لك أنت إلا الرضا إن كنت ترضى برضاه وتغضب لغضبه، وأما إن كنت تغضب لنفسك بسبب أن الله علم أحدا ما لم تعلم فحيتئذ غصبك على فعله لا له، كما قيل:

ألا قل لمن بات لي حابذا أتدري على من أنات الأذب
أنات على الله في حكمه إذا أنت لم ترض لي ما وهب
جزاؤك أن زافني في العطاء وأغلق دُونَكَ باب الطلب

العقل الأول وصورة آدم

ومن كلامه ﷺ: اعلم أن أول ما خلق الله العقل الأول ثم فتق منه جميع المخلوقات تفصيلاً فكلها عقل وإن كانت مختلفة الأشكال لأنه كاختلاف الحروف الرسية في الأشكال والمعاني واتحادها في عين المداد، بل هي الحروف الحقيقية ثم إن الله تعالى خصص أجزاء هذا العقل وأجناسه وأفراده المعبر عنها بالحروف لكل جنس، ولكل فرد خاصة، كما قسم الحواس إلى: باطنية وظاهرية، وركب فيها الإدراك، وجعل الإدراك القلبي لها أصلاً، فمن هناك أطلق عليه اسم العقل دون غيره، ثم جعل الله عباده في هذا العقل شركاء، لأنه الدرة البيضاء التي لا تقبل التقسيم وإنما يتفاوتون بحسب الإدراكات، وهي عين العقل أيضاً لأنه لا يدرك متناه، فعلى هذا فكل مدرك من حسي أو معنوي فهو العقل.

وفي هذا الميدان يسبح نظر الناظرين وكشف المكاشفين على اختلاف مراتبهم ومشاربهم، حتى قال بعضهم: أرى العرش داخل في وسط ذاتي، أو كما قال ﷺ ومع ذلك فلا يدرك له غاية لأنه روح المصطفى، وهي بعيدة عن المدارك كما قال أستاذنا ﷺ: المصطفى ﷺ بحر عميق ظاهر يتموج في الموجودات، وباطنه ينتهي إلى الذات، ولذلك اختلف الخلق في مراتبه ﷺ على اختلاف مراتبهم في القبطتين فمتهم: من رآه يتيم أي طالب.

ومنهم من رآه رجلاً حسن الخلق لين العريكة.

ومنهم: من رآه رجلاً كريماً.

ومنهم: من رآه مثل السراج كما روي عن بعض أمهات المؤمنين: «أنها سقطت منها إبرة في ظلمة الليل فالتفتتها من نوره»^(١).

ومنهم: من رآه كالقمر.

ومنهم: من رآه كالشمس، كما أن سيدنا أبو بكر رضي الله عنه رآه كل الكون، ولذلك قلت روايته عنه: لكونه يرى أن جميع الألسنة معبرة عنه، وهو مقام أهل الكمال.

ومنهم: من رآه أن اختلاف الإدراكات فيه غاية الكمال؛ لأنه مظهر الجلال والجمال، وهذا الاختلاف فيه إنما هو بحسب الإدراكات، والكل هو، ألم تر أن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّكَ لَـكُلِّ شَيْءٍ عَظِيمٌ﴾ [الفلم: ٤] مع قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَن جَاءَهُ آلَآءُ عَمَى﴾ [عبس: ١-٢].

وكذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. ثم أكدها بقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] مع قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلْ يَمِينًا فَـأُخْرَى﴾ [الضحى: ٦] فالكل هو؛ لأنه المظهر الجامع بدليل قول البوصيري رحمه الله في بريدة المديح:

دَعُ مَا أَذْعَنَ الثُّصَارَى فِي نَبِيهِمْ وَاحْتَكُمْ بِمَا شِئْتَ مَذْحاً فِيهِ وَاحْتَكُمْ

وَانْسُبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ وَانْسُبْ إِلَى قُدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمٍ

مشيراً إلى مرتبة الوحدة فإذا فهمت هذا فاعلم أن العلم القديم لهذا العقل كالعقل أيضاً وبيان ذلك أن الله تعالى سمي نفسه المصور.

وورد في الحديث: «إن الله خلق آدم على صورته»^(٢) والمراد على صورته المقررة في العلم الأزلي وليست غير علمه الأزلي، وليست الصورة غير ما أبرزه في الخارج أيضاً وكذلك العبد هو المصور، وتصويره إنما هو ما يدركه من العقل بحكم التخيل، هذا محصل ما فهمته من كلام سيدنا رحمه الله على طريق الاختصار من عبارات مختلفة، والله أعم بما وراء ذلك، انتهى.

(١) ذكره أحمد بن يوسف الدمشقي في «أخبار الأول وأثر الدول» (٣/٢٢٠).

(٢) تقدم تحريجه.

ما يجول في الفكر

ومن كلامه ﷺ: اعلّموا يا إخواني أن الماهيات ثلاثة:
 الوجود المطلق: ويسمى الذات البحت.
 والعدم الكلي: ويسمى العدم المحض.
 والممكن: ويطلق عليه الوجود والعدم، ومحال أن يتعدى هذه الثلاثة؛ لأن
 الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة أقسام: الوجوب، والاستحالة، والجواز.
 فالواجب: هو الذي لا يقبل النفي بحال.
 والمستحيل: هو الذي يكون ثبوته من المحال.

والجائز: هو الذي يتردد بين الطرفين، فإذا علمت ذلك فأجر الأحكام الثلاثة في
 الماهيات الثلاث ترجع لك إلى شيئين: وهو الوجود البحت، والعدم المحض، لكن
 ينبغي أن توصل المعلومات وتعلم حصرها في كم مرتبة حتى يتبين لك كيف
 انقسمت الرتبة الثالثة بين الاثنين، وكيف ظهور كل وجه منه فيها، إن أردت ذلك فما
 أنا أنقل لك ما انتهت إليه معرفة المحققين في المعلومات.

قال الشيخ الأكبر والعلم الأشهر محيي الدين بن العربي - قدس سره - في
 الباب السادس من «الفتوحات»: اعلّموا أن المعلومات بوجه ما أربعة:

الحق تعالى: وهو الموصوف بالوجود المطلق، لأنه سبحانه ليس معلولاً لشيء
 ولا علة، بل هو موجود بذاته، والعلم به عبارة عن العلم بوجوده، ووجوده ليس غير
 ذاته مع أنه غير معلوم الذات، لكن يعلم مما هو عليه من صفات المعاني وهي
 صفات الكمال، وأما العلم بحقيقة ذاته فممنوع، ولا تعلم بدليل ولا ببرهان عقلي
 ولا يأخذها حد، فإنه سبحانه لا يشبه شيئاً ولا شبه شيء، فكيف يعرف من لا
 يشبه شيء ولا يشبه شيئاً، فمعرفة به إنما هي ليس كمثله شيء، وأما الماهية فلا
 يجوز ذلك عليها، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿وَنُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل
 عمران: ٢٨] قد ورد المنع من الشرع عن التفكير في ذات الله تعالى.

ومعلوم ثاني: وهو الحقيقة الكلية، التي هي للحق وللعالم، لا تتصف بالوجود
 ولا بالعدم، ولا بالحدوث ولا بالقدم، إذ هي في القديم إذا وصف بها قديمة، وفي
 المحدث إذا وصف بها محدثة، فلا تعلم المعلومات قديمها وحديثها حتى تعلم

هذه الحقيقة، ولا توجد هذه الحقيقة حتى توجد الأشياء الموصوفة بها، فإن وجد شيء من غير عدم متقدم، كوجود الحق وصفاته قيل فيها: موجود قديم؛ لاتصاف الحق بها، وإن وجد شيء عن عدم؛ كوجود ما سوى الله تعالى، وهو المحدث الموجود بغيره قيل فيها: محدثة، وهي في كل موجود بحقيقتها، فإنها لا تقبل التجزؤ فما فيها كل ولا بعض، ولا يتوصل إلى معرفتها مجردة عن الصورة بدليل ولا برهان، فمن هذه الحقيقة وجد العالم بوساطة الحق تعالى، ولم تكن بموجودة فيكون الحق قد أوجدنا من وجود قديم، فثبت لنا القدم.

وكذلك تعلم أيضًا أن هذه الحقيقة لا تنصف بالتقدم على العالم ولا بالتأخر عنه، ولكنها أصل الموجودات عمومًا، وهي أصل الجوهر وملك الحياة والحق المخلوق به، وغير ذلك، وهي الفلك المحيط المعقول، فإن قلت: إنها العالم، صدقت، أو إنها الحق، صدقت، أو ليست الحق، صدقت، تقبل هذا كله وتتعدد بتعدد أشخاص العالم، وتنزه بتنزيه الحق، وإن أردت مثالها حتى تقرب إلى فهمك فانظر في العودية في الخشبة والكرسي والمحيرة والمنبر والتابوت، وكذلك الترييع وأمثاله الأشكال في كل مربع مثلاً من تابوت وبيت وورقة، فالترييع والعودية يحققانها في كل شخص من هذه الأشخاص، وكذلك الألوان؛ كيباض الثوب والجوهر والكاغد والدهان والدقيق من غير أن تنصف الباطنية المعقولة بالانقسام، حتى يقال أن يياض الثوب جزء منها، بل حقيقتها ظهرت في الكاغد كما ظهرت في الثوب، وكذلك العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر وجميع الأشياء كلها، فقد بيت لك هذا المعلوم، وقد بسطنا القول كثيرًا في كتابنا المسمى «إنشاء الجداول والدوائر».

ومعلوم ثالث: وهو العالم كله، الأملاك والأفلاك، وما تحويه من العوالم والهواء والأرض، وما فيها من العالم وهو الملك الأكبر.

ومعلوم رابع: وهو الإنسان الخليفة الذي جعل الله هذا العالم المقهور تحت تسخير، قال تعالى: «وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ» [الجناب: ١٣] فمن علم هذه المعلومات فما بقي له معلوم أصلاً يطلبه.

فمنها: ما لا يعلم إلا وجوده، وهو الحق تعالى وتعلم أفعاله وصفاته بضرب من الأمثلة.

ومنها: ما لا يعلم إلا بالمثل كالعلم بالحقيقة الكلية.
ومنها: ما يعلم بهذين الوجهين وبالماهية والكيفية، وهو العالم والإنسان، انتهى
كلام «الفتوحات».

الإسلام والإيمان والإحسان

ومن كلامه ﷺ اعلم أيها الطالب طريق الله تعالى، والمحجب لله، والراغب في
الوصول إلى حضرة الله أن جماع ذلك في ثلاث مقامات وهي: مقام الإسلام،
والإيمان، والإحسان.

فالإسلام: هو أن تعبد، والإيمان: هو أن تقصده، والإحسان: هو أن تشهد،
وهذه هي مراتب السير إلى الله تعالى المجموعة في الشريعة والطريقة والحقيقة،
ونتيجة الثلاثة هي المعرفة، فمن وصل إلى الحقيقة فقد وصل إلى الله تعالى ويسمى
عارفًا بالله.

والمقامات كلها تجمعها لفظة الشريعة؛ لأن الشريعة هي: ما أتناه به الرسول ﷺ،
والكل أتناه به ﷺ ولأجل ذلك اقتصر بعض الناس على المرتبة الأولى، وظنوا أن ما
ثم غيرها، ويسمون بسبب ذلك: أهل الظاهر، وجمع بعضهم بين المرتبتين؛
يعني الشريعة والطريقة، ويسمون: الصوفية، وجمع بعضهم المراتب الثلاثة
ويسمون: العارفين، وقد ألف في تحقيق هذه المراتب كثير من علماء هذا
الشأن خصوصًا حجة الإسلام أبا حامد الغزالي رحمه الله، وقد اجتهد في جميع ذلك
واختصاره لئلا يتعب الناس في سعة الشريعة ويفنوا أعمارهم من غير وصول ساحل
يقفون عليه.

وسبب ذلك: عدم التحقيق والغوص في بحر الشريعة حتى يعلم العالم مراد
الشارع من جميع تلك السعة، والناس في الإدراك والغوص متفاوتون، وذلك
بحسب الفتح الذي يفتح الله لهم في الطريقة، والطرق إلى الله تعالى كثيرة جدًا بعدد
أنفاس الخلق وبعضها أقرب من بعض، وكلها مأخوذ من بحر الشريعة.

فأما حجة الإسلام الغزالي فإنه حصرها في أربعين بابًا، وجعل عشرة منها في

(١) معلوم أن الكلي ثبوته اعتياري ليس له وجود خارجي كالإنسانية مثلاً.

العبادات وأسرارها، وعشرة في العادات وأحوالها، وعشرة في المهلكات وغرورها، وعشرة في المنجيات وسلوكها، وسمى الكتاب الذي حصرها فيه: «إحياء علوم الدين».

ثم جعل كتاب الفصول أربعين فصلاً، ثم كتاب «مشكاة الأنوار» وهو أيضاً أربعون باباً وغيرها، ثم بعد ذلك جد في السير وفتح الله عليه في آخر عمره طريقاً أقرب من ذلك، فجعل أربعين باب في سبعة أبواب، وسماه: «منهاج العابدين» وهو آخر ما ألفه، وسمى تلك الأبواب عقبات:

الأولى: عقبة العلم.

والثانية: عقبة التوبة.

والثالثة: عقبة العوائق.

والرابعة: عقبة العوارض.

والخامسة: عقبة البواعث.

والسادسة: عقبة القوائد.

والسابعة: عقبة الحمد والشكر، وبتمامها يتم كتاب «منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين»، وهو أقرب طريقاً من كثير من الأولياء.

ثم أتى بعده سيدي أبو الحسن الشاذلي، ورأى أن ثمرة الطرق كلها نهايتها تنتهي إلى محبة الله، ورأى أن ما ثم شيء أقرب إلى محبة الله تعالى من معرفة نعمه المتواترة على العبيد، التي من جملتها جميع أعمالهم وأرزاقهم، ورأى أن الاشتغال بمعرفة أيادي المنة وتلقيها أقرب من كل شيء، لأن ذلك ثمرة المحبة التي هي غاية الفصد، ولأن من جملة ذلك التواتر تواتر الإحسان بشمر المحبة.

وإذا تحققت المحبة فالمحب دائماً يرمي رضا محبوبه، ورأى أن ما ثم شيء بعد هذه الملاحظات كلها أقرب لتلقي أيادي المنة من الشكر، لأن العبد إذا رأى عمله من الله لا ينسب لنفسه شيئاً بعد ذلك، ووعد الله بالزيادة على الشكر، فيصير دائماً في زيادة.

وأما الغزالي فخاف أن العبد ينسب لنفسه شيئاً فتدخل عليه جميع الآفات التي ألف فيها كتابه من رياء وعجب وحرص وحسد وغيره، وأنت تعلم أن من لم ينسب

لنفسه شيئاً لا ينسب لغيره أيضاً، فيسبب ذلك ينجو من الآفات التي ألف فيها الغزالي، فانظر طريق سيدي أبي الحسن الشاذلي ما أعصرها وما أقربها حيث كانت نهاية الغزالي بدايته.

ومن هنا يظهر لك أن طرق أهل الله تعالى بعضها أقرب من بعض جداً وإذا علمت ذلك وتعظمت، لما هنالك فيها أنا ذا أدلك على طريق أقرب من طريق أبي الحسن الشاذلي، ومن جميع طرق الأولياء الذين عرفناهم، وهي طريقة قطب الوجود الرياني مدد كل عارف صمداني، خاتم ولاية أهل العموم والخصوص، الذي ثبت له ذلك بجملته من الأدلة والنصوص سيدي وسندي وسبب فتوحه ويحر مددي السيد الشريف الحسيني المغربي سيدي أبا العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن سالم التجاني نزيل فاس ودفينها ورحمة الله على المخلوقات وضمينها ﷺ وأرضاء.

وهي طريقة وحدة الشهود التي ثمرتها وحدة الوجود كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢] والفرق بينها وبين طريق سيدي أبي الحسن الشاذلي: أن طريق سيدي أبي الحسن الشاذلي هي الوقوف مع معرفة النعمة والمنعم، والمنعم عليه، ولكل منهم شهود.

وأما سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ عرف أنه لا طريق إلى معرفة المنعم إلا بمعرفة الحقيقة الجامعة لمظهر كماله، وتلك هي حقيقة الرحمة والمرحوم، فمن هنا صار مشهده تلك الحقيقة الجامعة كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْصَيْنَهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢] فمن هنا صار شهوده فرد الفرد من فرد كما قال الشاعر:

اجعل همك هنا واحداً تكن لما تطلبه شاهداً

ولا يكون كذلك إلا إذا جعلت سبرك في الحقيقة التي هي مجمع الحقائق وهي حقيقة سيد الوجود ﷺ ولا وصول لأحد إلى حضرة الله تعالى إلا من بابها كما قال العارف البكري:

وأنت باب الله أي امرئ أتاه من غيرك لا يدخل

ويشهد لذلك أيضاً ما جاء: «كنت كثيراً مخفياً فأحييت أن أعرف فخلقت الخلق

ففي عرفوني» فإذا حسبت جمل «فبي» وحسبت جمل محمد ﷺ تبين لك سر العدد لكن لا يتحقق لك ذلك إلا إذا تحققت أن ظهور هذه الكائنات كان من توجه حضرات الأسماء إليه وجملة نعوت حضرات الأسماء هي الألوهية التي ظهرت في المألوه.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] فإله: هو الاسم العلم على الذات الذي وجبت لها جميع نعوت الأسماء والصفات، والرحمن: هو الاسم الذي ظهر منه المرحوم وظهرت به الرحمة التي هي صفة الرحمن، فهكذا جميع الأسماء المطالبة لظهور الوجود على هذا التفصيل فافهم، والحظ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧].

فتعرف بهذه الإشارات أنه ﷺ هو حقيقة الوجود ومظهر الجود فعند ذلك ينبغي لك أن تعرف الوجود به، لا أنك تعرفه بالوجود وإن أردت زيادة إيضاح ذلك فما أنا أقرب لك المعنى ببعض ما ورد من الإشارات في ذلك وهو أنك تعلم أنه ﷺ هو الدرة البيضاء التي لا تقبل التقسيم وتلك الدرة يقال لها أيضًا: نقطة الوجود وهي أيضًا النقطة التي ظهرت في باء بسم الله الرحمن الرحيم، ومن تلك النقطة ظهرت الحروف، ومن الحروف ظهر سر القرآن، قال الله تعالى: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ولذلك قيل: كل ما في الكتاب المنزلة فهو في القرآن وكل ما في القرآن فهو في الفاتحة، وكل ما في الفاتحة فهو في بسم الله الرحمن الرحيم.

وورد أيضًا: أن كل ما في البسملة فهو في الباء، وكل ما في الباء فهو في النقطة التي تحت الباء، وقال بعض العارفين: بسم الله من العارف بمنزلة كن من الله، فإذا عرفت ذلك فما أنا أبين لك كيف تألفت الحروف من النقطة، وأنت تعلم كيف تألفت الكلمات من الحروف، وكيف ظهرت المعاني من تألف الكلمات، مع أنك تعلم أن المعاني غير التأليف والكلمات غير الحروف، والحروف غير النقطة هذا في إدراك الحس، وأما في الحقيقة ما ثم غير النقطة، انتهى.

واعلم أن النقطة التي تحت الباء أول كل سورة من كتاب الله تعالى؛ لأن كل حرف مركب من النقطة، ولا بد لكل سورة من حرف هو أولها، ولكل حرف نقطة هي أوله، فلزم من هذا أن النقطة أول كل سورة من كتاب الله تعالى.

ولما كانت النقطة - كما ذكرنا - كانت النسبة بينها وبين الباء تامة لما يأتي بيانه كان الباء في أول كل سورة للزوم البسملة في جميع السور، حتى في سورة براءة، فإن الباء أول حرف فيها، فلزم من هذا أن القرآن في كل سورة لما سبق من أن كل القرآن في الفاتحة، وهي في البسملة، وهي في الباء، وهي في النقطة، فكذلك الحق مع كل أحد بكماله لا يتجزأ ولا يتبعض، فالنقطة إشارة إلى ذات الله تعالى، ألا تراك ترى النقطة ولا تحسن قراءتها البتة؛ لصولتها وسداجتها وتنزهها عن التقييد بمخرج دون مخرج؛ إذ هي نفس الحروف الخارجة من جميع المخارج، فتنبه لما تقابله من هوية غيب الأحدية، وتقرأ النقطة باعتبار ألا ترى.

ألا ترى إلى الباء والتاء والثاء لا تتميز إلا بالنقطة، فتقول: التاء المثناة، والتاء المثلثة، قصوتها واحدة وميزتها النقطة، وكذلك ما عرف في الخلق إلا الله ما عرفته من الخلق وإنما عرفته من الله بالنقطة؛ لأنك تعلم أنه لولا النقطة ما ظهرت الحروف، ولولا الحروف ما تركبت معاني، والمهمل منها تميز بعدم النقطة فعدم العلامة له علامة، وبين الألف والنقطة مشاكلة؛ فمقامه منها كمقام الواحد في الواحد، اثنان في اللفظ وواحد في العدد، كما إذا قيل لك: اضرب واحداً في واحد، فالجواب تقول: واحد، فالله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، ولا يتعدد بتعدد الأشياء، فالأشياء مظاهره كما أن الحروف مظاهر النقطة.

ولما كان الألف مظهرها الأقرب إليها من باقي الحروف الثمانية والعشرين ظهرت به الثمانية والعشرون وهو غيرها، ومن هنا قال من قال: إن الألف ليست من جملة الأعداد؛ لأن العدد اسم لتكرر الواحد في مرتبتين فصاعداً، وفائدته تعلق تشبيه الممدود في مرتبة التغاير كمياً، وليس الواحد في نفسه مغايراً لعدم السوي، فلا يدخل في حد العدد من هذا الوجه، ويدخل فيه من حيث تعلق عدم تغايره في نفسه فهو عدد لا كالعدد.

كما قالت العقلاء: إن الله شيء لا كالأشياء، وبروز الألف في نفسه عدد الواحد؛ لأن بعده من النقطة بعد واحد وهو الطول فقط؛ لأن الألف هو الخط المستقيم.

ونسبة الباء للألف كنسبة الألف للنقطة، فإنها أقرب الحروف إليه، ومقامها في الحروف مقام الاثنين في الأعداد، فإن شئت قلت: هي الثاني في الحروف بقطع النظر عن النقطة، وإن شئت قلت: هي ثالثة، وجعلت النقطة غير الألف مع إنه لا مغايرة أصلاً، وذلك لأن لها بعدين: الطول والعرض؛ لأن رأسها عرض جسدها طول، والتجسيم في الجيم في الثلاثة؛ لأنه حاز الطول والعمق، فإن شئت قلت السمك، فهما شيئان، وإنما يتغايران بتغاير النسبة فإن ابتدأت من أسفل سميت سمكاً، وإن نزلت من أعلى إلى أسفل قلت عمقاً.

فالباء هو العرض، وهو النفس الناطقة المسماة في بعض وجوهها بالقلب الذي وسع الله، والنقطة هي غيب الهوية المسماة بالكثرة المخفية التي لا تحول عن كثرتها وعقايها أبداً، فالباء مستوى الأعداد، ولا عدد إلا والباء موجودة فيه، كما أن الروحانية مستوى الأسماء النفسية التي هي الأمهات السبعة والأسماء، فداخل تحته كما قال الحق تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ﴾ [الإسراء: ١١٠] فالرحمن مشارك الله في التسمي بجميع الأسماء الحسنى، ويفارق الله بما وراءه من ذلك فيما لا يقع الاسم عليه عندنا كما يقول العالم بنفسه ﷺ: «استأثرت به في غيبك»^(١).

ومعنى تثنية الباء بروز الحق لنفسه في ترتيب ذاته الخلق، وهو النظر الثاني؛ لأن الحق ﷻ له مشهدان في نفسه فمشهد ذاتي لا ينظر الله فيه إلى مرتبته من ذاته التي سماها خلقاً ومرتبة على ترتيب سر من ذاته، وسمى ذلك الترتيب بالصفات، وهو المعبر عنه بمستوى أسماء حضرة الحقيقة.

فالعالم هو العرش الذي هو صورة الرحمن، وإنما طولت الباء في بسم الله بعد إسقاط الألف، وبعد قيامها مقامه؛ تبييناً على أنها نائبة مكان الألف في كل حرف سبق من أن الرحمن موصوف كل وصف نائب مناب اسم الله في التسمي بالأسماء الحسنى، فلا تتعلق الخلق من الله إلا بحد مستوى الرحمن، ولصوق الباء والسين في البسملة لسر شريف وهو: أن السين محله من الأعداد المرتبة السادسة، فهو على ستة مراتب من مراتب الواحد وهي الجهات التي ظهرت فيها الباء وهي المخلوقات

(١) أخرجه أحمد (٤٣١٨)، وابن أبي شيبة (٢٩٣١٨)، والطبراني (١٠٣٥٢)، والحاكم (١٨٧٧).

المسمى جملتها بالعرش، وكل جهة من هذه الجهات فيه وجه الله بكماله، كما أن الواحد موجود فيه، وكل جهة مرتبة من هذه الست مراتب التي للسین بكماله.

اعلم أن السین عبارة عن سر الله وهو الإنسان، قال بعض المفسرين: إن «يس» [يس: ١] الباء فيها حرف نداء، والسين الإنسان، والكلام عليه من باب الإشارة فيقول الله تعالى: يا إنسان يخاطب جل وجهه محمدًا ﷺ أي: يا إنسان عين ذاتي، التي أضيف إليها الإنسان فهو سر الذات وسر القرآن.

واعلم أن «وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ» [يس: ٢] هو صفة الله تعالى، فكلما قرأت شيئاً من القرآن الحكيم الذي هو صفة الله في نفسك، ظهرت صفات الله لك بقدر تلك القراءة المرتبة، وهذا أقرن به القرآن الحكيم الذي هو صفة الله في نفسك فظهرت صفات الله لك بقدر تلك المرتبة، وهذا أقرن به القرآن الحكيم لكون القراءة هذه مرتبة بترتيب حكمة إلهية شيئاً فشيئاً لا تنهاى، ولا تبلغ له غاية أبداً فالترتيب، والله، والحكمة، عين الذات التي أنت هي، وليس بشهادتك إلا قراءة غيبك.

وأما ما لم يقرأه غيبك فهو لغيبك، لا توجهك الشهادي، وعين وجه شهادتك، وعين وجه غيبك، فتحيرت تحيزاً عين الاسم في ذاته، لأنه لم يسبق فيها أي: لم يظهر جميع معاني كمالاتها، بل في الذات الإلهية من وراء الاسم الله ما هو أعلم به، ولكن مع هذا فإن هذا الاسم قد وقع عليها، وهي شيء واحد لاستحالة التجزئة والتعويض في جانب الحق، ولما كان الألف من غيب الأحدية، والسين سرها الشهادي، كانت الميم عبارة لعين الوجود، وفي الحقيقة الجامعة للغيب والشهادة.

ألا ترى إلى نجويف رأس الميم كيف هو مخلى إلى نقطة بيضاء، لأن النقطة هي الكثر والسر المخفي، فقبل إن الدائرة من تجويف الألف، جزاؤها بأوصاف النقطة «مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزْؤُهُ» [يوسف: ٧٥] نعم وعدم بقية الحروف من محل حكم النقطة في ذاتها سبقت عليهم «كَذَلِكَ كَذَبَ الْيُوسُفُ مَا كَانَ لِأَخِي أَنْ يَأْتِيَ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِ رَبِّهِ» [يوسف: ٧٦].

والنكتة في اتحاد الألف بالباء إنما هو لوجود الألف فيه، ولو ما في السماء من وجود الألف لفظاً في الهجاء لما اتحد بالياء الألف، ولذا لو كان الألف أولاً، والباء ثانياً لما اتجه الوجه الموجود فيه الألف، إنما هو آخره الذي غيبه.

ولا يمكن أن يتحد به من غير ذلك الوجه، فإذا ما اتحد بالألف إلا الألف فإذا

الاتحاد لزوال الغيرة، وكذلك كل حرف من الحروف إنما يتحد بالأول من آخره، وهو الوجه الموجود فيه للألف منه.

أما ترى في كتابه كل حرف من الحروف لا يلتصق بالألف إلا إذا كان الحرف قبل الألف، والألف بعده لا يكون ذلك؛ لأن الهجاء في ذلك إنما يتقدمه مادة غير مادة الألف، ثم يتلوها مادة الألف إما في نفسه فهو في نحو هجاء الباء، وإما في غيره في نحو هجاء الجيم والسين والنون على قدر بعد الحرف وقربه من هيئة الألف وطبيعته ومكانته.

وعلى ذلك كله فالألف موجود في كل حرف وهو ملتصق بأحرف مخصوصة من وجه مخصوص ولا يلتصق بأحرف بوجه من الوجوه وهي: الدال، والذال، والراء، والزاي، والواو، وما ثم إلا هذه الأحرف الخمسة، وانظر كيف الألف موجود في كتابة صورة كل حرف من هذه الأحرف الخمسة، وانظر كيف تجرد الألف من عوائق النقطة، وخلص من العلائق التبعية التي تكون بعده؛ كتعلق الحروف ببعضها من بعد، فلم يكن له تعلق بشيء من غير نفسه، فلا يتعلق الألف بشيء من الحروف، جل إذا كان سارياً في جميع الحروف بجسده كسريان النقطة، وعلى الحقيقة من حيث هو كلي لا ينقسم ولا يتعدد بوجه من جميع جزئياته من غير تعدد في نفسه، كما يوجد الحق تعالى في سمع الإنسان المتقرب إليه بالنوافل، وفي بصره، وفي يده، وفي لسانه، فهو ﷻ بكيونة سمع هذا العبد في كيونة بصره.

وكما أنه موجود في كل شيء ما من أجناس العالم جميعه بكماله لا يتعدد بنفسه، ولهذا كان الألف ظاهراً بنفسه في كل حرف، كما تقول: إن الباء ألف مبسطة، والجيم ألف معوجة الطرفين، والدال ألف محلى الوسط، والألف في مقام النقطة لتركيب كل حرف منها، وكل حرف من النقطة مركب، فالنقطة لكل حرف كالجوهر البسيط، والحرف كالجسم المركب، فقام الألف بجسميته مقام النقطة لتركيب الأحرف منه.

كما ذكرنا في أن الباء ألف مبسطة، وكذلك الحقيقة المحمدية خلف العالم بأسره، لما ورد في حديث جابر: أن الله خلق روح النبي بلا واسطة، ثم خلق العالم من روح محمد ﷺ ، وهو الظاهر في الخلق بجسمه بالمظاهر الإلهية، ألا ترى إليه عليه الصلاة والسلام مرى بجسمه فوق العرش وهو مستوى الرحمن.

فالألف ولو كانت بقية الحروف المهملة مثله، والنقطة ظاهرة فيها بذاتها، كظهورها في الألف، فله عليها الزيادة، لأنه ما بعد على النقطة إلا بدرجة واحدة، لأن النقطتين إذا تراكبتا صارتا ألفاً، فحدث بالألف بعد واحد وهو الطول، وأقل الحروف من له بعدان كالباء، فنسبة الألف بين الحرفين إلى حرف مكان الحرفين المهملة نسبة محمد ﷺ بين الأنبياء والورثة الكامل، ولهذا قدم الألف على بقية الحروف فمن الحروف ما يكون نقطته فوقه، ويكون هو تحتها هو مقام: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده».

ومن الحروف ما تكون النقطة في وسطه، كالنقطة البيضاء في قلب الميم والواو وأمثالهما، فإنها محل: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه، ولهذا تجوف، لأنه ظهر في جوفه شيء غيره، فدائرة رأس الميم: ما رأيت شيئاً ونقطته البيضاء محل: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» [الفتح: ١٠] انتهى من الكهف والرقم باختصار وبعض زيادة.

ومن كلامه ﷺ: اللهم صل وسلم على الفاتح الذي به وفيه افتتح ظهور الوجود، والخاتم الذي انتهى، وغاب فيه ومنه وبه كل موجود «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» [النور: ٢٥].

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ أَلِيلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُتَصِرًا» [غافر: ٦١].

«كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» [الرحمن: ٢٩].

«وَإِن يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ» [الحج: ٤٧].

«تَعْرُجُ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» [المعارج: ٤].

«وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى» [النجم: ٤٢].

«هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ» [الحديد: ٣] «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»

[البقرة: ٢٩] فظهور شمس الذات لا مغيب له، ويطون عماء ليل الصفات والأسماء لا انفجار له، فمن شهد يوماً لا مغيب لشمسه، وليلاً لا شهود لفجره، فقد شهد يوماً عند ربك، ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله عنده، ومن شهد انفجار فجر الوجود الذي امتد من ظله كل موجود، ورأى تكوير البرازخ في بعضها على بعض، وفهم المقصود، وامتد به ذلك حتى شهد في الحين المبدأ والخلود، فقد شاهد اليوم

الموعود، ومن شهد النور الذي لا يقبل التقسيم والإمكان، فقد شهد يوم الشأن، ومن شهد سر العبودية الدائر بين القبضتين، وشهد أن شمس يوم مظهره أحدهما الإيمان، وظلمة ليل الأخرى الكفران ﴿نُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَنُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

﴿وَأَمَّا تَزُوا الْيَوْمَ آلَيَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] والظالمون ﴿تَوْرَهُمْ بِسْمِ اللَّهِ أَنْبِيَهُمْ﴾ [التحریم: ٨] ولكل يوم مثل علامة، فمن شهد هذا المشهد فقد شهد يوم القيامة، انتهى.

وسأله عن معنى البيت المنسوب لبعض العارفين وهي قوله:
فَلَوْ بَ الْعَاشِقِينَ لَهَا غِيُونَ تَرَى مَا لَا يَرَاهُ النَّاطِرُونَ
وَأَجْنَحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيَشٍ إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
وهو الذي فني عن نفسه وبقي بمحبوبه؛ لأن العشق من أعلى مراتب المحبة لأن المحبة لها مراتب:

أولها: الاستحسان، فإذا قوى صار ميلاً، فإذا قوى صار إرادة، فإذا قويت الإرادة صارت هوى، فإذا قوى صار وذاً، فإذا قوى صار شوقاً، فإذا قوى صار فناءً، فإذا قوى صار عشقاً وهو بقاءه بمحبوبه، وهي مرتبة: كنت سمعه الذي يسمع به.... إلخ وإلى هذه المراتب الأخيرة أشار سيدنا ابن عطاء الله بقوله:

«شعاع البصيرة يشهدك قربك منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجوده، لا عدمك ولا وجودك، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان». فعلم من هذا أن مرتبة العاشقين من أعلى مراتب العارفين رضوان الله عليهم أجمعين.

وقوله: (لها عيون) جمع عين، والمراد بها: ناظر البصيرة وهي للقلب كالبصر للعين، وجملة ترى ما لا يراه الناظرون: نعت للعيون، وهو يقتضي إفادة التخصيص لأن نعت النكرات يفيد التخصيص والمراد بالتخصيص هنا: إما عن النواظر مطلقاً أو عن نواظر القلوب من غيرها، والمعنى واحد؛ لأنه إذا أريد نواظر القلوب كان غيرها أخروناً، والمراد برؤيتها ما لا يراه الناظرون: شهود وحدة الحق تعالى، إما في مرتبة أفعاله، أو أسمائه، أو صفاته، أو ذاته.

وقوله: (وأجنحة تطير بغير ريش) والأجنحة جمع جناح، وهي هنا استعارة إلى القلوب التي يتمكن بها صاحبها من التوجه إلى الحق بسهولة؛ كسهولة الطيران على جناح الطائر، ووجه الشبه: أن الطبيعة الحيوانية للروح الإنساني كالفقوص للطائر، فكما أن الطائر إذا لم يجد سبيلا إلى الطيران عن الفقوص ركن إليه واتخذته وطنا، فإذا فتح طار الطير في الجو وفارق الفقوص، كذلك الروح عند حصول الفتح.

وقوله: (بغير ريش يمشي به إلى الطير) لأن الطير إنما يطير بجناحه المشتغل على الريش إذا استعمله بحركة مخصوصة، فإذا قُدت تلك الحركة انعدم الطيران، وهذا طائر يربه لا بنفسه، فلا تعمل له بريش ولا بغيره.

وقوله: إلى ملكوت رب العالمين، والمراد بالملكوت هنا: ما يدرك بالبصائر، فيشمل ما وراءه من الحضرات احترازا عن عالم الناسوت؛ لأنه مقرها ووطنها؛ وذلك أن الحضرات خمس:

الأولى منها: حضرة عالم الناسوت وهو: ما يدرك بالحواس، ويسمى عالم الحس وعالم الشهادة.

الثانية: حضرة عالم الملكوت وهو: ما يدرك بالبصائر.

الثالثة: حضرة عالم الجبروت وهي: حضرة الأسماء الإلهية.

الرابعة: حضرة عالم اللاهوت وهي: حضرة الصفات.

الخامسة: حضرة حقيقة اللاهوت وهي: حضرة الذات التي هي غاية الغايات، فإذا وصل العبد إلى شهود الذات كملت طهارته، وهي الطهارة الحقيقية المشار إليها بقول الجنيد رحمه الله:

تَطَهَّرْ بِمَاءِ الْغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا بَرْءٍ وَالْأَتَيْتُمْ بِالضَّعِيدِ أَوْ الضَّخْرِ
وَقَدِّمَ إِمَامًا كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَةً وَصَلَّ صَلَاةَ الْفَجْرِ فِي أَوَّلِ الْعَصْرِ
فَهَلْ فِي صَلَاةِ الْفَارِغِينَ بِرَبِّهِمْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْطَحِ الْبَرْءُ بِالنَّحْرِ

ثم تكلم رحمه الله على معنى هذه الآيات فقال رحمه الله: الطهارة طهارتان، كما أن الحدث حدثان: فحدث العامة: هو الجنابة ونحوها من الأحداث الناقضة للوضوء والغسل والطهارة من هذا الحدث هو الغسل بوجه مخصوص بالماء المحسوس على وجه مخصوص وهي طهارة العامة المشار إليها في الحديث بقوله رحمه الله: «الوضوء شطر

الإيمان» وفيه إشعار بحسب مفهومه أن ثم شطرًا ثانيًا.

والحدث الثاني: هو حدث الخاصة، وهو شهود الأغيار وطهارتهم من هذا الحدث هو فناء الأغيار وشهود وحدة الحق تعالى، وهو الشطر الثاني من شطري الإيمان الذي دل عليه مفهوم الحديث، وهذه الطهارة إنما تكون بالإيمان، وهو لها كالماء لظاهرة العامة، وإلى ذلك أشار الشاعر في قوله: (تظهر بماء الغيب... إلخ) وهو الإيمان بالغيب المشار إليه بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

وقوله: (إن كنت ذا سر) السر هنا يطلق على معينين:

أحدهما: حقيقة الروح في مرتبة كونها سرًا، وهي أقصى مراتب الروح، فإذا غلبت على ما دونها من المراتب اتصلت بحقيقة اللاهوت الأكبر، فأدركت ما لا نهاية له من الأنوار والأسرار والعلوم والمعارف والأذواق والحقائق والرفائق فكانت بربها لا بنفسها.

والمعنى الثاني: هو تنزل الحق إلى العبد في مرتبة حقيقة اللاهوت وتعرفه إليه في مرتبة: «فبي عرفوني» قوله: (وإلا تيمم بالصعيد وبالصخر) المراد بالصعيد: صعيد البرهان، وهو الاستدلال بالخلق على الحق، وهي مرتبة العامة، وعبر عنها بالتييمم لأن من لم يجد الماء صرف إلى التيمم، فكذلك من لم يجد شهود الحق صرف إلى الاستدلال عليه بالمحدثات.

وقوله: (وقدم إمامًا كنت أنت إمامه) المراد به: الإمام المبين المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْضَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢] لأنه حقيقتك وأنت عدم في وجوده غيب في حضوره، ومن ذلك كان أقرب إليك منك، وأولى بك من نفسك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] لأنك كنت متقدمًا عليه قللاً وعدوانًا، فأثبت لنفسك الوجود وله العدم، ولنفسك الحضور وله الغيبة، فتوجده إذا أردت فيوجد، وتستحضره إذا شئت يحضر، وإذا شئت التفت عنه فصار غيبًا في شهودك. وعلمًا في وجودك، وقد نهاك الله تعالى عن هذا التقدم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا الَّذِينَ يَدِي إِلَيْهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحجرات: ١].

وقوله: (وصل صلاة الفجر في أول العصر) المراد بالفجر: فجر ظهورك، والعصر: هو زمن أينما آدم ﷺ الذي نزل فيه من الجنة، فإنه نزل بعد العصر، والصلاة بهذه المثابة هي مشهد يوم: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» [الأعراف: ١٧٢] وهو فناؤك في الحقيقة الأدمية وخطاب الحق الوارد على تلك الحقيقة في اعتبار فرقها ففي تلك المرتبة أقرت الروح للحق تعالى بالربوبية بجميع جوارحها وأعراضها، وقوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» إشارة إلى أن التجلي في تلك المرتبة هو تجلي الربوبية وهي المرتبة المقضية وجود المربوب، وأما تجلي الألوهية فلا وجود فيه شيء معه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «كان الله ولا شيء معه» وقوله: (فإن كنت منهم فانضح البير بالبحر) أي أنضح مال النفس من بر الشريعة بشهودك الأغيار ونسبتك إلى نفسك فعلاً ببحر الحقيقة الذي هو شهود أحادية الحقائق ... انتهى.

ومن كلامه ﷺ أيضاً في آيات الجند ﷻ التي نصها: (تظهر بماء الغيب... إلخ) الآيات: ما ملخصه مراده بماء الغيب شهود وحدة الوجود المطلق الرافع لحدث شهود الأغيار، وهو يستلزم رد الشهادة غيباً، والغيب شهادة، فلا يكون في نظر المشاهد إلا الواحد يتجلى في المشاهد.

وقوله: (إن كنت ذا سر) أي: صاحب سر، والمراد به: من كشف الله عن عين بصيرته، فشهد حقائق الأشياء.

وقوله: وإلا تيمم بالصعيد وبالصخر، وإن لم تكن من أهل الأسرار تيمم بالصعيد وبالصخر، وهو الاستدلال بالمحدثات على المحدث، وهو الحق ﷻ بخلاف صاحب الشهود فإنه يستدل بالحق على الخلق، وإنما استعار له لفظ التيمم في هذا المحل، لأن التيمم لا يستعمل إلا عند فقد الماء للضرورة، وكذلك الاستدلال بالخلق على الحق لا يكون إلا لأهل الحجاب الذين لم يلتحقوا بأهل الشهود.

وقوله: (وقدم إماماً كنت أنت إمامه) أي: الإمام الذي كان إمامك يوم «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» حيث كنت في جمعيته، وهو الناطق عنك حقيقة في قولك: «بلى» وأنت النائب عنه نسبة.

وقوله: (كنت أنت إمامه) أي: في وقت ظهور جسمك، أي: كنت إمامه بدعواك الوجود معه والاستقلال بصفاتك الحادثة.

وقوله: وصل صلاة الفجر في أول العصر، مراده بالقصر: انفجار الوجود أي: ظهوره بذاته لذاته من بطون البطون من حيث ما أن الظهور عين البطون، ومراده بالعصر: ظهور آدم عليه السلام في مرتبة الإنسانية وصورة ذلك أن تشهد أن الأولية عين الأخيرة.

وقوله: (فهذه صلاة العارفين بربهم)، وهم الذين انكشف لهم الغطاء عن عين قلوبهم، فشغلوا عن شهود أنفسهم بوجود مربوبهم.

وقوله: (فإن كنت منهم فاتضح البر بالبحر) مراده بالبر: ظواهر الشريعة، والبحر: بحر الحقيقة، وكيفية نضح البر بالبحر هو شهود جمعيتهما واتحادهما؛ لأن العامي يرى المغايرة بين الشريعة والحقيقة مع أنه لا مغايرة بينهما البتة، وإنما خص الصلاة في هذا المحل دون غيرها من سائر العبادات؛ لأن الصلاة هي الصلة بين العبد وربّه؛ لأنها حصر الوجّهات في وجّه واحد، وهي وجّه الحق ﷻ، وذلك يستلزم استغراق المصلي في الحق وفناؤه عن نفسه؛ لأنها من جملة الوجّهات التي حصرها في وجّه الحق ﷻ، فحيث يشهد انمحاق البيّنة في العينية؛ وذلك عين الهوية التي لا بقاء فيها لرسوم الغيرية.

وذلك من بعض ما أشار إليه سيدي أحمد التجاني رحمه الله في قوله: «في الصلاة الغيبية» المصلي في محراب عين ماء الهوية؛ فهذا من بعض ما في معنى الصلاة، وهو مطرد في نبد من أقوالها وأفعالها.

مثال ذلك: في التكبير في الصلاة، ولكل تكبيرة من تكبيرات الصلاة مقصد غير الآخر، كتكبيرة الإحرام مثلاً؛ فإنها تختلف باختلاف المصلين على درجات لا نحصى، فمن أوائلها أن يقصد العبد عند قوله: (الله أكبر) أن الله أكبر من كل كبير، ثم أعلى من ذلك أن يقصد أن الله أكبر من تكبيره إياه، ثم أعلى من ذلك أن الله أكبر من أن يكون معه غيره ... وهلم جرا.

ونظير ذلك ما ورد في فاتحة الكتاب يقول الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» وقوله تعالى فيها: «إِنَّا لَنَعْبُدُ وَإِنَّا لَنُشْعِرُ» [الفاتحة: ٥] فصدر الآية دال على الإخبار من العبد بأنه عابد لله تعالى، وآخرها طلب المعونة

من الله للعبد في العبادة، فإذا أمدَّ الله عبده بالعبادة، فيكون الله هو الحامد والمحمود.

ومن ذلك «قوله تعالى على لسان عبده: سمع الله لمن حمده»^(١).
والحاصل من ذلك كله أن جميع ذلك من الإشارات الدالة على وحدة الوجود من جميع حركات العالم وسكناته وتقلباته من تجليات الحق ﷻ، وهي التي يشير إليها العارفون في كثير من شطحاتهم وقصائدهم، فمن ذلك قول سيدي عمر بن الفارض ﷻ في «لاميته»:

فإن خذثوا عنها فكلني مسمع وكلني إن خذثهم السنُّ تثلو

وهذا المعنى هو حقيقة معراج ﷻ: إذ لكل شيء حق وحقيقة، فمعراج ﷻ حقه ما رواه المحدثون بالأسانيد الصحيحة عن إسرائته إلى بيت المقدس ثم عروجه إلى السماء حتى اخترق سبع سموات، ثم إلى سدرة المستهى، وإلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف الأقدار، ثم دنوه من ربه حتى «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» [النجم: ٩] ثم رؤيته ربه بعين بصره، «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى» [النجم: ١٧] وغير ذلك مما رأى من آيات ربه الكبرى، وما انطوت عليه القصة من العجائب والغرائب التي لا تعد ولا تحصى، ولا أخفاء بما في ذلك مما حير العقول وعجز عن إدراك حقيقته أكابر الفحول.

وأما حقيقة معراج ﷻ: فنسبتها إلى حقه كنسبة مرتبة جمع التشبيه والتنزيه المعروفة عند العارفين بمرتبة الوحدة بالنسبة إلى مرتبة التنزيه المحض، التي هي عقيدة أهل البراهين العقلية؛ إذ حقيقة معراج ﷻ هو عروج الروح من مرتبة عين البقن إلى حق اليقين، وهو الاستهلاك في حقيقة الحق، وهو مقام طمس الكثرة في الوحدة، وانمحاق الإثنية في عين الأينية، وهي مرتبة: «أَوْ أَدْنَى» التي روى فيها: «ولم أر عند رؤية ربي أحداً حتى ظننت أن جميع من في السموات والأرض كلهم قد ماتوا»^(٢) أو كما يقال.

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٧٩٧)، وأحمد (٧٨٢٣)، وأبو داود (٨٢١)، ومسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجه (٢٧٨٤)، وابن حبان (١٧٨٤).

(٢) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٢٤٣٨).

فقال له بعض المجالسين: أن الدنو في قول: «أَوَدَّتْ» ربما يشعر ببقاء الإثنية فقال: إن عدم التناهي يقتضي ذهاب الإثنية بالكلية، إذ كلما قدرت دنوا أكثر من الآخر فتطلب أدنى التي هي أفعال التفضيل زيادة على ذلك، حتى يكون دنوه منه إليه فيه عنه، ووراء ذلك ما تضيق عنه العبارات وتكلل الإشارات، فمعراجة في الحقيقة إنما هو السفر من مقام بشريته إلى مقام حقيقته ﷺ.

ثم إن للعارفين عروجًا يشاكل حقيقة عروجه ﷺ فتارة يكون ذلك في الحقيقة الإلهية كما تقدم لك في قصيدة سيدي عمر بن الفارض ﷺ وتارة يكون في حقيقته ﷺ ومن أكابر أهل هذه المرتبة سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ فكان من تحققه به أنه كان يرى جميع الوجود مترجمًا بلسانه ﷺ وهي العلة الموجبة لقلة روايته عنه ﷺ الحديث، إذ هو من أقل الصحابة رواية عنه ﷺ وما ذكرنا من تحقق سيدنا أبي بكر ﷺ به إنما هو بحسب مكانته وحظوته منه ﷺ وإلا فهو ﷺ البحر المحيط الخضم الواسع الذي انحسرت عن أدنى أجزاء جزئياتها المطامع، وفيه قال سيدنا أويس القرني ﷺ لسيدنا عمر وسيدنا علي - رضي الله عنهما - لم ترنا من رسول الله ﷺ إلا ظله، قالوا: ولا ابن أبي قحافة، قال: ولا ابن أبي قحافة، ولذلك قال الشاعر ﷺ: ما أبصر الأقوام غير خياله حتى الفنى أعلاهم نظر والكل لو علموا جمال محمد إذ قام بدعوههم لأمن من كفر إنما مثلوا صفاتك لنا من كما مثل النجوم الماء

وقوله: (إنما مثلوا) أي: الواصفون من الرسل والأنبياء والأولياء وغيرهم. وقوله: (كما مثل النجوم الماء) مراده بهذا التشبيه: أن الماء يظهر النجوم في انعكاس عن وصفها الأصلي، فإنك ترى أكبر ما يكون من النجوم في ملء الكف من الماء، مع أن أصغر ما يكون من النجوم بزنة الأرض آلاف المرات، وأيضًا النجوم مع أن بيتنا وبينها آلافًا مكررة من السنين في جهة العلو فإنك تراها تحتك، وأيضًا أن النجوم مع أنها في ماهيتها على غاية من النورانية التي لا تدرك ولا تكيف، فإنك تراها في الماء في البريق واللمعان كالزجاجة إذا انطبع فيها نور الشمس.

ووجه الشبه أن المصطفى ﷺ حقيقته من وراء ما يدرك ويعقل، ولا تحده

الحدود، ولا تنتهي إليه أفكار، وإنما لاح للبصائر من وراء حجب جلاله وجماله فأدركته على قدر استعدادها من القوة والضعف والصفاء والكدورة، فمثله بحسبها لا بحسبه، فهي له كالماء وهو لها كالنجم اللائح على وجه الماء، فيمثله الماء على حسب من الصفاء والكدورة وغير ذلك، واختلاف البصائر المشار إليه في هذا المحل هو اختلاف نسبها في الحضرة الإلهية فظهر لكمل العارفين، ومن فوقهم من النبيين والمرسلين في مرتبة جمع جمع مراتب الحضرات، التي لا تنتهي إليها العقول والإدراكات وظهر لمن دونهم في مرتبة الأسماء والصفات، وظهر لمن دونهم أنه كل العالم، ولكن كل من أهل بهذه المراتب الثلاثة من جملة ما ظهر له أنه شاهده له به منه، وأنه سائر منه وإليه^(١).

ثم ظهر لمن دونهم أنه إمام العالم جملة وتفصيلاً فرداً فرداً، وأن جميع الأنبياء والرسول نواب له، وأن شرائعهم شريعة له، وظهرت لمن دونهم أنه أفضل الأنبياء والرسول وأن شريعته أفضل الشرائع.

ثم وراء ذلك أمم الضلالة وأهل العقائد الزائغة - أعاذنا الله منهم بمنه وكرمه - فلا تطيل بذكرهم، ولكن مع ذلك كله فهم في حجاب عنه، إلا أنهم متفاوتون في كيفية الحجاب من لطافة وكثافة، وقال البوصيري رحمه الله في هذا المعنى أيضاً:

وكيف يُدرك في الدنيا حقيقة قوم نيام تسَلُّوا عنه بالعلم.

لأن النائم إنما يرى الشيء متصوراً له في مدركه خياله على حسب قوته في التخيل وضعفه، لا بحسب المتخيل - بالفتح - فيمكن أن يرى الكبير صغيراً والصغير كبيراً، والحيوان حجراً أو العكس، والمعاني أجساداً، أو الأجساد معاني، فدلالته غير مطابقة غالباً فلذلك استعار الإمام البوصيري رحمه الله النوم لإدراك الناس حقيقته رحمه الله وهذا مما يناسب ما ذكرنا من عدم إدراك حقيقته رحمه الله.

ومن ذلك قوله رحمه الله أيضاً: (فمبلغ العلم فيه أنه بشر... إلخ) وهو مشير به إلى أن غاية ما يدركه المدركون من العلوم الضرورية والنظرية والتقليدية والكشفية لا يتجاوز أحكام بشرية رحمه الله ووراء ذلك ما تقصر عنه العقول وتكل عنه الألسن ومن ذلك قوله رحمه الله أيضاً:

(١) [الجمعة ما تفرق من الكمالات].

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فالظاهر من كلامه ﷺ في هذا البيت: أن الدنيا والآخرة من جوده ﷺ وأن علوم اللوح والقلم من علومه ﷺ وهو مسلم، ويبقى معنا بعض إشكال في البيت، وهو أن من كلامه في الموضعين للتبعيض فكيف تكون الدنيا والآخرة من بعض جوده ﷺ وكيف تكون علوم اللوح والقلم من بعض علومه ﷺ مع أنه لا يعرف عندنا غير الدنيا والآخرة؛ لأنهما متضمنان لكل ما كان وما سيكون من العرش إلى العرش، فهل ثم شيء خارج العرش، وأيضاً فكيف تكون علوم اللوح والقلم من بعض علومه مع أنهما مشتملان على كل ما دخل كورة العالم من علوم المخلوقات.

والجواب عن ذلك أنه روي: «إن الله تعالى خلق مائة ألف عالم كل عالم منها لا يعلم أن الله خلق غيره»^(١) ويبقى فيه بعض إشكال أيضاً من وجهين: أحدهما: أنه قد أعطانا وجودنا في هذا العالم بهذا الحديث وهو نص في الإخبار عن هذه المائة ألف عالم.

والوجه الثاني: أن هذه المائة ألف عالم هل هي خارجة عن إحاطة العرش أو لا؟ فإن كانت تحت إحاطة العرش فكيف تكون خارجة عن حكم الدنيا والآخرة وإن كانت خارجة عنه؟ أفيدونا.

والجواب عن ذلك أن العرش من بعض معانيه أنه سرير الملك، فمن هذا القبيل فسرہ العارفون بأنه: كل ما دخل في ملك الله من المخلوقات، والحق ﷻ ما شذ مخلوق عن ملكه، وقد ذكر سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ في الجواب على بعض أسئلة مثل عنها قال: قال بعض الأكابر: أطلعني الله تعالى على سبعمائة عرش فوق العرش، وكلها محيطة به^(٢).

قال الرفاعي ﷺ: إن لله ثلاثمائة ألف عالم، فالعرش وما في جوفه عالم منها، قال وسيلتنا ﷺ: وأما الحجب المحيطة بالعرش فسبعون عرض، كل واحد سبعون ألف عام، وبين كل واحد وواحد سبعون ألف عام، وكلها معمورة بالملائكة الكرام، انتهى من نقل نقلناه من «درر العلوم».

(١) ثم ألق عليه.

(٢) أو علم الرسول مخلوق محدود وليس اللوح والقلم كل ما في علم الله.

فإذا كان هذا الإطلاع للعارفين فما بالك بالرسول وما بالك به ﷺ؟
والجواب الكافي في هذه المسألة أن الحق ﷻ حقيقته لا تدرك ولا تعقل؛ لأن
المرتبة الإلهية هي مرتبة الإطلاق المقابل لمرتبة التقييد والإطلاق، وكل الخلق
حجاب التقييد، وأنتى للتقييد أن يدرك المطلق، ومع ذلك كلفوا بمعرفة الحق ﷻ
بحسبهم لا بحسبه، مع أن البصائر مختلفة، فبصائر الرسل أوسع من دائرة من بصائر
الأنبياء، وبصائر الأنبياء أوسع دائرة من بصائر الأولياء، وبصائر الأولياء أوسع من
بصائر عامة المؤمنين رضوان الله عليهم أجمعين، وكل مرتبة من هذه المراتب بين
أهلها من التفاوت ما لا يحصى.

فمن هذا القبيل اختلفت إدراكاتهم في الحق ﷻ، ومع ذلك فاجتمعوا في حد
واحد وهو قولهم ﷺ: كل ما يخطر ببالك فانه بخلاف ذلك، إلا أن هبة التجلي
تصدمهم حتى تغيب عنهم الوسائط، ويرى الواحد منهم أنه لم يشاركه في تلك
الحضرة أحد، وتندرج عنده جميع الحضرات في تلك الحضرة، فلا يشهد غيرها
ولا يعرف غيرها، فمن هذا القبيل ترى كثيرًا منهم يزعم أنه أخذ العلم عن الله من
غير واسطة، ومنهم من لا يرى مساويًا له في علمه.

فمن ذلك قول سيدنا موسى ﷺ: لما قيل له: من أعلم أهل الأرض؟ فأشار إلى
نفسه، فامتحنه الله تعالى بقصة الخضر ﷺ، وقول سيدنا محيي الدين بن العربي:
أوتيت علمًا لم يعلم به آدم فمن دونه، يعني: من النبيين والمرسلين، فقد علمت أن
كلًا منهم يرى أنه أعطي شيئًا لم يعطه غيره مع دخوله في ذلك الحد، فعلى هذا
يكون الحصر في مائة ألف تقريبًا لا تحديدًا، انتهى.

ومن كلامه ﷺ: اعلم يا أخي أن للعارفين جنة في الدنيا يرتعون فيها، ويزوقون
فيها ما لم يذقه غيرهم من الخلق ممن لم يدخلها، ولذا يقال لهم: أهل الذوق، دون
غيرهم من الخلق، وهي جنة لا حد لنعيمها، وها أنا أبين لك نزرًا من أوصافها، لكن
إذا لم تذق منها كما يذوقون عند سماع وصفها فلا تكذبهم بسبب عدم ذوقك؛
لأنك تعلم أن الجنة التي هي دار النعيم الموصوفة في الكتاب والسنة لم تذق
نعيمها بالوصف، ومع ذلك لم تكذب بها، وكذلك هذه إذا لم تذق منها ما ذاقه
العارفون فلا تكذب بها؛ لأنهم تعرضوا لها بأسباب كثيرة أنت لم تقم بشيء منها،
أو احتضنتهم العناية وأدخلتهم فيها، وظهرت عليهم آثارها، وأنت إلى الآن لم تظهر

عليك، ولكن لا تيأس من روح الله فتعرض لنفحات الله بمحبة هؤلاء القوم واستحسان طريقتهم، لأنهم قالوا: هي أقوى سبب في اللجوء بهم، كما قالوا: التصديق بعلومنا هذه ولاية صغرى، ومن بلغه من علومنا هذه شيء، واعتقده وصدق به، فذلك دليل على أن الله سيفتح له فيه ولو بعد حين، ومن أنكر شيئاً منها سد الله عليه باب الفتح فيه، وكفى بهذا حرماناً.

واعلم أن الجنة التي ذكرناها لك تظهر لهم من باب المعارف، فبيان ذلك أنك تعلم يا أخي أن الجنة الموعود بها أهل العمل ما اكتسبنا النعيم إلا من سبب القرب إلى الله الذي هو رفع الحجاب بين الحق وخلقه، والنار ما اكتسبت العذاب إلا من حيث البعد الذي هو الحجاب بين أهلها وبين الحق، وأنت تعلم أن بعد الحق ﷻ وقربه لا يكون بمسافة ولا جهة، بل كل الخلق في ذلك القرب سواء، لكن من أراد أن يحجبه أشهده الأغيار وأوقفه مع الأسباب التي وضعها في الأغيار، فهناك يتخيل العذاب والنعيم في وجود الأغيار.

وأما من أراد الله أن يرفع عنه الحجاب يشهده وحدة الذات والصفات والأفعال، فهناك ينطوي عنه تخيل وجود تأثير الأغيار، ويستشعر القرب برفع الحجاب الذي هو أصل النعيم فحيث يذوق أعظم اللذات التي مزيد عليها، وبصير عنده التشوق إلى لذة غير هذه اللذة لا يتأتى، ومن حل في هذا المقام وتشوق إلى الجنة الموعودة^(١) قد بلغ الغاية في إساءة الأدب، بل يجرون عليه أحكاماً لا يسعنا ذكرها هنا ومن ذلك قول سلطان العاشقين لما بلغ هذا المقام:

ولو غطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهواً قضيت برؤيتي

وقوله:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيقت أيلامي

وأيضاً: كيف يلتفت لغيره من وجدانها، وأنت تعلم من وجد الله ما فقد شيئاً، ومن فقد الله ما وجد شيئاً، ولأجل ذلك صار أهل الشهود جنتهم ونعيمهم في رفع الحجاب والشهود وعذابهم وجحيمهم في سدل الحجاب دونهم، ومن هنا قالوا:

(١) [من غير شهود].

إن الصوفي ابن وقته، فالوقت الذي هو فيه إن كان وقت شهود فهو جنة، وإن كان وقت حجاب فهو نار ولذا قال بعضهم: والله لو كانت النار خندقاً دونك لخضناها إليك.

ومما يدل ذلك على أنه لا نسبة بين هذه الجنة والجنة الموعودة لعامة المؤمنين، وهذه النار والنار الموعودة للعصاة ما روي: «إن الله تعالى أوعد النار أنها إن عصت يعذبها بنار أشد منها، فقل: يا رب فأين تلك النار التي هي أشد من هذه النار؟ فقال: هي النار التي في قلوب عبادي من خوف الحجاب بعد الشهود» كما قيل: وفي فؤاد المحب نار جوى حرها نار الجحيم أبردها

فافهم، فإذا أراد الله بك خيراً وفتح لك باباً إلى معرفة هذه الجنة التي هي موجودة في كل آن وعلمت أنه لا يمنع منها إلا الحجاب، وعرفت أن ذلك الحجاب أشد من النار، فحيث أصرف جميع هممك إلى التخلص من هذه النار التي لا وصول إلى تلك الجنة إلا بعد التخلص من هذه النار، وإن أردت ذلك فاعلم أن هذه النار - التي هي الحجب - طبقات بعضها أشد من بعض، كما أن تلك الجنة درجات بعضها أعلى من بعض، وكلما تخلصت من حجاب دنوت إلى درجة، وأكبر الحجب وأعظمها الشرك بالله قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْبَسَكَ لُطْلُمًا عَظِيمًا﴾ [لقمان: ٣] وهو أيضاً درجات هي أكبر جلي وخفي، وبعده الانهماك في الكبائر وعدم الامتثال، والطاعة لقول المصطفى وفعله، قال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَزَيْتِكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ [النساء: ٦٥].

وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تباعاً لما جئت به» ولأجل ذلك قال بعض العارفين: من أثر طاعة محبوب على محبوب فذلك المؤثر هو معبوده، فافهم.

ومنها تعلم أن قطع الحجب والدنو إلى تلك الجنة هو بحسب اتباع المصطفى

(١) تقدم تخرجه.

(٢) تقدم.

﴿فَمَا جَاءَ بِهِ، وَمِنْ جُمْلَةٍ مَا جَاءَ بِهِ: إِنَّ اللَّهَ عَنَاءٌ مَنِ احْتَضَتْهُ لَمْ تَضُرْهُ جَنَائِدُهُ، رَوَى مِنْ سَبَقَتْ لَهُ الْعَنَاءُ لَمْ تَضُرْهُ الْجَنَائِدُ﴾.

واعلم أن هذه العناية قد تحتضن الشخص من غير شعور منه، وربما يستوحش منها وينفر عنها، قال سيدي عبد الغني النابلسي:

رب شخص تقوده الأقدار	للمعالي وما لئلك اختيار
غافل والسعادة احتضنته	وهو منها مستوحش تفار
تعاطى القبيح عمداً فليقنا	جميلاً وفلسه دينار
كلما قارف الذنوب أتته	توبة طهرته واستغفار
وعليه إن زل عين من الله	تقبه ويستر الستار
فهو بالله دائماً يترقى	لا به حيث تشرق الأنوار
وفى كابد العبادة حتى	منه قد كل ليله والنهار
ينامي بالذكر وللذكر قصداً	وهو ناء وعنه شط المزار
يفعل الخير ثم يلقاه شراً	وإذا رام جنة فهي نار
حكم حارت البرية فيها	وحقيق بأنها تحنار
وعطابا من المهيم دلت	أنه الله فاعل مختار

وبعض من الناس يشعر بها؛ لأن لها أيادي تسوق صاحبها إليها، وكلما ظهرت له يد من تلك الأيدي تنسم عليه من روح تلك الجنة نسيم، ويشير إلى ذلك قوله: ﴿اللَّهُمَّ أَذْقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وَحُلَاوَةَ مَغْفِرَتِكَ﴾^(١) وأنت تعلم أن البرودة والحلاوة من الجنة كما أن الحرارة والمرارة من النار، ومن جملة نسيم هذه الجنة ما يذوقه العارفون عند تلاوة القرآن والأذكار والطاعات، ولذلك قال: ﴿وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي

(١) ذكره الذهبي في تلخيص الموضوعات لابن الجوزي (٩٨) وقال: فيه ابن محرز وهو ساقط إسناده.

في الصلاة»^(١) وقال لبلال يأمره بإقامة الصلاة: «أرحنا بها يا بلال»^(٢) وأنت تعلم أن الجنة هي دار الراحة، انتهى.

قلت: إن هذه الجنة يتفاوت العارفون فيها على حسب مراتبهم، حتى أن الواحد منهم يذوق بحواسه الخمس في كل جراحة فيضير يبصر ويسمع ويذوق ويشم بحاسة النظر، التي هي العين مثلاً، وقس على ذلك باقي الحواس الخمس، وقد أشار إلى ذلك سيدي عمر بن الفارض رحمه الله بقوله:

فلان خذثوا عنها فكلني مسمع وكلني إن خذثهم السن تلو

حتى إن الواحد منهم يذوق لذة الجماع وهو جالس معك ويتكلم معك وهو في طور آخر، وممن ذاق من هذه الجنة نصيباً وافراً شيخنا رحمه الله يعلم ذلك من حضر مجلسه، وشاهد شيئاً من أحواله حتى أنه في بعض الأماكن يكاد يخرج عن حسه من قوة ما يرد عليه، وذلك مُشاهد كثير لا يحصى، والمنصف يعلم ذلك من هذه الواردات وبعد مرماها ولذتها كما قيل:

كل كلام يتحلى بحلى كسوة قلبه الذي منه جلا

وقد حضر أخونا الشيخ علي أحمد عثمان في جماعة من الفقراء ذات ليلة من الليالي بمنزل سيدنا وقدوتنا إلى ربنا شيخ الطريقة وإمام أهل الحقيقة شيخنا السيد محمد الشريف، ومعه صلاة وردت عليه في وقت العصر، فعرضها على حضرة الشيخ، فلما قرئت عليه من أولها إلى آخرها بقي الوقت مزجها بصلاة أخرى عديمة المثال، وجعلها لهذه الصلاة كالشرح، ومجال الصلاتين المذكورتين في ميدان الحقائق والتنزلات الأحمدية والمحمدية، ثم إن حضرة الشيخ اعترأ فيها بعض حال ووجد وصاحبه إلى أن انفض المجلس ولم ينقطع، ثم قام مع الفقراء وكنا نحسبه أنه مقدم لهم على حسب عادته معهم إلى أن تجاوز حد العادة ونحن

(١) أخرجه أحمد (١٢٣١٥)، والنسائي (٣٩٣٩)، وابن سعد (٣٩٨/١)، وأبو يعلى (٣٥٣٠)،

والحاكم (٢٦٧٦)، والبيهقي (١٣٢٣٢)، والسيوطي (١٦٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣١٣٧)، وأبو داود (١٩٨٥).

(٣) القائل هو الشيخ الحسن بن عبد القادر تلميذ سيدي محمد بن المختار.

معه، فعلمنا أنه في طور آخر، وصدرت منه في الطريق ذهاباً وإياباً كلمات كثيرة الغالب منها مسجع، والبعض منه لم تفهم معانيه لقصور أفهامنا عنه، فمن ذلك أنه قال: من لم يعرف الحق لمن استحق فهو باطل زهق، يكون في قلق، ثم قال: أنا من أعيان تلك الملة ومن روح تلك الملة، ثم قال لي: ما قولك في حرف بلا هوى، وقبس بلا نجوى، وقلم بلا لوح، وسفينة بلا نوح، ثم قال: الوجود قط وفار، وظلمة وأتوار، وليل ونهار، وإسرار وإظهار.

ثم قال: ﴿هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَنِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] ثم لما رجعنا إلى المنزل فجلس وجلسنا حوله قال: ﴿إِنِّ إِلَى رَبِّكَ أَلْتَجِئُ﴾ [العلق: ٨] ثم قال: ﴿أَزَعَيْتَ إِنْ كَذَّبْتَ وَتَوَلَّى﴾ ألم يعلم بأن الله يرى ﴿[العلق: ١٣، ١٤] ثم قال: أحمد بلا ميم يقال، ومحمد بلا دال هي حم سبحانه الكريم المتعال، ثم التفت إلى بعض الحاضرين فقال لهم كالمستفهم: ميم هي ميمان، مشيراً إلى بسائط الحروف، فقبل له: نعم، فقال: أحمد بلا ميم يقال، ومحمد بلا دال هي حم، ثم أمر بقراءة أوائل الحواميم السبع، فقرأ أخونا الطاهر بن رحيمات أول سورة غافر إلى أن بلغ ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، فأمره بقراءة ما بعدها فقرأ أول سورة فصلت فلما قال: ﴿كَتَبْتُ فَضَّلْتُ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣] صاح صيحة كالمتأوه قائلاً: الله، ثم أمره بقراءة ما بعدها فقرأ أول شورى حم ﴿عَسَى﴾ [الشورى: ٢] فقال: العين عينه، والسين سناؤه، والقفاف قوله، ثم أمره بقراءة ما بعدها فقرأ أول سورة الزخرف، فلما قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] فقال: كالمتعجب ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ فأمره بإعادتها فأعادها فلما بلغ قوله: ﴿لِّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال: هو القرآن، وهو العربي، وهو العاقل، ثم قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أن جاءه الأعمى ﴿[عبس: ١، ٢] ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِقْتَ عَظِيمًا﴾ [الفلم: ٤] المتنم الجبار الرؤوف الرحيم، ثم قال: ﴿هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَنِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١] فقال: الدهر هو الله، ثم قال: الكون كله نور، وإنما حجبته نور الحق الباطن الظاهر ثم قال: الكون كله نور، وحديث جابر للعاقل يكفيه وإنما حجبته الحق فيه، وابن عطاء زاد الغطاء ثم قال: الوجود حق لا مرية فيه، والمرية حجاب له فيه، ثم قال: أحمد بلا مقابل، ومحمد بلا محمود، ثم قال: ما هو مقابل أحمد أم هو حامد؟ فقبل

له: نعم، فقال: وما هو مقابل أحمد أم هو محمود؟ فقبل له: نعم فقال أحمد بلا حامد ومحمد بلا محمود، ثم قال: «وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ» [العنكبوت: ٤٣] ثم أمر بعض الحاضرين بقراءة الآيات التي تليها هذه الآية فقروا: «مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ ذُوبٍ أَلَمٍ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَصَكِيَّاتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا» [العنكبوت: ٤١] ثم قال معناه بل هو الولي وحده ثم أتى بعد ذلك بآيات من القرآن وكلمات جميلة حال بيني وبينها النسيان، ثم رفع يديه بالدعاء فدعا بأدعية شتى أجراها الله على لسانه لم أحفظ منها شيئاً لاشتغال قلبي بطلب القبول من الله تعالى، ثم استقر أني أواخر معراج الحضرات وصلاته المسماة بوسيلة العناية بتمامها في أثناء الدعاء، ثم دعا بعدها بدعوات وأمن ثم أقرن الحاضرون بتأميت ثم نطق بيت من «المنية» فقال:

لشبهه سيد العباد أحسن كل حاضرو وباد

وأعقبه بآية من القرآن وهي قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُنَاقِضُونَكَ» [الفتح: ١٠] قلت والمراد من مجموع هذه الإشارات وتصريف العبارات في محبة الله ومحبة سيد الوجود ﷺ وسيدنا الشيخ أحمد التجاني ﷺ وهو نائه في بحر شهود الوحدة المطلقة في المراتب الثلاثة فعبّر عنها بما ذكر.

ثم قال ﷺ: نظرت إلى النجوم فإذا هي مغتبطة بمجلسنا هذا، ويتمنى كل واحد منها أن لو كان مكان أحدنا، فقبل له: مم اغتباطها؟ فقال: بما أفيض علينا، انتهى ومن كلامه ﷺ: في معنى قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا» [الإنسان: ٢٠] قال: أما النعيم فهو ما يتنعم به، فهو أعم من الملك، ولا يتم إلا به، ولذلك أرفقه به، فقال: وملكاً كبيراً، فهو من قبيل عطف الخاص على العام، وتعت بالكير إظهاراً لمزينة وشرفه على الملك الدنيوي، وهذا الإظهار تقريبي لا تحقيقي، لأنه ما ثم مناسبة إلا باعتبار الموافقة في التسمية وتفاوت الدرجات فيها فقط قال الله تعالى: «أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَئِنَّ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ مِنْ دَرَجَاتِهِ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا» [الأنعام: ٢١].

(١) القائل: هو الفكي الحسن.

أما التسمية: فلأنه ما من شيء من المسميات المحبوبة في الدنيا إلا وله نظير في الجنة مع بعد المناسبة من كل وجه؛ لأن الأمور الآخروية من وراء طور العقل والحس. وأما تفاوت الدرجات فيعلم بضرب الأمثال من أمراء زماننا اليوم، فإن أقل الناس إماراً [الغريف] "مثلاً كونه تحت الشيخ، وقس ذلك في نفر، الجهاد وما فوقه إلى حد العدير، فإنه له حظاً من الإمارة مع كونه وأهل مملكته تحت الحكمदार مع كون الحكمदार، ومن دونه تحت الوزير المصري، مع كون الوزير المصري، ومن دونه تحت الصدر الأعظم الذي هو نائب السلطان، مع كون السلطان فوق الكل، وانظر نسبة أقل الناس في دار الدنيا إلى السلطان، وزد في قياسك أضعافاً لا نهاية لها، فعلى قدر ما يصل عقلك.

فاعلم يقيناً أنك ما بلغت أقل القليل في النسبة بين أقل أهل الجنة والذي يليه، فتفاوت أهل الجنة بهذه المثابة، إلا أنه يتسع بحسب اتساعها واتساع أهلها وهو الاتساع الحقيقي الروحاني الذي تقدر الروح بسببه على التطور في المحسوسات والمعقولات وتتمكن من الروح والتمتع في جميع العوالم المثالية والخيالية والصورية والنورية والروحانية وغير ذلك؛ لأن هنالك يغلب حكم الروح على الجسد بخلاف الدنيا، فإن أهلها ليس لهم إلا التمتع بعالم الحس وما يلبسه من الأمور الوهمية والخيالية مع ما يلبسها من المقابلات الجمالية من أحكام التقيص من الفقر والموت وغير ذلك من المصائب الواردة في الأموال والأنفس وتوهم ذلك كله، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] إلى غير ذلك.

ثم مع ذلك مال أمرها إلى الزوال والتلاشي؛ لأن أمور الدنيا كلها مجازية واعتبارية لا حقائق لها من ذاتها، وأما أمور الجنة فإنها حقيقة؛ لأن الجنة حقيقة، وإليها يشير قوله ﷺ: «إن الله بنى جنة عدن بيده»^(١) أو كما قال ﷺ.

ولذلك لا يدخلها إلا أهل المراتب الحقيقية، وأهل المراتب الحقيقية هم المتعلقون

(١) في الأصل (الجراي).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٠١)، وأبو نعيم في صفة الجنة (١٣٥)، وفي الحلية

بحقيقة الحق من أهل الشريعة، وأهل الحقيقة إما في مرتبة علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين وهم الأنبياء والرسل وكافة المؤمنين وتفاوتهم فيها إما بحسب تفاوت درجاتهم في مراتب الإيمان، وإما بحسب أعمالهم وإما بحسب ما يتفضل الله به عليهم من غير علة ولا سبب.

فأما تفاوت الدرجات فليس عامة المؤمنين كالأولياء رضوان الله عليهم، ولا عامة الأولياء كالأقطاب من هذه الأمة، ولا هم كالوارث المحمدي، ولا الوارث المحمدي كالصديق الأكبر رضوان الله عليهم ولا هم كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا عامة الأنبياء كالرسل - عليهم الصلاة والسلام - ولا عامة الرسل كأولي العزم منهم، ولا هم كنبينا محمد ﷺ لأنه عنصر هذه المراتب وينوعها وسرها ومجموعها، وأما تفاوتهم في الأعمال فهو بحسب الأعمال كثرة وقلة، ولكل عمل ثواب مخصوص لا يوجد في الآخر، وفي ذلك يقول ﷺ: «إن في الجنة باباً يقال له باب الريان لا يدخل منه إلا الصائمون»^(١).

وفي هذه المرتبة قد ينال المفضل ما لا يناله الفاضل، وأما تفاوتهم بحسب فضل الله ورحمته فهو ما يختص الله به بعض الأنبياء وأممهم بما لا يختص به غيرهم أو ما يختص الله به بعض الأولياء وأتباعهم بما لا يختص به البعض، ولذلك تفاوتت الأولياء والأنبياء والصحابة في المزايا دنيا وآخرة، ومن هذه الحشية قول سيدي عبد القادر الجيلاني ﷺ القائل: البيضة منا بألف والفرخ لا يقوم.

فلذا فهمت هذا فاعلم أنه قد اجتمع لسيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ من الفضائل والمزايا جميع ما تفرق في الأولياء من الفضائل والمزايا؛ لأنه خاتم الأولياء، واجتمع لأصحابه ﷺ جميع ما اختصت به الأولياء المتقدمين والمتأخرين بطريق التبعية له ﷺ، حتى أنهم خصوا بمزايا لم ينلها أكابر الأولياء حتى أنه اجتمع لنبينا محمد ﷺ جميع ما تفرق في الأنبياء والرسل من الفضائل والمزايا بل الفضائل نالوها منه فهي له بالأصالة ولهم بالتبعية كما قال البوصيري ﷺ: فكل فضل منك استعارة الفضلاء. وقال أيضاً:

(١) أخرجه مالك (١٠٠٤) وأحمد (٧٦٢١) والبخاري (١٧٩٨) ومسلم (١٠٢٧) والترمذي (٣٦٧٤) والنسائي (٢١٣٩) وابن حبان (٣٠٨).

لك ذات العلوم من عالم الغيب — وب ومنها لآدم الأسماء

فالفضائل فيه ﷺ ذاتية^١ لأنه خاتم الأنبياء، ونالت أمته جميع الفضائل، والمزايا المتفرقة في الأمم السابقة، وخصوا أيضًا بطريق التبعية لنبينا محمد ﷺ بما لم ينله الأنبياء حتى تمنى أكابر الرسل أن يكونوا منهم.

ومما يدل على أن الجنة حقيقية أمور متعددة تخالف الحس منها أن عرفها يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ومنها أن صور ساكنيها مكتوبة على أشجارها وأنهارها وحورها وقصورها وطبورها وعرضاتها وغير ذلك، ويتمنون لقاء ربهم على ممر الأوقات، فإذا توجهوا إلى الجنة يتأخر كل نفر منهم، ويفرحون أشد الفرح بقدوم صاحبهم، فإذا وصلوا إلى أبوابها تلقاهم الملائكة بالترحيب والتسليم والتبجيل والتفخيم والتكريم كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وقال تعالى أيضًا: ﴿وَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣] ثم إنهم إذا دخلوا الجنة تهنئهم الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَنِّ الْغُفَى الْأَذَى﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] ومن ذلك أن جميع أزواجهم وأملاكهم وأشجارهم وأنهارهم، وغير ذلك تلقاهم بالبشرى والفرح والسرور ويتمنى كل واحد منهم أن يبدأ به أولاً.

ومن ذلك أن أدنى أهل الجنة يعطى قدر الدنيا عشرة آلاف مرة ويعطى الواحد منهم عشرة آلاف من الحور العين.

ومنهم: من يعطى ما يزيد على عدد الملائكة بأضعاف مضاعفة إلى غير نهاية، ومع ذلك بقدر على إتيان جميعهم في الآن الواحد، ويمكث مع كل واحدة منهن قدر عمر الدنيا سبعين ألف مرة من غير تجزئ منه ولا تعدد في الزمن.

ومن ذلك أن فيها قصورًا من الباقوت أو من الذهب والفضة طول القصر مسافة ألف سنة طولاً وعرضاً وأن ترابها المسك، وحصباءها الدر والياقوت وحشيشها الزعفران.

ومنها: أن ساكنها يعطي من الأشجار والأنهار والحدود والقصور ما لا نهاية له ويطوف على جميع ذلك في لحظة من غير تعب ولا نصب وذلك لأن الروح في الجنة حاكمة على البدن، وخواطرها ذاتية فلا يخطر لها خاطر، إلا ويحصل في أسرع من لمح البصر، لأن قوة الروح من وراء العقل ومن تلك القوة يقدر الإنسان على أن يتلذذ بالأكل، من جميع بدنه، فلا يختص بالأكل عضو منه دون عضو، ويشرب من جميع بدنه، ويتكح من جميع بدنه، من كل ما أراد من الطعام والشراب والنكاح، وكذلك المراثيات والمسموعات فلا يشغله هذا عن هذا^(١).

ومنها أنه يأتيك الطير المشوي وغيره من الفواكه فتأكله ثم يقوم على حاله وذلك لأن جميع ما في الجنة من أشجار وأنهار وحصىاء وحبوط وغيرها حيوان حي ولا يدركه الموت، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْخَيْرَاتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وكل ما أكلت طعاماً أو شربت شراباً أو غير ذلك فإن حياته، تضاف إلى حياتك، وهي حياة الروح الحقيقية وإن شربها وطعامها ليشرب منه صاحبه أو يأكل مدة ألف أو أزيد ولا يضجر منه، ولا يتفد المشروب ولا غيره، ويتلون له في كل ساعة بلون وطعم آخر، قال الشاعر:

بها الكأس يبقى ألف عام على فم فلا تافد هذا ولا ذاك يضجر

ومن ذلك أن فيها سوقاً عظيماً يسير إليه الناس، وتلك الأسواق هي مواسم المسلمين، كيوم الجمعة والعيد، فإن الناس يجتمعون فيه ويكتسبون جمالاً فيزدون جمالاً على جمالهم أضعافاً، وهكذا كل ما حواه يزيد جمالاً أضعافاً مضاعفة، فيذهب إلى داره وما حوته من الحور والغلمان فيقولون له: بأي وأمي من أين اكتسبت هذا الجمال، فيقول لهم: من سوق الجمعة فيقولون له: بأي سبب؟ فيقول لهم بالصلاة على النبي ﷺ، وهو كذلك يرى جمالهم قد زاد أضعافاً مضاعفة لا نهاية لها، فيقول لهم من أين اكتسبتم هذا الجمال، فيقولون له من سوق المتعة، وهكذا جملة مواسم المسلمين، ولهم عوازيم.

(١) [بأن ربها فلا تحتاج لأنة].

(٢) [في الحد الذي قسمه الله له].

ولو تتبعنا شرح ذلك لاحتاج إلى مجلدات وفيها صور جميلة، فمن رأى صورة أعجبه دخل فيها فتكون صورة له زيادة على جماله السابق قال الله تعالى في وصف الجنة: «لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ» [الواقعة: ٣٣] أي: لا مقطوعة بالأثمان ولا ممنوعة ببعد المسافة والمسافة، وقال تعالى: «مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِشْتَرِيقٍ» [الرحمن: ٥٤] والإشتريق هو الحرير الخالص الذي بلغ الغاية واللين وقال ابن عباس: فإذا كان بطائنها من إشتريق فما بالك بطواهرها، وروي أن

الإنسان إذا جلس على الفراش يهوى به سبعين خريفًا من لينة، ومن ذلك أن أدنى الجنان لو نزلت منها حبة عنب أو غيرها من الثمار فضلًا عن الحور العين إلى الدنيا لأطفأت نور الشمس، ولو نزلت حبة عنب أو غيرها من الثمار فضلًا عن الحور العين من الجنة الثانية إلى الجنة الأولى لأطفأت جميع أنوارها، وفتنتهم عن ما عندهم، ولو نزلت حبة عنب أو غيرها من الثمار من الجنة الثالثة إلى الثانية لأطفأت جميع أنوارها، وفتنت أهلها عن ما عندهم، وهكذا إلى الثامنة، وهي عليون، فلو خرجت منها حبة عنب أو غيرها من الثمار إلى ما تحتها وهي الفردوس لأطفأت جميع أنوارها وفتنت أهلها عن ما عندهم.

وبالجملة فجميع ما ذكر في وصف الجنة وساكنيها إنما هو بحسب ما صرحت به ظواهر الكتاب والسنة، ووصلت إليه العقول، وأما على الحقيقة ف وراء ذلك ما لا يخطر بالبال، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَعْطِي لِعَبْدِهِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١) أو كما قال، وهذا كله بالنظر إلى نعيم الجنة، و وراء ذلك مرتبة أهل النظر إلى وجه الله الكريم فإنهم يستغيثون من الجنة ونعيمها كما يستغيث أهل النار من النار، لأن نعيم الجنة [أوحده] بالنسبة إلى وجه الله الكريم ثم بهذه المثابة، ومن عجيب أهل هذه المرتبة أن من حظي بالنظر إلى وجه الله الكريم ثم رجع إلى أهل الجنة فإذا شهد أهل الجنة يثلثون بالنظر إلى وجه الله.

ويغيثون عن الجنة، وما فيها؛ لأنه ينسحب عليه التجلي الذي قال في حقه اليوشي: فيسون النعيم إذا رأوه... إلخ.

وأهل الجنة متفاوتون في أمر الرؤية، فقد ورد في بعض الأحاديث ما معناه: «أن منهم من يكون دائم النظر، ومنهم من يراه في الساعة مرة، ومنهم من يراه في اليوم مرة، ومنهم من يراه في الجمعة مرة، ومنهم من يراه في الشهر مرة»^(١).

وقد سألت شيخنا رحمته عن معنى هذا الحديث، فقلت له: فكيف يحجبون عنه بعد الرؤية مع أن لذات الجنة لا يعثر بها النقص، بل لا يزال أهلها في ازدياد.

قال رحمته: ما ثم حجاب، فإنهم إذا رآوه أولاً وثانياً وثالثاً، فإن تكرار الرؤية ليس عن حجاب، وإنما هو شهود وتجدد التجليات فقط فيكون مثلاً إذا تجلى الحق تعالى عليه بالاسم (الرب) تغيب حضرة هذا الاسم عن الجنة وما فيها، ثم إذا تجلى عليه ثانياً مثلاً بالاسم (الفيوم) يشهد من تجلى عليه هذا الاسم ما يكون الأول بالنسبة إليه كسواد الليل إلى ضياء النهار، وهكذا دائماً أبداً، وكلما تجدد عليه التجلي يرى كأنه كان في حجاب، وفي الحقيقة لا حجاب، فقد تبين لك ما بين مقام أهل الرؤية، وأهل النعم في الجنة^(٢).

ثم من عباد الله الكثر من يجمع الله لهم بين كمال النعيم في الجنة وكمال النظر إلى وجه الله الكريم، فلا يشغلهم هذا عن هذا، فإذا فهمت هذا فاعلم أن أهل الجنة منهم من يعطى في الجنة على قدر عمله، وأهل الأعمال متفاوتون كما قدمنا، ولكل عمل خاصية لا توجد في الثاني كأهل الصلاة والصوم وأهل الصدقة وأهل الذكر وأهل الجهاد وغيرهم، ومنهم من يعطى بحسب مرتبته في الإيمان سواء كان من عامة أهل الإيمان أو من الخاصة كالشهداء والصديقين والأقطاب وغيرهم من أهل العرفان، ومنهم من يعطى بفضل الله ورحمته من غير ترتيب على شيء من ذلك.

وأصحاب سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمته لهم من ذلك أوفر حظ ونصيب، فأما من جهة الأعمال، فإنه قال رحمته: إن كل من عمل لله عملاً وتقبل منه يعطينا الله ولأصحابنا أكثر من مائة ألف ضعف مما أعطى لصاحب ذلك العمل، فلو لم يكن

(١) لم ألق عليه حديثاً مرويّاً، وقد روي: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر أزواجه وخدمه وسرره وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر في وجه الله كل يوم مرتين» أخرجه أحمد (٤٦٢٣) والحاكم (٣٨٨٠) واللائكالي (٨٤٠).

(٢) أو الكل يرى بحسب مرتبته.

إلا ذلك لكفى فضلاً عما أعطاه الله لهم من الدوائر المحيطة بجميع الأذكار كصلاة الفائح لما أغلق وجوهرة الكمال وغيرهما [من محض الفضل لا العمل] وأما من جهة المراتب، فإنه ذكر ﷺ أن أصحابه أعلى مرتبة من أكابر الأقطاب.

وذكر ﷺ أيضاً أنهم ينالون من ثواب الأنبياء "فقل له ﷺ: ثواب الأعمال أم ثواب المرتبة؟ قال ﷺ: ثواب الأعمال وثواب المرتبة".

وأما من جهة إعطاء الله لهم من جهة الفضل والمنة فحسبك تسمية هذه الطريقة بدائرة الفضل والعناية، ومن حيثية هذه الدائرة نالوا ما نالوا، ومع ذلك ما ضمن لهم لا يحل ذكره في هذه الدار، جعلنا الله من حزب هذا الشيخ العظيم، ورزقنا جواره في دار النعيم آمين، آمين، انتهى.

لكل شيء حقيقة

ومن كلامه ﷺ قال: لكل شيء حقيقة، وللحقيقة حقيقة إلى أن تنتهي إلى الحقيقة التي هي حقيقة الحقائق، وكل حقيقة هي أصل بالنسبة إلى ما تحتها مثاله أن الإنسان خلق من ماء مهين، كما قال تعالى: «أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مُهِينٍ» [المرسلات: ٢٠] الآية، وهذا الخطاب لذرية آدم ﷺ وأما آدم ﷺ فمن التراب؛ ولذلك قال ﷺ: «كلكم لآدم وآدم من تراب» وقال الله تعالى: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ» [طه: ٥٥] وإلى ذلك أشار الإمام على كرم الله وجهه بقوله:

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبـوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم في أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء

فإذا علمت ذلك، فاعلم أن التراب خلق من الماء أيضاً، والماء من الدرة البيضاء، وهكذا إلى أن تنتهي إلى النور الأول الذي ما وراءه وراء إلا مرتبة الطمس

(١) [بطريق الوراثة].

(٢) [أحدث كافل اليشم وكونه معه ﷺ معروف].

(٣) أخرجه أحمد (١٠٧٩١) وأبو داود (٥١١٦) والترمذي (٣٩٥٦) والرافعي (٦٢/٢) والخطيب

(١٨٧/٦) والبيهقي (٢٠٨٥١)

والعماء، فإذا تقرر ذلك، فاعلم أن مدح الأصل مدح للفرع بالضرورة، ولا يلزم من مدح الفرع مدح الأصل، لأن حكم الأصل منسحب على الفرع ولا عكس، مثاله أنك إذا مدحت إنساناً بعينه ليس كمدحك للقبيلة، وليس من يمدح جميع بني آدم كمن يخص تلك القبيلة لكونها داخلة في عموم بني آدم، وهكذا الأمر مع تسلسل الحقائق التي بعضها فوق بعض، ومن بعض ما يوضح المقصود، وهو تفاخر العناصر الأربعة: الماء والتراب والنار والهواء، وتفاخر آيينا آدم ﷺ وإبليس عليه اللعنة مع أن اللعين لا شرف له يساوي شرف آدم ﷺ لأنه من النار، والنار محل العذاب والنكال، ولا يحصى ما فيها من الضرر، واللعين سار بسيرة أصله، وأبونا آدم ﷺ من التراب ومعلوم أن الأرض هي الحاملة لجميع المخلوقات السفلية، ومحل نزول الملائكة والأمر الإلهي، ومنها تنبت الأرزاق والمنافع إلى غير ذلك.

فإذا عرفت ذلك، فاعلم أن رسول الله ﷺ هو النور الأول الذي هو حقيقة جميع المكونات، وشخصه فرد من أفرادها، فعلى هذا فمن أراد أن يتكلم على لسان حقيقته ﷺ فإنه يتكلم على حقيقة نفسه، لأنه هو حقيقة الحقائق ﷺ ومن مدح حقيقته ﷺ فإنما مدح نفسه، ومدح أفراد جميع العالم [بوجه] بالضرورة. ولذلك كان أكثر العارفين إذا تكلم إنما يتكلم على حقيقته ﷺ وكان الأمر منه وإليه، ونسبته إليه من جهة أنه حقيقة كل شيء ﷺ.

ثم قال ﷺ بعد كلام طويل: إذا تأملت في شطحات الأولياء، وعرفت بها علو مقامهم، واتساع دوائرهم ثم اتخذتها سلماً ترتقي به إلى معرفة اتساع دائرته ﷺ يظهر لك أمر لا يقدر قدره، مثاله: إذا سمعت مقالات أحد من الأقطاب الكبار كسيدي إبراهيم الدسوقي وإشاراتهم إلى أنفسهم بما لا تقدر العقول على وصول حده فضلاً عن تجاوزه فيقدر كيف يقول الوارث المحمدي الذي يستمد منه الدسوقي وغيره وإن نهاية الأقطاب بدايته.

وإذا قدرت حال الوارث المحمدي مثلاً فكيف بمراتب الصحابة رضوان الله عليهم الذين فازوا بدرجة الصحبة^(١) وكيف إذا أضفتهم إلى الصديق الأكبر الذي بدايته نهاية الأولياء، ثم إذا ارتقيت بفكرك من مقام الصديق الأكبر فكيف بك إذا

(١) [أبدانهم نهايته].

تتمركز في مراتب النبيين الذين بدايتهم نهاية الصديق، ثم كيف بمراتب عامة الرسل الذين بدايتهم نهاية النبيين، ثم سر منهم إلى أولي العزم من الرسل ثم سيدنا محمد ﷺ فإذا كان سيدنا محمد ﷺ أصل جميع المراتب وينبوعها، ويرقى في كل طرفه عين على عدد ذرات الوجود بما لا نهاية له، ثم يترقى فوق ذلك إلى ما يكون بالنسبة إلى ما تحته كالبحر المحيط بالنسبة إلى نقطة القلم، فكيف يقدر قدره؟ وكيف تطبق مقالته أكابر أولي العزم من الرسل فضلاً عن دونهم، انتهى.

قلت: قد يقول المعارض: إن العارفين إذا تكلموا في تلك الشطحيات إنما يتكلمون على لسان الحضرة النبوية أو ذات الحق ﷺ بطريق المعرفة.

فالجواب عن هذا: أن مرتبة الجنتاب النبوي تنزه عن إدراك أكابر أولي العزم من الرسل فضلاً عن دونهم، والأمر في ذات الحق أخرى.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن كلامهم إنما هو بحسبهم، أي: بحسب ما يتجلى لهم، ويصير لهم شهوداً وحالاً بحسب ما يتجلى لهم ويصير لهم شهوداً وحالاً، لا بحسب تلك المراتب، ففي الحقيقة ما عرفوا إلا نفوسهم، انتهى.

التجليات الإلهية

ومن كلامه ﷺ قال: التجليات الإلهية بحر لا ساحل له، ولا يكون السير فيها إلا بالشهود، ثم إن السائرين في مسلك الشهود على ثلاثة أقسام:

أحدهم: المتجرد المعتزل عن الخلق، وهذا القسم أقرب إلى قطع الحجب وصفاء الأحوال وأمكن في معرفة الله تعالى في وجهة دون وجهة غير أنه إذا حصل له تشاغل بالخلق في أثناء سيره، ودخل عليه ما يكدر صفاء وقته يكون حجاباً أكثف من غيره من السالكين؛ لأنه دخل عليه الظلام من وجهة لم يرتفع الحجاب عنه فيها.

والثاني: المتشاغل بالله مع مخالطة الخلق حيث يرى أن الكل توجهات إلهية فيعرف الله في أي وجهة تعرف إليه فيها من وجوه التعرفات فهذا إذا دخل عليه الظلام من وجهة، وتراكمت عليه الغفلة مثلاً يرى عند انتباهه من تلك الغفلة أن ذلك من جملة التعرفات الإلهية، ولكن بعد أداء ما يناسب منصب الشريعة من الأدب بنسبة التقصير إلى نفسه بوجه ما توفية لمقام الأدب، وهذا أكمل لجمعه بين مرتبتي الجلال والجمال.

قلت: فهذا هو الأكسير المعنوي الذي يصير الظلمة نوراً كما أن الأكسير الحسي يصير التحاس ذهباً، فرضي الله عن شيخنا ما أغرصه في المعاني الغامضة وما أعرفه بجلاء ظلمات النفوس العارضة، انتهى.

والثالث: السالك المتشغل بالحق والخلق كالثاني لكن قد استوثق عنده مرتبة الجلال والجمال فهو بينهما كالقسطاس المستقيم إلا أنه في كليهما دائماً يرى مطلوبه وراء الوري، وهو أعز السالكين.

ثم قال: وكيفية الشهود من جهة حقيقة النبي ﷺ أولى، لأنه الحجاب الأعظم والمصراط المستقيم بين الحق والخلق، فلا وصول لأحد إلا بواسطته ﷺ، ومن رام الوصول من غيره انقطع وانفصل، وهذا الكلام يحتاج إليه جل السالكين في هذا الزمان، ومن عدمه فهو إلى العطب أقرب، والسلام.

حقيقة الإنسان

ومن كلامه ﷺ قال: إن الإنسان من حيث حقيقته راجع إلى الحق، ومن حيث بشريته خلق، ومن حيث شهوته بهيمي، ومن حيث ما هو متصل به من الحبل والمكر والخديعة ونحوها شيطاني، ومن حيث روحه ملكي، ومن حيث جسمه حيواني، فلما أكمل الله تعالى فيه هذه الصفات المتضادة وأكرمه بالعقل الذي يميز به حسنها من قبيحها، وساد به على المخلوقات، وصار قابلاً للكمال في جهتي السعادة والشقاوة، اللهم إلا أن تلك القابلية حيث لم يظهر مقتضاها صار مشاكلاً لسائر الحيوانات في سائر حركاته وسكناته، وهذه الحالة لا تليق بحال تلك القابلية، ولا بحال التحمل المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية، فهناك كلفه الحق بالأحكام الشرعية فسار كل فريق من قسمي السعادة والشقاوة في ما خلق له إذ: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(١) فبلغ من قسم السعادة من بلغ إلى حد ما قال الله تعالى له: ﴿إِنَّ الْبَرِّ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وهي مرتبة الفناء في الحق والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً، وهي نتيجة الشبري من الحول والقوة إلى الله تعالى، ولذلك لم يدع تلك المرتبة بنفسه، وإنما

(١) رواه البخاري (٢٧١٥/٦) ومسلم (٢٠٤١/٤).

أضافها الحق إليه من باب المنة، فافهم وبلغ من قسم الشقاوة من بلغ إلى حد ما قال: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» [النازعات: ٢٤] وهو منازعة الربوبية في صفاتها الوجوبية فالسعادة غايتها والشقاوة غايتها.

ولما كانت الأعمال الشرعية تتضمن حركات وسكنات يمكن أن يراد بها موافقة الطبيعة كالقيام والجلوس في الصلاة ونحوها والإمساك في الصوم والأكل والشرب والنكاح، ويمكن أن يراد بها غير الله تعالى كالسجود للأصنام، وما أهل لغير الله، أو يراد به وجه الله تعالى مع مشاركة غيره كالرياء والسمعة وحيث لم يخرج عن المشاكلة الحيوانية، فهناك شرعت النية لتمييز العبادات من غيرها، وأمر بالإخلاص فيها، وهو بداية طريق السالكين إلى الله تعالى، ولتمييز مراتب العبادات قد اتضح لك أن لصحة العبادة شرطين:

أحدهما: أن تكون مطابقة لما ورد عن الشارع ﷺ

والثاني: أن يراد بها وجه الله تعالى، فإن أريد بها غير الله ابتداءً فسدت مطلقاً وأثم صاحبها، وإن أريد بها وجه الله تعالى ابتداءً ثم خالطها الرياء والسمعة فيرجى له القبول، وإنما نقص عن درجة الكمال، وكمال العبادة ألا يقصد بها غير الله تعالى، وهو المسمى بالإخلاص، قال الله تعالى: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» [البينة: ٥] وهو المراد بقول ابن عطاء رحمه الله: «الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها» وأوسطه ألا يرى فاعل إلا الله كما قال تعالى: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ» [الصفافات: ٩٦] ونهايته ألا يرى في الوجود غير الموجود، ولذلك قال الشاعر:

إذا قلت ما أذنبت قالت مجيبة وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

ومجموع هذه المراتب كلها هي النية الشرعية، ولم يقدّم بكمال العبادة كما ينبغي إلا السلف الصالح، ثم لا يزال الأمر يتقص شيئاً فشيئاً.

فأينما تولوا فثم وجه الله

ومن كلامه ﷺ قال: قال الله تعالى: «فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» [البقرة: ١١٥] وقال تعالى: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ» [الحديد: ٤] وقال تعالى: «مَا يَكُونُ مِنْ

تَحْوِي ثَلَاثَةً إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ [المجادلة: ٧] الآية، وقال تعالى: «وَوَحْنٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ» [الواقعة: ٨٥] إلى غير ذلك من الآيات.

وروي: «لو أدليتكم حبلاً لسط على الله» أو كما قال.

فالمقصود من الآيات والحديث أن الحق ﷻ له الإحاطة الكلية بجميع الكائنات الحسية والمعنوية، فهي صادرة منه، وراجعة إليه، ومستوية عنده قرباً وبعداً وفناء واستهلاكاً.

وبالجملة فهي منه وإليه وفيه وعنه وبه وله وهو هو لا غيره، اللهم إلا أن حقائق تلك الإحاطة محتاجة في سرادقات العز والجلال عن سائر العقول والإدراكات لأنها نهاية تلك الإحاطة تنتهي إلى مرتبة البطون، والإدراك لا يتصور إلا في مراتب الظهور إلا أنهم متفاوتون في الحجاب، لأن بعض مراتب الظهور بطون بالنسبة إلى البعض، فالبعض منهم حبسوا في سجن العقول على تجلي الذات، وكانوا فرقاً كثيرة متفاوتة أيضاً، والبعض منهم ترقوا إلى شهود الوحدة، إما في وحدة الأفعال أو الأسماء أو الصفات أو الذات.

فأما الأولون الذين هم أهل العقول لما كان تعويلهم على إدراك العقول، والعقول تعويلها على إدراك الحواس تنزيهاً وتشبيهاً فأثبتوا وجودين: أحدهما: الوجود الحق، والثاني: الخلق، فالبعض منهم ذهب إلى تنزيه الحق عن الخلق، والبعض منهم ذهبوا إلى تشبيهه بخلقه، وانقسم كل فريق منهم إلى أقسام في مراتب التنزيه والتشبيه كأهل السنة والمعتزلة والقدورية والجبرية وغيرهم بخلاف أهل الشهود، فإنهم يشهدون وجهة الحق في سائر المعقولات والمحسوسات وغيرها من حيث إنه لا يشئ شيء عن شهودهم في الوجود، ولذلك قال سيدي سبط ابن الفارض رحمه الله:

فكم بين حذاق الجدال تنازع وما بين عشاق الجمال تنازع

فمراده بحذاق الجدال: أهل الدلائل العقلية، وعشاق الجمال: أهل الشهود، ولما كانت هذه المرتبة التي هي مرتبة الشهود عزيزة المرام ضل عنها أكثر الخلق

في أودية الهوى ومسارح العقل، ولذلك قال بعض العارفين: الناس تائهون عن الحق بالعقل، وعن الآخرة بالهوى، فأما تيههم عن الحق بالعقل فهو ما ذكرناه في مرتبة أهل العقول وهي علة لا تزول إلا بصحبة المشايخ الكاملين أدلاء الطريق.

ثم إن المشايخ رضوان الله عليهم متفاوتون في الدلالة على الله أيضًا، وذلك بحسب كمالهم واستعداد المدلول، فمنهم من يوصل المرید إلى وحدة الأفعال، ومنهم من يوصله إلى وحدة الأسماء، ومنهم من يوصله إلى وحدة الصفات، ومنهم من يوصله إلى وحدة الذات، ثم إن كل مرتبة منها تشتمل على مراتب، وهم متفاوتون في ذلك أيضًا.

وأما تيههم عن الآخرة بالهوى فإن الهوى هو الذي شغل أكثر الخلق عن طلب الآخرة، ولذلك قال ﷺ: «مَا تَحْتَ ظِلِّ الشَّعَاءِ مِنْ إِلَهٍ يُغْبَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَغْطَمَ مِنْ هَوًى مُشْبِعٍ»^(١) لأن الهوى هو مرتع النفس ومشوة الوهم الذي هو محتد إبليس اللعين لعنة الله عليه، وبسبب اتباعهم للهوى غفلوا عن الآخرة، واستبعدوا حصولها، واستنبطوا سبيلها ولم ينظروا في قول الله ﷻ: «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» [النحل: ٧٧] بل لو كشف الله عن بصائرهم لشهدوا الآخرة من نفس أعمالهم نعيمًا وجحيمًا، فإن أبواب البصائر منهم من يشهد المعاصي هي النار بعينها والطاعات هي الجنة بعينها، وإلى ذلك يدل قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا» [النساء: ١٠].

أكل مال اليتيم

وقد روي أن رسول الله ﷺ كان في بعض غزواته فاحتاج أصحابه إلى النار فلم يجدوها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أليس منكم وصي يتيم» قالوا: بلى، يا رسول الله، ثم ذكروا له رجلاً منهم فقال لهم رسول الله ﷺ: «حكوا الصوانة على بطنه» فحكوها فظهرت النار فاستوقدوها فأتى الرجل إلى رسول الله ﷺ مذعورًا قال: يا رسول الله، إني وصي أيتام، ولم أكل من مالهم شيئًا إلا مرة واحدة، أخرجت لهم دقيقًا من

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١١٠/٧).

جواب، وتعلق بيدي منه شيء يسير فتفضته، ثم لحست الباقي، فقال له ﷺ: «إن هذه من تلك» أو كمار ورد.

ومن ذلك ما روي أيضًا أن رسول الله ﷺ لما خالفه أصحابه في غزوة الحديبية صار يتفخ بيمينًا وشمالاً كأنه يتفخ نازًا، وهو يقول: «هلك أصحابي»^(١) فإنه رأى أن عين مخالفته ﷺ هي النار، ولكن مع ذلك، فهذا المشهد الذي هو شهود الأعمال هي الجنة والنار^(٢) مشهد التجار وأما مشهد الأحرار فوراء ذلك، فإن منهم من يشهد أن المعاصي هي من تجليات الحق الجلالية وهي النار، أي: نار الحجاب، ومنهم من يشهد أن الطاعات هي تجليات الحق الجمالية، وهي الجنة، أي: جنة الشهود، ومنهم من يشهد أن إقبال الذات العلية هو الجنة وإدبارها هو النار، وأهل هذين المشهدين يكون عذابهم بوجود الحجاب، ونعيمهم بكمال الشهود، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه. ودلالة المشايخ في طريق الآخرة متفاوتة أيضًا كتفاوتهم في القسم الأول، فإذا فهمت هذا حق الفهم يظهر لك أن اللائق بالإنسان العاقل الراغب في معرفة الله وطريق الآخرة أن يسمى أولاً في اتخاذ شيخ كامل يوصله إلى كمال المقصود في حضرة المعبود، ثم إذا فهمت تفاوت المشايخ الدالين على الله تعالى ينبغي لك أن تتفحص وتبحث عن الأكمل، والأكمل باتفاق كافة العارفين هو الوارث المحمدي.

الجهل بكنه ذات الله إيمان، والجهل بكماله تعالى كفر

ومن كلامه ﷺ: في قول سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ، في جواهر المعاني الجهل بالله هو الكفر الصريح المؤدي إلى خلود صاحبه في النار، والجهل بالله هو الإيمان المؤدي إلى خلود صاحبه في الجنة، فأما الجهل بالله الذي هو الإيمان فهو الجهل بكنه الذات، وأما الجهل بالله الذي هو الكفر فهو الجهل بمرتبة الألوهية ولوازمها ومقتضياتها إلخ، أو كما قال.

ثم قال شيخنا ﷺ: إن هذا الكلام ورد عن سيدي الشيخ أحمد التجاني ﷺ على طريق الإجمال وشرحه كما ينبغي يستدعي مجلدات، والذي يمكن أن يقال حسبما

(١) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٣١٣/١) قال الهيثمي: فيه ابن لهيعة وفيه ضعف.
(٢) [المن قصر عليه]

بقتضيه الحال أن معرفة الله ﷻ التي هي الإيمان لا تكمل إلا بالشهود في مرتبة ظهور الذات، إما في مرتبة الأفعال أو الأسماء أو الصفات من مرتبة الوحدة أو الواحدية أو الرحمانية أو الربية أو القيومية، ونحو ذلك.

وشهود الحق ﷻ في هذه المراتب لا يناله إلا أحد رجلين أحدهما المكتسب، وهو المسترسل في ميدان الحقائق بطريق شيخ واصل فيأخذها أولاً بطريق الإيمان ثم يجد السير في تلك الوجهة حتى ينتقل إلى مرتبة الإحسان من علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين وحقيقة الحق، فأول الأمر كسبي وآخره وهبي.

والرجل الثاني المتعرض، وهو المعترف بعجزه المؤمن بربه على وفق علمه بنفسه إيماناً إجمالياً بكل الأمر فيه، ويفوض إلى الله من غير بحث كما قال الإمام الشافعي وهو ولي ﷻ: آمنت بالله وبما جاء من عند الله على وفق مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء من عند رسول الله على وفق مراد رسول الله، فهذا وإن لم يلتحق بدرجة أهل الشهود فعند المنقلب إذا حضره الموت وحقت الحقائق يلتحق بدرجة أهل الشهود جعلنا الله منهم بمتة وكرمه، ولكن بشرط ألا يتخلل تفويضه اعتراض. فقلت له: فما المراد بالاعتراض؟

فقال ﷻ: هو ما قاله الإمام الغزالي ﷻ ما معناه: أن الإنسان إذا آمن بربه على حسب علمه بنفسه من غير تعرض لمذاهب أهل الكلام ولا تأويل في آيات الصفات ونحوها مفوضاً لربه، كان إيمانه مقبولاً عند الله غير مطالب بزائد على ذلك، وأما إذا تعرض لمذاهب أهل الكلام والنظر في الدلائل والبراهين لزمه كمال المعرفة من ذلك لما يخشى عليه من ورود الشبه، انتهى، أو كما قال.

فالمراد بالرجل الثاني المفوض في كلام الشيخ هو الأول من كلام الغزالي ﷻ، وهذه المعرفة المشار إليها في كلام شيخنا إنما تكون بحسب ما يليق بحال العبد معرفة الله، وإلا فكل الخلق في عماء عن معرفة الله ﷻ دنيا وآخرة، قال الله تعالى: «وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا» [الإسراء: ٧٢] فهذه الآية قد يشار بها في حق العارف، فهو في هذه، أي: في الدنيا أعمى عن كنه الحق ﷻ فهو في الآخرة أعمى عن كنه الذات العلية أيضاً، وقد يشار بها في حق العامي أيضاً فهو في هذه أعمى عن شهود الحق ﷻ، وفي الآخرة أعمى عن شهوده أيضاً فهو الذي إذا تجلى له الحق ﷻ في غير الصفة المدركة عنده يقول له: نعوذ بالله

منك. وقد يشار بها في حق المفوض المشار إليه أيضًا، فهو في هذه أعمى عن شهود الحق ﷻ في المراتب وفي الآخرة أعمى عن شهود كنه الذات وإن شهدها في المراتب.

واعلم أن مجموع هذه المراتب التي هي مرتبة الألوهية وما اشتملت عليه من المراتب مظهرها هو الإنسان الكامل الذي هو مظهر الحق ﷻ في الوجود، وهذا الكمال هو صورة العالم.

ثم اعلم أنها قد انحصرت جميع الكمالات التي ظهر بها الحق ﷻ في الوجود في النوع الإنساني وهو مختصر العالم الكبير وصورة الحضرة الإلهية، وإلى ذلك الإشارة بما في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»^(١) فلذا كان كل فرد من أفراد بني آدم كائنه عالم وحده، لأنه على صورة آدم، إلا أن ذلك الكمال كان كامناً في البعض كمون النار في الحجر، وظهر في البعض فصار يتصرف في العالم يتصرف الحق، والذي حجب أكثر الخلق عن هذا المشهد هو شهود الخلقية المحضة، ولو علموا ظهور الحق ﷻ بكمالاته بصور الخلق في المرتبة الجامعة بين الحقيقة والخلقية لما حجبا، وقد ثبتت تلك المرتبة لرسول الله ﷺ علمًا وشهودًا وحالًا، وإليها الإشارة بما في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من قوله ﷺ: «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ»^(٢) وقوله تعالى: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» [الفتح: ١٠] وغير ذلك، وإذا ثبت بذلك ظهور الحق ﷻ في مرتبته ﷺ فلا غرابة في ظهوره ﷻ في الكمال من ورثته، فلذلك نصوا رضوان الله عليهم على أنه يظهر في كل زمان بلباس غير الآخر إلى آخر، وهكذا الكمال الذي أشرنا إليه وظهوره في مراتب العالم مرتبة واحدة لا تعدد فيها، ويشاكله الروح الأعظم المحيط بكلبيات العالم وجزئياته؛ فإنه روح واحد لا تعدد فيه وظهر في أفراد العالم متكثراً.

فقال له بعض الجالسين: إذا كان الروح شيئاً واحداً، فما المراد بقوله تعالى: «وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» [الأعراف: ١٧٢] الآية.

فقال ﷺ: «إِنَّ تِلْكَ تَوَجَّهَ ظُهُورُ الْوَاحِدَةِ فِي صُورِ الْكَثْرَةِ كظهور آدم في كثيرين»

(١) رواه مسلم (٥٦/١٧)، وأحمد (٢٤٤/٢)، وابن حبان (٢٣١/٢٣).

(٢) رواه البخاري (١٣٨/٢٣)، ومسلم (١٤٩/١٥).

وفي حقيقة الأمر ما ثم إلا حقيقة واحدة وهو آدم ﷺ، وتلك الكثرة تفصيل تلك الوحدة ومظاهرها، وتظهر الحقيقة المحمدية التي هي الأب الأول وآدم الكبير في صور الكثرة التي هي العالم وما حوى.

ومن الجملة أبونا آدم ﷺ وإلى ذلك الإشارة بقول ابن الفارض ﷺ بقوله:

والتي وإن كنت ابن آدم صورةً فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

هذا مع أن جميع الصور برزت من عين الوحدة، وتكررها لا يقدح في وحدتها لمن فهم، ومثال وحدة الكمال ووحدة الروح في العالم وفي النوع الإنساني مثال الشمس فإن ضياءها منبسط في جميع الجهات، وإن انبساطها على الأعيان وتغيرها بتغيرات الألوان لا يقدح في وحدتها، وقد يظهر الضياء في بعضها أكثر من ظهورها في البعض الآخر وتتفاوت الأجرام في قبول الضياء بحسبها لا بحسب ضوء الشمس، وضوء الشمس في نفسه واحد لا تعدد فيه، فافهم، والسلام.

ظهور الوجود المطلق المنزه

ومن كلامه ﷺ قال: قال الله تعالى: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ» [الحديد: ٣] وقال تعالى: «فَأَيْنَمَا تُولَوْنَ وَحِجَةُ اللَّهِ» [البقرة: ١١٥].

وقال تعالى: «إِنَّ الْأَشْيَاءَ يُبَاطِنُ لَكُمْ إِنَّمَا يُبَاطِنُ اللَّهُ» [الفتح: ١٠].

وقال ﷺ: «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ».

وقال ﷺ: «ما عرفني غير ربي» وهو الفاتح الخاتم، وهو الأول والآخر. اعلموا أن مرتبة الحق ﷺ هي مرتبة الوجود المطلق الذي لا تحصره الحدود ولا القيود، ومن حبة هذا الإطلاق ظهر بكل شيء لكل شيء، وبطن عن كل شيء في كل شيء.

فأما مرتبة الظهور فظهر الأشياء فيها بحسب القوابل فأدركته بحسبها لا بحسب مثال ذلك مثال الشمس إذا طلعت على المحسوسات، فإن ضياء الشمس بالنظر إلى ذاته واحد لا تعدد فيه ولا اختلاف أصلاً، وإنما يختلف ظهور المحسوسات فيه فيظهر الصغير صغيراً والكبير كبيراً ونحو ذلك، وتختلف ظلالها أيضاً فيظهر كل

بحسبه، وتختلف إدراكاتها أيضًا فيكون إدراك الجماد غير إدراك الحيوان، وإدراك

الحيوان أيضًا يختلف فمتى من يحتجب بنور الشمس كالخفاش ونحوه.

ومنهم من يبصر في ضعف، ومنهم من يبصر في قوة، ومنهم من لا يبصر شيئًا

كالأعمى، فكذلك أنوار الذات لما تجلت على الموجودات أدركها كل موجود

بحسب قابليته.

ولما كان قسم المكلفين من خلق الله بين قبضي اليمين والشمال انقسم

المكلفون في إدراك أنوار الذات، فمنهم من أدركها في جهة اليمين، وهم الذين

أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن ألحق بهم من

عموم المؤمنين.

ومنهم من أدركها في جهة الشمال كالكفار لعنة الله عليهم، والكل تجليات

الذات وكما لانتها.

والسعادة على درجات كما أن الشقاوة على درجات، لأنه ما ثم مرتبة في

الإيمان إلا وتقابلها مرتبة في الشرك، فأدنى درجات الإيمان ما أشار إليه في بعض

الأحاديث بمثقال حبة من خردل، وأعلىها لا نهاية لها، وأدنى درجات الشرك ما

أشار إليه ﷺ بقوله: «الشرك في أمي أخفى من ديب النمل على الصفا»^(١).

وأعلى درجات الشرك لا نهاية لها أيضًا، وهما متقابلان، وكذلك تجد كل مرتبة

من مراتب الإيمان في مقابلتها مرتبة من مراتب الشرك وكلما ترقى العارف إلى

مرتبة من مراتب الجمع أو الفرق في وحدة الذات تكون في مقابلتها مرتبة من

مراتب الشرك، فإذا ترقى إلى مرتبة وحدة الأفعال يجد في مقابلتها نسبة الأفعال إلى

الخلق مجردًا عن نسبتها إلى الحق تعالى، ثم إذا ترقى إلى وحدة الأسماء والصفات

يشهد الموجودات حية بحياة الحق لا حركة لها ولا سكون، وفي مقابلتها طلب

الحق من غير الوجود.

ثم يترقى من ذلك إلى مرتبة الفناء، والفرق في جمع الجمع، وهو الفناء بالكلية،

وفي مقابلتها مرتبة الحلول والاتحاد، ثم ينزل إلى مرتبة الفرق وهو رجوع العارف

إلى الإحساس بعد غيبته وذوال إحساسه، وهي مرتبة الكمال.

ثم إن هذا الكمال تارة يكون في ذات الحق ﷻ، وتارة يكون في ذات النبي ﷺ، فإن كان في ذات الحق ﷻ ففي مقابلته من الشرك مرتبة فرعون لعنة الله عليه الذي قال: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» [النازعات: ٢٤] وإن كان في ذات النبي ﷺ ففي مقابلته من الشرك مرتبة أبي جهل في شدة بغضه للنبي ﷺ والفرق بينهما أن فرعون لعنة الله عليه نازع الربوبية في الواجهة التي لا تعرف فيها، لأن وجهة الحق واسعة وأبو جهل لعنة الله عليه نازع الربوبية في الواجهة التي تعرف فيها، وهو سيدنا محمد رسول الله ﷺ ولذلك قال ﷺ: «فرعون أمتي أشد الفراعنة»^(١) وبذلك أيضاً صحت مقابلته لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي ما طلعت الشمس بعد النبيين ولا غربت على أفضل منه؛ لأنه بلغ الغاية من الكمال في ذات النبي ﷺ.

وأما مرتبة بطون الذات فهي مرتبة الأحذية التي لا سبيل إلى شم رائحة منها، ولها أسماء متعددة منها: التعيين الأول، وهي مرتبة الشئون التي قيل فيها الحقيقة المحمدية هي الذات مع التعيين الأول.

ومنها: عين الكافور، وهي تعين الذات بكل شيء.

ومنها: الصرافة وهي التي لا يمازجها شيء من روائع الغيرية.

ومنها: المسكوت عنها، وهي التي لا تتصور فيها الغيرية بوجه من الوجوه إذ ليس هناك من يخاطبه الحق ولا من يخاطب الحق.

ومنها: العماء، وهي المرتبة التي تؤمها العبارات ولا الإشارات، ووراء ذلك من مراتب الذات ما يتناهى كثرة، وهذه المراتب كلها هي مراتب البطون وبيازاتها مراتب الظهور من الرحمانية والربية والواحدية... ونحوها.

ومنها: ظهرت الخليفة، ولا تتناهى هذه المراتب أيضاً.

ومنها: نشأة الدنيا والآخرة والجنة التي هي دار النمو والزيادة إلى غير نهاية، والسلام.

العقل لا يحمل في الزمن الواحد إلا علماً واحداً

ومن كلامه ﷺ قال: اعلم أنه لما كان العقل لا يحمل في الزمن الواحد إلا علماً

(١) لم أقف عليه.

واحداً إلا من خرق الله له العادة ألجأ ذلك أهل المعرفة على أن يرتبوا للعقل إدراكات بعضها فوق بعض، وإن كانت في نفسها متساوية في المرتبة وذلك لضيق العقل؛ لأنه لا يدركها متساوية مرة واحدة لكن يعلم أن إدراكه مجرد تصور، وأما الواقع هو عدم التقدم والتأخر اللذين هما من صفة الزمن، من ذلك ما قرره علماء التوحيد من ترتيب تعلق القدرة على تعلق الإرادة، وتعلق الإرادة على تعلق العلم، وتعلق العلم على تعلق الحياة، وتعلق الحياة على تعلق الوجود، ومع ذلك نصوا على أن ذلك مجرد تعقل فقط، لأن صفات الله كلها قديمة باقية، والقديم الباقي لا يوصف بعضه بالتقدم ولا بالتأخر عن بعض، وكذلك لما عرفوا أن الصفات تتعلق بشيء زائد على الذات عرفوا أنها وجودية، وقالوا: لو انكشف الغطاء لرأيناها وجودية، وقرروا أنها لا عين الذات ولا غير الذات، ومع هذه الاعتقادات كلها لا يعتقدون كثرة بل يعتقدون واحداً موصوفاً بصفات متزعة عن الشريك فيها.

وأما المعتزلة لما كان هذا الترتيب لا يعقل فيه عندهم إلا الكثرة فروا منه مخافة تعدد القدماء، هذه معرفة أهل الأدلة والبراهين الذين أعطتهم إياها التصورات والتصديقات، وأما أهل الكشف فإنهم يجعلون هذه كلها صفات ذاتية ويسمونها التنزلات الإلهية، ويرتبونها على سبع مراتب، وتلك المراتب يعلمون أن ليس فيها كثرة لأنهم لا يعقلون وجودين قطعاً بل يعقلون وجوداً واحداً له الانصاف بالتعينات التي تقتضيها الأسماء والصفات، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: ﴿زُفِعُ الْدَرَجَاتُ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] وهذه الدرجات هي عين التنزلات ويسببها تفاوت الناس في درجات المعرفة، وذلك أنك تعلم أنه واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ولا يمكن الوصول إلى معرفة وحدة الأفعال إلا بعد أن تشهد أن أفعال الموجودات كلها فانية في فعله تعالى لا وجود لأفعالهم مع عله أئنه، ولا تنصف بالخروج عن الشرك الخفي إلا بها وهي أول حجاب يرفع بينك وبينه، ونظم في هذا المعنى شعر فقال:

شهودك الفعل من الفعال في كل شيء وحدة الأفعال
متى تحققت به صفى تنجو إذا من شركك الخفي
ومن رياء ثم داء العجب ومن وجود حاجب وحجب

ولا يمكنك الوصول إلى معرفة وحدة الصفات إلا بعد رفع هذا الحجاب ومعرفة وحدة الأفعال، ولا تثبت دمك في مقام علم اليقين إلا بعد الرسوخ في هذا المقام، وبعد تحقق هذا المقام يبدو لك مقام عين اليقين الذي هو معرفة وحدة الصفات، وذلك أنك تعلم أن الأفعال لا تصدر إلا عن صفات، وهي آثارها دالة عليها؛ لأن وجودها من وجودها وعدمها بعدمها، فإذا فئت الأفعال الكثيرة الصادرة من كثيرين في فعل فاعل واحد فالصفات التي صدرت منها تلك الأفعال لا بد أن تنفى في صفات ذلك الفاعل الواحد، وإلا لما كان في فناء أفعالهم في فعله وجه؛ لأن الفعل هو أثر يتعلق بالصفة بأفعال الإنسان الذي هو سر الكون صادر عن صفات معانيه، وهي قدرته وإرادته وعلمه وسمعه وبصره وحياته وكلامه، فإذا كانت أفعاله لا وجود لها بدليل «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» [آل عمران: ١٢٨] أو بدليل «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» [الإنسان: ٣٠] وبدليل قوله ﷺ: «إن الله صانع كل صانع وصنعه»^(١) فكذلك صفاته لا وجود لها مع صفات الله، وقس على هذا.

واعلم أنك لا تشم رائحة عين اليقين إلا بعد تحققك لهذا المقام؛ لأن عين اليقين هي معرفة وحدة الصفات، وبمعرفة تبدو لك معرفة وحدة الذات.

ذلك أنك تعلم أن الذوات لا يتعقل وجودها بدون الصفات، والذي انتفت معقولة صفاته انتفت معقولة ذاته؛ لأن هذا يترتب على هذا، فإذا انتفى تعقل تعدد الصفات لغير الله وانتفى بانتفائه تعدد الصفات لغيره، وانتفاء العقل بانتفاء تعدد الصفات وتعدد الذوات، فإذا لا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام الذي تزد بوحدة الذات والصفات والأفعال، ولا ينتفي لك رتق هذه المعاني والمقامات كلها إلا إذا علمت أنه هو رفيع الدرجات ذو العرش، وتلك الدرجات هي عين التنزلات، والتنزلات هي تجليات الألوهية التي ظهرت بالأسماء والصفات.

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (٤٦/١) وابن أبي عاصم في السنة (٣٥٧) والحاكم (٨٥) والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٠) والمحاملي (٣٢٥) والخطيب (٣١/٢).

ولما كانت تلك التجليات ظهرت من وحدة رفيع الدرجات التي لا تقبل الكثرة، وانحصرت بوحدها في واحدة مظهرها، ومظهرها هو الذي ظهر بآياتها التي تدل عليها وآياتها هي أفلاك الموجودات وأفلاك الموجودات انحصرت في الإنسان الكبير الذي هو العالم كله، والإنسان الصغير الذي هو خليفة الإنسان الكبير ونسخته وصورته وروحه.

واعلم أنك لا تشم رائحة معرفة الإنسان الكبير إلا بمعرفة الإنسان الصغير كما أنك لا تشم رائحة معرفة الآيات إلا بمعرفة الإنسان الكبير، كما أنك لا تشم رائحة معرفة المظهر الأتم إلا بمعرفة الآيات، كما أنك لا تشم رائحة معرفة التجلي إلا بمعرفة المظهر، ولا تشم رائحة الظهور إلا بالتجلي، والكل تعرف به رفيع الدرجات ذو العرش.

واعلم أن بين الإنسان الكبير والإنسان الصغير أفلاكاً، ومجموعهما هو العالم منها العرش والكرسي والجنة والنار والسموات والأرض والعناصر والطبائع وغيرها، وما بين مقامين من المقامات التي تقدم ذكرها أبعد من ذلك، ومن تعرف الله لخلق ولطفه ورافته أن أظهر هذه الآيات والحقائق كلها في واحد هو صفوته من خلقه، وقال: من عرفه فقد عرفني، ومن أطاعه فقد أطاعني، وهو سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ بشهادة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] إلخ، وبشهادة من قطع الرسول إلخ، فبقدر ما عرفت من قدر رسول الله تحبه وتتبعه، وبقدر ما أحبته واتبعته تعرف الله، وإن عرفت الله تعرف أن كل المحبوبات الحسنة وصلة إلى محبته، لأنها المقصودة من كل شيء، فهناك بحبك ويصطفيك ويعلمك فلا تحتاج إلى تعليمي، ولا إلى تعليم غيري وإن أردت ذلك وتطلعت لما هنالك فها أنا أشرع في بيان ذلك في شرح هذه الصلاة التي هي من مشكاة أنوار رسول الله ﷺ وهي معراج الحضرات، وإن أصغيت لها بسمعك بشف صدرك، ويعظم أجرك، ويسم مجدك وقدرك، وترض ربك، وتعرف نبيك وبمعرفته تعرف الله، وليس من وراء الله وراء ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] لأن الحق ﷻ لا يعرف بذاته بل ذلك مستحيل، وقد نهانا الشرع عن التفكير في ذاته، وأمرنا بالتفكير في آياته وقال تعالى: ﴿سُتَرِهَا ابْتِغَاءَ الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [أفصلت: ٥٣].

ولأجل ذلك قيل لمن عرف نفسه فقد عرف ربه وقال تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ رُسُولًا مِنَّ أَنْفُسِكُمْ» [التوبة: ١٢٨] وقال تعالى: «الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِن أَنْفُسِهِمْ» [الأحزاب: ٦] فإن عرفت كيف صار أولى بك من نفسك وعرفت «وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ» [الجاثية: ١٣] «لَوْلَاكَ لَوْلَاكَ لَمَّا خَلَقْتَ الْاَفْلَاقَ» وعرفت «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» [البقرة: ١١٥] نعرف أن ما ثم في الوجود ذرة إلا وقد نعرف الله لنا بها، وليس في الوجود ذرة خارجة عنه ﷻ [لأنه المرتبة الجامعة] فافهم ولا تكن ممن جعل الله صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، ولم يعرف شيئاً، واطلب من الله أن يجعلنا وإياك ممن شرح الله صدره حتى يصير على نور من ربه، لأن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، انتهى.

ما يعلم كنهه وما لا يعلم

ومن كلامه ﷻ قال: المذكورات التي تعلم والتي لا تعلم قطعاً، والتي يعلم منها بعض مراتبها دون البعض، والتي تعلم مراتبها مع أنها لا حقيقة لها حتى تستند إلى المراتب المتقدمة.

المرتبة الأولى: الذات العلية، ولا سبيل إلى معرفة غيرها لها، لأنها لا تشبه شيئاً، ولا يشبهها شيء، وادعاء معرفتها كما يليق بها كفر عند المحققين.

المرتبة الثانية: الألوهية، وهي مرتبة الذات العلية، وعدم معرفتها كفر، ولها تعلق بالخلق.

المرتبة الثالثة: وهي العالم، وهو من مراتب الحقيقة الأحمدية المحمدية، فمن جهة استناد وجودها إلى الوجود الحق من حيث أن تكون عبارة محضة لا عين لها من نفسها، فهي حقيقة أحمدية، وإن ظهرت بتنزل حقيقتها في الخلقية مع عدم شم رائحة الغيرية أصلاً فهي حقيقة محمدية.

والمرتبة الرابعة: الإنسان الكامل، وهو عبارة عن جمعية تنزل المراتب بعضها في صورة البعض وهي ختم المراتب، وما عداها تبع لها، وتسمى البرزخ المختوم والوارث المحمدي، وبها ختم الله المعلومات فلا معلوم يطلب بعدها هي وتوابعها، ومن نور الله بصيرته وكشف له عن الغيوب وطالع كتب القوم يجد ما رمزناه هو هو الحق، ويكمل الله بصيرته بمعرفة القطب المكتوم والبرزخ المختوم الوارث

المحمدي الذي ختم الله به الولاية الخصوصية، فهتالك يتراءى له أنه ملء الكون أولاً فإذا نظر فوق ذلك يراه جميع الكون، فإذا ترقى من هذه فيه يراه فرق الكون، فإذا ترقى فوق ذلك يشهد الحقيقة الجامعة، ومن ترقى فوق ذلك واتحد عنده الشهود يشهد وحدة الوجود، انتهى.

الإيمان بالقلب والنطق باللسان

ومن كلامه عليه السلام قال: قال ابن أبي زيد رحمه الله: باب ما تنطق به الألسنة وتعتقد الأفئدة من واجب أمور الديانات، من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان أن الله إله واحد لا شريك له، مع قوله بعد ذلك: الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقصها مع قول ابن عاشر رحمه الله:

قواعد الإسلام خمس واجبات وهي الشهادتان شرط الباقيات

إلى أن قال:

وأما الإحسان فقال من دراه أن تعبد الله كأنك تراه

إن لم تكن تراه فإنه يراك والدين ذي الثلاث خذ أقوى

فاقتصر ابن أبي زيد في قوله الأول على الإيمان بالقلب والنطق باللسان، وزاد في قوله الثاني العمل بالجوارح، فيحمل الأول على الإيمان المجرد المنجي صاحبه من الخلود في النار، ويحمل الثاني على الإيمان الشامل لمرتبتين الإيمان والإسلام؛ لأن الإيمان والإسلام بينهما عموم وخصوص، فالإسلام المجرد هو العمل بالجوارح فقط بدليل قوله تعالى: «قَالَ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا» [الحجرات: ١٤] ثم إذا فسر الإسلام بالانقياد فيدخل فيه الإيمان بالقلب؛ لأن الانقياد يشمل القلب وغيره، وعلى كل حال فلم ينح ابن أبي زيد منحى ابن عاشر في جعله الإحسان من أركان الدين اللهم إلا أن يقال: إن قوله في نص العقيدة، وأنه فوق عرشه المجيد بذاته إذ فسر العرش بحقيقته الشاملة لجميع المخلوقات المشتركة من جوهر الهبولى، فتكون الفوقية بمعنى المعية، فيتمشى على مذهب ابن عاشر في جعله الإحسان أحد أركان الدين؛ لأن الإحسان عند أهل الكشف هو شهود وحدة الشهود التي تقضي إلى وحدة الوجود، وعليه يدل معنى

الحديث في قوله: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ ثَرَاءً فَإِنَّهُ يَزَالُ»^(١) لأنه ما انتقل للمرتبة الثانية التي هي شهود نظر الله للعبد إلا بعد تقديم إن الشرطية نفى الرؤية عن العبد، فقال له بعض الفقهاء في مجلسه فقد قال النفاوي في قول ابن أبي يزيد: (وأنه فوق عرشه المجيد بذاته): إنه مذبذب على الشيخ.

فقال ﷺ: إن قول ابن أبي زيد مؤيد بقول الله تعالى: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» [طه: ٥] ولا وجه للنفاوي في نفيه إلا أن يجعل الرحمانية مرتبة من مراتب الذات، والمرتبة غير الذات فيكون قصده أعلى وأجل، وعلى قول ابن عاشر وقول ابن أبي زيد: وأنه فوق عرشه المجيد إلخ في أحد احتماليه يدل على معنى الحديث المروي عن عمر بن الخطاب ﷺ في قصة سؤال جبريل للنبي ﷺ المشتغل على تعريف الإسلام والإيمان والإحسان فقال في آخره: «ثم قال: يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، فقال: جبريل أتاكم ليعلمكم أمر دينكم» وحيث كان الأمر كذلك فلا وجه لرده.

وقول ابن عاشر: (الدين ذي الثلاث خد...) إلخ يدل على أن من رضي بدون ذلك فقد رضي النقص لدينه، وهو مذهب أهل الشهود، لأن عندهم العامي الراضي بمجرد التقليد أحسن حالاً من صاحب النظر الراضي بالوقوف عند حد أهل النظر.

ثم إن هذه المقامات الثلاثة التي هي الإسلام والإيمان والإحسان تدخل في قواعد الإسلام الخمس التي هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام؛ لأنه إذا تجرد العمل بها ظاهراً لا باطناً سمي إسلاماً مجازاً، فإذا تعدى إلى الباطن كان إيماناً، ثم إذا امتد إلى الحضرة القدسية كان إحساناً.

فأما شهادة أن لا إله إلا الله إلخ فمن الناس من يقولها ظاهراً اتقاء السيف كإيمان المنافقين، ومنهم من يقولها مخلصاً موقفاً بها لا عن دليل، وهو إيمان أهل التقليد، ومنهم من يقولها موقفاً بها عن دليل وبرهان كإيمان أهل النظر، ومنهم من يقولها عن مراقبة فيعلم أن الله مطلع عليه، ومنهم من يقولها من حيث يرى أن القائل ليس هو فلا يرى في الوجود إلا الموجود.

(١) رواه البخاري (٩٧/١)، ومسلم (١١٤/١).

وأما الصلاة فمن الناس من يصلّيها اتقاء للسيف كالمنافقين، ومنهم من يصلّيها عن رياء وسمعة، ومنهم من جرت منه مجرى العادة فيصلّيها غير مكثرت بها ولا حضور له فيها، ومنهم من يصلّيها لا ابتغاء الثواب واتقاء العقاب، ومنهم من يصلّيها متصفاً بوجه من وجوه الإخلاص إما خوفاً من غضب سيده أو طلباً لمرضاته أو حياء منه أو غير ذلك، غير ملتفت إلى نقيض لأنهم قالوا، ومنهم من حيث أن لا يرى لنفسه حولاً ولا قوة ولا حركة ولا سكوتاً، وينسب الفعل لربه فيفنى في مقام الشهود.

وأما الزكاة فمن الناس من يعطيها ظاهراً اتقاء للسيف كالمن، ومنهم من يعطيها رياء وسمعة، ومنهم من يعطيها طلباً للنمو لأن الزكاة تنمي الأموال، ومنهم من يعطيها لا ابتغاء ثواب الله أو خوفاً من عقابه، ومنهم من يعطيها على أحد وجوه الإخلاص كالخوف من غضب الله وطلب مرضاته والحياء منه وغير ذلك، ومنهم من يعطيها من حيث يرى أن المال مال الله، وهو مسخر فيه فيعطي من الله إلى الله، ومنهم من لا يرى إلا وحدة وتلك الوحدة تتطور في الوجود من عطاء ومنع وغيرهما.

وأما الصوم فمنهم من يصومه رياء وسمعة، ومنهم من يصومه لا ابتغاء الثواب وخوفاً من العقاب، ومنهم من يصومه مخلصاً لله باتياً على قوله في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي»^(١) فيجعل ما كان لله خالصاً. ومنهم من يصومه من حيث يرى أنه صائم من الوجود بأسره، ومفطر بشهود ربه.

وأما الحج فمنهم من يحججه رياء وسمعة أو لأجل أن يقال له الحاج فلان، ونحو ذلك، ومنهم من يحججه لا ابتغاء ثواب الله تعالى أو خوفاً من عقابه، ومنهم من يحججه محبة لله تعالى وشوقاً إليه، ومنهم من يحججه من حيث يرى أن هذا الحج وما يلازمه من الأفعال الدالة على التعظيم ليس لذات الحجر الذي هو الكعبة وإنما هو لما كسي به من العظمة التي اتسحت عليه من جهة النبي ﷺ لكونه محل ولادته ﷺ.

(١) تقدم تخريجه.

والنبي ﷺ إنما انسحبت عليه العقلمة من ربه ﷻ فتعظيم الحجر إنما هو تعظيم للنبي ﷺ وتعظيم النبي ﷺ إنما هو تعظيم لله ﷻ كما في المبايعة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] انتهى.

شهود العارفين في أحكام الشريعة

ومن كلامه ﷻ في أسرار الشريعة قال ﷻ: ينبغي للإنسان أن يشهد في الأحكام المشروعة حكمته تعالى، ثم يترقى من ذلك إلى شهود أفعاله، ثم إلى شهود صفاته، ثم ذاته، فمن ذلك التكلم على الطهارة، قال ﷻ في مشروعيها: إن الطهارة من صفات الباري جل وعلا، والقدوس الطاهر عن كل نقص، وكمال تلك الطهارة اقتضى عدم وجود الأغيار لكونه تعالى يتزه كبرياؤه أن يشاركه شيء في الوجود.

وأما النجاسة فهي من صفات الحوادث، لأنها صفة نقص، وإنما ظهرت من شهود الغيرية، وشهود الغيرية إنما هو من غلبة ظلام الوهم على نور العقل، وهو من ظلام الطبيعة، فما استحكمت في الإنسان هذه الأطوار حدثت فيه نجاسة الشرك، ومنها تفرعت النجاسة الحسية، وكان الإنسان في هذه الأطوار الطبيعية يسمى ميتاً عند العلماء بالله، وحياته هو رجوعه إلى الحضرة القدسية، فهناك يحيا حياة أبدية سرمدية، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] الآية. ورجوع الإنسان إلى الحضرة القدسية إنما يكون بالإيمان، وهو الطهارة الأصلية، ومنه تفرعت الطهارة الفرعية التي هي الطهارة المائية والترابية، انتهى.

ومن كلامه ﷻ في أسرار الشريعة قال ﷻ: ينبغي للإنسان أن يشهد في الأشياء حكمته، ثم يترقى من ذلك إلى شهود أفعاله، ثم إلى شهود صفاته، ثم إلى شهود ذاته لاسيما في الأحكام الشرعية، فمن ذلك التكلم على الطهارة.

قال ﷻ: اعلم أن الطهارة والنجاسة صفتان نسبتيان ظهرتا في مقابلة الوجود والعدم، فالطهارة من أحكام الوجود إذ تنزهه تعالى عن صفات النقص هو الطهارة، واقتضى ذلك التنزه ألا يشاركه أحد في مرتبة ألوهيته بل في مرتبة وجوده جلا

وعلا^(١) فما ثم إلا واحد لا يقبل التعدد بوجه من الوجوه، واقتضت مرتبة كمال إطلاقه التنزل في صور الأغيار مع أنه ما ثم غير^(٢).

فمن حيثية تلك الغيرية ظهرت الشركة في الوجود العرضي، وتجلي الألوهية والربوبية في الأغيار، وكان مظهر تلك المرتبة الكمالية الجامعة بين مرتبتي الوحدة والتعدد هو الإنسان وهو البرزخ الأعظم بين مقابلات الوجود والعدم؛ لأنه مركب من روح وجسم وعقل ووهم وغيب وشهادة، فالعقل هو الحاكم على الحواس الباطنة الروحانية، وعالمه عالم الغيب، ووجهته إلى الحق ﷻ، ومآله إلى السعادة، وهو مظهر الوجود.

وأما الوهم فهو حاكم على الحواس الظاهرة، وعالمه عالم الشهادة الذي هو عالم الطبيعة، ووجهته إلى رؤية الأغيار، ومآل أمره إلى الشقاوة.

وسميت هذه المظاهر الوهمية شركًا، والشرك هو النجاسة، والمتصف به نجس، لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبْنَ ؕ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] فلما ظهر الإنسان في هذا الطور الذي هو عالم الطبيعة، وغلبت عليه الظلمة الوهمية صار التفاته إلى المظاهر العدمية التي هي صور الغيرية، ومنهم من استحكمت فيه رؤية الغيرية حتى نسب الألوهية لغير الحق جل وعلا، وهو أعلى مراتب الشرك، وفي حقيقة الأمر إنما الوهم عدم، والشريك عدم، فالمشرك إنما يشهد عدمًا بعدم، فلانسحاب العدم على الإنسان في عالم الطبيعة كان ميتًا لأن الموت مقدمة العدم، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فخاطبه الحق ﷻ من حيثية نور العقل الذي هو مظهر الوجود ليرده إلى نور الوجود، فيكون حيًا بحياة الحق، وهو الحياة والنور المشار إليهما في الآية، وأمره بسلوك الطريق الموصلة إلى الحق، وهي الأوامر الشرعية، ونهاه عن الطريق الموصلة إلى الضلالة والشرك وهي النواهي الشرعية، وجعل على كل من الطريقين داعيًا يدعو الناس إليه، فعلى طريق السعادة محمد ﷺ

(١) أفليس لسواء وجود ذاتي.

(٢) إذا الكل راجع للاستناد إليه.

ونوابه من الأنبياء والرسل والأولياء وهو الصراط المستقيم، ونوره التوفيق والهداية ولذلك فرض الدعاء بالهداية في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة وهي قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] لوجوبها في كل ركعة من الصلوات .

وجعل على طريق الضلالة إبليس لعنة الله عليه ونوابه من شياطين الإنس والجن، فمن الخلق من غلبت عليه نورانية العقل، فأجاب داعي الحق، وأعرض عن سبيل الشيطان فكان مآله قوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

ومنهم من غلبت عليه ظلمة الوهم فأجاب داعي الشيطان فكان مآله الحجاب ونار العذاب وشدة الحسرة والتندامة حتى يقول: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ الشَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وهذه النجاسة التي هي الشرك من آثارها ظهرت النجاسة الحسية كالبول والغائط والدم ونحوها، واختصت بفضلات الأدميين لظهور الشرك فيهم، ثم استحيت على فضلات الدواب الملازمة لهم كالخيل والحمرة، ولما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يكن فيهم رائحة شرك كانت فضلاتهم طاهرة، ونجاسة الشرك طهرها بالإيمان كما أن الماء طهر النجاسة الحسية.

فقد اتضح لك من هذا أن النجاسة على قسمين: أصلية وفرعية، فالأصلية: هي نجاسة الشرك، والفرعية: هي نجاسة الفضلات، والطهارة أيضًا على قسمين: أصلية وفرعية، فالطهارة الأصلية إنما هي: طهارة الإيمان، ويتفاوت الناس فيها، فمنهم من بلغ درجة الإيمان بمجرد التقليد، ومنهم من بلغ مرتبة علم اليقين، ومنهم من بلغ مرتبة عين اليقين، ومنهم من بلغ مرتبة حق اليقين وهلم جرا.

ومراتب الإيمان لا تنتهى كما أن كمالات الله لا تنتهى، وهذه الطهارة هي المقصد الأعظم، وبها شرف الدارين، ولذلك صرف العارفون إليها كليتهم، وفي ذلك قال قائلهم:

تظهر بماء الغيب إن كنت ذا سر وإلا تيمم بالصعيد وبالصخر
وقدم إماما كنت أنت إمامه وصل صلاة الفجر في أول العصر
فهذه صلاة العارفين بربهم فإن كنت منهم فأنضح البر بالبحر

فالمراد بماء الغيب في كلامه هو الإيمان بالغيب في مرتبة حق اليقين بحيث يكون الغيب شهادة، والشهادة غيباً، والتطهير به هو ألا يكون لشهود الغيبة عين ولا أثر، وقوله: (إن كنت ذا سر) أي: إن كنت من أهل الأسرار المرادين بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ • أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٣، ٤] وقوله: (وإلا تيمم بالصعيد وبالصخر) المراد بالصعيد هو الاستدلال بالخلق على الحق، والصخر هو لو لم يكن كذا لكان كذا، على مقتضى تركيب البراهين العقلية.

وقوله: (وقدم إماما كنت أنت إمامه) المراد بالإمام هو الروح الإنساني، فإن هذا الروح له تعلق بالروح الحيواني، وبه يدرك حقائق الأشياء، ويميز الحسن من القبيح، ويفرق بين الحق والباطل، وبينهما تغاير، لأن الروح الحيواني وجهته إلى عالم الطبيعة، والروح الإنساني وجهته إلى الحق جل وعلا.

وقوله: (وصل صلاة الفجر في أول العصر) فالمراد بصلاة الفجر هي حالة الروح يوم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] لاتصالها بالمراتب الكمالية في مراتب شهود الحق ﷻ، لأن الصلاة عند العارفين هي الصلة بين العبد وربّه، ولذلك أقرت الروح في تلك المرتبة بروية الحق ﷻ إقراراً ذاتياً حقياً لفنائها في وحدة الحق فناءً صرفاً، وأول العصر هو أول خروج آدم من الجنة حيث جعله الله خليفة في الأرض، فإنه هالك في حقيقة مستخلقه متحقق بالمرتبة الأولى التي هي مرتبة: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا بلى.

وقوله: (فهذه صلاة العارفين بربهم) المراد بهم أهل الملأ الأعلى من الأنبياء والمرسلين والأقطاب والصديقين والملائكة والمقربين.

وقوله: (فإن كنت منهم فأنضح البر بالبحر) أي: فأنضح ما تدنس من بر الشريعة بملاستك له ببحر الحقيقة الذي هو تفرد الحق في الوجود.

والسر في الأوامر والنواهي الشرعية أن الحق ﷻ له مرتبة عماء ومرتبة ظهور،

وتجلى بحسب تينك المرتبتين تجلى جلال وجمال، وبحسب التجليين قبض قبضتي سعادة وشقاوة، فقال: «هؤلاء للمجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»^(١). وبحسب تينك القبضتين نزل الأوامر والنواهي الشرعية على حسب قوة الوهم، فمن الخلق من توجه بظلمة الوهم إلى ظلمة العدم الذي هو وجود الشرك، ومنهم من توجه بنور العقل والشهود إلى نور الوجود وما ثم إلا تجلى العماء والظهور، والعارف يشهده في هاتين المرتبتين كشفًا وذوقًا، لا نقلًا وفهمًا، ولا يكمل له ذلك إلا إذا بلغ مرتبة البقاء بعد الفناء، فهذه هي الطهارة الأصلية المشار إليها.

وأما الطهارة الفرعية، وهي الطهارة بالماء فهي فرع عن هذه الطهارة التي أشرنا إليها التي هي طهارة الإيمان؛ ولذلك قال ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»^(٢) لأن الشطر الثاني هو طهارة الإيمان، وإنما شرعت الطهارة بالماء؛ لأن الماء فيه سر الحياة، كما قال الله تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا» [الأنبياء: ٣٠] ولأن الإنسان كما قدمنا في حكم الميت؛ لأنه منسحب عليه حكم العدم والموت مقدمة العدم؛ لاستيلاء حكم الشرك الطبيعي والغفلة عليه، فلذلك خوطب بالطهارة المائية ليتنفس من موته بسر الحياة المائية، وإنما كان في الماء سر الحياة؛ لأنه وارد من الغيب وكونه إذا تغير بنجس طرح، فلا اعتبار أن النجاسة الطارئة على الإدراكات الروحانية هي بعض الأخلاق الموجبة لإحياء العمل، وأما الملازم فهي الخواطر الطارئة فإنها لا تضر وهي الهاجس والمخاطر وحديث النفس والهم بخلاف العزم على المعصية، فإنها غير معفو عنها.

واعلم أن العلة في طهارة الخبث ما قدمناه لك من استيلاء حكم الشرك على فضلات آدميين، وما يلزمهم من بهيمة الأنعام.

وأما طهارة الحدث فهو الوضوء والغسل أو بدلهما وهو التيمم، انتهى.

سر نيابة الأرض عن الماء في التيمم

قال سيدي عبد الرحيم: وسأله ﷺ: لم نأبى الأرض في التيمم عن الماء؟ فقال:

(١) أخرجه البزار في مسنده (٤/١١٧).

(٢) تقدم تخريجه.

لأنه أصلها، وإنما حقيقتها ماء جمد فصار زبدًا فيبس الزبد فصار ترابًا، وما يدلك على ذلك أن النبات في أول بروزه من الأرض تراه شيئًا مستقلًا، فإذا عصرته يرجع ماء مع أنه في حقيقته مخلوق من الأرض كالإنسان والحيوان، وحالة نباته ينبت أيضًا من الأرض، فهذا هو السر في ثباتها عن الماء.

وأما الحكمة في أمر الإنسان بالتييم فيها فلأنه في الحقيقة نور، لأن روحه من الملا العلوي، ثم تنزله في العالم السفلي وآخر مرتبة برز منها هي التراب، ثم كف بالتكاليف الشرعية، وأكدها بعد الشهادتين الصلاة، وكان شرطها الطهارة الحسية التي باطنها الطهارة المعنوية، وهي روحها وجعلت بالماء، لأن فيه سر الحياة.

ثم أعقبها بنبابة التراب، وجعل ذلك بمباشرة الراحتين اللتين فيهما أقوى مظاهر حاسة اللمس ليرقى من لمسها براحيته في مراتب تنزلاته حتى يشهد مرتبته الروحانية النورانية فيغنى في شهود القومية، وهي الطهارة الحقيقية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَلَيْكُنْ بُرْهًا يُطَهِّرْكُمْ وَلِيُسَمِّ بِعَمَّتِهِ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦] انتهى.

وجعلنا من الماء كل شيء حي

قال الشيخ عبد الرحيم: وسألته رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠] الآية، هل هو هذا الماء المحسوس أم لا؟

فأجاب رحمه الله بقوله: اعلم أن الحق ﷻ في بساط حكمته أنزل كتابه العزيز على حسب ما يليق بعقول البشر، فكون العرب الذين أنزل فيهم القرآن كانت لهم اصطلاحات في مخاطباتهم فخاطبهم الحق تعالى بحسبها منها قوله تعالى: ﴿خَلْقَيْنِ فِيهَا مَا ذَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٧] فإن قوله تعالى: ﴿مَا ذَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٧] كلمة كانت تقولها العرب "فخاطبهم الحق بحسب لغتهم واعتقادهم، وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠] فالمعلوم عند العرب أن الحي إنما هو العالم الأرضي من جميع أنواع الحيوان،

(١) [الأمر المؤيد أي: من غير نهاية]

وهذا الذي يفيد ظاهراً اللفظ في القرآن هو ما عليه العامة، وأما ما وراء ذلك فلاهل التأويل مجال، ولأهل الكشف مجال، وللعارفين مجال.

وأما الماء المشار إليه في الآية فهو الماء الذي جعلت منه جميع المخلوقات، وحيث فما من جماد وحيوان إلا وهو حي بحياة ذلك الماء مسبح بحمد ربه حتى الماء فهو حي بحياة ذلك الماء؛ ولذلك قال سيدي محيي الدين ابن العربي في عقيدته في وصفه تعالى: ويرى الماء في الماء، ويرى السواد في الظلمات... إلخ.

واعلم أن هذا الماء المحسوس عندنا هو ناشئ من ماء آخر، وذلك الماء ناشئ من حر الشمس ورطوبة القمر، تصعد به الحرارة الصاعدة من الأرض، فإذا صعد إلى الجو تنزل به الرطوبة مع كونه كان متفرقاً في حرارة الشمس لا ترى له عين ولا أثر، وهذا الماء الناشئ من حرارة الشمس له مواد وتنزلات من العالم العلوي، وبذلك اكتسب سر الحياة التي حيا بها كل شيء، لأن العالم العلوي فيما فوق السدرة حي لا يلحقه موت، وتلك الحياة هي مظهر الحياة الإلهية فاجتماع حضرتي الحياة والعلم ظهر الروح الكلي وهو وحدتهما، واجتماع حضرتي القدرة والإرادة ظهرت النفس الكلية وهي وحدتهما، وظهر من اجتماع النفس الكلية والروح الكلي الحرارة، فكثفت النار فصارت هواء، فكثف الهواء فصار ماء، فبيس الماء فصار تراباً فظهر من التراب المولدات الثلاثة.

فإن قلت: إن الصفات الإلهية قديمة والروح والنفس حادثان فكيف جمعت بين الحادث والقديم؟

فالجواب: إن كان إشكالك من حيث إن الصفات ليست غير الذات، وإنما هي أمور اعتبارية، فكذلك الروح والنفس [حادثتان] إنما هي أمور اعتبارية لا وجود لها من دون الصفات فلم يبق من مجموع ذلك إلا [ما يرجع إلى] ذات الحق جلّ جلاله، وإن كان الإشكال من حيث أن الصفات غير الذات، فإن الروح الحادثة غير الصفات أيضاً.

فقلت له: فإن قول البوشي:

صفات الله ليست عين ذات ولا غيراً سواه ذو انفصال

وقوله في موضع آخر:

وليس الاسم غيرا للمسمى لدى أهل البصيرة غير آل

يشعر بأنهما متغايران، فقال: إن الصفة هي ما يتعين به غيره، والاسم ما يعرفه به غيره، وذلك كما إذا قيل لك السماء مثلاً، فإنه ينطبع مثاله في قلبك، وبه تعرفه، وتميزه عن غيره، ولولا المثال الذي ينطبع في القلب لما تميز شيء عن شيء، فذلك المثال المنطبع في النفس المميز للشيء عن غيره هو الاسم، وأما صفة السماء في حد ذاته فهي الصفة المتعين بها في نفسه لا تنفك، ولذلك إذا تجلّى الحق لعبد من عباده بصفة من صفاته أفناه عن نفسه، وحققه بربه فلم يبق إلا تعين الحق بالحق، وأما تجلّي الذات فلا مطمع فيه لأحد فتدرك بها الأشياء ولا تدرك هي في نفسه كنور الشمس، فإنك ترى به سائر الأجرام، ولا تراه في نفسه؛ لأنه لا يدرك بدون الأجرام، وإذا أدرك في الأجرام، فإنما أدركت الأجرام لا هو، فكذلك الذات إنما تدرك في مرتبة تنزلها التي هي مرتبة الألوهية لا في حد ذاتها، ولذلك قيل: الألوهية تعلم، ولا تشهد، والذات تشهد ولا تعرف، انتهى.

هو الظاهر والباطن

ومن كلامه ﷺ قال: إن الله تعالى هو الظاهر والباطن، وتجلّى في كل شيء بحسب مرتبتي البطون والظهور، فلكل شيء ظاهر وباطن، ومن الجملة الكتب الإلهية المشتملة على الشرائع النبوية، فظاهرها للفقهاء، وباطنها لخواص المؤمنين من أهل الكشف والعارفين، فظاهرها مقصور على تبين الأحكام المفرعة على الأوامر والنواهي، وما يترتب عليها من وعد ووعيد بحسب ما تحمله أوجه العربية بما يناسب المقام، ولا يخل بأوجه التنزيه، وباطنها مستوعب لجميع أوجه الدلالة على الله تعالى في جميع مراتب كمالاته في جميع ألفاظها ومعانيها ومفرداتها ومركباتها، ولذلك تجد العارفين يستفيدون من جمل الكلام والكلمات ومفردات الحروف وبساتينها حكماً وأحكاماً، ومعرفة بأحكام تجليات الأفعال والأسماء والصفات والذات وما انطوت عليه تلك التجليات من العلوم والمعارف والأنوار والأسرار والرفائق والدقائق، وغير ذلك مما لا غاية لجملة وتفصيله.

وانقسم الناس في الأخذ من الكتاب والسنة على أربعة أقسام:

فمنهم: من أخذ بالظواهر فقط فضلوا عن الجادة المستقيمة؛ لأن في ظواهر الكتاب والسنة ما يوهم التشبيه المحض في ذات الله وصفاته.

ومنهم: من تصدر إلى الأخذ من الباطن فقط، ويسمون الباطنية فضلوا أيضًا. ومنهم: من أخذ بالظواهر فيما لا يخل بمرتبة التنزيه، وأول ما سوى ذلك مما يوهم التشبيه كآيات الصفات ونحوها مما ورد في الأخبار النبوية، وهو مذهب الخلف من أهل السنة.

ومنهم: من أخذ بالظواهر فيما لا يلزم منه محذور، وتوقف فيما سواه، وفوض الأمر إلى الله تعالى، وهو مذهب السلف منهم.

والطائفة الخامسة هم الذين خرقت عنهم حجب الأوهام؛ فشهدوا الحق في الكل، جعلنا الله منهم بئس وكرمه.

وقد غلط كثير من عامة الفقهاء، وزعموا أنه لا شيء إلا ما في طريق العامة، وزعم بعض المتصوفة أن العلوم الباطنة مضادة للعلوم الظاهرة، ومن اشتغل بها ترك الظواهر، وهو غلط فاحش، انتهى. وكان شيخنا رحمه الله كثيرًا ما ترد عليه الواردات من جهة الأحوال الملايس لها، والأحوال التي تلابسه من الأمور الدنيوية والأخروية؛ لأنه يشهد الحق في الكل بحيث لا يغيب عنه طرفة عين.

منبت الزرع هو الله وحده

وسمعه ﷺ في زمن الحراثة يقول: قال الله تعالى: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ؟» أَتَشْفَقُونَ أَمْ تَحْنُ الْزَّرْعُونَ؟ [الواقعة: ٦٣، ٦٤] إن الزراعة حقيقة لا تنسب إلا إلى الحق ﷻ؛ لأنه ما ثم غيره إذ هو المتزل في الوجود في مراتب كمالاته سواء كان في مرتبة ذاته أو في مراتب آياته التي هي مجموع أسمائه وصفاته وأفعاله ومؤثراته، ونحن فانون في تلك الحضرات، وإنما نعرف بنا لنا في أي وجهة من وجهات تعرفاته، فإذا شهدته ﷻ في مرتبة أفعاله شهدت وحدة لا تقبل التعدد بحال، وإنما تطورت تلك الوحدة في الكثرة فتشهد حينئذ فعلك وفعل غيرك فانيًا في تلك الوحدة؛ لأنه هو المحرك والمسكن لك بتحريكه، وتسكينه في حضرة خلقه ورزقه بفعله القديم على ما تعلق به علمه القديم، وكذلك جميع أطوار ذاتك وصفاتك، ومن هذه المعاني قوله تعالى: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ» [الصفافات: ٩٦].

وإذا شهدته تعالى في مرتبة أسمائه وصفاته شهدت فناء ذاتك وصفاتك وأفعالك في حضرات تلك المرتبة، كأن تشهد قدرتك قدرته، وإرادتك هي عين إرادته، وعلمك عين علمه، وحياتك عين حياته، حتى تفنى عنك فيه، ثم تشهد رجوع تلك الحضرات إلى الوحدة التي هي عين الذات^(١).

فلماذا فهمت هذا فما أنا أدلك على بعض الأبواب التي تدخل بها تلك الحضرات، وهو أنك إذا توجهت إلى الزراعة مثلاً فإنك تجد نفسك متوجهاً إليها مع كراهة في النفس لما فيها من ارتكاب المشاق، وتجد نفسك مقهوراً عليها بنوع المحبة وإذا اشتغلت بها زمناً مثلاً تجد نفسك حصل لك من التعب والضعف والألم على حسب ما كنت ترقبه، ولم تكن القوة القاهرة لك مصاحبة لك على ذلك، وهذان الاعتباران موجودان في جميع الأعمال الدنيوية والدينيوية والأخروية، فما هو القاهر لك على هذا الفعل مع نفور النفس عنه، فهو الطمع لأن الطمع هو بذر الأمل، والأعمال إنما تنشأ على حسب الآمال، فعلمنا حينئذ أن الطمع هو بساط الأعمال الاختيارية سواء كانت دنيوية أو أخروية فيه حياة الخلق ومماتهم، وبه هلاكهم ونجاتهم، والطمع في مرتبة الأسماء والصفات من حضرة اسمه (الباعث) وهو أيضاً من أعظم الآيات الدالة على الله عند أهل الإشارات، وحروفه ثلاثة وهي: الطاء، والميم، والعين، فالطاء طلعت، والميم ملكه، والعين هو عينه، وبعبارة أخرى: فالطاء طمسه، والميم هي الحقيقة المحمدية، والعين هو العالم، وهذه العبارات مستوعبات لمراتب الوجود طرذاً وعكساً، وأنت فإن في تلك المراتب، فالهم العبارات تكن من أهل الإشارات، والله يتولى هداك.

آيات الله في الأفاق وفي الأنفس

ومن كلامه ﷺ قال: قال الله تعالى: «سُرُّهُمْ، أَيْنَتْنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَهُمْ أَنَّهُ الْخَلْقُ» [فصلت: ٥٣] وقال تعالى: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِزَاجًا لَكَلِمَتٍ رَبِّي لَنَفَعْتُ الْبَحْرَ قَبْلَ أَنْ تَنفَعَكَ كَلِمَتُ رَبِّي» [الكهف: ١٩] الآية.

اعلم أن آيات الحق ﷻ هي عين كلماته، وكلماته مظاهر كلامه النفسي القدسي

(١) [فإنك به لا بك مع الشريعة، فالحق حق، والخلق خلق]

الذي هو صفة ذاته المقدسة، وهو كما قال العارفون رضوان الله عليهم: بحروف قديمة، ولولا الحروف لما امتاز إبليس من آدم.

ولما كانت ذات الحق ﷻ بعيدة التصور عن سائر العقول والإدراكات لاحتجابها في سرادقات العز والجلال تنزل ﷻ في المظاهر فأدركها كل بحسبه، ولذلك قال بعض العارفين:

وليس تنال الذات في غير مظهر ولو هلك الإنسان من شدة

وأول مظاهر الذات مرتبة الصفات التي من جملتها صفة الكلام، ثم مرتبة الأسماء، ثم مرتبة الأفعال، ثم مرتبة الإمكان المشتملة على حقائق العالم علويها وسفليها من الأفلاك والطبائع والعناصر والمولدات والعالم الإنساني، وكل حقيقة مشتملة على ما تحتها من الحقائق اشتمال الأصل على الفرع.

وحيث إن صدور العالم من نسبة الكلام الإلهي بمقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التحل: ١٠] كان الكلام ساريًا في جميع جواهره بل هو عين الكلام الإلهي والآيات المتلوة من الحق تلاوة حال عند أهل الحجاب، وتلاوة مقال عند أهل الكشف، وهذه المراتب التي تقدمت آنفاً هي مراتب التنزلات بالنسبة إلى الحق، ومراتب ترقيات بالنسبة إلى العبد، ونسبة الكلام إلى الحق في كل حقيقة من هذه الحقائق تضعف بحسب حجابية تلك الحقيقة، وليس الضعف في الكلام من حيث هو وإنما الضعف من جهة السامع، فإن صاحب الحجاب بمنزلة الأصم، قال الله تعالى: ﴿إِنْ شَرَّ أَلَفَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

ولما كان الإنسان منتهي دائرة الإيجاد، ومن شأن تلك الدائرة انعطاف آخرها على أولها كان برزخية بين آخر الدائرة وأولها، وكان فيه من الضعف ما يناسب آخر الدائرة، ومن القوة ما يناسب أولها، فكان مظهر الكمال بمجموع القوة والضعف فاكتملت فيه صفة القوة الناطقية فكمملت فيه صفة الكلام أكثر من غيره، وكذلك سائر الأسماء والصفات الإلهية، واكتساب الحجاب من حيث الأخيرة؛ فاحتجب بتلك الصفات عن الحق، ونسبها إلى نفسه؛ فضعفت فيه تلك الصفات بسبب تلك الحجابية، فمن الجملة ضعفت فيه صفة الكلام؛ لأنه أضافها إلى نفسه، واحتجب

بها، فهو بهذه المثابة بمنزلة المريض الذي ضعفت قوته عند أداء المخارج حقها في النطق، ومن هناك اختلف سير الخلق بحسب قبضتي الحق، فمنهم من أثر جهة الحق فسار إلى جهة الحق، ومنهم من أثر جانب الخلق فسار في جهة الحجاب، فريق في الجنة وفريق في السعير، وتفاوت سيرهم في هاتين الوجهتين، فمنهم السائر، ومنهم الطائر.

ولما كانت حضرة الله هي حضرة السعة كانت في حضرة صفة الكلام، فانتسعت باتساع موصوفها، فظهرت السعة في كل مظهر من مظاهرها بحسب ما يناسب ذلك المظهر فمن ذلك ظهورها في الإنسان، فإن أحذية كلامه صفته الناطقة، ومع تلك الوحدة، فإنه يختلف باختلاف الكلمات، والكلمات تختلف باختلاف الحروف، والحروف تختلف باختلاف المخارج، فإن فلك تركيب الكلمات غير فلك تركيب الحروف، وفلك تركيب الحروف غير فلك الحروف نفسها، وفلك مجموع الحروف نفسها غير فلك مخارجها، فإن المخارج مختلفة، وفلك كل مخرج غير فلك الآخر، فظهرت السعة.

ثم إن الكلام لا بد أن يكون بحسب إدراك القلب، وفلك الإدراك غير فلك النطق، ثم إن القلب إنما يكون إدراكه من جهة خمس حواس ظاهرة، وخمس حواس باطنة، فالظاهرة هي: السمع والبصر والذوق واللمس والشم، ولكل منها فلك يخصه، والباطنة هي: القلب والعقل والسر والخفاء والقواد، ولكل منها فلك يخصه، ثم إن في الإنسان قوة علمية يقينية، وقوة ظنية، وقوة وهمية، وقوة شكية، وقوة جهلية، ولكل منها فلك يخصه.

ثم إن الإنسان المتكلم إما أن يكون صاحب حجاب، وحجابه كثيف بحيث لا يؤمن بالغيب، فيكون استناده إلى الأسباب أقوى من غيره، فمثل هذا إذا تكلم لا يكون في إيمانه ولا شهوده غير نفسه، فيرى أن نسبة الكلام إليه حقيقة، وإما أن يكون حجابه اللطف فيكون مؤمناً بنسبة الكلام إلى الله عن طريق المعقولية، ومستنداً إلى نفسه عن طريق الغفلة، وإما أن يكون صاحب شهود، ولكل من هذه الصفات فلك يخصه.

ثم إن الحروف منها حروف لفظية، وحروف رقمية، وحروف خيالية، ولكل منها فلك يخصه، ثم إن صاحب الشهود في مرتبة علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين، ولكل منها فلك يخصه.

ثم إن صاحب الشهود إما أن يكون شهوده في مرتبة من مراتب التنزلات، وإما أن يكون في ذات الحق، ولكل حقيقة فلك بخصه، وأيضاً إما أن يكون شهوده من وراء حجاب أو غير حجاب، ولكل من ذلك فلك بخصه، وإما أن يكون كلامه على لسان تلك الحقيقة متكلماً بها أو لها أو فيها أو عنها، ولكل من ذلك فلك بخصه.

ثم إن تلك الحقائق المشار إليها إما أن تكون من الحقائق الإلهية أو الحقائق الكونية أو الإنسان الكامل الذي هو البرزخ الأعظم بين الحق والخلق، ولكل من ذلك فلك بخصه.

ولا يخفى أن كل حقيقة بالنسبة إلى ما فوقها في السعة كلاً شيء، لأن أفلاك الإنسان الصغير منطوية في حقيقة فلك الحيوانية، وهي منطوية في فلك النباتية التي هي النمو، وهي منطوية في حقيقة فلك المعدنية، وهي منطوية في حقيقة أفلاك العناصر، وهلم جرا إلى أن تنتهي إلى حقيقة الإنسان الأكبر، ثم إلى الحقائق الإلهية إما مرتبة الأفعال أو الأسماء أو الصفات أو الذات، وهي متهى مراتب أهل الشهود، والحاصل أن لكل معنى من المعاني الموجودة في العالم أو الإنسان فلكاً تدور عليه روى ذلك المعنى، وبهذا تظهر لك سعة الأفلاك الوجودية، وبأن حروف الكلام وكلماته باختلاف هذه المعاني وباختلاف الأزمان من حال وماض واستقبال، وهذا بالنسبة إلى حال كل أهل مرتبة من مراتب أهل الحجاب، وأهل الشهود، وأما بالنسبة إلى أفراد وأشخاص كل أهل مرتبة، فإن استعداد كل أحد يعطي غير ما يعطيه الآخر، وحروف الكلام وتراكيبه تختلف بحسب ذلك، وأكمل نشأة ظهرت في العالم نشأته ﷺ في أكمل الأزمنة المشار إليه بقوله ﷺ: «ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض»^(١) في أعدلها حالاً، وهو حين ينزل القرآن، وأخصها حالة هي الحالة التي نزلت فيه أم القرآن، ولذلك كان ﷺ مظهر الأنبياء والرسل والأولياء، ومظهر الذات الإلهية، واجتمع في كتابه القرآن سر جميع الكتب الإلهية المنزلة، واجتمع سره في فاتحة الكتاب، وسرها في البسملة، وسرها في بائها، وسرها في النقطة التي تحتها، ولذلك أضيف القرآن العظيم إلى الله إضافة

(١) رواه البخاري (٣٣٧/١١)، ومسلم (٢٦٧/١١).

خاصة، فقليل فيه: إنه كلام الله لأنه نزل في الحالة التي لا يسعه فيها غير ربه، ويلي القرآن في هذه المرتبة الأحاديث القدسية، ثم الحديث النبوي، ومن هذا القبيل كانت شريعته ﷺ وحنة الشرائع، ومن بعده ﷺ مراتب الورثة من الأنبياء والرسل والأولياء، لأنهم نوابه ﷺ ولذلك كانوا يترجمون عنه ﷺ تارة، وعن الحقائق تارة.

عوالم الإنسان

ومن كلامه ﷻ قال: اعلم أن الإنسان له روح وعقل وجسم ووهم وغيب وشهادة، فمن حيث روحه هو كل العالم من وجه كون تلك الروح لا تدرك بالحد مع تجليها في كل مشهد، ولذلك يقول تعالى: «وَنَسْفُتْكَ عَنِ الرُّوحِ قُلُوبُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِنَا» [الإسراء: ٨٥]. وأما من حيث جسمانيته فهو جزء من العالم، وأما كونه له غيب وشهادة فغيبه هو التنزلات الخفية التي تنزل الحق تعالى فيها بجميع المراتب الوجودية والإمكانية والحسية والمعنوية والتشبيهية والتنزيهية في غير جهة ولا مكان ولا زمان بل الجهات والأمكنة والأزمنة فانية في تلك التجليات، اللهم إلا أن لتلك المراتب التنزلية ترتيباً عقلياً اقتضاء إحاطة المراتب ببعضها لا إحاطة الظروف بالمعظوف، ولا إحاطة الجزء بالكل بل إحاطة الحقيقة بالمجاز لاستهلاك المراتب في بعضها، ولكل مرتبة من المراتب إحاطة بما تحتها من جميع المراتب.

وأما كونه له شهادة فشهادته هي مرتبة الحس التي لا تظهر فيها الأشياء إلا في جهة وزمان ومكان بسبب ضيق الحواس وكثافة الجسم واستيلاء القوة الوهمية عليها وتغطيتها لنور العقل، وأما كونه له عقل ووهم فالعقل هو الذي ينظر الأشياء من جهة وحدتها وأحدثتها، ويحكم على الحواس بأنها لا وجود لها مع العقل، وإنما هي مظاهره وبأن جميع المراتب الوجودية فانية في بعضها، والكل فاني في حقيقة الوجود المطلق، والقوة الوهمية تضاد العقل في هذه الكيفية، لأن توجيهها فائتاً إلى أن تشهد المجازات والاعتبارات وجودية عينية عكس ما عليه العقل في شهوده للوحدة في جهة الكثرة، والحكم بالتغاير بين المراتب وشهود استقلال كلٍّ عن الآخر، اللهم إلا أن العقل له ثلاثة مراتب:

المرتبة الأولى: هي التي يشهد فيها ترتيب الأسباب على المسببات، وصدور الأشياء عن الفاعل المختار صدور الفعل عن الفاعل، والأثر عن المؤثر، وبداية هذه

المرتبة بداية أهل النظر، ونهايتها بداية أهل الكشف، وهي مظهر حكمة الربوبية السارية في الوجود بالمرتبة الربية.

والمرتبة الثانية: من مراتب العقل هي التي يشهد فيها فناء الأفكار الكونية في الحضرات الإلهية مع ظهور كل حضرة في سلطانها، وهو تجلي المرتبة الرحمانية. والمرتبة الثالثة: من مراتب العقل هي التي يشهد فيها وحدة الحضرات الإلهية التي هي مظهر أحدية الأسماء مع كثرة تعلقها، وتضاد تجلياتها فيشهد استهلاك جميع الحضرات فيها إذ لا بقاء لها مع شمس الألوهية، والمشاهد يعطي كل مرتبة حقها من الوحدة والكثرة والظهور والبطون، وفي هذه المراتب يقول سيدي عبد الكريم الجيلبي رحمه الله:

ورق مقام القلب من نجم ربه إلى قمر الرحمن إذ هو طالع

إلى شمس تحقيق الألوهة رفعنا إلى ذاته للقدر إذ أنت رافع

وأعني بالعقل في ذلك مرتبة النظر في الأولى، ومرتبة الكشف في الثانية، وأما ما وراء ذلك فهو اتمحاء التعينات في إطلاق أحدية الذات، انتهى.

الإنسان الكبير - العالم

وسمعه رحمه الله يقول: العالم إنسان كبير، وروحه الروح الكلي، ونفسه النفس الكلية، وعقله العقل الكلي، وجسمه الجسم الكلي، فقلت له: وما معنى الروح الكلي وإخوانه؟

فقال: أما الروح الكلي فهو وحدة الأرواح، والنفس الكلية وحدة النفوس، والعقل الكلي وحدة العقول، وهي الحقيقة الجبرلية، والجسم الكلي وحدة الأجسام، وهو الحقيقة الجوهرية، ووحدة الكل هي الحقيقة المحمدية التي هي مجموع الحقائق الوجودية^(١) والإمكانية، وهي صورة الأحدية. فقلت له: وما معنى الصورة؟

فقال: هو الأمر الاعتباري الذي لا وجود له من ذاته، وإنما عرض وجوده

(١) [نظورها بها].

بوجود غيره، فالأحدية لها ظهور وبطون، فظهورها هو الحقيقة المحمدية، ولذلك قيل في تعريفها الحقيقة المحمدية هي الذات مع التعيين الأول؛ لأن بذلك التعيين عرفت نسبة الأحدية للذات، وتلك النسبة هي مرتبة الظهور، وبطونها هي الحقيقة الأحمدية، ولا وصول إلى معرفتها إلا بمقابلة مرتبة الظهور، ولا تعرف الذات إلا في هاتين المرتبتين، وأما مرتبة الذات الساذج فهي من وراء ذلك، ولا سبيل إلى التعريف عنها إلا نحو المسكوت عنها واللاتعيين، والوجود المطلق، وعدم العدم، إلى غير ذلك، انتهى.

وله ﷺ هذه الأبيات:

تنوع الوجود بالأحوال بحكمة الجمال والجلال
فمن رأى الوحدة في الضدين فذاك عارف وذو نورين
وذو الحجاب قاسط في الأمر لأجل ذا أساء عند الصبر

قصور العقل عن إدراك الحقيقة

ومن كلامه ﷺ قال: العقول قاصرة عن إدراك كنه الهوية، حائرة تائهة في أنوار الحقيقة المحمدية، سابعة ذائقة في مقام الخلافة التي هي مراتب الأستاذية والشيخوخة فمن لم يشهد في هذه المراتب لم يشم رائحة المعرفة، وكأنه يدعي عدم المعجز عن الإدراك الذي هو منتهى معرفة العارفين، كما قال الصديق الأكبر: العجز عن درك الإدراك إدراك.

وتعارض دعواه أيضًا قوله ﷺ: «ما عرفني غير ربي» ويكون جاهلاً بمقام الخلافة الذي هو الإنسان الكامل الجامع بين ظهور مرتبة الحقيقة والخلقية، وللإشارة إلى هذه المراتب وتوقف معرفة بعضها على بعض، قال سيدي عبد العزيز الدبائع في «الذهب الإبريز»: إن العبد لا ينال معرفة من الله تعالى حتى ينال معرفة سيد الوجود ﷺ، ولا يعرف سيد الوجود ﷺ حتى يعرف شيخه... إلى آخره.

فإذا كان الأمر هكذا، وكان مطلب الحق فريضة على كل مسلم ومسلمة، وعلم

أن مطلوب الحق من الخلق المعرفة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وأجل العبادة المعرفة، بل في تفسير بعضهم معنى يعبدون: يعرفون، فإذا عرف ذلك، وصدق بالشروط المقدمة تعين عليه أن يطلب شيئاً يكل أمره إليه، ويصاحبه للمعرفة، فإذا عرفه حق المعرفة، وتحقق عنده أنه الإنسان الكامل ولا يكون كاملاً إلا إذا زج به في أنوار مقامات المعرفة الثلاثة المتقدم ذكرها، انتهى.

القصور عن معرفة كنه الذات

ومن كلامه ﷺ يقول: قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: ذاته، والمراد به النهي عن طلب معرفة ماهية ذاته تعالى، ولذلك جاء عنه ﷺ: «لا تفكروا في ذات الله تعالى وتفكروا في آياته فإنكم لا تقدرون قدره»^(١) وأما قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فالمراد منه أن الحق تعالى طلب منا معرفته في مرتبة ألوهيته، فطلب معرفة ذاته تعالى كفر، والجهل به تعالى في مرتبة ألوهيته كفر، والصراط المستقيم أن تعلم أن للحق تعالى ذاتاً ومرتبته، فالذات لا سبيل إلى معرفتها، ويعبر عنها باللاتعيين، ويطون البطون، وعدم العدم، وأقدم قدم، والذات الساذج، والذات البحت، ومرتبة العماء، والسحق والمحق، وأول تنزلاتها هي مرتبة الأحدية، وهي ذات ساذج، ولا سبيل إلى معرفتها أيضاً لانطماس النسب والاعتبارات فيها.

أما مرتبة الألوهية فهي مرتبة ظهور الحق تعالى، وهي مرتبة الأسماء والصفات، فالحق ﷻ تجلى فيها بصفات الكمال، وهي الواحدية ثم الرحمانية ثم القبومية ثم الربية، وكل منها مشتملة على سائر الصفات الكمالية، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] فالأسماء الحسنى للرحمن وهو للاسم الواحد، وهو للاسم الرحمن، وهلم جرا.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٨) ومسلم (٢٩٢١) والترمذي (٢٢٣٦) وأحمد (٦٠٣٢) ونعيم بن حماد في الفتن (١٦٠٣) وأبو يعلى (٥٥٢٣).

والترتيب فيها أمر اعتباري، والحق تعالى طلب منا معرفته في هذه المراتب الكمالية، وكل مرتبة منها لا نهاية لكمالاتها، فمضى يفرغ الإنسان منها إلى غيرها.

فالجواب: أن الحق تعالى ركب في الإنسان لطيفة روحانية قابلة للترقي لا نهاية لقابليتها، وكلفه بالمعرفة في مراتب كمالاته على حسب استعداده، فاختلقت معارفهم فالبعض منهم عرفوه بالنشبيه المحض، أي: شبهوه بخلقه فكفروا، والبعض منهم عرفوه في مرتبة التنزيه المحض فأثبتوا وجودين وحكموا لكل منهما أحكاماً غير أحكام الثاني.

والفرقة الثالثة: وهم العارفون، جمعوا بين مرتبة التنزيه والنشبيه بدلالة الكشف وأسرار النقل قال تعالى: «سَتَرْنَاهُمُ الْغَيْبَاتِ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ نَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» [فصلت: ٥٣] وقال تعالى: «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُتَبَيَّرُونَ» [الذاريات: ٢١].

وجاء: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» أي: من عرف نفسه بالذلة عرف ربه بالعزة، ومن عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة، وهكذا سائر الصفات وكيفية ذلك إذا تحركت إرادته لطلب أمر، ولم يكن قبل ذلك مريدًا له فيعلم أن هذه الإرادة حادثة فيه فمن أين هي، فيعلم أنه لا بد لها من سبب فلا تجد شيئاً إلا الحق ﷻ، فالإرادة له حقيقة ولك مجازاً، وكذلك القدرة والقوة والعزة، فتعلم أن منشأها من الحق، فتعلم أنها له حقيقة ولك صورة ومجازاً، فهناك تعرف نفسك بصفات النقص، وهي الذلة والافتقار وسلب الاختيار، وهي عدمية، وتعرف ربك بصفات الكمال، وهي القدرة والقوة والعزة ونحو ذلك وهي وجودية.

ثم تشهد أنيك بهذه المثابة فلا تجد لها وجوداً، وإنما الوجود لأنية الحق ﷻ، فيظهر لك أنك عدم ظهر في وجود، وهو الوجود الحق ﷻ، ثم تجد عدميتك هي عدمية جميع الأكوان لأن ما سرى على المثل يسري على المماثل، فحيث تعرف الحق تعالى في مرتبة تشبيهه، وهي الخلقية، وفي مرتبة تنزيهه وهي الحقية فتطعم عظمة الحق ﷻ في مرآة سرك فتطلب نكيف تلك العظمة فتترقى فيها فكلما ترقيت إلى عظمة يطلب السر ما فوقها من العظمة فتتحقق بمقام الحيرة، وليست

الحيرة في هذا المحل هي الجهل المحض كما توهمه بعض من لا علم له بما الأمر عليه، وإنما هي كناية عن التحقق بالمعجز عن إدراك تلك العظمة، وتقديرها حق قدرها مع الولوع بطلبها والشوق إليها مثاله والله المثل الأعلى: إذا رأيت جبلاً عظيماً فإنك إذا أخذت حجراً صغيراً منه بحيث ترفعه من الأرض، فإنك إذا رفعته تعرف قدره لا محالة فلا حيرة، وأما الجبل فإنك إذا تفكرت في مقدراه بعجزك عن رفعه تعلم كذلك قصور تصورك عنه كما عجزت عنه قوتك لأنه لا مناسبة بينك وبينه، فتلك هي الحيرة.

فإذا علمت هذا فاعلم أن سعة الذات وعظمتها لا نهاية لها، وسعة القلب لا نهاية لها فتطلب ما لا نهاية له بما لا نهاية له فكلما وصلت إلى حقيقة من الحقائق يتاديك لسان تلك الحقيقة الذي تطلب أمامك، ولكن المحذور الأعظم في هذا المحل هو الوقوف عند حقيقة من الحقائق.

وقد غلط في هذا الأمر جماعة من العارفين ظناً منهم أنهم وصلوا إلى الله ﷻ فوققوا، ومن هذا المعنى قول الجنيد ﷺ: أدركنا سبعين عارفاً يعبدون الله على شك ووهم، ومنهم أخي أبو يزيد البسطامي، ولو أدرك صبيّاً من صبيّاتنا لأسلم على يديه، انتهى.

قيل: معناه أنهم كانوا يقولون وصلنا في معرفة الحق ﷻ مقاماً لا يصله غيرنا، ثم اعلم أن هذا السير كله إنما هو في حقيقة نفسك وحقيقتها هي أن مردّها إلى وجود البارئ ﷻ لأنها عدم في وجوده جل وعلا.

كما قيل: من عرف نفسه فقد عرف ربه، أي: فعين معرفته بنفسه هي معرفته بربه وهذا السير في نفسه هو السير في ربه، كما ذكر هو محصور في حقيقة محمد ﷺ لأنه الحجاب الأعظم، ويدل عليه من جهة النفس قوله ﷺ: «أَلَيْسَ أَوَّلُ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» [الأحزاب: ٦] ومن جهة الرب قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُّونَكَ إِنَّمَا يُنَادُّونَ اللَّهَ» [الفتح: ١٠] وقوله تعالى: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» [آل عمران: ٣١] فهو من جهة بشرية فرد من أفراد بني آدم وهو أفضلهم كما قال ﷺ: «آدم ومن دونه يوم القيامة تحت لوائي» وقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا

فخر»^(١) وحيث ثبتت أفضليته على بني آدم فهو أفضل الخلق إجماعاً.
وأما من جهة حقيقته المحمدية - عليها أفضل الصلاة والسلام - فهو كل العالم وإليها يشير حديث جابر رضي الله عنه «أول ما خلق الله نور نبيك»^(٢).
وأما من جهة حقيقته الأحمدية فهي مجموع الأسماء والصفات، وأما من جهة الذات فمرتبة مرتبة وحدة الحقيقة والخلقية، فهو الصراط المستقيم الذي لا سبيل إلى حضرة الحق من غيره، وهو الحجاب الأعظم الذي لا يعرف الحق إلا فيه، وإليه يشير قول مولانا عبد السلام ابن مشيش: اللهم إنه مركب الجامع الدال عليك وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك.

واعلم أن كل ما يتجلى لأرباب البصائر من الأولياء والعارفين والأقطاب والصدقيين والأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين من المعارف والأسرار والتجليات والأنوار في معرفة الحق جل جلاله، فإنما هي صور من حقائق هذا الحجاب الأعظم ترد على حسب الاستعدادات الروحية، وكلما ترقى العارف من مقام يحصل له من الاستعداد ما لم يكن عليه، فيتجلى له الحق بصورة ذلك الحجاب على حسب استعداده وإلى هذا يشير قوله تعالى في سيدنا إبراهيم علي نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي» [الأنعام: ٧٦] فتجلى له الحق تعالى بتجلي يكون بالنسبة إلى ما دونه كالكوكب بالنسبة إلى الظلام المحض، وفي الثاني بما يكون بالنسبة إلى غيره كالقمر، وفي الثالث ما يكون بالنسبة إلى غيره كالشمس فعندها قال: هذا ربي هذا أكبر إلى أن قال: «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَائِفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [الأنعام: ٧٩] فكل العارفين لم يصلوا إلى صورة الكوكب من إبراهيم ولا مطمع لهم فيه فضلاً عن ما فوقه، ومع هذا فلم يشم رائحة من ربح ذلك الحجاب الأعظم لأنه الفلك المحيط بسائر التجليات، ومن هذا المعنى قولنا المصطفى صلى الله عليه وآله: «بحر عميق ظاهره يتموج في الموجودات وباطنه ينتهي إلى الذات» انتهى.

(١) أخرجه أحمد (١١٠٠٠)، والترمذي (٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨).

(٢) تقدم تخريجه.

من إشاراته ﷺ

ومن كلامه ﷺ: إن شهدت أبنتي أفهمتك قافيتي، وإن عميت عن وجهتي، نهت في عماء حيرتي.

أنا من أهوى ومن أهوى الكل، فكيف مع ذا يضبطنا النفل.

وله أيضًا:

تجمعت الأضداد في واحد الشكل، فلا تحتجب إذا بنطق ولا نقل.

وله أيضًا:

هذه الروح والشبح، كل في فلك سبح، فالثاني في القيود انطرح.

والروح في الإطلاق رمح، فكن مع الروح لا الطبيعة، مهمة للحق فريضة، واعرف أن للنفس خديعة، والروح لمن والها مطيعة، صدرت من أمر حضرة الظهور، وتعينت بها كل الأمور، وينورها سلامة الصدور، وظلمتها عماء لأهل النور، نور البشرية اتسع، والكل في بحر كرع، والشأن عند الكل اتسع، هنيئاً لمن عنده الفرق اندفع، هات اسقني هات اسقني من هذا الطلا، كأسه تنوعات أوجه البلا، ودنه تلك الأحوال المقتلا، وحانه ربيع أرياب العلا، إن كنت يا بطل لم تدره، فعد عن الساقى الذي يسقه، واتبع معبود الهوى المفتون فنتت به، غدا ترى الحق مشهود الأهله، ولا تقل إن البلا كما زعمته، بل هو تعرفات محبوب لمن أحبه، كذا الأحوال تجليات أوصافه إن عرفته، والحنان كثيب الشهود إن وجدته، فمن لم يشرب لذلك الطلا المقدم، فمشروبه زقوم أهل جهنم، ودنه سم أفاع مسمم، وحانه الحجاب عن وجه الكريم الأعظم، فاختر لنفسك ما تختاره، فالأمر هنا عليك مداره، وبعد الموت شط عنك مزاره، وسرت مع من كان الجحيم قراره، فهناك قلت: ليتني ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ينجنني، ولم اتخذ فلاناً خليلاً إذا أضلني، فالיום نحن في النار أعداء يسبني؛

انظر إلى تجلي الحق في الوجود وحقق فيه قبلة السجود
فمجمع البحرين في الشهود والوصل بين العبد والمعبود
ونعت ذا الولي للحميد قطب الوجود وجهة التوحيد
فإن شهدت وحدة الوجود في الكل صرت سيداً مسود
حقت عين مركز التوحيد نجوت من قيد ومن تعبد
وصار الوصف منك للمجيد محيلاً لأهل ذا التقليد
فإن أذعنت للقول المفيد وممت عند القوم بالسعيد
بشرط تسليم بلا تردد أو ضللت عن المقصود فإنك

طلب العلوم مركوز في النفس

ومن كلامه ﷺ: الذي حجبنا عن شهود وحدة الله شهود الغير، وذلك أنا لا نقدر
أن نخرج عن الكثرة وادعاء عقولنا عدم العجز عن المعرفة؛ لأن العقل كلما ذكر له
شيء يتصوره ويقن أن ذلك معرفة مع أنه لا يخرج عن الخلق بل له حدود في
الخلق لا يتجاوزها، انتهى.

قلت: قد يكون ذلك في المحسوسات مثال ذلك في الدنيا أنك ترى الإنسان إذا
ملك قدرًا كثيرًا من الدنيا تراه لازال عقله الحيواني يتسع ويطلب الزيادة، وإن زاد
على ذلك يطلب الزيادة وهكذا إلى ما لا نهاية له وإن وجد المال يرى أن هذا المال
ثمرته الملك، ولا تكمل ثمرته بدونه.

ثم قال ﷺ: وكلما بلغ الإنسان مرتبة تجلت له الأشياء المتمولة طمع فيها فوقها
ورقا إليها لأنه يرى سعة حياته بسعة ملكه حتى أنا نرى الجند في ترتيبهم كلما رقا
أحدهم درجة طمع فيما بعدها حتى يكون سلطاناً على جميع البسيطة.

ثم إنه لا يقنع بذلك بل يطلب مرتبة الألوهية كما قال الغزالي ﷺ: كل نفس
مضمرة ما أمضره فرعون من قوله: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» [النازعات: ٢٤] إلا أن فرعون
وجد له مجالاً أظهره فيه وهذا كله وهم حجب به لأن وجوده ليس متوقفاً على

ذلك، فالجمادات موجودة مع عدم ذلك بل قد يوجد ذو روح قائماً وجوده بغيرها كالروحانيين ومن تروحن من آدميين، فإذا قطع حجب البشرية بالزهد فيها وتروحن اتسع ملكه اتساعاً لا مناسبة بينه وبين ما تقدم، لأن ما تقدم لا يطمع في شغله بذاته، لأن ذاته كصورة في حين، وإنما يكون بعقله بخلافه في المقام الثاني إذا تروحن فهو يتشر في سائر الوجود ويلتذ به، لكن لذاته هنا لا بالمحسوسات بل بالعلوم والمعارف، فهو يرتع في جميع الوجود من عرشه لفرشه بالإطلاع على حكمه وأسراره، فلذته في هذا المقام أعظم، لأن غاية مراتع البشرية أن يملك البسيطة، وهذا من الملك إلى الملكوت فالتفاوت بينهما في المعاني كالتفاوت في المساحة، فإذا وقف مع هذه اللذة فهو محجوب، ومع ذلك أيضاً يرى تفاوت الوجود في القرب من الله تعالى كالجنة لا يرى الأرض مثلها في القرب، فإذا رقا من هذا المقام رأى الجنة وغيرها من الروحانيات مجموع أفراد، فإن انحل تركيب الأفراد رجعت لمرتبة الجوهر والعرض، فلا يرى مكاناً أقرب لله تعالى من مكان، لأن معيته تعالى لا تفاوت فيها، انتهى.

العقل والوهم

ومن كلامه ﷺ قال: اعلم أن الإنسان له عقل ووهم، وكل منهما له أحكام تناقض أحكام الآخر، لأن الله تعالى جعل لكل شيء مقابلاً، وهذا كثير في أطوال الوجود، فمن أحكام العقل أنه يثبت أن لا فاعل في الوجود ولا رازق ولا محرك ولا مسكن إلا الله تعالى فحكمه هذا هو مقتضى الحقيقة.

ومن أحكام الوهم: أنه يثبت أن الشخص إذا لم يتحرك في جلب مصالحه ودفع المضار عنه هلك ويتوهم أن حركته هي المجدبة في ذلك، ويرى الشخص أن الوهم له مساعد في ذلك، وهو انهماك الناس في الأسباب وارتباط بعضها ببعض لاسيما والشرعية أمره بالأسباب، فهذه الأشياء يغلب حكم الوهم على العقل وتراكم حجه حتى ينتهي إلى الصنم الذي يصنعه بيده يعتقد به ينفع ويضر حتى ينتهي تقيض الوهم وهو العقل إلى أن الأسباب لا تأثير لها كالماء في الثرى، وغير ذلك بل الفاعل هو الله تعالى وحده.

ومن هنا يتفاوت الناس في القرب من حضرة الله تعالى والبعد عنها بحسب

الحجب الوهمية كثرة أو قلة كثافة أو لطافة؛ لأن قرب الله تعالى لعباده ليس بمسافة، فقربه تعالى لخلقته لا تفاوت فيه، وليس الحجاب تعالى وصفاً له، وإنما هم المحجوبون عن قربه تعالى منهم بالوهم، فكلما انطوى عن الشخص الوهم وظهرت له أحكام العقل وأشرق نوره قرب من تلك الحضرة الإلهية؛ لأنها عبارة عن الحضور مع الله تعالى بسبب طي الوهم، فالناس متفاوتون في الدخول في هذه الحضرة فمنهم من يرى أن جميع الوجود لا فاعل فيه إلا الله تعالى؛ لأنه مرآة تجليات جلالة وجماله، فمن كان هذا مشهده فهو في حضرة الله تعالى؛ لأنه مع الله في كل حالة بحيث لا يتكره في تجل من التجليات. ومنهم من تحكمت عليه حجب الوهم بحيث لا يشهده تعالى هو الفاعل إلا عند بعض الشدائد كطلب الشفاء منه تعالى في المرض الشديد، وطلب المطر منه تعالى ووفاء النيل وطلوع الشمس عند السكوف وغير ذلك، فهنا يستوي العامي وغيره في تلك الحضرة، وبهذا يتبين لك أن كل واحد من الفرق الإسلامية لا يخلو من طريق في الوهم بإرشاد العارفين لمريدتهم بيان طي درجات الوهم، فكلما انطوى عنه شيء من الوهم يدخل به إلى تلك الحضرة، وسبب ذلك معرفته بالله تعالى على حسب استعداده ولم يكلفه الشرع بما ليس في طاقته؛ لأن الشارع خطب الناس على حسب مراتبهم.

قال ﷺ: «أمرت أن أخطب الناس على قدر عقولهم»^(١) ففعل بعض الناس وهم بالنسبة لآخرين، كما أن معرفتهم جهل بالنسبة لآخرين بل كفر بالنسبة لهم، وبهذا يتنزل لك ما ورد في الآيات والأحاديث التي يظل الجاهل بوهمه أنها متعارضة ويؤول الإشكال كقوله تعالى لنبيه ﷺ: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» [آل عمران: ١٢٨] وقوله: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ» [الأنعام: ٢٩] وغير ذلك.

فلأجل ذلك ما كان بيت وعنده درهم أو دينار إلا وأخرجه وأمر بلالاً بإخراج القرص الذي أراد أن يدخره لفقطوره لما رآه من أهل هذا المقام، فقال له: «أنفق بلالاً ولا نخش من ذي العرش إقلالا»^(٢).

(١) أخرجه الديلمي (١٦١١) قال العجلوني (٢٢٥/١): رواه الديلمي بسند ضعيف، وهو صحيح بشواهد.

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية (٣٥٦) بتحقيقنا، واليزار (٢٧٣)، والضياء (٨٨).

ومن القبيل الآخر أنه ادخر لبعض نساته قوت عام، وقيل له: ما معنى الموكب الإلهي في الثلث الأخير من الليل؟ فقال: الموكب هو تليفق أشياء بعضها لبعض، وبسبب ذلك إذا شاهدته الإنسان تحصل له هبة كما يقال: جاء الملك في موكب عظيم وهو مجموع خيول وجنود وأسلحة ولباس وغير ذلك، وبسبب شهود الموكب الإلهي ليلاً، لأن الليل يتطوي فيه أكثر الحجب التي منها حاسة البصر والسمع، لأن الخلق سكنت وصارت كالجمادات، وظهرت عساكر النجوم وغيرها من جنود الله تعالى فيحصل للقلب هبة بجهد بسببها وحشة حتى من أحب الناس إليه، لأن بعض الحجب التي تحجبه عن الحق زالت، انتهى.

الشيخ والد الروح وأدب الاتباع

قال بعضهم: وسمعت رحمته يقول: الشيخ الذي يعتقد المريد أنه لا أكمل منه هو شيخ الطريقة الذي تنسب إليه، وأما من أخذها عنه مباشرة إذا لم يكن هو صاحبها فيجله ويعظمه ويحترمه غاية، بل يراه بمنزلة سمعه أو بصره الذي لا يهتدي إلى شيء مسموع أو مرئي إلا بواسطتهما، ألا ترى إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خلافة الصديق الأكبر فهم معه على غاية التعظيم والأدب والامثال، لكن منزلته عليه السلام عندهم لا يحوم حولها أحد، وكذلك الإمام عمر رضي الله عنه بعد الصديق هم معه كذلك غير أنه دون الصديق بيقين.

قلت: كلامه هذا تقريب للعقول القاصرة؛ لأنك تعلم يقيناً أن هذا الشيخ نسخة شيخ الطريقة الأصلي؛ لأنك لا تعرف ذلك الشيخ إلا بهذا الشيخ فهو واسطتك إلى ذلك الشيخ، كما أن ذلك الشيخ واسطتك إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم فلو كان المصطفى صلى الله عليه وسلم موجوداً بقيد الحياة الحسية ما التفت إلى غيره؛ لأنه هو الواسطة بينك وبين الله، فمتى رأيت أن لك وصلة بالمصطفى صلى الله عليه وسلم من غير هذا الشيخ الذي وصلت إليه حجبت عن المصطفى صلى الله عليه وسلم كما قال سيدي عبد الوهاب الشعراني حاكياً عن سيدي علي وفا حين ذكر مناقبه: فأول مبادئ المريد أن يتحلى بسمة أهل الصلاح فيرى أن شيخه هو أبوه فيعظمه تعظيم الشاب لأبيه المهاب، ثم يراه آدم الزمان ومالك أزمة الأكوان، ثم لا يرى إلا واحداً يتجلى في المشاهد بحسب وسع الشاهد، ثم قال ما لم يرتفع حكم المغايرة بينك وبين أساتذك، فأنت لا شك ضائع فارجع إلى ربك فأسأله.

وقال متى تخلص حريرة الإيمان من شوك السعدان يشير إلى أن المرید إن لم يشهد في شيخه حقيقة المصطفى ﷺ ما رآه بعين الكمال بحيث يرى المصطفى ﷺ هو الذي تطور بشيخه وظهر له فيه، وهو الذي منه وبه مدد الوجود كله، وهي مرتبة القطبانية التي قبل فيها حيث ما كان الرب إلها القطب خليفة بإذن الله^(١) ثم بصير سائرًا بحقيقة المصطفى ﷺ في الوجود؛ لأن الشيخ هو الوجهة التي واجهه الحق بها من المصطفى ﷺ فتصير تشهد ذلك أولاً بطريق الإيمان ولا تزال تترقى، ويقوى ذلك الشهود ويزداد حتى تذوق ذلك منك وتنفى عن نفسك، فيصير الشيخ راتبًا نفسه بنفسه وأنت حقيقة من حفاظه، انتهى.

الحكمة

ومن كلامه ﷺ قال: قال الله تعالى: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْاَلْبَابِ» [البقرة: ٢٦٩] فالحكمة أن ينظر الإنسان في حقيقته والخاصية التي تميز بها عن غيره وما خلق له، فحقيقته أنه جامع لحقائق العالم وهو ملك من حيث روحانيته وجماد وحيوان وسبع، وبعبارة أخرى لأنه اجتمعت فيه خمس حقائق وهي الملكية والإنسانية والحيوانية والسبعية والجمادية، فالملكية: تميل إلى الخير مطلقًا، والسبعية: تميل إلى جانب الشر، والحيوانية: تميل إلى الشهوة، والإنسانية: هي الوسطة تميل إلى الخير ساعة وإلى الشر ساعة ولكل منها داع.

فداعي الملكية فيه هو الروح، لأن الروح من عالم الملكوت، ومن حيثية هذا الروح فالإنسان من جنس الملك قبل حلوله في عالم الحلك وداعي الهيمنة فيه هي الشهوة وداعي السبعية فيه هو الغضب وما جرى مجراه، وداعي الإنسانية فيه هو التركيب بين الروح والجسم، وأما ما خلق له فإنه خلق للعبادة وهي الصفة الملكية التي هي أعلى وجوه الخير قال الله تعالى في وصفهم: «يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ» [الأنبياء: ٢٠] والعبادة مطلوبة للذكر لقوله تعالى: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» [طه: ١٤] والذكر مطلوب لامتناد الفكر والفكر مطلوب للمعرفة، ولذلك قال بعض

(١) [بحسب مرتبة الخلقة].

العارفين في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليعرفون. فإذا عرف هذا وعرف حصة نفسه، وشؤمها وشرها استقبلته ما هنا عقبة التوبة، وهي أول مطلوب منه في السير إلى الله، فإذا تاب ورجع إلى الله تعالى استقبلته عقبة العلم بالعبادات، ومعرفة القواطع عن الله تعالى، فإذا علم هذا استقبلته عقبة القواطع عن الله تعالى، وهي النفس والشيطان والدنيا والهوى، انتهى.

كان لا يحسد أحداً على نعمة

وقال بعضهم: وسمعت الله يقول: مما من الله به علي أنني لم أحسد أحداً على نعمة، لأن مبدأ الحسد الغبطة وهي ألا يكره نعمة الغير، ولا يريد زوالها ولكن يريد لنفسه مثلها، وهذا وإن كان محموداً لكنه يؤدي إلى الحسد بسبب المنافسة في تلك النعمة، لأن الحسد غالباً لا يكون إلا بين الأقران والنظراء، ولذا لا يكون بين أصحاب حرفتين، بل بين أصحاب الحرفة فيما بينهم.

معنى كلامه الله أن الله تعالى أزال عنه الغبطة التي منها ينشأ الحسد، لأنه لا يرى الآن أحداً أنعم عليه بنعمة أعظم مما هو فيه حتى يغبطه عليها حيث جعله الله من أعظم أتباع سيدي الشيخ أحمد التجاني رحمه الله، ومن تأمل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدي الشيخ أحمد التجاني رحمه الله في فضائل أصحابه انتضح له بعد مرمى مشهد ذلك العارف رحمه الله وعنايه آمين.

وقال أيضاً: قال بعضهم: شهدت من بعض العارفين بالله تعالى أنه لا يتفقد إلا واردات قلبه فقط من قبض أو بسط أو غيرهما، وبحسبهما يتكلم في العلوم والمعارف.

التعبير عن مظاهر حضرات الأسماء

وقال أيضاً: فإذا عبرت عن مظاهر حضرات الأسماء فلا تقل هذه حضرة، أو مظهر اسمه تعالى القهار أو المتكبر، بل قل هذه حضرة أو مظهر القهر أو الانتقام، هذا هو الأدب اللائق في التعبير، فلا ينبغي أن يعبر بما تقدم إلا لضرورة التعليم.

(١) [في الرواية اليقينية].

فإذا أردت أن تعرف أن هذا الشيء مظهر أي اسم من أسمائه تعالى باعتبار ظهور أغليته، ويطون غيره من الأسماء بالنسبة له لا باعتبار عدمها في هذا المظهر، فإن وجوده بجميعها لكن هذا الاسم الغالب في الظهور هو إمام في هذا المظهر، وبقية الأسماء مأمومة فهو يمد المظهر به منها، وهو في مواطن أخرى كهي معه، فانظره ابتداء هل هو مظهر جمال أو جلال؟ ثم بعد تمييزه فضل أغلبية ظهور الأسماء فيه على حسب ما يفتح الله به عليك، انتهى.

وقال أيضاً: اعلموا يا إخواني أن الناس الآن صار عندهم الدين كالمال فعندهم دين غيرك كمال غيرك، ولم يعلموا أن الذي يحصل في الدين يجب على جميع المسلمين أن يقوموا به، انتهى. وكان بعض العارفين إذا نظر إلى الطير يقول: هو حي يطير بعيت يعني بالميت الريش لأنه لا يتألم به إذا قطع، انتهى.

الانتقال من مذهب إلى مذهب

وقال أيضاً: إذا انتقل الشخص من مذهب مالك مثلاً إلى مذهب الشافعي فهل يبقى على أحكام المذهب الذي انتقل عنه أم يعمل بأحكام المذهب الذي انتقل إليه ويقطع النظر عما انتقل عنه؟

جواب السؤال: إن يبقى على أحكام المذهب الذي انتقل إليه، ولا يعارضها بأحكام المذهب الذي انتقل عنه، فكذا من أراد الدخول في علوم أهل الله تعالى فليترك علمه [حيث إنه لا يعارض معارفهم] ولا يزن به علمهم كما تقدم في الانتقال من مذهب إلى غيره، انتهى.

وحدة الوجود

كل ما سوى الحق خلقه الله ﷻ وليس لمخلوق وجود من ذاته، فالكل مستمد من وجود الحق سبحانه، فهو قیوم السموات والأرض ومن فيهن.

وما لا وجود له من ذاته، نسبة الوجود إليه من غير قيد قد توهم أن وجوده ذاتي له، وهو خلط بينه وبين الواجب ﷻ فلا يد من التفرقة بين من وجوده حق، وبين المخلوقات التي يرجع وجودها إلى وجوده جل شأنه، فالوجود الذاتي واحد أو قل الوجود الحق واحد، وما عداه تابع للوجود الذاتي وليس بوجود ذاتي أو قل إنه تابع

للوجود الحق، وليس بوجود حق، لأن الوجود الحق إنما هو الوجود الذاتي القائم بذاته الغني عما سواه، أما ما شأنه - حقيقته - الافتقار الذاتي في كل ما تعلق به حتى في ظهوره، فوصفه بأنه وجود حق خطأ، وخلط برده التحقيق العلمي والشهودي. والحركة في الجرم المتحرك لا يصح وصفها بأنها عدم محض، ولكنها لا تعتبر ذاتاً ولا جرماً وظل الشجرة مهما اعتبرته فليس بشجرة. ولا شك في كفر من يعتقد أن هناك ما له استقلال، وغني عن الله ﷻ بأي وجه من الوجود فوصفه سبحانه الانفراد بالغنى الذاتي المطلق. ولذلك عبر أهل الحقائق عن الكون بما فيه أنه ظل الوجود الحق، وليس المراد ضرب المثل للحق سبحانه عما يصف الواصفون، وإنما المراد بذلك تقريب انفراد الحق سبحانه بالوجود الذاتي للأفهام وتلاشي غيره في وجوده سبحانه - لا على ما يتصور الذهن المحدود - وهذا ما يقصده العارفون بوحدة الوجود فهو ما يعتقد كل مسلم في الذات العلية، ولا يصح الإيمان لغير من يعتده، وكل سلك نهجاً من التعبير، ويرجع الكل إلى مقصود واحد هو: أن الوجود الذاتي ليس إلا للحق سبحانه، وما سواه لا يمكن بحال أن يوصف بأن له وجوداً ذاتياً وما هو إلا تابع للوجود الذاتي، فهو شأن من شئونه، أما الاتحاد أو الحلول أو أي وصف مما يدور بالخيالات من شبه المخلوقات، فهو باطل مردود «سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ» [الصافات: ١٨٠].

الحقيقة المحمدية

(كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد) (١).
 (كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث) (٢).
 الله خالق كل شيء فالكل مخلوق، ولا أزلي إلا الله ﷻ، ولم يخلق الله الخلق دفعة واحدة وقد سبق بعضها بعضاً، فلا بد من مخلوق هو أول الخلق وسواء اعتقدته القلم أو الماء أو الهواء أو النور. والاعتقاد الكوني لا يفسر الخطأ فيه حيث لا يمس كمال الألوهية، أو النبوة فمن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن سعد (١/١٤٩)، والديلمي (٤٨٥٠).

اعتقد أن أول مخلوق القلم فتبين أنه الماء أو غيره، فإن ذلك لا يضره أنه مخلوق خلو من أي صفة من صفات الله ﷻ وكونه خلق أولاً أمر جائز كمن كان يعتقد أن الأرض على شكل كذا مع تصديقه بما في كتاب الله، فظهر أنها على غير صورة ما يعتقد، فهذه كونيات لا يضر الخطأ فيها ما كان بعيداً عما يقتضي تكذيبنا له ﷻ.

وكون الأرواح مخلوقة قبل الأجساد قد ثبت عنه ﷻ ولا يعلم بين أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك خلاف، ونقل جمع من العلماء الإجماع على ذلك منهم أبو إسحاق المروزي كما نقله ابن القيم في كتاب «الروح» وكذلك ابن حزم، وخالف في ذلك من حامت حولهم في دينهم شبهات والعياذ بالله تعالى.

وقد ثبت عن المعصوم ﷺ في بيان قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] إن ذلك الميثاق كان حقيقياً ولم يكن صورياً كما زعم من أخطأه العلم.

وأخرج الإمام مالك في الموطأ والترمذي وأبو داود عن عمر ﷺ وسئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فقال سألت عنها النبي ﷺ فقال: «إن الله تعالى خلق آدم، ثم مسح ظهره يمينه فاستخرج منه ذر فقال خلقت هؤلاء للجنة، ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره واستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون» قال رجل: يا رسول الله فقيم العمل، فقال: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار»^(١).

وأخرج الحاكم في المستدرک عن أبي بن كعب ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: جمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحاً، ثم صورهم واستطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق

(١) أخرجه مالك (١٥٩٣) وأحمد (٣١١) والبخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨) وأبو داود (٤٧٠٣) والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن. والنسائي في الكبرى (١١١٩٠) وابن جرير في تفسيره (١١٣/٩).

«وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ» [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أبائكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم، أو تقولوا: «إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» فلا تشركوا بي شيئاً، فإني أرسل إليكم رسلي بذكرونكم عهدي وميثاقى، وأنزل عليكم كتابي، قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك، ورفع لهم أبوهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقر وحسن الصورة وغير ذلك فقال: رب لو سويت بين عبادك، فقال: إني أحب أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج، وخصوا بميثاق آخر بالرسالة والنبوة، فذلك قوله: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ» [الأحزاب: ٧] وهو قوله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» [الروم: ٣٠] وذلك قوله: «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأَوَّلِ» [النجم: ٥٦] وقوله: «وَمَا أَخَذْنَا لِصَفَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ» [الأعراف: ١٢] وكان روح عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عليها الميثاق، فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين «أَنشَدْتَ مِنْ أَمْلِكُهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا» [مريم: ١٦] قال الحاكم: صحيح وأقرّ الذهبي تصحيحه، ورواه عبد الله بن الإمام أحمد عن شيخه محمد بن يعقوب الربالي وقال الحافظ الهيثمي: وهو مستور وبقيّة رجاله رجال الصحيح^(١).

وقال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ صَوَّرَكُمْ ثُمَّ قَلْنَا إِلَيْنَاكُمْ أَشْجُدُوا لِآدَمَ» [الأعراف: ١١] والقرآن لا يصرف عن ظاهره إلا بموجب وها هي ذي السّنة المفسرة للقرآن تقتضي أن تحمل الآية على ظاهرها - فالأرواح كانت موجودة قبل الأجساد.

وقال الله: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد»^(٢) وأخرجه الحاكم عن مبصرة الفجر قلت يا رسول الله: متى كنت نبيا؟ قال: وآدم بين الروح والجسد، وقال

(١) ذكره الهيثمي في غاية المقصد في زوائد المسند (٨٢١/٢).

(٢) تقدم تخريجه.

الحاكم صحيح وأقره الذهبي وأخرجه أحمد والطبراني بلفظ الحاكم، قال المحافظ الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

ولا يصح أن يكون معنى الحديث أن الله ﷻ قدر نبوته وآدم بين الروح والجسد؛ لأن التقدير سابق لذلك وقد قدر الله ﷻ نبوة الأنبياء جميعهم، فلا بد لقوله ﷻ من معنى صحيح يختص به في ذلك.

فحقيقته الروحية ﷻ كانت موجودة بالفعل في عالم الأرواح وكان نبيا بالفعل إذ ذاك.

وقال ﷻ «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث»^(١) رواه ابن سعد عن قتادة مرسلًا بسند صحيح.

وقد أخرجه أبو نعيم في الدلائل وابن أبي حاتم في تفسيره وابن لال والديلمي كلهم من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث»^(٢).

والمرسل قد احتج به قوم مفردًا أما إذا اعتضد بسند متصل، وإن كان في رواه ضعيف فيتقوى باتضمامه إليه، وقد احتج به من لا يحتاج بمرسل وحده.

وإذا عرفت أن العقائد لا بد فيها من الدلائل القطعية، وأما القروع من حلال وحرام وواجب إلى آخره، فيكفي فيها الدليل الظني ولا بد فيها من نقل صحيح أو حسن.

وأما المناقب فقد جرى العلماء على الأخذ فيها بالصحيح والحسن والضعيف متى كان الأمر في نفسه جائزًا عقلاً وشرعًا، وكذلك في فضائل الأعمال لأنه لا يترتب عليه تحليل حرام ولا تحريم حلال والدلائل التي جاءت في هذا الموضع مما يحتاج بمثله العلماء في الحلال والحرام فكيف لا تأخذ به في المناقب.

وفي السنن عن أبي هريرة عنه ﷻ: «أنا أول من تتشق عنه الأرض فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»^(٣).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦١١).

وفي الصحيح ما يزيد من قوله ﷺ للذي لعن اليهودي عندما قال: والذي اصطفى موسى على العالمين.

وفي صحيح مسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع وهو ﷺ أول من يعجز أمته على الصراط»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أنتي ياب الجنة يوم القيامة فاستفتح فيقول الخازن من أنت، فأقول محمد، فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»^(٢) أخرجه مسلم في الصحيح.

فأوليته ﷺ ثابتة في هذه المراتب، فواضح أن يكون أول المخلوقات كذلك. وإما أن يكون لمن هو أول الخلق مزية على الخلق أو لا مزية له، مع القطع بأن لا صلة لذلك بالوهمية. فإن كان له مزية، فرسول الله ﷺ أولى بكل فضل وإن لم يكن له بذلك مزية فلم ينق أولئك المظلّمون؟

وأكمل مراتب المخلوقات وأجمعها مرتبته ﷺ، فإنه سيد الخلق فمراتب الممكنات تفاصيل للمرتبة الجامعة التي اختصه الله ﷻ بها ومعنى أنه ﷺ أول الخلق معناه: إنه أعلى الخلق منزلة وأرفعهم رتبة وأجمعهم للكمالات الحسية والمعنوية ولا يمنع شرع ولا عقل أن تكون روحه الشريفة أول مخلوقات الله ﷻ. ومن زعم أن هذا الوجه يشبه اعتقاد النصارى في سيدنا عيسى ﷺ فإنه لا يعرف العلم لأن البون شاسع بين من يقول إن روحه الشريفة عبد مخلوق ليس فيه من الألوهية أو الربوبية شيء وبين من يقول عن المسيح ﷺ إنه إله قديم غير مخلوق سواء جعله ابنه أو جعله هو الله وعلى كل حال فلا بد من مخلوق هو أول الخلق فإن لم يشتهوها له ﷺ فيثبتونها للعلم أو العرش أو الماء، فلم لا تكون روحه ﷻ.

ومن اعترض بأن نشأته الجسمانية الشريفة إنما كانت منذ ولد بمكة المكرمة فإنه في واد جسماني وإنما كلامنا في النشأة الروحية، فهو أجني

(١) تقدم

(٢) أخرجه أحمد (١٢٤٢٠)، وعبد بن حميد (١٢٧١)، ومسلم (١٩٧) وابن منته في الإيمان (٨٦٧)، وأبو عوالة (٤١٨).

عن التحقيق والمقطوع به في اعتقاد كل مؤمن أنه ﷺ أهل لكل وصف كمال في
الحس والروح وليس فيه من الألوهية شيء والحمد لله رب العالمين.

مرتبة الختمية

(كتب عن هذه المرتبة الإمام المحدث الشيخ محمد بن علي).

(الحكيم الترمذي صاحب كتاب نواذر الأصول في الحديث).

(وسيدي محيي الدين بن عربي وغيرهما).

(وليس معناها أن صاحب هذه المرتبة هو آخر الأولياء).

(ولكن معناها أنه أتم مقامات الولاية وبلغ أعلى مرتبة فيها).

لا يريد أهل الله إذا ذكروا مرتبة الختمية أنه لا ولي بعد الختم ولكنهم يريدون
بها مرتبة خاصة في الولاية وهي دون مرتبة الصحبة لرسول الله ﷺ.

وإذا رتبنا منازل أهل بلدة في مدارج القرب الإلهي، فلا بد أن نجد مرتبة هي
أعلى المراتب في هذا البلد فسم صاحبها رئيس البلد أو قطب البلد أو شيخ البلد
فلا مشاحة في الاصطلاح فلا بد من مرتبة هي أعلى المراتب بلا نزاع.

وإذا أخذنا صاحب أعلى مرتبة في كل بلد ثم رتبناهم نصل إلى من هو أعلى
مرتبة في عصره فهذا سيد العصر قطب العصر شيخ العصر إمام العصر وكذلك
العصور من بعد عصر الصحابة؛ إذ لا يصح أن يصل أحد إلى مرتبة الصحابة
فكيف يعلو عليهم؛ فهذا قول باطل لا يليق أن ينسب إلى أحد من أهل التحقيق وإن
وجد في كتبهم فهو مردود وقد كذب على رسول الله ﷺ فكيف لا يكذب على
العارفين.

وقد قال شيخنا سيدي أحمد التجاني رحمه الله لما سئل عن الصحابي الذي لم يفتح
عليه والقطب من غير الصحابة فذكر أن الصحابي أفضل من القطب لما جاء عنه ﷺ
إن الله اصطفى أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين ويقول ﷺ «لو أنفق

أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ أحدهم ولا نصفه»^(١).
ولا يصح في طريقته عنه أنه فضل نفسه على أصحاب رسول الله ﷺ ولا أنهم يستمدون منه، ودعوى أن هذه مزية لا تقتضي الأفضلية لا تصح كذلك وهذا كلام لم يقله الشيخ رحمه الله ولا يصح عنه بحال، وقد بين سيدي عمر بن سعيد الفتوي في الرماح المسألة وجلاها بأوضح تبيان.

وقال سيدي أحمد التجاني رحمه الله عن الصحابة أعمالنا معهم كالنملة مع القطاة وبين أن جميع أعمال الأمة بعدهم لهم أجرها لأنهم هم الذين بلغوا الدين فهي في صحائفهم وإجماعهم حجة بلا خلاف، وقال سيدي أحمد التجاني: إذا سمعتم عني شيئاً فزنوه بميزان الشرع فما وافق فاعملوا به وما خالف فاتركوه.

وكذلك قال سيدي محمد بن المختار وهو حجة في هذا الكتاب «الواردات»: إن أفضل المؤمنين أصحاب رسول الله ﷺ.

فمعنى الختم في كلام المحققين من أهل الله ﷺ أنه بلغ أعلى مرتبة في الولاية في بلده أو في عصره أو في عدة عصور وليس معناها أنه ليس بعده ولي.
وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمتي مثل المطر لا يدري آخره خير أم أوله»^(٢) أخرجه الترمذي وصححه.

وعن المغيرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتهم أمر الله وهم ظاهرون»^(٣) أخرجه الشيخان، وقال البخاري: وهم أهل العلم، انتهى. ولا أحق بأهلية العلم من العلماء بالله في عين اليقين وحق اليقين.
وأما خاتم الولاية بمعنى آخر فهو آخر من يتوفى من المؤمنين عند قيام الساعة، فقد صح عنه ﷺ: «لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله الله»^(٤).

(١) أخرجه غيثة في العلم (٣٤٠)، وتما في الفوائد (٢٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٣٤٩)، والترمذي (٢٨٦٩) وقال: غريب من هذا الوجه. وأبو يعلى (٣٧١٧)، والرامهرمزي (٦٩).

(٣) تقدم.

(٤) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٣٩٧/١).

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق
بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم

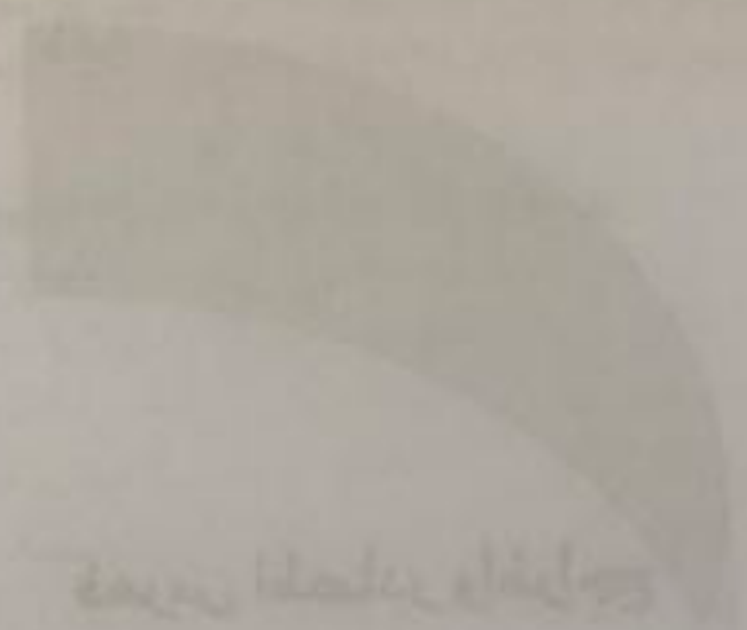
تم الجزء الثاني

وبه نهاية الكتاب والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

Handwritten text at the top of the page, possibly a title or header.



Handwritten text in the center of the page, possibly a title or a section header.

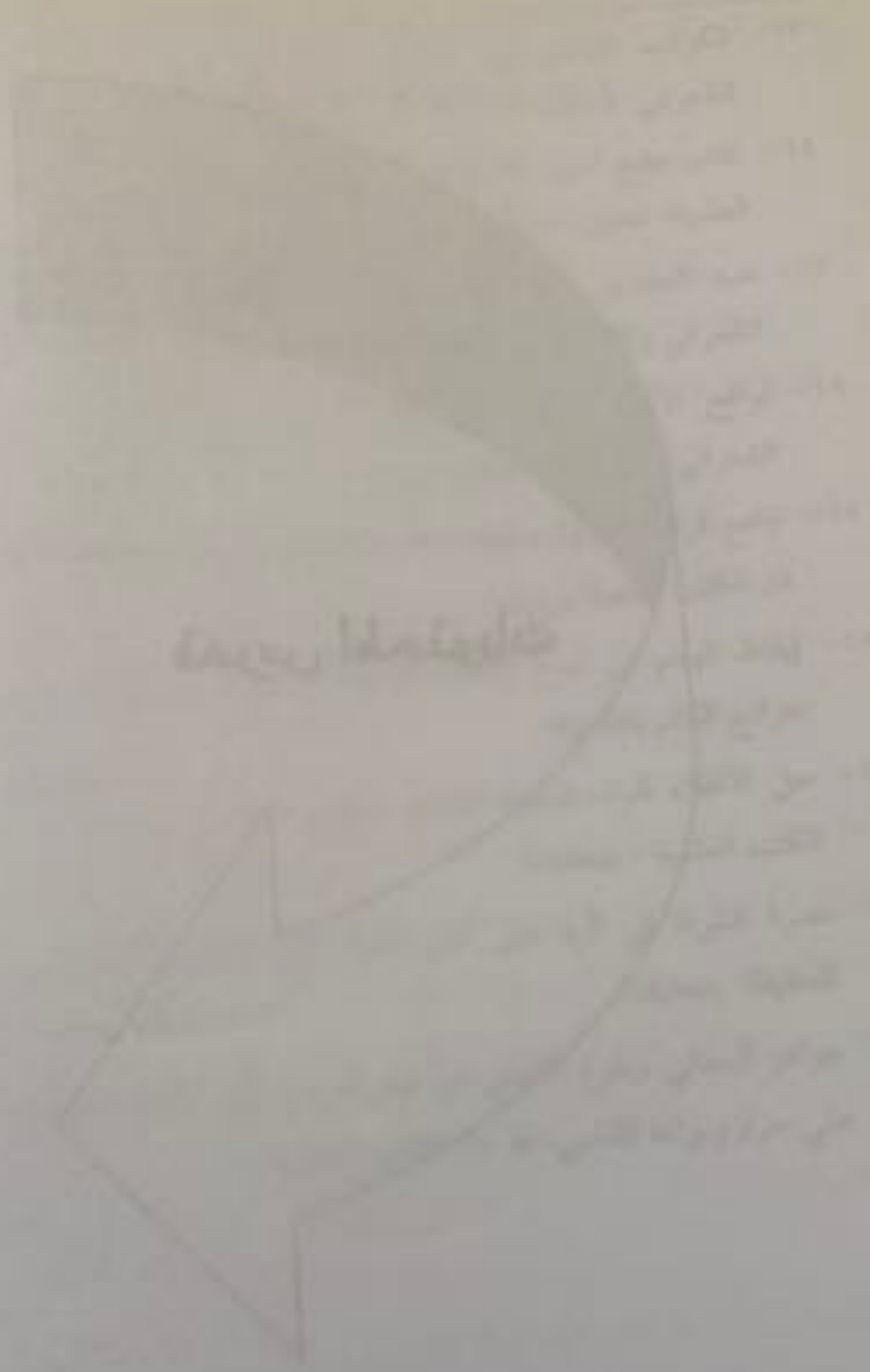


فهرس باهم المصادر والمراجع

- ١- تفسير روح البيان للعارف إسماعيل حقي. طبع دار الكتب العلمية.
- ٢- الدر المثنور في التفسير بالمأثور. طبع دار الكتب العلمية.
- ٣- عرائس البيان في حقائق القرآن، لروزبهان البقلي الشيرازي، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.
- ٤- التأويلات النجمية، لنجم الدين كبرى، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.
- ٥- روح البيان في تفسير القرآن لإسماعيل حقي، ط دار الكتب العلمية.
- ٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ بن حجر، ط الدار السلفية، الهند.
- ٧- إحياء علوم الدين ومعه المغنى عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار دار الكتب العلمية.
- ٨- لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام للشيخ عبد الرازق القاشاني. ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار الكتب العلمية بيروت.
- ٩- الفتوحات المكية (أو - كما تسمى - الشرح الكامل للشرعة المحمدية الإسلامية) لإمام الأئمة العارف المحقق مولانا محيي الدين بن العربي المعروف بالشيخ الأكبر. ط. دار صادر في أربعة مجلدات.
- ١٠- الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية لإمامنا عبد الكريم الجيلبي. ط. دار الكتب العلمية بيروت، ط. دار الفكر بالقاهرة.
- ١١- كتاب المواقف الإلهية والفيوضات السبوحية للعارف الكامل سيدي عبد القادر الجزائري. ط. دار الكتب العلمية بيروت.
- ١٢- الأخلاق المثبوتة للإمام العارف عبد الوهاب الشعراني. ط. دار الكتب العلمية بيروت- تحقيق المزيدي.

- ١٣- الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق للإمام
الشعراني. ط. دار الكتب العلمية - تحقيق المزيدي.
- ١٤- كتاب جامع أصول الأولياء وأنواعهم للشيخ أحمد النقشبندی ط. دار الكتب
العلمية - تحقيق المزيدي.
- ١٥- تنبيه المغترين وبلية الكشف والنبين في غرور الخلق أجمعين للإمام
الشعراني والإمام حجة الإسلام الغزالي. ط. دار المعرفة - بيروت.
- ١٦- لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية للإمام العارف عبد
الشعراني، دار الكتب العلمية بيروت.
- ١٧- جامع كرامات الأولياء للعلامة المحدث الصالح الشيخ يوسف النبهاني. ط.
دار الكتب العلمية بيروت.
- ١٨- إيقاظ الهمم في شرح الحكم للعارف أحمد بن عجيبة الحسني. ط. دار
جوامع الكلم بالقاهرة.
- ١٩- حل الأفقال لقراء جوهرة الكمال، سيدي محمد بن فتحا كنون، ط. دار
الكتب العلمية - بتحقيقنا.
- ٢٠- نصره الشرفا في الرد على أهل الجفا لابن المشري السائحي، ط. دار
الحقيقة - بتحقيقنا.
- ٢١- جواهر المعاني وبلوغ الاماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني. سيدي
علي حرازم برادة القاسي، ط. دار الكتب العلمية.

فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

المقدمة.....	٣
ترجمة الشيخ المصنف القطب الوارث سيدي محمد بن المختار التجاني الشنقيطي	
.....	٦
ترجمة الشيخ الراوي جامع «الواردات».....	٩
مقدمة الشيخ المصنف.....	١١
الجزء الأول.....	١٥
مراتب الأولياء.....	٢٩
التسليم للأولياء.....	٣٠
خاتم الأولياء.....	٣١
فصل.....	٤٤
ظهور المصطفى ﷺ للمصالحين بصور مختلفة كالرؤية المؤولة.....	٤٦
المعرفة الخاصة.....	٥٧
الأبوة الروحية.....	٦٢
العلو للحق علو ذاتي لا يقابله سفل.....	٧٢
التفاوت في المعرفة.....	٧٣
من الوصايا.....	٧٦
معرفة الزمان وأهله.....	٩٠
إيثار الخلق للدنيا.....	٩٣

٩٩.....	الفقه والفهم
١٠٢.....	تتريه الحق عز شأنه
١٠٧.....	تقديم الأهم على المهم
١١٠.....	اختلاف المشارب
١١٢.....	سر نيابة الأرض عن الماء في التجم
١١٣.....	إذا تعارض أمر ونهي
١١٨.....	ومما كتب به لبعض تلاميذه
١٢٦.....	ومما كتب به إلى بعض الأحياء
١٤٠.....	صورة تحشية
١٦٣.....	الجزء الثاني
١٦٨.....	ياقوت
١٦٩.....	ذر
١٦٩.....	جواهر
١٧٠.....	بلخش
١٧٠.....	مرجان
١٧٠.....	لولؤ
١٧١.....	ماس
١٧٤.....	انطواء العوالم في الإنسان
١٧٩.....	الاقتداء الباطن بالمصطفى ﷺ
١٨٥.....	العبادة والرضا والتسليم
١٩٩.....	للمعرفة مرتبة معلومة ومرتبة مجهولة

٢٠٤	العقل الأول وصورة آدم
٢٠٦	ما يجول في الفكر
٢٠٨	الإسلام والإيمان والإحسان
٢٢٩	لكل شيء حقيقة
٢٤١	التجليات الإلهية
٢٤٢	حقيقة الإنسان
٢٤٣	فأينما تولوا فثم وجه الله
٢٤٥	أكل مال اليتيم
٢٤٦	الجهل بكنه ذات الله إيمان، والجهل بكماله تعالى كفر
٢٤٩	ظهور الوجود المطلق المتمزه
٢٥١	العقل لا يحمل في الزمن الواحد إلا علمًا واحدًا
٢٥٥	ما يعلم كنهه وما لا يعلم
٢٥٦	الإيمان بالقلب والنطق باللسان
٢٥٩	شهود العارفين في أحكام الشريعة
٢٦٣	سر نيابة الأرض عن الماء في النسيم
٢٦٤	وجعلنا من الماء كل شيء حي
٢٦٦	هو الظاهر والباطن
٢٦٧	منبت الزرع هو الله وحده
٢٦٨	آيات الله في الأفاق وفي الأنفس
٢٧٢	عوالم الإنسان
٢٧٣	الإنسان الكبير - العالم

٢٧٤.....	فصور العقل عن إدراك الحقيقة
٢٧٥.....	الفصور عن معرفة كنه الذات
٢٧٩.....	من إشاراته ﷺ
٢٨٠.....	طلب العلوم مركوز في النفس
٢٨١.....	العقل والوهم
٢٨٣.....	الشيخ والد الروح وأدب الاتباع
٢٨٤.....	الحكمة
٢٨٥.....	كان لا يحد أحدًا على نعمة
٢٨٥.....	التعبير عن مظاهر حضرات الأسماء
٢٨٦.....	الانتقال من مذهب إلى مذهب
٢٨٦.....	وحدة الوجود
٢٨٧.....	الحقيقة المحمدية
٢٩٢.....	مرتبة الختمية
٢٩٥.....	فهرس بأهم المصادر والمراجع
٢٩٩.....	فهرس المحتويات

الواردات

أو

الدر المنظوم

من فيوضات وارث القطب المكنوم

سيد أحمد التجاني

إن كتاب "الدر المنظوم من فيوضات وارث القطب المكنوم" المعروف بـ "الواردات" موضوعه معارف وعلوم وأسرار وحقائق أنوار الفوت الفرد سيدي أحمد التجاني (المتوفى سنة ١٢٣٠هـ)، التي قام بإيرادها السيد الشنقيطي محمد بن السيد المختار الشريف الحسني التجاني. ثم رواه وجمعه عنه سيدي العارف بالله الفكي الحسن بن عبد القادر بن إدريس الجعلي الجودلاني العباسي التجاني. فجاء الكتاب باكورة حاوية وكوكبة نادرة كمشكاة في حلة فاخرة، لما لا يخفى عليها أنها للعقول باهرة وللقلوب أسرة. هذا وقد قام المحقق بتصويب الكثير من الألفاظ التي كانت واضحة الخطأ والاضطراب، وقد بذل الجهد الواسع في كثير من المواضع لدى النص حتى قاربت الصواب.

ISBN-13: 978-2-7451-7704-9



9 782745 177049

Beaumont Lebanon

بيروت - لبنان

كتاب - ناشرون

tel: +96176 944835 P.O.Box: 11- 224 Ryad Al-Soloh

E-mail: books.publisher@hotmail.com



BOOKS - PUBLISHER